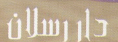
هاري ساغز

عظمة آشور

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان سبانو



عظمة آشور

تأليف

هاري ساغز

ترجمة

خالد أسعد عيسى

أحمد غسان سبانو

عظمة آشور

تأليف: هاري ساغز

ترجمة: خالد أسعد عيسى / أحمد غسان سبانو

الطبعة الأولى: ٢٠٠٨.

عدد النسخ: ١٠٠٠ نسخة.

جميع العمليات الفنية والطباعية تمت في:

دار ومؤسسة رسلان للطباعة والنشر والتوزيع

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار ومؤسسة رسلان

للطباعة والنشر والتوزيع

سوريا - دمشق - جرمانا

هاتف: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٢٧٠٦٠

فاكس: ٠٠٩٦٣ ١١ ٥٦٣٢٨٦٠

ص. ب: ٢٥٩ جرمانا

المقـــدمـــة

جَرت العادة تقديم تبرير إيضاحي لأي كتاب من نوع كتابنا هذا، فالسبب الموجب لكتابة هذا الكتاب بسيط، فلقد قضيت حوالي نصف عمري في دراسة موضوع الآشوريين، ولهذا أود أن أتميَّز بإشراك الآخرين في معرفة بعض الفوائد التي وجدُتها بعد دراسة أحوال ذلك الشعب.

والحقيقة أن القارئ سرعان ما سوف يدرك أنني أحب الآشوريين حقاً، مع ما فيهم من سلبيات وإيجابيات دون الشعور بوجوب الاعتذار عن هذا الحب، ومع أن الآشوريين شأنهم شأن الشعوب الأخرى القديمة والحديثة قد أظهروا أساليب لا نعتبرها الآن لائقة في تعاملهم مع بني البشر حولهم، إلا أنني لا أشعر بأي حرج عند الترويج لفكرتي وصوابها عن طريق تقديم الحكم على كل فعلٍ فعلوه، وكل موقف اتخذوه على أساس معتقدات دينية قويمة أو ليبرالية متداولة.

إنني أعلم علم اليقين أن هناك كثيراً من الموضوعات التي قد حُذفت وكان من الأجدر مناقشتها، إذ إن لدي ملاحظات تحتوي مواد رُبما تؤلف كتاباً ضعف حجم هذا الكتاب، غير أنه من الواجب أن نضع حدَّاً لممارسة أي عمل، لأني عند اختياري لما يجب مناقشته توَّخيتُ أن أُركّز على الشؤون التي يسهل إثباتها وعلى المناطق المتصلة بالعالم الحديث بشكلٍ أكثر وضوحاً وعلى الموضوعات التي تبدو أكثر مُتعةً وإمتاعاً.

ولكن من الواضح أن لا تلتقي هذه المعايير الثلاثة دوماً ولذلك كان من واجبي أن أُضحي بواحدٍ منها أو أكثر.

ربما كان من الأجدى قول كلمة حول التواريخ، إذ إننا نجد كُتاباً آخرين يقدمون بعض تواريخ تختلف عن تواريخي بالنسبة للألف الأول قبل الميلاد بواقع سنةٍ أو سنتين، وبالنسبة للألف الثاني قبل الميلاد بواقع عقد أو أكثر، وبالنسبة للألف الثالث بواقع قرن واحد، ويعود وجود مثل هذه الفروق إلى الطريقة التي تتلاحم فيها مجموعات الشواهد التي قلّما تتواجد فيها تلك الحقيقة المطلقة

(باستثناء الظواهر الفلكية) وفي رأيي أن التواريخ الدقيقة ليست ذات أهميَّة شريطة وضوح تعاقب الحوادث نسبياً.

ولكن التواريخ تؤلف كياناً مفيداً يُجبرني على تقديمها بحرية نسبياً.

هذا، وسوف يلاحظ أولئك المتمرسون بمناقشة تواريخ منطقة ما بين النهرين أنني قد اتبعتُ النظام الذي اتبعه أستاذي السابق المحترم سيني سميث، وأتمنى لو كان باستطاعتي أن أتمكن من الموضوع كما فعل، حيث لا يستطيع أحد غيره أن يفعل ذلك، ولهذا فإن جميع التواريخ المتعلقة بآشور القديمة ينبغي أن يكون من المفهوم بأنها ترجع إلى فترة ما قبل الميلاد دون وجود أي دلالات خاصة.

وفي بعض الحالات أشير إلى أي تاريخ ذي علاقة بمنطقتنا، وخوفاً من وقوع بعض الإشكالات البسيطة، أضيف كلمتي ب. م أي: بعد الميلاد.

وليس بإمكاني أن أنهي هذه المقدمة دون التنويه بشكري وامتناني لزوجتي التي كان لروحها المتفائلة التي لا تتوقف ولحماسها وآرائها العملية، ما عزَّز تلك المتعة والاهتمام بالقيم طيلة تلك الرحلات العديدة التي قمّنا بها معاً إلى بلاد آشور، وفي آشور نفسها، خلال سنوات وسنوات.

هاري ساغز

Hary Sags

الفصل الأول

آشور. الخلفية – والبدايات

لا بُدّ أن القُرَّاء في العالم الغربي قد سمعوا بالآشوريين فيما ذكرته التوراة عنهم، فقد أشارت إليهم التوراة بأنهم القوة الإمبراطورية التي قضت على مملكة إسرائيل، وأوقعت ما يسمَّى بالقبائل العشر في الأسر.

وبعد جيل من ذلك التاريخ قام الآشوريون بمهاجمة أورشليم عاصمة ما كان يسمَّى دولة يهوذا، ذلك الهجوم الذي أوحى إلى الشاعر بايرون نظم قصيدته التي تبدأ بـ: هجم الآشوريون كالذئاب على قطيع الغنم.

وكانت كتائبهم الحربية تلمع بالألوان الأرجوانية والذهبية.

ونتيجة لما ذكرته التوراة وما ذكره الشاعر بايرون، فقد وُصِم الآشوريون بالنسبة للعالم المتكلم باللغة الإنكليزية بصفاتهم البربرية الخالية من الشفقة والرحمة، كما وصفوا بالضرر والخبث.

والحقيقة أنهم كانوا خشنين وقساة وغلاظ القلوب عند محافظتهم على النظام، ولكنهم كانوا حماة للمدنية ولم يكونوا مخربين أو برابرة.

لقد حدثت فصول حوادث أورشليم خلال قرن اختفى فيه الآشوريون نهائياً كشعب مميَّز، ولكن معظم ما ميَّز الآشوريين في تاريخ العالم كان له جذوره خلال ألف سنة أو ما يزيد ظهرت فيها هويتهم الوطنية التي كانت خلفهم عندما هاجموا فلسطين.

الإطار الجغرافي

لقد كانت الإمبراطورية الآشورية في أقصر امتدادها واسعة، فقد امتدت تلك الإمبراطورية لمدة قصيرة خلال تلك الفترة التوراتية من مصر من جهة إلى بلاد العجم (إيران) من الجهة الأخرى، والحقيقة أن الوطن الآشوري المركزي الذي

سيطر على أراضي الشرق الأدنى كان منطقة صغيرة جداً، فلم يكن أكبر من منطقة انجليا الشرقية أو ويلز في بريطانيا أو فلسطين، أو ولاية كونيكتكوت في أمريكا.

فلقد كانت آشور أصلاً تضم الأرض الممتدة على طول نهر دجلة الأوسط، وكانت حدودها الشمالية ممتدة من شمال الموصل حيث سفوح الجبال لتصبح سهلاً، وأما جنوباً فقد امتدت إلى مسافة مئة وثلاثين ميلاً شمال غرب بغداد، في منطقة ينساب فيها نهر دجلة خلال سلسلة من التلال تدعى جبل مخول غرب دجلة، وجبل حمرين إلى الشرق، ويقع إلى غرب دجلة سهل واسع (وهو عبارة عن هضبة منخفضة من الحجر الكلسي) يدعى: منطقة الجزيرة، حيث هناك سلسلة جبلية تدعى: جبل سنجار في نهايتها الشمالية، وتمتد منطقة الجزيرة دون أي تقاطع شرقي غربي حتى نهر الخابور، وفي هذا السهل المفتوح أمام البدو الرُّحَّل من جهة الصحراء السورية كان امتداد السيطرة الآشورية في أي وقت من الأوقات يعتمد على القوة العسكرية والتصميم والعزم الآشوري.

وفي الجهة الجنوبية الشرقية لهذه المنطقة وعلى محاذاة نهر دجلة كانت تقع مدينة آشور وهي أقدم عواصمهم.

وفي المنطقة الشرقية داخل بلاد آشور كان هناك رافدان رئيسان لنهر دجلة وهما يحملان اسم الزَّاب، وكان الزاب الأصغر أو الأدنى يلتقي بدجلة شمال جبل حرمين، بينما كان الزاب الأكبر أو الأعلى يرفد دجلة على بُعد خمسة وعشرين ميلاً منحدراً من الموصل.

وتؤلف سلاسل الجبال العالية التي يبدأ منها نهر الزاب منطقة ربع دائرية تحيط بدولة آشور من الشرق والشمال.

وهكذا وبينما نجد هناك سهلاً منفرداً إلى الغرب من دجلة، إلا أن آشور الشرقية تتقسم إلى ثلاث مناطق، فالقطاع الأول: عبارة عن سهل واقع بين الزاب الأكبر والجبال الشمالية، وهذا ما جعل نينوى أعظم مدينة في الأزمنة القديمة، كما هو الحال بالنسبة إلى الموصل في هذه الأيام.

أما القطاع الثاني: فهي المنطقة الواقعة بين الزابين ومركزها أربيل، وكان هذان القطاعان دوماً ابتداءً من الزمن الذي ظهرت به آشور هما العنصرين الرئيسين في دولة آشور.

أما القطاع الثالث: فهو المنطقة الواقعة جنوب الزاب الأصغر الممتدة حتى جبل حرمين، وتضم هذه المنطقة كركوك وهي الآن مركز آبار البترول، أما في الأزمنة القديمة فكانت تدعى أرابخا **Arabkha** ولكن دولة آشور لم تسيطر على هذه المنطقة، وكانت أرابخا وأربيل ونينوى مع مدينة آشور الواقعة على الضفة الغربية لنهر دجلة، هذه المدن كانت هي المدن الرئيسة المهمة، وذلك لأن دولة آشور كانت على الغالب مؤلفة من مناطق ريفية.

وباعتبار هذه الأقسام الرئيسة الأربعة لم تكن آشور عبارة عن وحدة جغرافية متكاملة، فقد كانت هنالك فروق بارزة ذات علاقة بالأرض والمناخ موجودة بين كل جزء من هذه الأجزاء والجزء الآخر.

ولكن ومن جهة أخرى فقد كانت الجهات الرئيسة الأساسية متشابهة بحيث تصبح المنطقة بأكملها بلاداً واحدة منفصلة ومتميزة عن المنطقة الواقعة جنوبها، وفي معظم أراضيها كان معدل هطول الأمطار كافياً للزراعة دون اللجوء إلى عمليات الري وذلك على الأقل في السنوات الخصبة الجيدة، مع أنه وبالنسبة إلى المناطق الجنوبية القصية في آشور كان الوضع الزراعي هامشياً يتصف بتخلف وقصور زراعي أثناء الفصول الرديئة المحاصيل.

وإذا تابعنا الاتجاه جنوباً فيما وراء خط عرض جبل حرمين ينخفض معدل هطول الأمطار الكافي لنمو الحبوب دون اللجوء إلى عمليات الري، وفي نفس منطقة خط العرض هذه هناك تغيرات في التربة وذلك لأن سهول آشور هنا معرضة لوجود الطمي الذي يسببه مجرى نهر دجلة، وتتحد هاتان الميزتان لإنشاء حدود جغرافية فيما بين آشور والأراضي المجاورة في الجنوب.

وخلال الألف الأولى والثانية قبل الميلاد كانت تلك الأراضي الجنوبية تعرف باسم بابل، وفي زمن أقدم كانت تعرف باسم أكاد وسومر (وهما نصفاها

الشمالي والجنوبي) ولم تكن الحدود ما بين آشور وبابل في الأزمنة القديمة لتتبع الحدود الطبيعية، ولكنها كانت تتقدم وتتراوح إلى الأمام والخلف طبقاً لمقادير حياة الدولتين، هذا وتبقى الميزات الجغرافية التي تميز آشور عن بابل واضحة في هذه الأيام، فالرحلة في فصل الربيع من بغداد وهي عاصمة العراق الحديثة وخلال منطقة بابل القديمة إلى الموصل التي تقع قرب عدة عواصم آشورية تقود السائح إلى منطقة مختلفة، ففي منطقة بغداد جنوباً تصبح الزراعة السائدة هي زراعة أشجار النخيل، وليس هناك من غطاءٍ عشبي عدا المناطق التي تكثر فيها الحدائق والمزارع، فالأراضي تبدو منبسطة في الأفق، وفي معظم أوقات السنة تصبح الأرض المعرضة لحرارة الشمس قاحلة وميتة ولا سيما حيث لا تصل إليها أقنية الري، ولكن عندما يقترب السائح من الموصل يجد هناك تغييراً جذرياً،فالأراضي المنبسطة تتحول إلى سهول منخفضة، وفي فصل الربيع تصبح خضراء بما تحمله من محاصيل الحبوب والمراعي المزدهرة بما فيها من الأزهار والأعلاف، وتخترق الوديان تلك السهول المتماوجة وتمتلئ تلك الوديان بالمياه بعد سقوط أمطار الربيع حيث ترى سلاسل التلال العالية في الأفق، وهنا يشعر السائح أنه قد وصل إلى آشور.

وتعتمد القوى الرئيسة في آشور القديمة على أراضيها الخصبة المزروعة بالذرة، ففي كل منطقة من مناطق آشور هناك بقع من الأرض مزروعة بالذرة، ولكن هناك منطقتين كبيرتين بصورة خاصة متميزتين بالقدرة على الإنتاج وقد كانتا دوماً بهذا الشكل إحداهما سهل أربيل الذي يوصف بأنه أفضل منطقة منتجة للقمح في العراق، أما المنطقة الثانية فهي منطقة سهل الموصل، وإلى الغرب من نهر دجلة هناك حزام مزروع بالذرة الجيدة، وفي الجزيرة الواقعة إلى الجنوب من جبل سنجار يستطيع المرء أثناء السنوات الخصبة رؤية نبات الشعير النامي في ذلك السهل، مع أنه يقل حالما ينتقل المرء إلى الجنوب حتى يصل إلى الخط الواصل بين الحرة وقلعة شرقاط (وهي موقع عاصمة آشور القديمة).

وتذكر التوراة شيئاً عن أصل مملكة آشور ولكن باختصار، ويذكر في سفر التكوين رقم (١٠ و ١١) أن مملكة نمرود كانت تتألف من بابل وأريشن وأكاد وكلانة وكلها واقعة في أرض شنعار، ومن تلك الأرض هاجر نمرود إلى آشور وبنى نينوى وقلعة كالخ **Calah**، وليس هناك سوى قلة من علماء آثار آشور مستعدين للدفاع عن تلك التفاصيل، ولكن وبالنسبة لآشور فإن الملابسات الرئيسة متفقة مع ما نعرفه من علم الآثار، فشنعار ما هي إلا صورة طبق الأصل عن سومر التي كانت هي الاسم القديم لأقصى جنوب العراق التي يرويها النهران العظيمان دجلة والفرات، ففي سومر بالذات بدأت الحضارة الأولى، وفي حوالي عام ٣٥٠٠ ق.م. ولا نعرف إلا القليل عن المكان الذي أتى منه السومريون فيما لو كانوا حقيقة مهاجرين أم كانوا من أهل البلاد الأصليين، ولكننا نعرف الكثير عن حضارتهم القديمة في جنوب العراق.

وكانت إحدى مراكزهم الثقافية تدعى: أوروك، وإن اسم أيرشين التوراتي هو شكل من أشكال هذا الاسم، وكانت نينوى وكالا عاصمتين آشوريتين في أزمان مختلفة، وكانت الأولى أقدم عهداً من الثانية ولكن مؤسسها المزعوم هو نمرود الذي يُعد أحجية من الأحاجي، وإن اسم آشور (الذي نُقّل على شكل اسهور أو اسشور أو أسور) ربما انطبق على اسم البلاد ككل، أو على اسم أقدم عاصمة من عواصمها، أو على اسم الإله الرئيسي فيها، مع أن ذكرها في التوراة يدل على البلاد فحسب.

هذا وقد انتشرت الحضارة السومرية في أعالي الفرات ودجلة . وإن المقولة التوراتية حول الهجرة من شنعار إلى آشور ما هي إلا انعكاس للحقيقة التي مفادها: إن أصول الحضارة الآشورية كانت على الأغلب من سومر.

لاحظ استعمال كلمة على الأغلب، فلقد كانت الأحوال الجغرافية شديدة الاختلاف بالنسبة إلى المنطقتين بحيث كان من الصعب انتقال الحضارة السومرية دون تغيير أو تبديل إلى آشور.

ولكن ظهرت عوامل جديدة لعبت دورها، فلقد كانت هناك وسيلة سهلة للاتصال عن طريق وادي نهر الخابور مع سورية ومع منطقة البحر الأبيض المتوسط والأناضول (أواسط سورية) وراء ذلك، ولقد فتحت هذه الطريق في جميع الأزمنة وسائل التواصل فيما بين آشور وأجزاء الشرق الأدنى الأخرى مما سبب حدوث نتائج ثقافية، فنحن نعلم الآن أنه قد حدثت تطورات مرموقة في الحضارة في فترة مبكرة في سورية الشمالية ظهرت آثارها في آشور، إذ لم تكن التلال والجبال المحيطة بآشور من الشمال والشرق خالية من السكان لتشكل حواجز تامة تمنع الاتصال مع الأراضي حولها (وهي التي تدعى الآن تركيا وإيران) وهكذا أصبحت آشور مفتوحة لتلقي التأثيرات ذات الأنواع المختلفة من تلك الجهات أيضاً.

فترة ما قبل التاريخ

إن للمناطق المتاخمة لشمال وشرق آشور أهمية رئيسية بالنسبة للتاريخ البشري ككل فضلاً عن صلتها بتاريخ آشور، وتختص أهميتها على المدى الواسع ببداية القرى والزراعة.

وبالنسبة لأية فترة واقعة قبل عشرة آلاف عام قبل الميلاد، فلا يلزم أن نتحدث عن وجود قرى في أو حول آشور أو في أي بقعة من بقاع العالم، فقد كانت الكائنات البشرية لا تزال عبارة عن مخلوقات نادرة الوجود، فعلى سفوح التلال كانت الكائنات البشرية أقل وجوداً من الأغنام البرية والماعز، بينما قلما كانت هذه الكائنات البشرية ترى في سهول آشور عدا عن وجودها أثناء حملات صيد الحمر الوحشية التي كانت ترعى النباتات حتى بداية القرن العشرين بعد الميلاد.

ثانياً: كانت مثل هذه الكائنات تعيش على صيد الحيوانات وجمع النباتات البرية والبذور والفواكه بحيث لم يكن هناك من جامع يجمعهم بشكل دائم في بقعة معينة، ولا يمكننا إنكار وجود قواعد موسمية بشكل كهوف أو مواقع في الهواء الطلق أو مساكن تعود إلى العهد الأول من العصر الحجري، وهي معروفة قرب السليمانية وراوندوز **Rowandoz** بينما عثر على موقع في الهواء الطلق إلى

الشرق من كركوك، وعلى كل حال فإن عدم وجود الزراعة يُسقط من وجود المستوطنات الدائمة، فهناك موقع على ضفاف الفرات في سورية بُنيت فيه المستوطنات الدائمة قبل أن يبدأ الإنسان في ممارسة الزراعة المبكرة أو تربية الحيوانات، ولقد باتت الخطوة الأولى تجاه الزراعة تُعد أكبر تغيير حدث في أساليب البشر المعيشية نحو عام ٩٠٠٠ ق.م.

وتتراكم الشواهد حول المراحل الأولى لهذا التطور بشكل سريع من المواقع المكتشفة حديثاً في فلسطين وسورية، وفي مواقع ومناطق واقعة شمال وجنوب جبال طوروس، وعلى طول الجانب الغربي لزاغروس، ولقد نمت أنواع مختلفة من النباتات التي أصبحت في أشكالها المدجّنة من الأغذية الأساسية في العالم الغربي في هذه الأيام، وأهم هذه النباتات وبصورة خاصة القمح البري والشعير البري والبقول المختلفة، وقد كانت الأغنام البرية والماعز تتجول في تلك المنطقة نفسها ، وبالتدريج بدأ الناس القاطنون على سفوح الجبال في ممارسة زراعة النباتات المغذية، ولا تزال الأنواع البرية الأصلية للقمح والشعير تنمو في بعض الأجزاء النائية من سفوح التلال، ولقد استطاع علماء الوراثة النباتية تتبع التغييرات ابتداءً من الأشكال البرية إلى الأشكال المعروفة التي وجدت في المواقع المكتشفة.

ولقد وصل تدجين الأغنام البرية والماعز مرحلة مرموقة في نفس تلك الفترة مع أنها لم تكن من المجموعة نفسها من الناس، أو مع أنها ربما لم تكن بدعة مفاجئة، ومن الممكن أن يكون الصيادون قد تعلموا خلال ألف سنة تنظيم حركات قطعانهم والحيوانات التي اصطادوها، وحصر الحدود التي تتجول فيها تلك الحيوانات، وإن توسيع هذا المجال بشكل عقلاني بقصد وضع قطعان المواشي تحت المراقبة سوف يصبح بداية عملية التهجين والانتقاء ، وذلك إما بذبحها أو إطلاق سراح الحيوانات التي لا يمكن ضبطها لتذهب إلى البراري، وهنا تنتج فعلاً سلالات منتقاة للحصول على نوع من الحيوانات سهلة القيادة.

ويشار إلى هذه التطورات أي: ضبط المواد الغذائية نظراً لأهميتها بأنها ثورة العصر الحجري الحديث، ولكن السلم الزمني يجعل اصطلاح الثورة غير

مناسب، ولقد انتشرت هذه التغييرات خلال ألوف السنين ، هذا ولم تستطع عملية رعي المواشي وزراعة الحبوب أن تحل محل المصادر القديمة لانتاج الطعام خلال عقود أو حتى قرون، والحقيقة أنه ولمدة فترة تقاس بألوف السنين بدلاً من مئات السنين، فإن عملية الصيد قد بقيت ذات أهمية مرموقة لأجل زيادة كميات المواد الغذائية.

وتعكس هذه الآثار في الحقيقة التي مفادها أن عملية الصيد بقيت عبارة عن نشاط شعائري مهم يُظهر حق الملوك حتى نهاية الإمبراطورية، بينما كانت عملية صيد الأسماك (التي تختلف عن عملية تربية الأسماك) شكلاً من أشكال الصيد التي لا تزال من المصادر الرئيسة للحصول على الطعام.

ومع ذلك فقد أصبح إنتاج الطعام الطريقة السائدة للمعيشة في سفوح التلال الملاصقة لآشور، وحالما حدث هذا فقد حدثت حتماً نتائج أبعد تأثيراً، ولشدة التناقض فقد اشتملت هذه النتائج على أمرين متناقضين الاستقرار والهجرة، فمن جهة أولى فقد ربطت الأعمال الزراعية (مع أنها لا تشمل تربية الأغنام والماعز) الأفراد المختصين لخدمة مساحة خاصة من الأرض، وكنتيجة لذلك نمت المستوطنات الدائمة - بشكل قرى وبعدها مدن- ومن جهة أخرى فإن تقنيات التدجين الجديدة كانت تعني أن لا ينحصر الإنسان في موطن معين عند عمله في تربية الأغنام والماعز، إذ من الممكن إطعام هذه المواشي وتربيتها في أي مكان مناسب حيث يوجد الكلأ المناسب.

وكذلك فإن محاصيل الذرة من الممكن إنماؤها بعيداً عن المستوطنة الأصلية حيث توجد التربة مع كميات من المطر كافية، وهكذا لم يعد الناس مرتبطين بنوع خاص من الأراضي والمناطق، فأصبح استعمار السهول الآشورية ممكناً، وهكذا نشأت في هذه الطريقة أولى القرى في تلك المنطقة.

ولقد كانت لهذه التغييرات نتائج مرموقة على كل من السكان البشر وعلى المؤسسات البشرية الاجتماعية، فقد أصبح الإنسان والحالة هذه قادراً على توسيع مدى نفوذه لاسيما بعد تطوير أدوات الري، فأصبحت منطقة معينة من الأرض

قادرة على إعالة أعداد أكثر من البشر بعد إعطاء القدرة لعدد أكبر من السكان على استثمار مناطق كاملة من المستوطنات، وهكذا فعند ازدياد عدد السكان في مستوطنات بعينها توجب إيجاد مؤسسات اجتماعية قادرة، بينما أصبحت زيادة عدد المستوطنات قادرة على جلب نوع من البنى التحتية، وعلى تنظيم قواعد السلوك عند هؤلاء، وذلك بقصد تقليل عدد الخصومات.

وعندما امتلكت العائلات أو المستوطنات المؤلفة من مجموعات من العائلات مخازن القمح وقطعان المواشي فقد أصبح من الواجب أن يستطيعوا حماية أنفسهم ضد المجموعات الأخرى من البشر الذين كانت تعوزهم تلك المخازن والقطعان، وكان هؤلاء ينظرون بأعين فارغة جائعة إلى تلك الممتلكات، وهذا ما أدى إلى ظهور المؤسسات الاجتماعية للدفاع والحرب، وبهذا نجد أن تهجين النباتات والحيوانات قد عدَّل وأملى أشكالاً في المجتمعات الأولى.

وتبع ذلك تغييرات أخرى، فقد دعت الحاجة عندها لاستخدام الأدوات والأواني لخزن الفائض من الطعام، وكان هناك عدة مواد متواجدة تحت الطلب ابتداء من الحجارة التي كان من الممكن اقتلاعها حتى القصب المجدول، ولكن سوف تظهر مادة مناسبة بشكل أكثر لتستعمل بشكل عام حالما يتم اكتشاف الحقيقة التي مفادها أن الغضار إذا تعرض للنار فإنه يصبح قاسياً ضد الماء وأطول دواماً، هذا وقد استعمل الإنسان النار منذ عهد بعيد قبل وقت طويل من تدجين مواد الطعام والحيوانات، ولكننا لا نعلم متى حدث استعمال النار في صنع الفخار، فمن المحتمل أن ذلك الاكتشاف قد حدث من خلال احتراق القصب أو حاويات القصب من السلال المبطنة بالغضار، وهكذا بدأ عصر الفخار بهذه الطريقة.

ولقد تبع ذلك عدة نتائج، فقد أدت الحاجة إلى وجود نارٍ حامية من الممكن السيطرة عليها، والتي تنتج درجات حرارة عالية وذلك لانتاج الأواني الفخارية الجيدة، أدى ذلك إلى تطوير صنع المواد القادرة على إنتاج حرارة هائلة، وهذا ما

أعطى الوسيلة التي استطاعت بها الأجيال القادمة القدرة على صهر المواد المعدنية الخام.

وتأتي الشواهد الأولى على هذه التطورات في منطقتنا من مواقع زاوي وتشيمي وشانيدار، فالموقع الأول على بعد ١٥ ميلاً إلى الشمال الشرقي من أنقرة ، وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً من سهل الموصل قد حدد تاريخه عن طريق تحليل الكربون بواسطة الأشعة السينية بحوالي (٩٠٠٠) عام ق. م، وكانت المساكن هناك عبارة عن أكواخ دائرية بُنيت جدرانها من جلاميد النهر، وتظهر الأدوات الحجرية أن بعض المنتوجات النباتية قد زرعت لاستعمالها كطعام، مع أننا في الوقت الحاضر ليس لنا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كانت هذه المنتوجات من الحبوب أو حبوب البلوط أو الجوز أو المكسرات الأخرى المتوفرة في تلك المنطقة.

وأما الصيد فلا يزال المصدر الرئيس للحصول على الطعام مع أن هناك بقايا الأغنام وعظامها تدل على ترويض الأغنام مما يظهر أن تربية الماشية قد بدأت.

وأما (شانا دار) قرب رواندوز فهو عبارة عن كهف يعود إلى نفس فترة زاوي تشيمي، وهناك إمكان اتصال هذين الموقعين وذلك لأن شانيدار من الممكن أن تكون الملجأ الشتوي للأشخاص الذين كانوا يقضون الصيف في زاوي تشيمي، وهذا الموقع مهم بالنسبة لنا لكونه يعطينا فكرة عن الاتصالات السائدة، وقد وجد هناك على السبج وهو صخر بركاني زجاجي قاسٍ جذاب يستعمل في عمل أدوات الزينة: ولما لم يكن هناك أي مصدر للحصول على ذلك الحجر أقرب من منطقة بحيرة فان الواقعة على بعد أكثر من مئة ميل إلى الشمال فوق أراضٍ جبلية صعبة لذلك فلا مانع من وجود نوع من التجارة والصلات التجارية فيما بين هذه المناطق.

نستطيع تتبع عمليات التطور في ضبطِ مواد الطعام من مواقع تعود إلى فترات مُتأخرة، ففي الحافة الشمالية لآشور عند جارمو إلى الشمال الشرقي من كركوك كان هناك مستوطنة تبلغ مساحتها من ثلاثة إلى أربعة فدادين قد احتلها الآشوريون ابتداءً من ٧٠٠٠ سنة ق.م فصاعداً، ويميل علماء الآثار لأن

يكونوا أكثر كرماً بالنسبة إلى الزمن وهم يفكرون أن هذا الزمن قصير بعد بداية عصر الزراعة، ولكن علينا أن نلاحظ أن فترة هذا التطور قد دامت مدة تقرب من مدة عصر المسيح حتى يومنا هذا، وقد كانت جارمو قرية صغيرة تحتوي على عشرين بيتاً أو ما يقارب ذلك وبها من السكان ما يقدر بمئة أو خمسين نسمة، وقد زرع هناك نوعان من القمح (يعرفان بالأمير والابن كورن) ونوع من الشعير وقد دلت بعض الشواهد على وجود ماعز مدجن وخنازير وكلاب في جارمو، ولكن من الغرابة عدم وجود أغنام مدجنة وذلك بشواهد من زاوي تشيمي، ولو كان عدم وجود هذه الشواهد مجرد حادث اكتشاف فإن المفارقة مع زاوي تظهر وجود عدة طفرات فجائية عند تدجين أنواع مختلفة من الحيوانات مع افتقار أهالي جارمو للأغنام.

أقدم القرى الأولى

وجدت أقدم أنواع المستوطنات في سهول آشور وسميت باسم موقع أم الدباغية على بُعد ١٥ ميلاً إلى الغرب من الحدود، أو ما يقارب ذلك على الحدود الجنوبية القاصية للمنطقة حيث من الممكن الزراعة بعد هطول الأمطار، وهناك اختلاف حول ما إذا كانت هذه مستوطنة زراعية، فهناك بقايا بيوت تدل على أن هذا الموقع كان مسكوناً باستمرار ولكن ليس من أول السنة إلى آخرها، ولكن العنصر الأساسي في حياة مستوطنات أم الدباغية كان الصيد مع وجود الهدف الرئيس وهو حمار الوحش، وهناك عدة شواهد تشير إلى هذا الاتجاه.

وتظهر الرسومات الجدارية في البيوت مشاهد الصيد وتشمل البنايات صفوفاً من القدور المستعملة لخزن الجلود (مع أن هذا الاستعمال لم يثبت تماماً) وقد وجد نحو سبعون في المئة من عظام الحيوانات في الموقع وكانت عظام حمر الوحش، ومعظم العظام الأخرى كانت عظام غزلان، مع أن هناك بعض عظام حيوانات مُدَجَّنة.

وهناك دلائل على تقنيات الصيد التي كانت تستعمل هناك وهي عبارة عن ألوف من كُرات من الغضار كانت تستعمل في المقاليع، ولهذا فمن الممكن لذلك أن لا يكون موقع أم الدباغية هو مستوطنة زراعية بل قاعدة للصيد، فإذا كان الأمر كذلك فإن هذه من المظنون أنها بُنيت من قِبَل شعب متحرك على سطوح التلال يريدون استثمار الحمر الوحشية التي كانت متواجدة في الجزيرة (وظلت حتى استنفذت في القرن العشرين).

ولقد وجدت مواقع لثقافة أم الدباغية إلى الشمال تجاه جبل سنجار، وما لم نُعدّ أم الدباغية نفسها مستوطنة زراعية، فإنها إحدى تلك المستوطنات، ويعد تل سوتو ممثلاً لأقدم مستوطنة زراعية مبكرة في السهول الآشورية مع وجود أول دليل مؤرخ من قبل الحفريات الروسية الذي يعود إلى حوالي عام ٦٠٠٠ ق.م، هذا ويعد تل سوتو من المستوطنات (وهي القرى الصغيرة) الخلفية التي تكمن وراء بعض التطورات في أمكنة أخرى، مثل كافال هويوك في الأناضول حيث نمت بلدة مساحتها نحو اثنين وثلاثين فداناً أو في أريحا في فلسطين.

ولقد سُبقت أول مستوطنات معروفة في آشور من قبل بعض القرى في فلسطين التي سبقتها زمنياً بمدة ألفي عام أو يزيد، وكذلك في الأناضول وإيران، ولكن ربما كان هناك بعض القرى المتقدمة والأقدم عهداً في آشور وهي أقدم من تلك القرى التي ذكرناها، لأنه من الواجب أن نتذكر أن معلوماتنا محدودة ومعرضة لضغوط من قبل البحوث في علم الآثار، مثلاً تقع مدينة أربيل في سهل تكثر مياهه، يعد الآن أفضل منطقة لزراعة الذرة في العراق، وهو على بعد مسيرة يوم واحد عن المناطق التي يمكن أن توجد فيها حتى الآن الحبوب البرية، والتي لا تزال نامية هناك، وإنه لتخمين معقول قولنا: إن أربيل كانت إحدى أقدم المستوطنات الزراعية الدائمة، ولكن أربيل كانت مدينة ناجحة جداً بحيث تعرضت للاحتلال باستمرار منذ نشوئها.

وهذا ما أنتج وجود روابٍ أو تلال كبيرة ضخمة (لا تزال مسكونة) وكانت المسافة عميقة من قمة التلة حتى الأرض البكر بحيث أصبح من المستحيل إجراء

أي حفريات من مستويات باكرة، وعادة ما يسمّي علماء الآثار بعض التجمعات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذه الكلمة أو الرطانة التي يفضل علماء الآثار استخدامها عندما يعنون المرحلة الثقافية) باسم ذلك الموقع الذي ثبتت معرفته لأول مرة، ولكن هذا العمل الملائم ربما كان مضللاً للرجل العادي نظراً لأنه يشجّع الانطباع بأن تلك المرحلة الثقافية كان لها ارتباط وثيق مع الموقع الأول الذي سُمّيت باسمه، ولكن غالباً ما أصبح حامل الاسم عبارة عن مستوطنة صغرى واقعة خلال منطقة صغيرة جداً، وهكذا حالما نستمر نحن الآن بالإشارة إلى مراحل ثقافة (تل حسونة وتل حلف) فلا ينبغي أن نفكر بها ونعدها أول المتطورين بالنسبة للمواقع التي تحمل تلك الأسماء.

تل حسونة

بعد تلك البدايات المُمَثلة بتل سوتو، فإن أول نموذج رئيسي للمستوطنات الزراعية المعروفة في السهول الآشورية هي ما تدعى (بالحسونة) وهذا الاسم مأخوذ من اسم تلة ترابية صغيرة واقعة على بعد اثنين وعشرين ميلاً جنوب الموصل، ولقد أظهرت الحفريات بعض المراحل الثقافية التي تعود في تاريخها في الوقت الحاضر إلى بضعة قرون واقعة بعد عام ٦٠٠٠ ق.م، وقد حدثت تلك الحفريات في الجزيرة إلى الشرق من أربيل.

وفي مجمع حسونة كانت الزراعة بالتأكيد من النشاطات الرئيسية حيث وجدت أشكال من الشعير وعدة أنواع من القمح، ولقد وجدت عدة أدوات مطبخية نموذجية في حسونة تشير أيضاً إلى استعمال الحبوب على مقياس واسع، فقد وجد نوع غريب من الصحون المسطحة ذات سطوح داخلية مثقبة كانت تستعمل لفصل الحبوب عن الحسك، وقد كان وجود الحيوانات المدجنة التي ظهرت عظامها والتي برهنت على وجود الأغنام والماعز والخنازير والأبقار، وإن وجود فلكات المغزل تشير إلى وجود إنتاج الأقمشة، ويشار إلى التجارة في مسافات طويلة بوجود حجارة الأولسيديان وبعض الأحجار الكريمة الثمينة، ولما كان أقرب مصدر

لبعض هذه المواد يبعد نحو مئتي ميل بعيداً عن الجبال، وسواء كانت هذه المواد قد حملها التجار المسافرون أو أنها انتقلت من مستوطنة إلى مستوطنة، إلا أن ليس لدينا أي واسطة لمعرفة ذلك، هذا وإن الاتصالات مع أي من هذه الأنواع ربما أسهمت في انتشار معرفة التكنولوجيا، مثلاً الإنتاج الزراعي أو وسائل البناء، وأعمال الري وصنع النحاس، ولقد وصل صنع النحاس إلى حسونة ومستوطناتها من أقصى الشمال.

وبحسب معرفتنا في الوقت الحاضر فإن أول استعمال للنحاس الذي كان يُطرق وهو بارد ويؤخذ من النحاس الوطني لعمل الأدوات الصغيرة، وحدث ذلك فيما بين عام ٧٥٠٠ و٦٥٠٠ ق.م في سايونو قرب ديار بكر، في جنوب شرقي تركيا وهذه كانت قريبة من السهول الآشورية ومن المصادر الآشورية للنحاس، ولقد حدثت عملية صهر النحاس من خاماته في كماتال هويوك الواقعة في أقصى غرب تركيا وربما كان ذلك بعد نحو ألف عام، فقد عرف استعمال النحاس بما فيه صهره مع أن ذلك كان على مقياس ضيق، وكان ذلك في أحد مواقع حسونة.

ولما لم يكن هناك أي مصدر من مصادر خامات النحاس في أي مكان قرب الموقع المشار إليه، فإنه من الواجب أن تكون آشور قد نالت قصب السبق بالنسبة للتقدم إلى العصر المعدني، وذلك بالاتصال مع الشعوب الواقعة في أقصى الشمال في سفوح تلال طوروس.

لا نعلم إلا القليل عن مجتمع حسونة ولكن هناك أمراً نقوله بكل ثقة وهو: إن بنيتهم الاجتماعية كانت مؤسسة على العائلة، وقد استنتجنا ذلك من كون بيوتهم عبارة عن مساكن صغيرة منفردة ولم تكن بنايات جماعية. ونحن نعلم أيضاً أنهم كانوا ملتزمين بالملكية الخاصة، نظراً لأنهم كانوا يستعملون أختاماً كان المقصد الأساسي منها تحويل الملكية.

وكانت مستوطنات حسونة محددة في المناطق ذات الهطول الكافي للأمطار اللازمة لنمو الحبوب، ومع ذلك فكان هناك في الجنوب، حيث لم يكن هطول المطر كافياً، أقوام آخرون قد طوروا أساليب بدائية للري وتدعى هذه المجموعات

باسم سامراء، ويختلف علماء طبقات الأرض فيما إذا كان هذا الاسم متميزاً عن حسونة أم لم يكن، وإن أحد هذه المواقع الذي حُدد تاريخه عن طريق فحص الكربون بالأشعة السينية (أوالتحديد الزمني) كما يحلو لعلماء الآثار أن يسموه عندما يسمحون للمرء أن يفترض بأنهم أصبحوا يقدمون تاريخاً مطلقاً) حُدد تاريخه بحوالي ٥٥٠٠ ق.م بالنسبة لأقدم مرحلة، وبعد ذلك حدثت تطورات معتبرة فأصبحت إحدى المستوطنات السامرية ذات اتساع كبير بحيث جاز لنا أن ندعوها بلدة صغيرة.

تل حَلَف

لقد طغى على مجموعات حسونة المحصورة في شمال العراق نوع من الثقافة الأخرى والتي انتشرت وعرفت باسم حلف، وكان انتشار حلف واسعاً ليس جغرافياً فحسب بل زمنياً أيضاً، إذ إنه غطى نحو ألف عام تقريباً ابتداء من منتصف الألف السادس فصاعداً.

ويقسم علماء الآثار هذه الثقافة إلى ثقافة مبكرة وثقافة متوسطة وثقافة متأخرة حلفية، ويشيرون إلى تطورات مرموقة حدثت بين ثقافة وأخرى، وكان لهذا الوضع علاقة بأغراضنا الحالية، فهو يدل أن ثقافة حلف لم تكن مجلوبة بشكل جاهز من أي مكان آخر بل إن المستوطنين بنوها بالتدريج وبنوا طريقة حياتهم بأنفسهم بشكل ميداني، ولقد ثبت هذا الاعتقاد وهو أن مستوطنات حلف لم تكن وليدة حسونة أو سامراء وذلك لوجود الفروق الظاهرة في أساليب صنع الفخار، وهناك شواهد إضافية تدل على أصول ثقافة حلف المستقلّة، وهي وجود الظواهر المعمارية التي تبين أن أبنية حلف كانت ذات أشكال تشبه خلية النحل مرتكزة على أسس حجرية، ولم يكن هذا الشكل معروفاً في أي ثقافة أخرى قبل التاريخ، ولكن فائدة هذه الأبنية غير معروفة وغير أكيدة، مع أن بعض العلماء يفسّرونها بأنها نوع من الأضرحة، ولكن ومهما كان عملها أو فائدتها،

فإن براعتها تظهر أن شعب حلف الأوائل كانوا من القادمين الجدد إلى آشور، وتثبيتاً لهذا القول وجود بعض مستوطنات حلفية على أرض بكر.

إن أول موقع حلفي معروف في آشور هو الأرباشية على مشارف نينوى القديمة، وهي الآن جزء من الموصل الشرقية، ولكن هذه المجموعات ككل بدأ انتشارها تقريباً من مرسين في كليكية عبر سورية وآشور حتى حوالي السليمانية في كردستان شمالاً إلى ديار بكر وبحيرة فان، وهناك تفسير ممكن لهذا التوسع هو أنه كان يعكس نجاحاً زراعياً وزيادة في عدد السكان، نظراً لأن كل ظاهرة وجود أرض زراعية خصبة واقعة حول مستوطنة بعينها قد فسرت بكونها ناتجة عن ارتفاع عدد السكان، وهكذا كان أولئك الذين لا يملكون أرضاً يرحلون ليؤسسوا مستوطنات جديدة في أمكنة أخرى، وأصبح المستوطنون في السهول الآشورية جزءاً من المجموعات المترابطة من الشعب، ولكن هذه الفكرة لا تزال مجرد تخمين ولم تثبت بعد كحقيقة، أي: من الممكن أن تكون الثقافة المشتركة الواسعة الانتشار بدلاً من ذلك قضية روابط تجارية واقعة فوق هذه المساحة المرموقة من الأرض.

هناك بعض المظاهر في المستوطنات المتأخرة في حلف تعكس تحسُّناً متميزاً في نوعية الحياة، مثلاً: أصبحت الأواني الفخارية المزخرفة ذات جمال لا بأس به، ووجد هناك حُجب سحرية ولوحات مزخرفة وخرز محفورة من الحجارة، وكانت الأعمال النحاسية متطورة، وكان في الأرباشية شبكة من الشوارع المرصوفة بالحجارة، وذلك خدمة للسكان في الطقس الماطر حيث يكثر البلل بالماء، وكان فيها ورشة لعمل الأدوات الفخارية مما يدل على تطور الصناعة والتخصص، ويظن بعض العلماء أنه كان في الأرباشية صانعو فخار متخصصون يصنعون البضائع الضرورية للقرى القريبة من نينوى، وتبقى هذه الفكرة مجرد تخمين في الوقت الحاضر دون وجود أي شاهد لتأييدها، ولكن هناك بالتأكيد إمكان وجود مدن كبيرة قرب نينوى وفي أمكنة أخرى (ربما أربيل) خلال عصر حلف.

لقد لاحظنا وجود التجارة إلى جانب الزراعة الناجحة وكونها عاملاً ممكناً في ازدياد ازدهار حلف، وربما كانت العلاقات التجارية لشعب حلف راجعة إلى الزمن الواقع قبل وصول هذا الشعب إلى آشور، وهناك اقتراح مفاده أن المنطقة التي أتى منها مستوطنو حلف كانت واقعة بين السهول الآشورية وبحيرة فان، وأنه كان هذا الشعب يمارس التجارة في أوبسيديان حيث كان هناك مصدر للتجارة إلى الغرب من بحيرة فان.

وإذا اعتبرنا هذه الفرضية فإن شعب حلف الذي استقر في سهول آشور كان من الممكن أن يحتفظ بعلاقاته التجارية مع المناطق الشمالية وبهذا يحصلون على الثروة كوسطاء في تجارة أوبسيديان، وهناك عامل آخر تسبب في ثراء حلف وهو التجارة بالمنسوجات ويظهر هذا الرأي من وجود بعض نواحٍ بارزة في الأواني الفخارية من الممكن أنها قد نُقلت عن المنسوجات. فإذا كانت المنسوجات حقاً جزءاً مرموقاً من تجارة حلف فإن هذا ربما أثر على أساليب الحياة بشكل دائم في تلك المنطقة، وأسهم في زيادة أهمية تجارة المنسوجات في آشور فيما بعد.

ولكن ما هي أهمية هذه المراحل الثقافية في ما أصبح فيما بعد يعرف باسم آشور، إذ إنه من السخف أن ندعو ونعد شعوب أم الدبجية وحسونة وحلف أنهم هم الآشوريون الأوائل، ولكن ومن جهة أخرى فإنه من السخف أيضاً أن نظن بأن هذه الشعوب قد اختفت أو ذابت من على وجه الأرض ولم تترك أي أثر من الخلف أو التراث الثقافي، وهكذا يبقى الاحتمال الذي مفاده أن هؤلاء المستوطنين الأوائل كانوا بالإضافة إلى كثير من الطاقات التي أسهمت في خلق الآشوريين فيما بعد (مهما كان الزمن بعيداً) وأن بعض مظاهر الحياة التي قدموها قد استمرت.

عبيد

لقد بدأ نوع جديد من الفخار في الظهور في آشور بعد حلف وقد انتشر هذا النوع في أجزاء أخرى من الشرق الأوسط.

إنني مدين بالاعتذار السريع لأني بدأت بموضوع جديد بالحديث حول الفخار بدلاً من الحديث عن الشعب والناس. ولكن مهما ظهرت القطع الفخارية بشكل ممل، إلا أننا يجب أن نستعمل الشواهد الفخارية لأنها تمثل علامة تفسر وجود مجموعات ثقافية خاصة. وإن الثقافة الجديدة (أو المجموعات) التي تتميز بوجود نوع جديد من الفخار تدعى ثقافة عبيد. ولا شك أن كلا الفخار والثقافة المرافقة تطورت في أول الأمر في جنوب العراق في اقتصاد مرافق للري. وأن عدد وحجم مجموعات التلال التي تدل على وجود مستوطنات قديمة تظهر وجود زيادة لا بأس بها في عدد سكان جنوب العراق، وذلك بسبب الهجرة من جهة، ومن جهة أخرى الزيادة الطبيعية في عدد السكان الأصليين نتيجة لازدهار الزراعة التي أصبحت ممكنة عن طريق أدوات الري الفعالة.

ولقد انتشرت ثقافة عبيد التي كان الفخار عاملاً في وجودها انتشاراً واسعاً ابتداء من الخليج الفارسي إلى سورية ولا يمكننا القول بالتأكيد إن ذلك قد حدث بسبب الانتشار الثقافي أو أنه قد ترافق مع الهجرات الحقيقية، مع أن زيادة الفخار في حلف وعبيد في بعض المواقع يصوب الرأي الأخير.

من كان شعب عبيد ياترى؟ إن هذا سؤال خلافي جدلي. ففي جنوب العراق وجدوا حلقة واحدة في سلسلة المرتحل الثقافية تدعى أحياناً أريدور أو حاجي محمد أو عبيد، أو أوروك أو جمدت نصر مع أن الميول المتداولة بين علماء الآثار اعتبار الاسمين الأولين من هذه الأسماء هما الأسماء أو الوجوه الأولى لعبيد، وأن جمدت نصر هي آخر وجه من وجوه آوروك، وقد استعملنا هذا الاصطلاح البسيط هنا. إذ إن فترة أوروك متصلة بالسومريين في الأزمنة التاريخية، وفي هذه الفترة نجد بعض البدع المؤثرة مثل نشوء المدن أو فن المعمار التذكاري. ومع ذلك يواجهنا الآن الجزء الأعوص من المعضلة، فهل كانت ثقافة أوروك نتيجة لقدوم (أو إصرار في اظهار النفس) السومريين الذين يمثلون مجموعة عرقية جديدة ذات ميول جديدة، أو هل هي تمثل قفزة نوعية إلى الأمام تمثل تطوراً مستمراً. ففي الحالة الأخيرة فإن شعوب

المراحل السابقة في جنوب العراق وعبيد في جميع مراحلها من الممكن أن نعدها من الشعوب السومرية الأصلية أو الأولى.

وإن زيادة السكان المرتبطة بعبيد تقدم لنا إمكان دخول نفوذ جماعة عرقية جديدة حتى في الحالة الأخيرة. ويبدو أنه من المؤكد أن هناك لغة غير لغة السومريين التي كانت سائدة في بداية الألف الثالثة كانت معروفة هناك قبل عام ٣٥٠٠ ق.م، وذلك من أسماء الأمكنة التي ظلت باقية في جنوب العراق. وهذا يشير إلى أن السومريين كانوا فعلاً قادمين جدداً خلال الألف الرابع أو أنه على الأقل كانوا مجموعة متميزة بدأت تستغل نفوذها الثقافي، وجعلت هذا النفوذ معروفاً حينذاك، ولكن هناك شواهد ملموسة تؤيد وجهة النظر التي مفادها أن مجموعة عرقية خاصة قد لعبت دوراً مرموقاً في خلق ما يدعى بالثقافة السومرية، مع أن هذا الرأي لا يوافق عليه علماء الآثار الشباب الذين عدوا هذا الرأي شوكة في حلوقهم، وعدوا أنه من الظلم اعتبار تفوق أي مجموعة عرقية على أخرى.

فهل كان العبيديون سومريين أصليين أم لم يكونوا؟ فقد كان وصولهم الطارئ إلى السهول الآشورية (أو بدلاً من ذلك انتشار نفوذهم الثقافي) قد جلب تطورات مهمة وخصوصاً في التجارة. هذا وإن اختفاء ثقافة حلف قد رافقه الانهيار في شبكة تجارتهم التي كانت واسعة الانتشار. وربما كانت هذه التجارة سبباً لهذا الانهيار. ولكن الاتصالات التجارية الواسعة التي ميزت نموذج الحياة الذي طغى على آشور فيما بعد، ولكنه تطور مرة ثانية في فترة عبيد الأخيرة. وهذا كان يشمل الروابط مع شمال سورية بالنسبة للخشب وفي المناطق الجبلية بالنسبة للنحاس الذي بدأ يلعب دوراً هاماً بعد أن تطورت تقنيات صب النحاس وسكبه في قوالب. وإن اعتماد أهالي ما بين النهرين على هذه المواد الخام المجلوبة من تلك المناطق. أصبحت فيما بعد العامل المهم في استراتيجية آشور الاقتصادية والعسكرية في المستقبل.

لم تكن التطورات خلال بلاد آشور خلال فترات عبيد وما تلاها أي بين عام ٤٥٠٠ وعام ٢٥٠٠ ق.م واضحة بالقدر الذي نتمناه. إذ إن زيادة حجم وكثرة المواد المعاصرة الآتية من أقصى الجنوب قد أبرزت هذه الحقيقة. ففي جنوب العراق تُظهر الفترات التالية للعبيدية المعروفة أثرياً باسم أوروك والسلالات الملكية الأولى، تظهر تطورات جديدة من نوع رائع ملفت للنظر. وهنا نقابل بداية تلك المجتمعات المعقدة التي ندعوها المدن ذات البنايات الضخمة للهياكل والاختصاصات الفائقة التطور والكتابة، أي جميع النواحي البارزة والمعالم المرافقة للسومريين. وسرعان ما بدأت هذه التطورات بالتأثير على أمكنة واقعة في خارج جنوب العراق. مثلاً في موقع يدعى حبوبه الكبرى الواقعة على الفرات في سورية. وهناك خرائب مدينة رئيسة عاشت قبل عام ٣٠٠٠ ق.م وهي تظهر روابط لا يتطرق إليها الشك مع فترة أوروك في جنوب العراق. ولقد انتشرت تطورات أوروك والسلالات القديمة في أعالي نهر دجلة مع أن تأثيراتها لم تظهر في آشور مدة عدة قرون، وبسبب هذا التخلف أو التأخر الزمني علينا أن ننتبه عند إعادة تقديراتنا، ولبس لدينا ما يبرر ملء شواهدنا القليلة النادرة حول آشور خلال هذا الزمن وأخذها من المعلومات الوافية التي تشمل في حوالي نهاية هذه الفترة والوثائق المكتوبة التي لدينا والمختصة بسومر.

ومع ذلك يمكننا رؤية بعض تلك الاتجاهات التي كانت تتطور بها الأشياء في آشور خلال هذين الألفين من السنين. فقد أضحت المستوطنات أكبر حجماً، لتصبح مدناً حقيقية وبعضها كان محاطاً بالأسوار لحمايتها. والاستنتاج الواضح كان خطر تعرض هذه المدن للهجوم المركز من الخارج الذي أظهر أن الحرب أصبح من معالم الحياة، وكان لهذه الملابسات تأثير على البنى الاجتماعية. فقد كانت عمليات تحصين المدن تشمل التخطيط الاستراتيجي والتكتيكي، وهذا يلزم ظهور زعماء الحروب القادرين على القيام بمهام القيادة الناجحة، وكل شيء ضروري في مصطلحات التنظيم الاجتماعي وترتيب الطبقات الاجتماعية. ولقد وجد

أحد الأختام من تلك الفترة وهو يصور أحد مظاهر الحرب، أي: مثلاً صف من الأسرى، وإن الاستيلاء على الأسرى في الحرب يمثل بداية مؤسسة العبيد والعبودية، مع وجود مجموعة اجتماعية محرومة من الحقوق، وإن تفسيرات هذا الختم لا يتطرق إليها الشك، ومع ذلك فهناك دلالات أخرى عن تطور الاختلافات الطبقية. وهكذا بدأت البنايات المخصصة للعبادة تظهر وكان بعضها يؤلف مساكن تخص أقلية من الناس ذات ثروات أو قوى سياسية أو كليهما، وكانت القبور تقدم صورة مشابهة نظراً لأن قلة من هذه القبور كانت تحتوي مدافن فخمة لم تكن متوفرة للكثيرين.

ولكن التطور في بناء الأبنية الدينية غالباً ما يدل على تطور في المجتمع ككل. وهكذا فإننا نرى في معظم المواقع الآشورية خلال تلك الفترة المعابد التي تظهر زيادة متواضعة في الثروات والحجموم. وهذا مناقض للوضع الذي كان سائداً في سومر المعاصرة. فهناك ظهرت أبنية المعابد الملفتة للنظر بحيث أصبحت هذه في أواخر الألف الرابع النقاط الرئيسية التي تدل على الحياة الاقتصادية فضلاً عن الحياة الدينية. ولكن رغم هذه التناقضات العامة، كان هناك بعض الأمكنة داخل منطقة آشور حيث كان للنفوذ السومري تأثيره في بناء المعابد، وهناك اثنان من هؤلاء وجدت في تل بارك في أعالي الخابور وتيب جاورا إلى الشمال الشرقي من نينوى، فضلاً عن سلسلة من المعابد الرائعة التي تشبه مثيلاتها في الجنوب شبهاً تاماً. وفي الواقع أنها قد تأثرت بهؤلاء ولكن يبقى ذلك وضعاً شاذاً، وعلى العموم كانت المعابد خلال هذه الفترة أقل بهاءً من القلاع، وهناك تفسيران لهذه الظاهرة. أحدهما أن الزعماء العلمانيين كانت لهم المنزلة الأرفع في المجتمع تفوق منزلة الكهنة، والتفسير الثاني هو أن زعماء الشؤون العلمانية هم نفس زعماء الكهنة، وأن رجال الطبقة الحاكمة قد استعملوا الأبنية العلمانية مراكز للإدارات الاجتماعية والاقتصادية، ولذلك لم يكن هناك من حافز لنمو فكرة أبنية المعابد البارزة اللافتة للانتباه.

ولقد استمر تطوير التجارة، ويظهر هذا بوجود الأشياء المستوردة في القبور مثل الودع الآتي من المحيط الهندي، أو الأشياء المصنوعة من المواد المستوردة مثل العقيق الأحمر وحجر الجمشت أو اللازورد ومصدر الأخير هو أفغانستان. وهناك شاهد آخر على تقدم التجارة، إذ تظهر الأختام من فترة أوروك ومن تيب جاورا صلات الود والمحبة مع أولئك السكان من مستوطنتين معاصرتين في إيران، وقد قيل إن هذا يعني ويدل على نفوذ متبادل. ولما كان الغرض الرئيسي من الأختام هو وضع علامات على البضائع، فيصبح هذا دلالة قوية على سفر التجار من آشور إلى إيران، ويؤيد هذا الرأي أن تيب جاورا قد انحطت وتأخرت أهميتها في أواخر عصر أوروك مع حدوث توقف في العمل في إحدى المواقع الإيرانية المذكورة، وهي جيان ويمكن أن نعزو كلا هاتين الحقيقتين إلى توقف الطريق التجارية التي كانت قد تسببت بازدياد أهمية هذين المكانين.

وتشير الشواهد من تل براك أنه قد أضيف إلى المعبد بعض النحاتين وصائغي الذهب، وهذا يدل على أنه قد بدأت في آشور نماذج منتشرة للتخصصات المهنية، ومع ذلك ينبغي علينا الحيطة في استنتاجاتنا من هذه الشواهد نظراً لأن تل براك كانت خاضعة لنفوذ الجنوب السومري فلم يكن من الضروري أن يكون هذا منطبقاً على بقية آشور، ولكي نرى كيف حدثت المرحلة التالية من التطور في آشور فإننا نحتاج لدراسة خلاصة مقتضبة للحوادث في جنوب العراق خلال النصف الأول من الألف الثالث ق. م.

التطورات في سومر

بعد ظهور المدن ظهر في سومر وبمحاذاة الفرات وإلى حد ما بمحاذاة ديالا عدد من أول المدن، كانت مستقلة ولكنها متصلة ببعضها اتصالاً وثيقاً، وظهرت سلالات وراثية ولكن الدول الغنية والقوية مثل كيش وأوروك بدأت تمارس بعض أشكال الحكم على الآخرين، واتخذ أولئك الحكام لقب الملوك (ومعناها

الحر في الرجل العظيم) وإن الزمن الذي علا فيه شأن هذه التنظيمات السياسية يدعى فترة السلالات الأولى (مع تقسيمات ثانوية متعددة).

وفي أثناء فترة السلالات الأولى ظهر بعض الأقوام الذين أثبتوا وجودهم بالتدريج إلى جانب السومريين، ولكنهم كانوا من عناصر ثقافية أثنية أخرى، وكانت هذه هي المجموعة الناطقة باللغات السامية هم الذين نعرفهم باسم الأكاديين، وكان أصلهم وموطنهم في الصحراء السورية إلى الغرب من منطقة ما بين النهرين، ولقد وصلوا بعد عمليات طويلة من الهجرة (وربما بدأوا من فترة سابقة لعهد السومريين) فلم يبدؤوا بغزو حربي مفاجئ.

أسرة أكاد

في أوائل القرن الرابع والعشرين ق. م استطاع أحد أولئك الأكاديين المعروف باسم سرجون الذي كان يعمل أولاً في خدمة أحد ملوك السلالة الرابعة في كيش، استطاع أن يحصل على الاستقلال، وبنى لنفسه عاصمة تدعى أكاد وسرعان ما استطاع سرجون أن يوقع الهزيمة في جميع الحكام المحليين، فأصبح ملكاً لجميع أرجاء ما بين النهرين الجنوبية، ويمكننا أن نحدد تاريخ حكمه ما بين (٢٣٧١ — ٢٣١٦ ق.م) مع أن بعض العلماء الآخرين يخالفوننا التقدير بعدة عقود على أساس اختلاف التقديرات والحسابات.

وإن أهمية كل ذلك بالنسبة لآشور هي أن سرجون أظهر نفسه كأول رجل أمبريالي، فقد قام آخر ملوك السلالات السومرية بهجوم على مناطق أعالي الفرات وربما وصل إلى حوض البحر الأبيض المتوسط، إلا أن سرجون تابع ذلك التوسع بقيامه بحملات واسعة عبر سورية حتى البحر الأبيض المتوسط وجبال أمانوس وربما فيما وراء تلك الجبال، حتى اجتاز أعماق آسيا الصغرى، ولكنه لم يكتف بذلك بل هاجم واستولى على منطقة أخرى تدعى سوبارتو وكان هذا يعني الأراضي الشمالية إلى الشرق من سورية حيث كان الجزء الأوسط منها هو ما يدعى آشور.

وهكذا أصبحت آشور جزءاً من إمبراطورية أكاد، ولقد استنتجنا هذه المقولة من نقش وجد على رأس رمح من النحاس اكتشف في المدينة ينص على ما يلي:

((مانشتوسو، ملك كيش: أزورو خادمه صنع هذا الإهداء إلى الإله)).

وكان ما نشتوسو هو حفيد سرجون والحاكم الثالث في تلك السلالة وكان لقبه ملك كيش يدل على كلمة إمبراطور، وكان (أزورو) واحداً من عدة أتباع تحكم باسم مانشتوسو وتابعة له.

ولقد سيطرت أسرة أكاد على نينوى أيضاً وهي إحدى المدن الرئيسية في آشور، ونعلم هذا من قناع برونزي يخص أحد ملوك أكاد، وفوق ذلك فقد كان لنينوى صلات خاصة مع مانشتوسو عرفت من نقش يعود إلى ملك متأخر، وهو يسجل أن المعبد الذي كان يعيد بناءه هذا الملك قد كان مانشتوسو قد بناه، وهكذا وعلى الأقل في حكم مانشتوسو وربما أثناء فترات طويلة من حكم الامبراطورية الأكادية، كانت آشور ونينوى جزءاً من كيان سياسي متكامل يدل على وضع ربما حدد الخطوة الأولية تجاه إنشاء مملكة موحدة، وهي مملكة آشور، مع وجود هاتين المدينتين كمركزين جنوبي وشمالي من مراكز تلك القوة.

نشوء البلدات والمدن

عدا عن شواهد الارتباط مع الإمبراطورية الأكادية، لا نعلم إلا القليل بالضبط عن آشور قبل نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، مع أن علم الآثار قد ملأ تلك الصورة مثلاً، نعلم الآن أن عدداً من البلدات كانت تنشأ في آشور في منتصف الألف الثالث ق.م، وقد وجدت إحدى هذه البلدات في تل تايا، اكتشفت حفرياتها عام ١٩٦٧ م، وفيما بعد من قبل الدكتور (جوليان ريد) من المتحف البريطاني، وكان هذا المركز المزدهر الواقع إلى الجنوب من سلسلة جبال سنجار يتألف من ١٢٠ فداناً بامتداد كثيف مع وجود منازل من الحجر والطوب وسور خارجي

وشوارع ثم قلعة في الوسط، ويقدر عدد السكان بعشرة أو خمسة عشر ألف نسمة على الأقل.

ولكن يبقى أمامنا عدد من المشكلات بالنسبة لآشور في الألف الثالث ق.م: فهناك مثلاً السؤال الأساسي حول وجود ذلك الكيان الذي نستطيع أن ندعوه آشور، وكما رأينا فقد مضت فترة كانت آشور ونينوى تحت حكم أكاد، ولكن هذه العلاقة قد أتت من الخارج ولم تكن وحدة عضوية، إذن متى كان هناك لأول مرة وحدة مستقلة وطنية سياسية مؤسسة من ثلاث مدن رئيسية وهي نينوى وآشور وآربيل؟

إلى أي حد كانت ثقافة تلك البلاد ذات عنصر وطني مميز؟ وإلى أي حد قد استعيرت تلك الثقافة من الجنوب أو (بالنظر لما بدأنا في تعلمه حول الحضارة المبكرة في سورية) من الغرب؟ وماذا كان التركيب العرقي لتلك البلاد؟ وهل كان ذلك التركيب موحداً على صورة واحدة أم كان هناك مناطق متميزة متصلة بهجرات سابقة لجماعات خاصة؟ وما هي اللغة التي كانت مستعملة؟

يمكن الإجابة على بعض هذه الأسئلة بشكل تجريبي وبعضها لا يمكن ذلك أبداً، هذا وإن كثرة الشواهد النصوصية القادمة من الجنوب تجعل جهلنا أسوأ وتزيد الطين بلة، ولكن هناك بعض الإشارات التي تقدم إجابات لبعض هذه الأسئلة على الأقل، إذ إن إلقاء نظرة على موقع آشور ربما أعطت بعض الدلالات لمعرفة أي نوع من الناس قد عاشوا هناك، ولماذا كان ذلك، فقد بُنيت على صخرة من الحجر الرملي مشرفة على الضفة الغربية لنهر دجلة، وإن هطول الأمطار لا يخدم إلا بصفة هامشية بالنسبة للزراعة في تلك المنطقة دون اللجوء إلى الري، ولطالما حدث نقصان وقحط في المحاصيل الزراعية، إذ إن الاستنتاج المعقول الوحيد هو أن الشعب الذي استقر في تلك الفترة لأول مرة كان يبغي قاعدة من الممكن الدفاع عنها، ذات إمدادات دائمة من المياه، وقريبة من المراعي، ولكن هذا الشعب لم يكن مهتماً بالزراعة، وهذا يشير الى أنهم كانوا رعاة من الجزيرة كانوا في حالة منظمة بشكل كاف في مجتمع بحاجة إلى قاعدة رئيسية دائمة،

وأن أول المستوطنين قد أتوا من الجزيرة يظهر من كون وقوع آشور إلى الغرب من نهر دجلة، فالمستوطنون يتوقفون عند النقطة حيث يصلون إلى النهر الرئيسي.

وبالمقارنة نجد أن نينوى واقعة على الضفة الشرقية لنهر دجلة، إلى أقصى الشمال على مرأى سفوح التلال في طوروس، وهذا يوحي أنها قد سكنت في الأصل من قبل أناس خرجوا من التلال في الجهة الشمالية الشرقية، ولكن مركز أربيل يوحي بأصل مشابه، وأن التقاليد الدينية تبدو بأنها تصل نينوى بأربيل ولكنها تفصلها عن آشور.

وكانت الآلهة التي تترافق مع المدينتين هي الآلهة عشتار، وقد ذكرت عشتار نينوى وعشتار أربيل في مناسبات عدّة واعتبرتا إلهتين وطنيتين رئيسيتين، ولكن الإله المرافق لمدينة آشور كان إلهاً ذكراً يحمل نفس الاسم آشور، ولا نعلم بعد كثيراً حول التاريخ المبكر لأي من المدن الثلاث الرئيسية: آشور، ونينوى، وأربيل، مع أن هذه المدن قد تأسست منذ عهد طويل منذ عام (٢٥٠٠ ق.م) وتحتوي التلال التي تضمهم شواهد نستطيع أن نتقصى تلك التطورات في آشور لو كان لدينا النقود والوقت، ولسوء الحظ فإن أربيل ظلت غير مكتشفة ، ومع أنه قد حصلت نشاطات أثرية لا بأس بها في آشور ونينوى إلا أن هناك صعوبات تقنية حددت المعلومات حول الفترات المبكرة، وقد بدأ استكشاف نينوى بشكل متقطع منذ عام (١٨٤٢) ولكن الجزء الأعظم من نشاطات من هذا النوع قد تركزت بالقصور التي بُنيت في عصر الإمبراطورية في الألف الأول، وكان الاستثناء الوحيد هو السبر العميق الذي حُفِر من قبل **M. E. L.** (سمي فيما بعد السيد ماكس مالوين عام ١٩٣٢) الذي وصل إلى الأرض البكر بعد حفر تسعين قدماً أسفل قمة التل، ولكن وبينما أعطى هذا العمل تتابع الأواني الفخارية رجوعاً إلى أزمنة ما قبل التاريخ، وأظهر أن هذا الركام قد كان مسكوناً نحو عام (٥٠٠٠ ق.م) إلا أنه لم تقدم سوى معلومات قليلة نوعية حول نمو تلك المدينة وتقدمها اعتباراً من كونها مستوطنة حتى أصبحت مدينة رئيسية.

آشور الأولى

تأتي معلوماتنا حول آشور الأولى من معبد مكرَّس للإله عشتار، وقد ثبتت صحة هذه المعلومات بعد عام (٢٨٠٠) ومن الواضح أن آشور في ذلك الوقت كانت عبارة عن مركز ديني تحتوي على عدة أبنية أثرية، على الرغم من أنها كانت مصنوعة من الآجر، وكان الدين يحتل مكاناً مرموقاً في البنية الاجتماعية والاقتصادية، وليس من الضروري أن نستنتج والحالة هذه أن القوة الدينية كانت منفصلة عن القوة المدنية على ضوء الألقاب الدينية ووظائف الملوك الآشوريين الذين سوف نقابلهم فيما بعد، بل إن كلتا القوتين كانتا متشابكتين.

هذا وإن اللقى التي وجدت في المعبد القديم لا تخبرنا إلا القليل حول الحياة في الألف الثالث ق.م، وبين هذه توجد نماذج من الفخار للمنازل، ومع أنه كان لتلك النماذج بعض الوظائف الدينية إلا أنه من المعقول أن نفترض أنها كانت نماذج لأنواع حقيقية من المساكن، وأن ما يظهر منها هو منزل ذو سقف منبسط مؤلف من طابقين من الأمام وطابق واحد من الخلف.

وهذا يوحي أن المسكن النموذجي كان مؤلفاً من طابق واحد فيه حجرة واحدة عليا حسب ما تذكره التوراة، وهذه الحجرة مبنية فوق المنزل من الأمام، وهناك نموذج لنفس الشكل يظهر ثلاثة طوابق أي: حجرة علوية واحدة مبنية فوق بناية مؤلفة من طابقين، وهناك في المعبد القديم تماثيل يظهر بأنها سومرية تعود إلى فترة السلالات الأولى، وهذا لا يتطلب منا أن نفترض أن المجموعة الحاكمة في آشور كانت من السومريين ولكنها تظهر أنه قد كان هناك نفوذ سومري ثقافي قوي.

وقد وجد نقش نافر من الجص يظهر الآلهة وهي مرتدية جواهرها حتى أذنيها وجيدها ولكنها عارية عند ثدييها وسُرَّتها وهي مضطجعة على الفراش في سريرها، وهذا يظهر في الوقت نفسه وجود مراسم وطقوس تعبدية جنسية على شرف الآلهة ويظهر أيضاً استعمال السرير ويظهر هذا السرير بشكل لوح منبسط دون أرجل.

وهناك معلومات أخرى حول آشور الأولى يتقدمها اسم آشور، فبالإضافة إلى الاسم المعتاد إلا أنه يشار إليه باسم بالتيل مع أن هذا الاسم الأخير قد حظي بتفسير سومري فيما بعد من قبل علم اشتقاق اللغة الشعبي إلا أنه لا ينتمي إلى السومرية ولا إلى السامية، والحقيقة أنه ينتمي إلى لغةٍ تابعة إلى طبقة قديمة من السكان كانت تستعمل حرفي **(el)** في نهاية بعض أسماء الأماكن مثل كلمة بابل أو أربيل أو كوربيل ولقد فسرت هذه الذي **(el)** بشكل مغلوط بأنها تشير إلى اسم الإله باللغة السامية. ولكن هذا الاسم غير السومري وغير السامي يوحي أنه قد نشأت مستوطنة هناك قبل أن يستوطن السومريون أو الساميون ويصبحون مسيطرين عرقياً في تلك المنطقة.

الفصل الثاني

ملوك آشور الأوائل

تنتهي فترة ما قبل التاريخ وتبدأ الفترة التاريخية عند كتابة المصادر، وأما بالنسبة لآشور فقد وصلت آشور تلك المرحلة في النصف الثاني للألف الثالث ق. م أي بعد نصف ألف بالنسبة لوجود سومر في الجنوب، إذ إن علم الآثار الملكي في إقليم ما قبل التاريخ لم يعد كذلك مع أنه يستمر في لعب دور حيوي، وذلك لأنه ترك لنا نقوشاً تعتمد عليها إعادة بناء التاريخ بصورة منتظمة، وبالنسبة لهذه الفترة وبالنسبة للألوف التالية من السنين، فإن هذه النصوص على اختلافها في محتوياتها أو لغتها تمتلك شيئاً واحداً مشتركاً، فهي كلها مكتوبة بالخط المسماري، وفي هذا الخط تضغط الحروف في أقراص صغيرة من الغضار أو تنقش على أنصاب من الحجر أو المعدن، وأما في محتوياتها فإنها اقتصادية ودينية وتاريخية أو قاموسية معجمية أو واحدة من الفصائل الأخرى، وبالنسبة للغة فمع أن اللغة السامية الأكادية كانت أكثر استعمالاً إلا أن هناك عدة لغات استعملت في النصوص، ولكن كان لجميع هذه النصوص جذورها القديمة حيث اخترعت الكتابة قبل عام ٣٠٠٠ بوقت قصير.

قائمة ملوك آشور

تعود بعض هذه النصوص المسمارية مثل النقوش الموجودة على بعض الأشياء المكرسة للمعابد مباشرة إلى الزمن الذي كتبت فيه، وهناك نصوص أخرى أكثر أناقة تحفظ فيها المعلومات حول الحوادث قبل تاريخ تأليفها.

وهناك وثيقة واحدة من النوع الأخير تبدو أنها تسهل عملنا في تأليف أُطر التاريخ الآشوري القديم، فالوثيقة المذكورة تدعى عادة قائمة ملوك آشور (وهي موجودة بعدة نسخ) وفيها يذكر أسماء الحكام اعتباراً من الألف الثالث حتى القرن الثالث ق. م وعندما تذكر هذه الوثيقة الملوك بتواريخ وجودهم وتضع

افتراضات معقولة للملوك ترجع إلى نحو ٢٥٠٠ ق.م ولكن هناك أسباباً لعدم استعمالنا لها بهذا الأسلوب البسيط.

إن أول ملك آشوري معروف من النقوش التي صنعها لنفسه هو شمسي أداد الأول (١٨١٣ – ١٧٨١) إن هذا الملك هو الذي يقدم لنا أول نقطة ثابتة معينة بالنسبة للتواريخ الآشورية، نظراً لأنه تواكب مع تاريخ حمورابي في بابل الذي كانت تواريخه معروفة، وقبل الملك شمسي أداد، تذكر القائمة ثمانية وثلاثين ملكاً أو ملوكاً فرعونيين، وهذه الأسماء موضوعة بشكل مجاميع، فالسبعة عشر الأولى لخصت حياتهم بأنهم ملوك يعيشون في الخيام، وبعدها عشرة ملوك وصفوا بأنهم من الأجداد، وبعدها ذكرت مجموعتان كل منها تحتوي على أسماء ستة ملوك، وبعدها شمسي أداد.

ويلاحظ القارئ النبيه أن أعداد الملوك في قائمة الملوك (قبل شمسي أداد) تصل إلى ٣٩ ملكاً، مع أنه قد ذكر أن الملوك قبل شمسي أداد كان عددهم ٣٨، وهذا التناقض وقع لأن نفس الاسم ذكر في نهاية كل مجموعتين وهذه مصادفة تدل على أن بُنية وأصل هذه القوائم تستحق فحصاً واستقصاءً أكثر.

إن المجموعة الأولى وهي أسماء الملوك الذين كانوا يعيشون في الخيام هي قائمة صحيحة ذات ترتيب تاريخي، نجد فيها أن الملكين الأخيرين يدعيان أشبيا وأبياشال، ولكن المجموعة الثانية وهي مجموعة الملوك الذين كانوا أجداداً قد رُتبت بشكل مختلف فالأخير في الخط ذكر أولاً، وكان يتبع كل ملك اسم والده وبعد ذلك جدّه بهذه الطريقة.

امنو ابن ايلو كبكبي

ايلو كبكبي ابن يازخور ايلو

يازخور ايلو ابن ياكاميني

وبالنسبة لمطابقة ياكاميني وستة أجيال أخرى قبله كان أقدمهم زمناً هو: أبياشال بن أشبيا.

وهكذا وفي هذه المجموعة الثانية ذكرت أسماء الملوك اعتباراً من الأخير إلى الأول، ولكن أبياشال كما هو الحال في القائمة الأولى يذكر في المؤخرة مع أن هذا الترتيب يجعله أقدم المجموعة، وبهذه الطريقة أصبح أبياشال يخدم كهمزة وصل بين القائمتين مع أن الفروق بالشكل بين القائمتين تومي بأن لا علاقة بينهما.

إن هذه الترتيبات الاصطناعية غير الطبيعية تثير الشك حول طبيعة قائمة الملوك الآشوريين بالنسبة للفترة الأولى، وهكذا فسوف نعود إلى الأرض الصلبة لنرى ما تقوله الوثيقة حول شمسي أداد.

وبالنسبة لمعظم الملوك هناك تفاصيل وافية، أما بالنسبة لشمسي أداد فإن القائمة تعطي تفاصيل خاصة بشكل استثنائي عندما تصف الظروف التي ارتفع بها إلى السلطة، وهنا نقرأ في الجزء المختص بهذه القضية مايلي:

شمسي أداد ابن إيلوكبكبي في زمن نارام سن (أحد ملوك آشور القدماء) ذهب إلى كاردونياش (أي: بابل) ثم رجع من كاردونياش، واستولى على بلدة إيكالاتو وبقي في إيكالاتو مدة ثلاث سنوات، ثم خرج من إيكالاتو وأزال إيديشوم ابن نارام سن عن العرش واستولى على العرش.

ولا يخفى أن شمسي أداد استولى على العرش في آشور بعد إزالة ممثل أسرة حاكمة موجودة كانت هي الأسرة الآشورية الوطنية، مما يوضح أن شمسي أداد كان مغتصباً للسلطة، وهنا يتبادر إلى أذهاننا السؤال الذي يطرحه المعاصرون فضلاً عنَّا نحن وهو: ماذا كانت خلفية شمسي أداد؟ والجواب الذي تقدمه قائمة الملوك: إنه كان ابن إيلوكبكبي.

ولكننا صادفنا إيلوكبكبي قبلاً في تلك القائمة فقد كان هو والد أمينو الذي كان هو الأول المذكور ولكنه كان الأخير بالنسبة للملوك الذين كانوا أجداداً، وهكذا يصبح السؤال: أجداد من؟

ومن الممكن الإجابة على هذا السؤال بشكل موثوق: فقد كانوا أجداد شمسي أداد الذي أدخل بشكل ذكي إلى قائمة آشورية من الحكام بقصد تدعيم

سلطته وجعلها شرعية أي جعل سلطة المغتصب شمسي أداد شرعية، وهكذا بإضافة اسمه عن طريق أبياشال إلى قائمة الملوك القدماء في آشور الذين حكموا قبل الأسرة التي خلعها.

فقد استطاع شمسي أداد أن يتقدم وكأنه وريث الحق لتولي عرش آشور من أجداده الذين حكموا قبل الأسرة التي خلعها.

وهنا نود أن نعود بشكل مقتضب إلى المجموعة القديمة للحكام المزعومين في قائمة الملوك الآشوريين وهم السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن لدينا قائمة بأسماء أجداد الملك حمورابي البابلي الذي كان معاصراً لشمسي أداد، وفي هذه القائمة نجد اثني عشر اسماً في قائمة حمورابي متطابقة مع الاثني عشر اسماً من أسماء الملوك السبعة عشر الذين كانوا يعيشون في الخيام وهم من قائمة الملوك الآشوريين، والآن نلاحظ أن عائلات كل من حمورابي وشمسي أداد كانت من أصل عموري وكان العموريون شعباً سامياً أتى إلى منطقة ما بين النهرين من الصحراء الغربية في وقت قصير قبل أو بعد عام ٢٠٠٠ ق.م. وهكذا فإن الأسماء الاثني عشر المشتركة بين الآشوريين والبابليين ينبغي أن تمثل بعض الرؤساء والشيوخ من عهد البدو الرحل، قبل أن ينقسم العموريون إلى مجموعات منفصلة، وقبل أن يستقروا في منطقة ما بين النهرين، وإن إيلوكبكبي والد شمسي أداد يتصل مع هذا الخط من خلال أبياشال بن اشبيا، وبهذا يصبح شمسي أداد هو السليل المباشر المنحدر من خط أقدم للزعماء البدو الرحل من الأزمنة القديمة.

وهنا لابدّ أن نذكر كلمة عن الأسماء الخمسة في مجموعة السبعة عشر ملكاً الذين كانوا يعيشون في الخيام، إذ إن بعضهم ربما كانوا هم الحكام الحقيقيين القدماء الذين حكموا آشور، واحدهم الذي كان حاكماً حقيقياً هو اشبيا والد أبياشال نظراً لأن هناك إحدى الروايات المستقلة عن قائمة الملوك الآشوريين تذكر أنه كان قد بنى واحداً من أقدم المعابد في آشور، وإن هذا الاتصال معْ إحدى المجموعات للزعماء العموريين من البدو الرحل المفترض أنهم من

أجداد شمسي أداد، ولكونهم الحكام الحقيقيين لآشور منذ الأزمنة القديمة كل هذا يخدم في إعطاء شمسي أداد صلة (ولو أنها زائفة) مع ملوك آشور تعود إلى العهود التي امتد بها حكم ملوك آشور الحقيقيين.

وهكذا فنحن لا نستطيع أن نثق بقائمة الملوك الآشوريين وبقيمتها كقائمة صادقة موثوقة لتعداد جميع الملوك في آشور قبل شمسي أداد، وهذا يوصلنا إلى سؤال عمَّن كان الحكام الحقيقيون القدماء في آشور؟ وفي معالجة هذه المشكلة علينا أن نلاحظ أن كثيراً من الشواهد القديمة لدينا إنما تعود إلى مدينة آشور بالذات أكثر من عودتها إلى آشور بشكل واسع، ومع أن نفس الاسم يستعمل لمدينة آشور ولبلاد آشور في اللغة الأكادية، إلا أنه جغرافياً لم يكن الاسمان متماثلين، فالأرض التي حكمتها مدينة آشور كانت أصغر مما نفهمه من بلاد آشور.

وعدا عن اشتمال قائمة ملوك آشور لبعض الأسماء القديمة الذين لم يكونوا في أي وقت من الأوقات ملوكاً لآشور، إلا أن هذه القائمة تغفل ذكر أسماء آخرين كانوا كذلك، وإن أول هؤلاء المعروفين لدينا كان شخصاً اسمه (إيتيتي) وهو مذكور في نقوش مقتضبة على قطعة من الألاباستر تعود إلى الفترة الأكادية القديمة ٢٤٠٠ – ٢٢٠٠ ق.م. ومفادها مايلي: إيتيتي: الحاكم ابن إينين لابا قد كرَّس هذا النقش إلى الآلهة إينين من غنائم (جاسور).

وكانت جاسور هي الاسم القديم لإحدى المدن عرفت فيما بعد باسم نوزي قرب كركوك، وهكذا يخبرنا هذا النقش أن منطقة كركوك لم تكن في ذلك الوقت جزءاً من مملكة آشور، بل كانت عبارة عن دولة مدينية منفصلة ومعادية، وهذا الانفصال لم يكن قضية عرقية نظراً لأن النصوص التي وجدت في جاسور تُظهر أنه عند الحكم عن طريق الأسماء الخاصة الموجودة خلال الفترة الأكادية القديمة (وليس في وقت متأخر) فإن أكثرية السكان في تلك المدينة كانوا من الساميين كما هو الحال لدى سكان آشور، ونظراً لأن آشور كانت لا تزال مستقلة، عندها ربما يستنتج المرء أن المدينتين الرئيسيتين نينوى وأربيل

وكلاهما بعيدتان عن جاسور لم تكونا في ذلك الوقت جزءاً من مملكة أساسها آشور.

وقد لاحظنا في الفصل الأول سيطرة وقوة آشور ونينوى اللتين كانت تحكمهما الأسرة الأكادية (في القرن الرابع والعشرين إلى القرن الثاني والعشرين) وعند سقوط الإمبراطورية الأكادية بسبب غارات قامت بها شعوب أتت من جبال زاغروس تدعى (غوتي) ولكن آشور ايضاً قد تأثرت وعانت من هذا السقوط كما نعلم من خراب أبنيتها التي كشفت عنها آبحاث علم الآثار.

سُلالة أور الثالثة

قبل عام ٢١٠٠ ق.م بقليل ظهرت إمبراطورية أخرى في الجنوب وحكمت جميع منطقة ما بين النهرين لمدة قرن وتعرف هذه باسم سُلالة أور الثالثة، وقد كانت هذه الإمبراطورية أقل نفوذاً من إمبراطورية أكاد ولكنها كانت أكثر تنظيماً إذ كان لها مراكز رئيسية يحكمها حكام متنقلون بدلاً من الأتباع المحليين، وهناك نقش يصف واحداً من هؤلاء الحكام يعود إلى عام ٢٠٠٠ ق.م يذكر أنه - وفي ذلك التاريخ- كانت آشور تحت حكم أور، وأما أربيل فكانت تحكمها من حين لآخر سُلالة أور الثالثة وذلك طبقاً لما نعرفه من الوثائق الاقتصادية في الزمن الذي نُهبت به أربيل ومن نقش سوري يعود إلى الزمن الذي يحدد فيه اسم الحاكم العسكري لأربيل.

لقد انهارت الإمبراطورية البيروقراطية التي تحكمها أور، وهي الرمز الأخير للسلطة السومرية السياسية، وذلك في عام ٢٠٠٦ ق.م تحت ضغط العموريين الذين انقضوا عبر نهر الفرات من الصحراء السورية، ولكن بدأت تلك الإمبراطورية بالتفسُّخ خلال بضعة عقود قبل انهيارها نهائياً وبذلك سمحت لآشور أن تستعيد بعض استقلالها.

فنحن نستنتج هذه الفكرة من إحدى القصص التي تذكر أن شخصاً يدعى كيكيا بنى أسوار آشور، ويمكننا أن نعرف تاريخ كيكيا نظراً لأن اسمه

مذكور في قائمة الملوك الآشوريين قبل اسمي ملكين نملك نقوشاً تخصهما، ونظراً لأن هذين النقشين يمكناننا من معرفة تاريخ هذين الملكين إلى زمن بعد ٢٠٠٠ ق.م بقليل، لذلك فإن حكم كيكيا ينبغي أن يكون قبل عام ٢٠٠٠، ولكن تظهر الحفريات أن بناء أسوار آشور قد حدث قبل ذلك بقرون، ومع ذلك فإن القصة التي تقول: إن كيكيا هو الذي بنى تلك الأمور لا تخلو من الصحة وأن لها بعض الأساس، ومن المحتمل أنها تعكس خبر إعادة بناء الأسوار من قبل كيكيا في الوقت الذي استطاع به أن يثبت نفسه كحاكم مستقل، وهذا من الممكن أن يكون في الزمن الذي بدأت به الأسرة الثالثة بالتقلص والتفتت.

آشور والتجارة

وحتى زمن كيكيا فإن آشور مع أنها كانت ذات أهمية استراتيجية بصفتها مركزاً قوياً في منتصف منطقة دجلة الوسطى، إلا أنها لم تكن ذات أهمية رئيسية عالمياً، ولقد بدأ هذا الوضع بالتغير فقد أصبحت النقوش التي تمثل ملوك آشور أكثر انتشاراً وإظهاراً لامتداد نفوذ آشور في الخارج ويشير أحد ملوك آشور في ذلك العهد، وهو أيلوشوما الذي حكم بعد عام ٢٠٠٠ ق.م مرتين بأنه قد أتم تحرير شعوب آكاد (يعني بابل جنوب منطقة ما بين النهرين) ويذكر بعض مدن بابل حتى مدينة أور جنوباً وهي على بُعد أربعمائة ميل من آشور، ومن الواضح أن هذا الملك قد قام بنوع من التدخل هناك، إذ إن معنى «تحرير» الدقيق يبقى غامضاً، ولكن هناك شيئاً آخر وهو أنه من الخطأ التاريخي محاولة ربط هذا التحرير بمعنى التحرير السياسي، وهناك كلمة آكادية تترجم بالتحرير بمعنى الإعفاء من الضرائب ومن المحتمل أن يكون هذا المعنى عندما ذكر أنه قرر تحرير الفضة والذهب والنحاس، والقصدير والشعير والصوف والنخالة والتبن، وهذا يظهر أن لهذه الكلمة معنى اقتصادياً أي: إنه أعفى التعامل بمثل هذه البضائع من الضرائب، وهناك معنى غامض آخر في إحدى نقوش إيلوشوما من الممكن أن يكون مناسباً هنا، فعندما ذكر شعب بابل يقول: لقد غسلت نحاسهم. ومن الممكن أن يكون معنى هذا القول أنه باع للبابليين نحاساً نقياً.

وهذا يدل أن هؤلاء الملوك الآشوريين القدماء كانوا مهتمين بالتجارة نظراً لأن التجارة لم تجلب لهم النفوذ السياسي فحسب ولكن الازدهار الاقتصادي المتزايد، وقد انعكس هذا الازدهار الاقتصادي في مشاريع الأبنية الطموحة داخل آشور، ولدينا نقوش تعود إلى ايريشوم الأول حيث يصف كيف أنه قد زاد حجم وعظمة منطقة المعبد ومدّ سوراً كان قد بدأ والده ببنائه.

مستعمرات كابادوكيا التجارية

إن قلة المعلومات السياسية حول آشور القديمة تجعل تلك المعلومات التجارية المقتضبة ذات أهمية، والحقيقة أننا نعرف الكثير عن التجارة في آشور ما بين عامي ٢٠٠٠ ق.م، وزمن شمسي أداد الأول أكثر مما نعرف عن السياسة، ولا تأتي معظم هذه المعلومات من آشور نفسها ولكن من مصدر واقع على مسافة مئات من الأميال إلى الشمال، وتتألف معظم أجزاء هذه الشواهد من بعض الألواح الفخارية التي وجدت في موقع يدعى كولتيب (اسم قديم لكنيستهم إلى الشمال من قيسرية في تركيا الآسيوية في المنطقة التي غالباً ما تسمى كابادوكيا، وهذه الألواح هي من محفوظات تعود إلى أجيال عديدة لإحدى المستعمرات التجارية الآشورية كانوا يعيشون هناك في بداية الألف الثاني، وكان هناك عشرون مستوطنة من هذا النوع في قيسرية الأناضول، وذلك كما تذكر بعض أسماء الأمكنة في تلك النصوص ولكن هناك مستوطنة أو مستوطنات عرفتا عن طريق الألواح التي وجدت في مواقعها، ولا نعلم كم من الزمن كان التجار الآشوريون يعملون في الأناضول، إذ إن أقدم التواريخ في السجلات الآشورية الموجودة في كابادوكيا لا تثبت أقدم الأزمنة التي عملت فيها المستعمرات التجارية.

ومن الممكن أن يكون هناك مستعمرات في كابادوكيا لم يكشف عنها بعد، قبل الواحدة في كانيش أو حتى في كانيش نفسها، ومن الممكن أن يكون هناك نشاطات تجارية أقدم تعود إلى إجراءات تجارية لا تحتاج إلى التوثيق على ألواح من الفخار، وطبقاً لرواية متأخرة يقال: إن سرجون أول حاكم للإمبراطورية

الأكادية قد استُدعي إلى كابادوكيا لحماية التجار هنالك وذلك في أوائل القرن الرابع والعشرين ق.م.

فإذا كانت هذه حقيقة ملموسة فإن تاريخ المستعمرات التجارية سوف يتأخر عدة قرون إلى الوراء، ولكن هناك إمكان أن تكون هذه القصة مختلقة لعكس الحالة في كابادوكيا في أوائل الألف الثاني.

يتألف موقع كولتيب وهو المكان الذي دُفنت فيه مدينة كانيش القديمة، من رابية كبيرة حيث كانت القصور واقعة مع وجود مساحة للمساكن في أسفل تلك الرابية، ومن منطقة المساكن هذه كانت المحفوظات الخاصة بالأعمال التجارية، وتبلغ كمية هذه المحفوظات ١٤٠٠٠ لوحة، مع أنه لم ينشر إلا القليل منها، وتغطي الصورة الأساسية لهذه الألواح الانطباع أن لأماكن الأعمال التجارية ممثلين في كابادوكيا (وربما كان هؤلاء هم أصحاب الأعمال أنفسهم) وكانوا ينظمون التجارة في كانيش وغيرها من المدن، وكان هناك في قلب هذه التجارة قوافل الحمير التي كانت تحمل ما تحمله السفن من القصدير والمنسوجات وتنقلها من آشور إلى كابادوكيا.

من المستفيد من هذه المستعمرات التجارية الآشورية؟ إن المجموعة الأولى ينبغي أن يكون الحكام المحليون الذين ما كانوا ليسمحوا للمستوطنات أن تستمر في أعمالها، ولكن الحوافز الرئيسية التي جعلت المستوطنين يستمرون في العمل هي تلك الفوائد التي كانوا يؤمنونها للآشوريين أنفسهم، فالرحلة من آشور إلى كانيين أو بالكلوم الدارج، من قلعة شرجات في العراق إلى قرب قيسرية في أواسط تركيا الآسيوية، ليست رحلة سهلة حتى في هذه الأيام التي يتوفر فيها النقل بالسيارات، فالمسافة تبلغ نحو خمسمائة ميل على الأقل، ولكن أي طريق برية عمليًّة تبلغ حوالي أكثر من سبعمائة ميل على الأقل، وحتى في هذه الأيام فإن بعض الطرق ليست أكثر من طرق مملوءة بالحصى والتراب، ومن الواجب قطع جبال طوروس وهي سلسلة جبلية ضخمة حيث ليس هناك أمان بالمعنى الصحيح. وفي عام ٢٠٠٠ ق.م كانت كل هذه العوامل المحيطة موجودة بدرجة أقوى. ويعتقد

البعض أنه في الوقت الذي تبدأ هذه القوافل رحلاتها عبر هذه المنطقة فإنها تستطيع الاستمرار في العمل بقوة الاستمرار الذاتي خصوصاً أنه كان هناك نظام بريد يساعدها بمراحله المتعددة التي نشأت حول تلك الأماكن، ومع ذلك فإن هناك علامات استفهام حول سبب بدء مثل هذه الأنظمة في المقام الأول.

لم تكن المستعمرات في كابادوكيا هي المستعمرات الآشورية التجارية الوحيدة المعروفة، فهناك شواهد على مقياس محدود على وجود تجار من آشور كانوا يعملون في مقاطعة كركوك قبل الفترة التي كتبنا عن وجود شواهد فيها من كابادوكيا، وكانت هذه النشاطات أقرب إلى مركز آشور ولكنها تدل وتصوّر مدى اهتمام آشور بالتجارة، فإذا كانت آشور في مركز الحضارة التي تبدأ من سومر فإن التجارة كانت مُجدية بالنسبة إليها، وذلك لأن آشور (شأنها شأن سومر نفسها) كانت بحاجةٍ إلى مادتين من المواد الخام وهي الخشب والمعادن.

لقد كان توسع آشور التجاري إلى الأناضول رغبةً بالحصول على المعادن، فقد كانت آشور بحاجة إلى النحاس وكانت الأناضول قادرة على تأمينه، ولكن لم يكن هنا حل كامل للمشكلة نظراً لأنه كان هناك مصادر للنّحاس في الأناضول أقرب من كابادوكيا بكثير، ومع ذلك فلم يكن الآشوريون يستخرجون النحاس من مناجمه بأنفسهم، ومن الممكن أن أهالي الأناضول أنفسهم الذين كانوا يقومون بهذا العمل قد ركزوا على عمليات التعدين في كابادوكيا.

وكانت هناك مشكلة أخرى وهي من أين يمكن للآشوريين أن يحصلوا على القصدير الذي كانوا يتاجرون به فلم يكن هناك مصدر للقصدير في آشور أو بابل، وبالافتقار إلى شواهد مرموقة علينا أن نخمن أن القصدير قد استورد إلى آشور من زاغروس أو غيرها ولكن ليس مصدر القصدير هو ما نجهله فحسب بل نحن نجهل أيضاً الآليات التي كان القصدير يصل بها إلى آشور، ومن الممكن وجود مستعمرات آشورية تجارية في إيران أو زاغروس تساعد على الحصول على القصدير ولكن ليس لنا من دليل على ذلك، وحتى كلمة أناكو التي نترجمها

بكلمة القصدير تقدم لنا مشكلة، فقد ثار الجدل فيما إذا كانت هذه الكلمة تعني القصدير أو الرصاص مع أن الرأي الآن يميل إلى الأولى أي: القصدير، وحتى ولو كان الأمر كذلك فلم نتأكد أبداً أن هذا الاصطلاح يعني القصدير النقي، إذ من الممكن أن يكون أحد خامات القصدير، ولكن الرأي السائد أثناء كتابة هذا الكتاب هو أن أناكو مزيج يحتوي كميات متفاوتة من القصدير والزرنيخ وكان يستعمل لإنتاج البرونز من النحاس أو خامات النحاس وكان الزرنيخ والقصدير يختلطان مع النحاس لإنتاج البرونز.

وإلى جانب القصدير فقد كانت البضاعة الرئيسية التي تعامل بها الآشوريون هي المنسوجات، هذا وإن مصدر هذه المنسوجات النهائي يقدم لنا مُشكلاته، إذ نحن نعلم أن أفضل نوع من المنسوجات كان يأتي من بابل، ولكن هل كانت هذه المنسوجات تتصنع في ورشات عمل أم هل كانت من مصنوعات أعمال بيتية؟ولكن هناك مشكلات أخرى غير محلولة فمن كان مستهلكو هذه المنتوجات في الأناضول؟ وكيف كانت هذه البضائع توزَّع خلال الأناضول؟ وكيف كان نظام الحكم في الأناضول وكيف كانت علاقة التجار الآشوريين بحكام الأناضول المحليين؟ هذا وإن التهديد والتحدي ليس ببعيد حول أي من هذه المشكلات أو غيرها من نفس الطبيعة ولكن نترك هذا لتعالجه إحدى (إطروحات نيل الدكتوراه من الطُلاَّب).

هناك بعض الأشياء التي نعرفها حول التجارة الآشورية في الأناضول على الأقل بخطوطها العامة فنحن نعرف بشكل مكثف عن إجراءات النقل. فكانت البضائع تجمَّع في آشور -وربما- وفي حالة القصدير كانت تستورد من أقاصي الشرق، ومن بابل بالنسبة إلى المنسوجات، وبعد ذلك كانت ترسل إلى الأناضول على ظهور الحمير.

وفي الوقت الحاضر لا نعرف كم كانت القافلة تحتوي من الحمير؟

وتذكر النصوص أرقاماً تقرب من عشرين، ولكن هذه تمثل فقط الحيوانات التي تحمل بضائع تاجر واحد، فإذا حكمنا عن طريق الإجراءات المتبعة في كل

وقت وكل مكان في الشرق الأدنى فإننا نتوقع أن يكون هناك عدد من التجار مجتمعين معاً بشكل مواكب أو قوافل كبيرة تقدم المساعدة المتبادلة والحماية، وإن حدوث مثل هذا الأمر لا مجال فيه للشك لوجود بعض الوثائق التي تذكر وجود حمار واحد. وليس هناك من شخص يضحي بوضع حمار واحد محمل بالبضائع النفيسة في طريق يبلغ طولها ٧٥٠ ميلاً تسير فوق جبال صعبة.

إن ما يحمله حمار واحد بمجموعه بما فيه السرج يبلغ مئة كيلو غرام، وكان القصدير يحمل في سلتين تتوازن إحداهما مع الأخرى في كل جانب مع وضع المنسوجات في الأعلى.

ولمنع السلب والنهب في الطريق كانت رزم القصدير تختم بختم من الفخار وكان فتحها يعد ذنباً يعاقب عليه، وكانت المنسوجات التي ترزم بشكل لفائف تختم بطريقة أو أخرى ولكن لا نعرف هذه الطريقة. وكانت عبارة عن بالات من القماش الصوفي مع أنه كان هناك ملابس مصنوعة تصلح لمقاسات مختلفة.

وتذكر إحدى النصوص نوعاً من المنسوجات كاملاً مقاسه ٢/١ ١٢ قدماً بـ ١٢ قدماً، وكان من النادر وجود أنوال لنسج منسوجات بهذا العرض في تلك الفترة وهكذا كانت المنسوجات الكاملة مؤلفة من اتصال شقتي طبقتين كما كان الحال على الأقل حتى الخمسينات ١٩٥٠ بالنسبة للقماش المصنوع يدوياً في كردستان.

كانت قوافل الحمير المحملة بالقصدير والمنسوجات تتجه نحو الأناضول ومعها وثائق كانت محتوياتها تفحص بموجب هذه الوثائق عند الوصول، وبالنسبة للطرق المختلفة المتواجدة لا يمكننا أن نحدد أياً منها بالتأكيد ولكن من المحتمل أن تكون الطريق الرئيسية تسير نحو نهر الخابور وبعدها إلى بلخ ومن ثم تجاه الأناضول عبر سهل البستان، وهذه من الممكن أن تكون رحلة خطرة تقطع ٧٥٠ ميلاً وتستغرق نحو شهرين وتذكر النصوص موت عدة حمير على الطريق. وكانت البلدات على طول الطريق تسهل المسيرة وكان هناك طريق واحد في حوالي منتصف الطريق حيث كان من الممكن استئجار سائقي حمير جدد،

وكانت هناك إشاعات تشير أن الأمن في الطريق كان مخيَّباً للآمال، فقد وجدت هناك بعض الحالات حول بعض التجار الذين خُطفوا وطلب الخاطفون فدية، وأما الرحلة خلال الشتاء فقد كانت تسبب أخطاراً إضافية للقافلة من الطقس السيء ومن الذئاب فإذا نجا التاجر من الذئاب فكان أمامه دوماً جباة الضرائب، وذلك أن الضرائب التي تبلغ عشرة بالمئة من قيمة الحمولات، كان ينبغي دفعها على الطريق، بالإضافة إلى ضريبة إضافية تدفع عند الوصول إلى كانيش، ومن المحتمل أن يلجأ التجار إلى عمليات التهريب وذلك للتخلص من تكاليف الجمارك، هناك بعض المقاطع في بعض النصوص تشير إلى هذه الأمور ويذكر فيها كلمة طريق المهربين، ولكن هذا التفسير ربما جعلنا نتوقف قليلاً، فلا يتوقع الإنسان أن يقوم بعمل تعهد لإنجاز عمل غير قانوني كالتهريب الذي تعاقب عليه السلطات أكثر من أن تنفذه، ولهذا فإننا نعد أن طريق التهريب ما هي إلا اصطلاح بمعنى طريق فرعي غير مطرق.

إن الهيئة التي تنظم شؤون التجارة وشؤون المراكز التجارية الأخرى كانت تعرف بالكروم **Karum** وهذه الكلمة تعني: ميناء أو مرسى السفن.

وهناك مشكلة أساسية وهي فيما لو أن التجار الذين يتألف منهم الكروم كانوا من الرأسماليين أو من وكلاء الدولة، فالنصوص تقترح الصفة الأولى، إذ عندما تصل البضائع إلى كانيش كانت هذه البضائع تُسجَّل وتدفع عليها الضرائب في الكروم وبعد ذلك يسمح ببيعها، وكانت البضائع تباع بأثمان من الفضة أو (بشكل أقل) من الذهب، ولكن من الممكن أن تكون الدفعات بالنحاس أو الصوف الذي كان يعاد بيعه بالمعادن الثمينة.

وكانت الأرباح الصافية على القافلة وافرة، وكانت الأرباح تقارب مئة في المئة بالنسبة للقصدير، وربما أكثر من ذلك بالنسبة للمنسوجات، ولكن كان من الواجب دفع الضرائب من هذه الأرباح فضلاً عن مصروفات الرحلة، وكان التجار في الأناضول يعيدون الفضّة إلى وكلائهم في آشور (وفي بعض الأحيان يكون من هؤلاء الوكلاء زوجةِ) وهناك عدة حالات كان التجار يأمرون وكلاءهم أن

يصرفوا نصف الأموال لشراء القصدير اللازم للرحلة القادمة ونصفها على المنسوجات وكان هذا عملاً مألوفاً.

وكان كبار التجار يبقون في الأناضول عدة سنوات حيث يتزوجون زوجات من المنطقة حتى ولو كان لهم زوجات في آشور.

لدينا معلومات محددة قليلة حول نهاية المستعمرات في الأناضول أكثر من المعلومات حول بداية تلك المستعمرات، ولقد أظهرت الحفريات أربعة مستويات من الاحتلال في كانيش، ولكن وحتى الآن لم تظهر المستويات الأعمق عهداً (أو الأقدم) أي نصوص، إذ إن معظم الألواح كانت تأتي من الفترة الثالثة من الاحتلال، وقد انتهت هذه الفترة بحدوث كارثة وهي حدوث حرائق عامة.

ومن الممكن أن يكون المكان قد هوجم ونُهبَ وبمرور الزمن بعد نحو ثلاثين إلى خمسين عاماً بقي المكان فيها في حالة خراب، ثم عاد الآشوريون التجار واستأنفوا احتلالهم للمكان وبدأت الوثائق تظهر مرة أخرى وكانت أقدم وثيقة قد كتبت أثناء حكم شمسي أداد (١٨١٣ – ١٧٨١) ق.م، وتضع الفترة التي لم يحدث فيها أي احتلال نهاية المجموعة الرئيسية الأقدم من الوثائق وعهدها فيما بين ١٨٦٠ و١٨٤٠ ق.م، وهكذا فهي تغطي حوالي ستين إلى ثمانين عاماً تشمل حكم ايريشوم الأول (الذي امتد أربعين عاماً بدءاً من عام ١٩٠٠) وهذه النتيجة التاريخية تتطابق مع الحقيقة التي مفادها أن أيريشوم كان أقدم حاكم آشوري مذكور في النصوص الكانيشية، ولقد لاحظنا سابقاً نشاطات هذا الملك التجارية في بابل ولذلك فإنه من المعقول أن نفترض أنه بالإضافة إلى ذلك قد قدَّم تأييداً نشيطاً للتجارة مع كابادوكيا.

ويقترح البعض أن يكون أيريشوم قد آسس بعض المستعمرات الآشورية في كانيش وأماكن أخرى كعمل رزين من أعمال السياسة، ولكن لا يبدو هذا الرأي مقبولاً فالبنية التحتية المشمولة في هذه التجارة من الصعب أن تنشأ فجأة بمجرد إصدار قرار سياسي إذ إنها لابُدَّ أن نمت ونشأت عن طريق توسُّع تدريجي في الاتصالات خلال مدة طويلة من الزمن.

الفصل الثالث

الفترة الفاصلة الحورية

من ظلال التبعيَّة حتى الاستقلال

تعد العلاقات مع كابادوكيا في التاريخ الآشوري مظهراً حضارياً نمتلك معظم التفاصيل الوافية عنه بالنسبة لبداية الألف الثاني ق.م، ولكن حدثت أشياء أخرى قدر لها أن تكون ذات تأثيرات بالغة على آشور، إذ ولمدة قرنين بدأ الشعب السامي المعروف باسم العموريين بالتحرك خارجين من الصحراء العربية السورية والإقامة في الأراضي الخصبة حولها، وكان ضغطهم هذا سبباً وعاملاً من عوامل انهيار أسرة أور الثالثة، حيث بدأت مجموعات من العموريين بالاستقرار على طول نهر الفرات في بابل وشكلت أُسراً محليّةً، وربما كان هجوم أيريشوم وغزوه لبابل سبباً عن أرباك وتشويش الحركة التجارية هناك من قبل العموريين، وأن إعلان والده ايلوشوما عن عزمه على إقامة وتأمين الحرية لشعب أكاد ربما يعكس تبريراً لتلك التدخلات.

مملكة شمسي أداد الأول

ومع أن آشور التي كانت تحجبها مدن مثل ماري الواقعة في أواسط الفرات لم تتأثر بنفس الدرجة التي تأثرت بها بابل من الموجات الأولى للضغوط العمورية، إلاّ أن آشور لم تستطع أن تبقى معزولة بشكل غير محدود، ففي أواسط منطقة الفرات الأوسط قام زعيم إحدى القبائل العمورية المدعو ايلوكبكبي (وقد ذكر اسمه في قائمة ملوك آشور) بإنشاء مملكة صغيرة لنفسه، وكان له ابن وهو شمسي أداد الذي قضى بعض الوقت في بابل ، إذ من المحتمل أنه قد أرسل إلى هناك ليكون تابعاً لملك آشور في ذلك الوقت ولمعالجة التهديدات ضد الأمن الآشوري، ولكن شمسي أداد عاد من بابل مملوءاً بالطموح.

وقد استولى في أول الأمر على إحدى القلاع المدعوة (ايكالامو) المشرفة على المنطقة إلى الغرب من دجلة، وبعد ذلك وبعد ثلاث سنوات نصَّبَتْهُ آشور ملكاً عليها، فبادر إلى توسيع سيطرته حتى منتصف منطقة الفرات الوسطى التي نشأ فيها، وهناك كانت المدينة والمملكة الرئيسية ماري التي نجح في ضمِّها إليه.

وهنا نجد لدينا بعض الصعوبات في الحصول على المعلومات اعتباراً من هذه النقطة ولمدة جيل من الأجيال، ويأتي قسم قليل من هذه المصاعب من النقوش الرسمية التي تركها (شمسي أداد) وهي الكميات الكبيرة من المحفوظات التي وجدت في ماري.

وكان موقع ماري موقعاً استراتيجياً في منتصف الفرات وكان لها شبكات من العلاقات مع بابل وسورية وتعكس المحفوظات المحتوية عشرات الألوف من الوثائق هذا الشيء، وقد أقام شمسي أداد مع أنه كان يعد آشور عاصمته الرسمية وكان يجبي الأتاوات والخراج منها، أقام في (شوبات نليل) الواقعة إلى الشمال الغربي حيث كان قريباً من التيارات السياسية في سورية، ولأجل السيطرة على منطقة الدجلة الأوسط والفرات الأوسط فقد نصَّب ابنه الأكبر كملك تابع في (ايكالاتو) والابن الأصغر (ياسماخ أداد) في ماري، وتقدِّم المراسلات التي وجدت في ماري والتي جرت بين ياسماخ أداد ووالده وأخيه وبعض الأشخاص الآخرين، تفاصيل حول الحوادث في ذلك الزمن، وهناك مجموعة صغيرة من النصوص تعود إلى نفس الفترة وجدت في موقع (شمشارا) قرب رانيا في كردستان العراقية، تظهر أن مملكة شمسي أداد قد امتدت حتى زاغروس شرقاً.

وحتى هذا الزمن ليس لدينا أي شواهد تشير إلى أن المدن الثلاث الرئيسية في آشور ونينوى وأربيل كانت متحدة في مملكة واحدة، ولكن هذا الوضع قد تغير بمجيء شمسي أداد وأصبحت هذه المدن جزءاً من مملكة واحدة، إذ نجد أن الملك كان يجدد بناء أحد المعابد في نينوى ويسجل انتصاراته على جميع المدن المُحصنة في أرض أربيل، وقد سيطر أيضاً على منطقة (أرانجا) (كركوك الحديثة) بحيث أصبحت جميع مناطق آشور قاطبة تحت حكمه مملكة واحدة، وقد امتدت

المنطقة التي كان يسيطر عليها شمسي أداد وأولاده من الفرات ومن نهر (أضايم) إلى مشارف هضبة الأناضول عبارة عن ثلاثمائة ميل من كل جهة، وقد امتدت سيطرته دبلوماسياً إلى أبعد من ذلك فقد لمس التجار الآشوريون في مستعمرة كابادوكيا نشاطاً متجدداً، وقد ادَّعى شمسي أداد أنه وضع أنصابه الحجرية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط، ومن الواضح أن الحكام العموريين المعاصرين عدوا شمسي أداد القوة العظمى.

كيف نجح شمسي أداد في جعل آشور أبرز وأعظم مملكة في عصره؟

هناك عاملان ينبغي أن ننظر إليهما بالحسبان وهما كفاءته الإدارية ومهارته السياسية، وأن مراسلاته الواسعة تظهر أن شمسي أداد كان يعطي عيناً ساهرة بالنسبة لهذه الأشياء ولجميع الأشياء حوله صغيرها وكبيرها التي لها علاقة بتسيير شؤون مملكته بكفاءة (ويمكن أن ينطبق هذا القول عن معاصر شمسي أداد الناجح وهو (حمورابي) في بابل فقد أنشأ شبكة من الموظفين الأكفاء.

فهو يقول: ((إنني عيَّنْتُ حكامي في كل مكان)) وتحت الحكام كانت هناك سلسلة من الإداريين وناقلي الأخبار وموظفي الإحصاء الخ..

وقد نجح شمسي أداد بالتحالف إما عن طريق المعاهدات أو بواسطة المصاهرة مع أمراء حاكمين آخرين ولاسيما في سورية، ولكن كان جزء من نجاح شمسي أداد دون شك استخدامه القوة العسكرية.

وبموازاة إدعائه أنه قد عين الحكام في كل مكان، فإنه قد وضع الحاميات العسكرية في كل مكان أيضاً، ولدعم الحاميات الدائمة أرسلت الفرق العسكرية في حملات خاصة، وقد اشتملت هذه الحملات في إحدى الحالات على ستين ألفاً، وأما فنون الحصار التي بلغ الآشوريون الشأو الأعظم فيها منذ الألف الأول ق.م، فقد وصلت درجة عالية من الكفاءة بما فيها من استعمال آلات الحصار.

ولكن امتدادات مملكة شمسي أداد قد نقصت وتقهقرت بعد موته بالسرعة التي وصلتها في حياته، وتذكر قائمة الملوك الآشوريين أن ابنه (شمسي راكان)

قد حكم مدة أربعين عاماً، ولكن حكمه كان محصوراً بآشور وفي المنطقة المحيطة بآشور ونينوى وأربيل وأرانجا (كركوك).

وهناك شك حول حكمه المدينة الأخيرة، أما ممتلكات آشور الأوسع بمحاذاة الفرات الأوسط وشمال شرقي سورية وحتى مسكن والده المفضل في (شوبات اينليل) كل هذه المواقع قد سُلبت من سيطرته.

وبعد ذلك النور الذي سطع في فترة شمسي أداد وأولاده نجد أنفسنا ننتقل إلى أقاليم مظلمة من التاريخ، لأنه وفي القرون الثلاثة التالية فإن النقوش ومحفوظات الملوك الآشوريين أصبحت قليلة ونادرة وأحياناً انقطعت، مع أن قائمة الملوك الآشوريين تدل على تتابع غير منقطع للملوك الآشوريين، فقد أصبحت سلطة ملك آشور لا تتجاوز مدينته ولم تتجاوز منطقة شمال نينوى وأربيل.

المهاجرون الحوريون

عندما ركزنا على أعمال شمسي أداد الباهرة لم نُعط اهتماماً كبيراً بالنسبة للحالة العرقية في المنطقة الواقعة تحت حكمه ما عدا ذكر العموريين، والحقيقة كانت هناك حركات عرقية جارية وقد قُدر لها أن تكون ذات نتائج بالغة بالنسبة لآشور، وإن أهم مجموعة في هذا الصدد هم الشعب المدعو الحوريون، ولقد تكلم هؤلاء لغة مختلفة عن كلا السومريين والأكاديين بحيث إن أسماء الحوريين الشخصية مميّزة وتؤلف علامات واضحة تدل على الأشخاص من أصل حوري، وهذه الشواهد تشير إلى وجود الحوريين في جنوب ما بين النهرين منذ فترة (أكاد) وفي حوالي نهاية تلك الفترة حيث نشأت دول صغيرة قصيرة العمر في منطقة الخابور يحكمها حكام يحملون أسماء حورية، وسرعان ما وجدت عدة أسماء حورية في فترة الأسرة الثالثة في أور في المنطقة شمال نهر ديالا.

وهناك دلالات تشير بأن هؤلاء الحوريين قد أتوا من الشمال إلى منطقة ما بين النهرين، وربما من مرتفعات أرمينيا، ويناقش بعض مناقضي هذا الرأي بقولهم إن الحوريين كانوا هم سكان آشور الأصليين قد دُفِعوا وأخرجوا على أيدي

الساميين المهاجرين إلى سفوح التلال في الألف الثالث ق.م، ولكن هذه النظرية كانت مؤسسة على تحاليل غامضة لأسماء الأمكنة القديمة التي تعد حورية.

أصبح الحوريون واسعي الانتشار في شمال منطقة ما بين النهرين في زمن شمسي أداد ومع مناطق إلى الغرب من (طور عابدين) التي حكمها أمراء الحوريين، وكان هناك عنصر قوي من عناصر الحوريين في زاغروس أيضاً، وقد تزوج أحد أحفاد شمسي أداد سيدة أو أميرة من إحدى القبائل القوية هناك التي كان اسمها يدل أنها حورية، وفي سورية أصبح الحوريون عنصراً قوياً في ألالاخ وهي مدينة واقعة على نهر العاصي معروفة من كمية من الألواح الفخارية التي وجدت هناك.

ويظهر أن حركتين عرقيتين كانتا تتحركان في الوقت نفسه ، الحوريون الذين أتوا إلى منطقة ما بين النهرين وسورية من الشمال الشرقي. في نفس الوقت الذي كان العموريون يتحركون آتين من الصحراء السورية مع بعض التجاوزات التي تظهر أن الفرات قد شكل حداً فاصلاً بينهم، وفي منطقة أواسط الفرات كان العموريون ذوي السيادة ولكن إذا اتجهنا شمالاً نجد الحوريين قد أصبحوا العنصر المهم، وهناك تطورت في منطقة الخابور العليا السلطة الحورية، بينما إذا اتجهنا جنوباً كان العموريون ذوي نفوذ مرموق على بابل، أما في آشور ففي أثناء منتصف الألف الثاني فقد كان الحوريون هم المتفوقون ثقافياً وسياسياً إلى حدٍ ما.

لم يكن الحوريون هم الشعب الوحيد الذين انطلقوا كقوة سياسية وثقافية جديدة خلال الألف الثاني، ففي الأناضول المجاورة لأراضي الحوريين كان هناك الحثيون وهم مجموعة من الشعوب الذين يتكلمون اللغات الهندو أوروبية، ولقد دخلوا الأناضول من الشمال فيما وراء البحر الأسود في وقت لا يبتعد عن بداية الألف الثاني، وقد أسس هؤلاء مملكة في منطقة نهر (هاليس) (كوزول ايرماك) وانتشروا بالتدريج في نفوذهم جنوباً حتى الفرات وشمال سورية وكليكيا، وهذا سبب احتكاكهم بالمناطق التي يسيطر عليها الحوريون ثقافياً وسياسياً، وبذلك نشأت منافسات وحزازات ثقافية متبادلة ما بين الحثيين والحوريين.

مملكة ميتاني

في منتصف القرن السابع عشر أصبح الحوريون منظمين تنظيماً كافياً بحيث استطاعوا مهاجمة مملكة الحثيين إلى الشمال الغربي من مملكتهم، وهناك نقش يعود إلى أحد ملوك الحثيين يسجّل وجود هجوم خطير على مملكته من قِبَل شعب يدعى الحوريون (الهاني جاليات) وسوف نقابل هذه الأسماء فيما بعد.

وهناك نص آخر حول الأنشطة الحربية في تلك الفترة يذكر أسماء أربعة ملوك من ملوك شعب الحوريين، وهذا يظهر أنهم كانوا لا يزالون اتحاداً وليس مملكة موحدة، وبعد عام (١٥٥٠) بقليل ظهرت مملكة مؤسسة على قواعد حورية تدعى: ميتاني إلى الشرق من نهر الفرات، وقد وجدت دويلات أخرى مشابهة في سورية وكليكيا وشمال ميتاني، وكانت ميتاني أقوى الممالك الحورية وقد ناوشت وأحياناً حاربت كلاً من الحثيين والمصريين وهما القوتان الرئيسيتان في منتصف الألف الثاني ق.م.

وفي حوالي عام (١٤٧٢) اصطدم أحد ملوك ميتاني مع تحتمس الثالث ملك مصر الذي ادعى أنه قد سيطر على سورية واخترق بجيشه الحدود حتى نهر الفرات، وقد كان هذا الردع الميتاني ما رحَّبت به الدويلات الأخرى في الشرق الأدنى، وأرسلت آشور بالإضافة إلى بابل والحثيين هدايا وتهنئة لتحتمس عدها المصريون لزيادة نفوذهم وهيبتهم عبارة عن جزية.

لدينا تفاصيل قليلة حول ظهور ميتاني ولا يمكن معرفة ذلك بالضبط إلا بعد اكتشاف المحفوظات الميتانية الرئيسية، ولا نعلم إذا كان هناك محفوظات لدى الميتانيين إذ أشك في وجودها، فقد وجدت بضعة رسائل من ميتاني بشكل ألواح من الفخار منقوشة بالخط المسماري في تل العمارنة في مصر، وهناك دلالات على وجود مراسلات بين ميتاني والدول المجاورة، ولقد مُلئت الفجوة في الشواهد بشكل جيد لمجرد التخمين...

وهناك إحدى الفرضيات، التي رُفضت، مع أنها ظلت موثوقة لعدة سنوات، وهي تصف ميتاني بأنها عبارة عن تكافل من الأجناس.

وطبقاً لهذه الفرضية فإن دولة ميتاني ظهرت عندما تركت الأرستقراطية الآرية (الهندو إيرانية) التي كانت تمتلك الخيول والعربات، وذهبت وهي من الهجرات الآرية الرئيسية من جنوب شرقي آسيا إلى الهند في أوائل الألف الثاني ق.م، وقد فرضت نفسها على المجموعات الحورية.

ولكن أحد العلماء الروس ذي البصيرة النيرة نقض هذه النظرية نهائياً، وقد أشار هذا العالم أن الأساس الرئيسي لهذه النظرية هو وجود بعض الرقم الهندو أوروبية خمس مرات في بعض النصوص التي تعد بعشرات الألوف، ووجود اصطلاحين أو ثلاثة تتعلق بتمرينات الخيول، ووجود أربعة أسماء آلهة هندو أوروبية بشكل حوري، ونحو عشرين من الأسماء الشخصية من أصول غير معروفة التي تظهر بشكل سطحي كما لو أنها كانت هندو إيرانية.

إن الأهمية الرئيسية بالنسبة للتاريخ الآشوري الذي يصف مملكة ميتاني الحورية هي أنها حالما توسعت بدأت بالتحرك شرقاً إلى أراضٍ ما نفهم عادة بأنها أراضي آشور التي حولوها إلى أراضٍ تابعة لهم، ولكن قسماً من آشور كان ما يزال مستقلاً في النصف الثاني من القرن السادس عشر، نظراً لأنه وبعد عام (١٥٥٠) -إذا كُنا نستطيع الوثوق بأي تاريخ- فإن أحد ملوك آشور الصغار الأهمية استطاع عقد معاهدة حدودية مع بابل، وهناك دلالة أخرى تدل على استمرار استقلال آشور، وهي الهدية التي أرسلتها آشور إلى مصر بعد الصدام الذي حدث بين مصر وميتاني عام (١٤٧٢) وظهر أنه بعد هذا التاريخ بزمن قصير استطاع الملك الميتاني زواستر ضم آشور إلى حكمه.

ضم آشور

لقد سُجِّل أن زواستر نهب من آشور باباً مرصعاً بالفضة والذهب زين به قصره في (وشوكاني) وكان هذا قد حدث أثناء غارة خاطفة، ولكن هناك شواهد تدل على وجود ميتاني في آشور فترة طويلة، إذ أصبح ملوك آشور الآن تابعين لميتاني ولم يكن حكمهم إلا بالاسم فحسب، وتذكر النصوص الشرعية التي وجدت في

آشور ابتداءً من القرن الخامس عشر وجود موظفين بأسماء حورية، وترك موظفان أنصاباً تدل أن أسلافهم قد خدموا ملك (هاني جالبات) وهو اسم آخر لميتاني، ويذكر الملك الآشوري (آشورا بالبيت) في عام (١٣٦٠) أن ملك (هاني جالبات) كان أحد أسلافه قبل عدة أجيال، ولقد امتدت سيطرة ميتاني عبر بلاد آشور حتى (زاغروس) وإلى الجنوب الشرقي لتشمل منطقة كركوك.

وتحت سيادة ميتاني أصبحت آشور ذات وضع ثانوي حيث إنه ولمدة حكم ستة ملوك حتى عام (١٤٢٠) لم يلاحظ وجود أي نقوش ملكية أبداً، وقد وجدت هذه الشواهد عن أحوال آشور في تلك الفترة من محفوظات وجدت في بعض البلدات في منطقة كركوك، ومعظمها من موقع يدعى (نوزي) وهذه الوثائق تعطينا إدراكاً ممتعاً بالنسبة للحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة (نوزي) ويظهر أن نفوذ الثقافة الحورية كان قوياً جداً، وليس هناك من شيء يوحي أن منطقة نوزي التي كانت هامشية سياسياً وثقافياً بالنسبة لآشور قد أصبحت ذات أهمية عظيمة أكثر من ذي قبل، وأن التأكيد الظاهر على هذه المنطقة في ذلك الوقت ما هو إلا مجرد حادث سببته الاكتشافات الأثرية.

وهناك شيء واحد تظهره لنا وثائق (نوزي) حول آشور بصورة عامة أنه وأثناء الحكم والسيطرة الميتانية، لم تكن آشور مملكة واحدة حتى وعندما كانت تابعة لميتاني، إذ إن منطقة (نوزي) المؤسسة على أرانجا (كركوك) كانت تعامل بالتأكيد كمملكة ثانوية لها ملكها الضعيف الخاص بها وهي منفصلة عن آشور إدارياً، وهناك ثلاثة ملوك من (أرانجا) معروفون بأسمائهم، وكان هناك حضور ميتاني قوي هناك، وقد وجد كثير من الأشخاص هناك يحملون أسماء (هنيجالباتية) أي: (ميتانية) وكان بعضهم مقيماً هناك ويستلمون إعاشات غذائية، والآخرون مستقرون بصورة مؤقتة كموظفين أو مراسلين، وأن التنويه بالعربات الحربية الهنيجالباتية يبرهن على وجود وحدات عسكرية ميتانية، وكانت مراكز آشور وأربيل ونينوى مناطق إدارية منفصلة، مع أن الشواهد على ذلك لم تظهر بعد.

استقلال آشور

عند نهاية القرن الخامس عشر ظهرت دلالات عن بداية انتعاش آشور، فقد بدأ إعادة بناء أسوار آشور، نظراً لأن وجود أسوار في أي عاصمة قديمة في الشرق الأدنى كان دلالة على استقلالها، لاسيما وأنه قد عقدت معاهدة حدودية بين آشور وبابل، ونحو عام ١٤٠٠ ق.م أظهر أحد ملوك آشور أنه رجل الموقف عندما تراسل مع ملك مصر واستحق هدية مقدارها عشرون مثقالاً من الذهب، تلك الحقيقة التي ذكرها خليفته الثاني آشور أباليت الأول (١٣٦٥ – ١٣٣٠).

ويخبرنا أحد ملوك ميتاني عن الظروف ولكن ليس في السنة ذاتها التي تخلصت بها سورية من السيطرة الميتانية، وتأتي هذه المعلومات من معاهدة (مؤلفة من نسختين عقدت بين ميتاني والحثيين، ومع هذا الوضع وجدت مملكة حورية ثانية بجانب ميتاني تعرف باسم حوري مع وجود المنافسة بين حاكمي المملكتين الأقرباء. وعندما ظهر الاحتكاك الأوسع بين ميتاني والحثيين سمح الموقف الموالي للحثيين في حوري أن يهاجم هؤلاء ميتاني، وتبع ذلك حدوث أزمة في ميتاني وفي آشور ومملكة أخرى، وقد انتهز هذه الفرصة (الشي) (ربما في طور عابدين) ليستولي على أراضي ميتاني، ولم يذكر اسم الملك الآشوري ذي العلاقة ولكن التواريخ تشير أنه والد (آشور أبانيت) المدعو (ايريبا أداد) ١٣٩٢ – ١٣٦٦.

وعندما كتب آشور أباليت رسالة إلى ملك مصر بعد عام ١٣٦٥ فقد كان قد تحرر من آخر مظهر من مظاهر تابعيته للسيطرة الميتانية، وشعر بأنه قادر على التكلم معه كالنِد للنِدّ وخاطبه باسم أخي؛ ولم يُقبل استقلال آشور الجديد من قبل الجميع، فقد شكا ملك بابل إلى ملك مصر ضد الآشوريين عندما ادعى أن هؤلاء من أتباعه، فقد قال في الرسالة إلى ملك مصر:

«لماذا أتى هؤلاء الآشوريون الذين هم أتباعي إلى بلادك؟ فإذا كنت تحبّني لا تدعهم يحصلون على ما يريدون بل أرجعهم فارغي اليد».

ولكن إدعاء ملك بابل بأن الآشوريين أتباعه لم يكن سوى انعكاس لبداية طموح لا طاقة له به، وهو أن يعيد السيطرة على جيرانه الشماليين نظراً لأن حكم الميتانيين الآشوريين قد انتهى.

لقد بدأت آشور تزيد من أهميتها الدولية أثناء حكم (آشور أباليت) فنحن نعلم أنه كان لديه روابط أسرية مع بابل، وكان قادتها راغبين في التدخل في قضايا وراثة العرش هناك، وهناك نص يدل ويسجل المواجهة بين بابل وآشور يخبرنا مايلي:

فر زمن آشور أباليت ملك آشور فجردت جنود كابايت ضد كاراهار داشن ملك كاردونيش (بابل) وهو ابن السيدة (موباليتات شيروا) وهي ابنة آشور أباليت وقتلوه.. وقد ذهب آشور أباليت إلى كاردونيش لينتقم لحفيده ولتنصيب كوريجالزو الأصغر ملكاً.

الروابط مع مصر

وكما ذكرنا آنفاً كان آشور أباليت يتراسل مع ملك مصر ولدينا رسالتان من رسائله وإحداهما تستحق أن ننقلها للقارئ كاملة وهي:

((إلى ملك مصر، هكذا يقول ملك آشور، أتمنى أن تكون بصحة جيدة، وكذلك أهلك وبلادك وعرباتك الحربية وجنودك لقد أرسلت مبعوثي إليك ليراك ويرى بلادك، لقد بدأت بالاتصال بك اليوم نظراً لأنه وحتى هذا الزمن لم يتصل أحد من أجدادي بكم، ولقد أرسلت لك عربة حربية جميلة وجوهرة من اللازورد الحقيقي، لا تؤخر رسولي الذي أرسلته لرؤيتك فهو سوف يراك ويعود، دعه يطلع على أحوالك وبلادك وبعدها دعه يعود)).

نحن نرى أن الملك يؤكد أن المبعوث لا ينبغي أن يبقى في مصر بل ليعود إلى آشور فوراً بعد أن يطلع على مصر والملك المصري، ومن الواضح أن آشور أباليت لم يفكر أن يصبح تابعاً لمصر بل كان ينوي أن يستفيد من هذه الروابط مع مصر ما هو من مصلحة آشور..

إن الهدايا التي أرسلها آشور أباليت تستحق التعليق وهي تدعى سولمانو **Sulmanu** وهذا معناه هدايا للمبادرة بصنع علاقات ودية مع توقع شيء مقابل ذلك، وهذا هو السولمانو **Sulmanu**، وهي مقدمة لعلاقات تجارية فضلاً عن علاقات سياسية، وهذا ينطبق على تقاليد آشور بالنسبة للتجارة العالمية المتمثلة بالعلاقات القديمة مع الأناضول الوسطى.

لقد افتتحت الصلات المصرية المرتقبة، وهذا يظهر من الرسالة الثانية التي وجدت في المحفوظات المصرية من آشور أباليت، وهي تشير إلى أن الرسل من مصر إلى آشور قد قوبلوا بالحفاوة البالغة في البلاط الآشوري، وهكذا بدأت التجارة، أو كانت على وشك أن تبدأ نظراً لأن آشور أباليت قد أرسل هدايا أخرى وطلب كمية مناسبة من الذهب مقابل ذلك لأجل زخرفة القصر الذي كان يبنيه، ولقد أصرً على طلب الذهب وأكد أن الكمية التي أرسلها لم تكن أقل من الكمية التي أرسلت إلى بعض الملوك القدامى فحسب بل إنها كانت غير كافية لتغطية المصاريف للحفاظ على العلاقات المصرية، وهذه الإشارة الواضحة الصريحة لمظاهر الربح والخسارة من الواضح أنها سوف تثير العناصر التجارية في هذه المفاوضات.

من الملكية إلى الإمبراطورية

إن آشور أباليت هو الذي تعود إليه بداية الإمبراطورية الآشورية، إلا أن آشور نفسها هي التي مارست النقض والإبطال، ولكن هذه لم تقدم أي كبح دائم لعملية قيامها بتوسعها في الشرق الأدنى، وكان للدول الأخرى طريقتها بالتوسع ولكن لم يكن هناك أي دولة تستطيع أن تباري آشور في طلب السيادة لمدة قرون على أراضٍ فيما وراء حدودها الطبيعية.

لم يعطنا آشور أباليت نفسه أي تفاصيل عن حملاته العسكرية، ولكننا نعلم عن مثل هذه الحملات من بعض التلميحات من قِبَل ذريته، وهذه التلميحات تدل على أنه قد بادر بالهجوم شمالاً، وهذا كان طبيعياً زمن ملك نشيط في آشور

التي قد تحررت حديثاً من الحكم الأجنبي، وكانت إحدى مشكلات آشور المناطق الجبلية فيما وراء نينوى وأربيل إلى الشمال والشرق، حيث كان الرجال الجبليون يقومون بغارات على سهول آشور، وكانت هذه المناطق مهمة لكونها مصادر للحصول على الخامات المعدنية والخشب والحجارة نصف الكريمة، وكانت تحتوي على مناطق مهمة لتربية الخيول، وحالما بدأ الملوك الآشوريون في كتابة النقوش التي تعطي أوصافاً مفصلة لحملاتهم أصبحت النشاطات العسكرية في الجبال الشمالية والشرقية موضوعاً كثير الحدوث، ولسوء الحظ فإن المناطق ذات العلاقة، مثل المناطق الجبلية في العراق وسورية وتركيا وإيران، كانت لا تزال حساسة، وهذا يفرض إعادة إمكان عمل مسح لهذه المناطق مما ترك شكوكاً لا بأس بها حول تحديد الأمكنة المذكورة في النقوش الآشورية.

ولقد قال الحفيد الأكبر لآشور أباليت عنه إنه كان حريصاً على تأمين الأمن والسلامة لنفسه في أي مناطق بعيدة حتى حدود الجبال، وقد عزا لنفسه النجاح ضد القوى القاطنة في الأراضي الواسعة التي يسكنها (السباريان) وبلاد تدعى (موسري). وإن كلمة السباريان هي كلمة جالبة للمشكلات لها مدلولات مختلفة في فترات متعددة، إن عنصرها الدائم أنها تدل دائماً على شعوب تسكن في شمال المتكلم (وهذه من الممكن أن تعني كلمة تعود إلى عصر ما قبل السومريين تعني الـ[illegible]انيين).

وهذا الاستعمال يعني أن كلمة أرض عند السابريان في ذلك الوقت تشير إلى مكان يقع إلى الشمال من الموصل، وهناك اختلاف حول المكان الدقيق (المصري) ولكن هاتين الكلمتين ربما تدلان على أن آشور أباليت اندفع إلى الشمال الغربي للسيطرة على (طور عابدين) وهضبتها، ونحن نسمع بعد ذلك الشيء الكثير عن هذه المنطقة التي تعرف طبقاً للمصادر الآشورية باسم كاشياري.

وعندما قدَّمنا النصف الثاني للقرن الرابع عشر وقلنا: إنه يؤلف بداية عصر جديد بالنسبة لآشور، كانت هذه التقدمة وسيلة حديثة لفرز التاريخ وتقسيمه إلى شرائح من الممكن التعامل معها، ولقد تعامل الآشوريون وملوكهم مع هذه

الحقيقة بنفس الطريقة وهي حقيقة تعكسها الألقاب الملكية، ومع أننا كنا نتكلم عن الملوك الآشوريين ابتداء من زمن الحكام الوطنيين في الألف الثالث، وجدنا أن حاكماً واحداً لآشور قد اتخذ لقب ملك خلال هذه النقوش الرسمية قبل القرن الرابع عشر، ويكمن تحت هذا سبب من الممكن أن ندعوه لاهوتي أو ديني.. إذ إنه من وجهة الشخص الآشوري المتدين فقد كان الإله آشور هو الملك، أما الحاكم فهو ممثله من البشر.

أما الأبنية الملكية والنقوش الكريمية فقد كانت أصلاً وثائق دينية يقصد بها أن تخلد أعمال الحاكم التقي لتلفت انتباه الإله، وهكذا كان من المناسب أن نقول: إنه وفي مثل هذه الوثائق كان الملك يشير لنفسه بأسماء مثل الحاكم، أو النائب، أو رئيس العمال آو الخدم، أو القاضي الأعلى، ولقد ظهرت بدعة في النقوش الرسمية المتأخرة (لأريك دن ايلي) (١٣١٩ – ١٣٠٨) الذي تجاسر وقدم لنفسه لقب الملك القوي، ملك آشور، وهذا تغيير يوحي بقرار حازم لتقديم اصطلاحات طنانة، فمن جهةٍ حقاً لقد لُقب (أريك دن ايلي) من قبل جده آشور أباليت الذي دعا نفسه ملك آشور، الملك العظيم وذلك في مراسلاته مع ملك مصر وسمى نفسه ملك آشور وذلك في ختمه، ولم يكن نفس هذه الألقاب لتستعمل في النقوش الرسمية المقصود بها اطلاع الآلهة.

ولقد تجاوز (حدد نيراري) وهو ابن (أريك دن ايلي) والده بدعوة نفسه ملك الكون.

لم تكن المناطق الشمالية فقط هي التي تأثرت بتوسع الآشوريين في بدايته، فلقد رأينا أن قتل أحد ملوك بابل وهو حفيد (آشور أباليت) قد أدى بالملك الآشوري للتدخل في شؤون وراثة العرش البابلي، ولقد استمر التوتر الناتج عن ذلك بعد موت آشور أباليت ويوصف خليفته أناليل ناراري الأول (١٣٢٩ – ١٣٢٠) من قِبل حفيده بأنه الرجل الذي ذبح ملوك الكاسيت، وهذا يدل على بابل التي كانت منذ عام ١٦٠٠ تحت حكم الأسرة الكاسيتية من زاغروس، وتذكر إحدى التواريخ معركة آشورية بابلية في مكان على بعد عشرين ميلاً جنوب غرب أربيل،

وقد بدا كما أن ملك بابل قد غزا آشور في محاولة لتأكيد سيادته على آشور التي ادَّعى بها قبل نصف قرن خلال مراسلاته مع ملك مصر، ولكن أضيف وصف آخر منح لأنليل ناريري الأول وهو:

«الشخص الذي وسَّع الحدود والتخوم» وذلك يشير إلى محاولة قام بها لتوسيع أو على الأقل لدعم هذا التوسع تحت حكم آشور أباليت.

ولقد وسَّع الملك الآشوري التالي وهو (أريك دن ايلي) (١٣١٩ – ١٣٠٨)، وطبقاً لما ذكر ابنه، وسَّع الحدود الآشورية وتتفق إحدى التواريخ الآشورية ولكن بتفاصيل تُظهر أن أنشطة (أريك دن ايلي) العسكرية لم تكن مجرد توسع، بل حرباً للحصول على بقاء الوطن، ويذكر هذا التاريخ حادثة طرد الأعداء من منطقة تبعد بضعة أميال إلى الشمال من نينوي، وهذا يدل على أنه حتى وسط البلاد الآشورية كانت مهددةً من قِبل غزاة من سفوح جبال طوروس، وقد تغلب (أريك دن ايلي) على هذه التهديدات واندفع شمالاً إلى طوروس الشرقية حيث سكن الشعب المنتشر بكثافة المدعو شعب (القرطيين) وبعد ذلك اندفع باتجاه شمال غربي للاستيلاء على سهل كادموخ وهو السهل الواقع غربي نهر دجلة والذي تحيط به هضبة (طور عابدين).

الفصل الرابع

توسُّع آشور

ندخل فترة أغنى بكثير بالنسبة للنقوش التاريخية، والملك المقصود هو (حدد نيراري) الأول (١٣٠٧ - ١٢٧٥) وقد كنا نسبْنا الفضل لآشور أباليت باتخاذ الخطوات الأولى التي كانت سوف تؤدي إلى نشوء وارتقاء شأن الإمبراطورية الآشورية، ولقد كانت منجزات (حدد نيراري) كافية لجعل بعض المؤرخين يضعونه في دور مؤسس الإمبراطورية، وهذه النقطة تدعو للجدل ولكن من المؤكد أن حدد نيراري كان شخصية رئيسية بالنسبة للتوسع الآشوري.

حدد نيراري الأول

لقد وصف حدد نيراري نفسه بقاهر الجماعات المتوحشة من قبائل الكاشايت والكوتيان واللولومونيان والسوبريان، وكانت كلمة الكاشايت تعني عادة البابليين في هذا الوقت (من المتحمل هنا بالإشارة إلى الحدود الجنوبية الشرقية لآشور) وكان الآخرون هم الشعوب الجبلية في زاغروس وطوروس الشرقية ابتداءً من جنوب كردستان إلى شمال غرب آشور، وأما في المناطق الأخرى فقد حدد حدد نيراري فتوحاته بمصطلحات أرضية مثلاً من بلدة (لوبدي) وأرض رابيكو إلى ايلوهات، وكانت لوبدي قرب كركوك وهي قلعة تشير إلى الحدود في الغرب.

وأما ايلوهات فلم يتحدد موقعها، وقد ذكر بعضهم أنها واقعة إلى الشمال من ديار بكر، ولكن يظهر أنها كانت إلى الجنوب من ذلك الموقع، وتقع ديار بكر إلى الشمال من هضبة طور عابدين، بينما هناك ثلاث بلدات سماها حدد نيراري كانت بالتأكيد إلى الجنوب من طور عابدين، وهذا يوحي أن حدد نيراري كان يعامل طور عابدين كحدود يسيطر عليها، ونجد الآن أن الجانب الجنوبي من هضبة طور عابدين يرتفع فوق السهل، وهناك قلعة بارزة واقعة فوق تلة (وتدعى الآن ماردين) وهي تحرس أحد الممرات، وابتغاء للأمان فإن أي شعب يحتل السهل

إلى الجنوب من طور عابدين سوف يحاول الاستيلاء على ماردين. وهكذا من الممكن أن تكون نقطة الحدود (ايلوهات) التي ذكرها حدد نيراري، هي ماردين بالذات.

ولقد اشتملت فتوحات حدد نيراري جنوب طور عابدين عدة مدن ميتانية بينها المدينة الميتانية العاصمة وهي واشوكاني (أوشوكاني) وهنا بدأت العلاقات بالتوتر ما بين ميتاني وآشور مع بقية مملكة ميتاني التي يشار إليها الآن باسم هانيجالبات أو (هاليجالبات) التي ادعى الآشوريون أنها خاضعة لهم، وعندما أظهر ملك هانيجالبات العداوة لآشور، عمد (حدد نيراري) إلى اعتقاله ثم جلبه إلى مدينة آشور حيث أقسم بأن يكون تابعاً، وأجبر على إرسال جزية سنوية، ولكن هذه التبعية ضعفت واستغرق توقف هانيجالبات عن المقاومة وقتاً طويلاً، ولكن الملك الذي تلاه أعلن عصيانه وطلب المساعدة العسكرية من الجيش وهي القوة الرئيسية في المنطقة، إلا أن الجيشيين بقوا محايدين في هذا الظرف وبذلك سمحوا لحدد نيراري بالتغلب على قوى هانيجالبات وضم بلاده إلى آشور، ولقد تشجّع حدد نيراري بما لمسه من حياد الحثيين فبدأ بإقامة علاقات سياسية مع ملك الحثيين القوي وتكلم عن الأخوة بينهما.

ولكن الملك الحثي لم يكن متأثراً بالعظمة الآشورية فعامل حدد نيراري بازدراء فكتب له يقول:

((لماذا تود أن أكتب لك حول الأخوة؟ فهل أنت وأنا خُلقنا من نفس الأم؟)).

وبعد أن أصبحت هانيجالبات تحت قبضته أصبح حدد نيراري الآن مسيطراً على المنطقة بأجمعها حتى المنعطف الكبير للفرات، وهو من الحدود الطبيعية الرئيسية، وإلى الغرب والشمال من هذه المنطقة كانت تقع الإمبراطورية الحثية، وهكذا فقد أصبحت المنطقة الغربية والشمالية الواقعة بين دجلة والفرات تحت السيطرة الآشورية حتى المنطقة، حيث يقترب هذان النهران العظيمان من بعضهما في الشمال، وقد ساعد النهران على جعل هذه المنطقة منيعة ولكنهما أعطيا هذه المنطقة أهمية أخرى، إذ نظراً لأن هذين النهرين يحددان الطرق التجارية الرئيسية

في الشرق الأدنى القديم، لهذا أصبحت آشور الآن تمتلك السيطرة على هذه الطرق، مع أننا ينبغي أن نفترض أن أجزاء هذه الطرق التي تسير من غرب الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط كانت تحت سيطرة أيادٍ صديقة، وخوفاً من أن يحدث العكس بالنسبة لهذه المناطق فقد كان هذا سبباً رئيسياً للتوسع خلال منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وأما في الجنوب وإلى الشرق من نهر دجلة فقد كان هناك ثلاثة حدود محتملة ما بين آشور وبابل ابتداء من الشمال إلى الجنوب، وكانت هذه الحدود الثلاثة منحصرة ما بين الروافد الثلاثة وهي الزاب الأدنى والدهم وديالا، ولقد شهدت هذه الحدود تصادمات عديدة خلال التاريخ الآشوري البابلي.

وقد عكس الخط الذي اتخذته هذه الحدود الحالات النسبية الراهنة للمملكتين، إذ إنه وبعد المصادمات الحدودية استطاع حدد نيراري أن يُملي اتفاقاً مع إحدى مناطق الحدود في خط يتبع نهر ديالا من الزاغروس وتلالها حتى نهر دجلة، وقد ظهرت قصائد بطولية وهي إحدى الأعمال الأدبية الآشورية الأولى ألفت للاحتفاء بالنصر الآشوري.

ولكن بابل أيضاً قد أحرزت نصراً ظلَّ وقتاً طويلاً، إذ إنه ومنذ هذا الزمن أصبح هناك تزايد مرموق لنفوذ الثقافة البابلية في آشور فقد أصبح أنليل الذي كان يتمتع بالسيادة في بابل تلك السيادة التي كانت تنتمي إلى الإله آشور في دولة آشور، هذه السيادة للاله أنليل أصبحت واضحة وبارزة في آشور، ولكن كلاً من حدد نيراري وابنه شلمناصر الأول أطلقا على أنفسهما لقباً رئيسياً وهو حاكم الإله أنليل.

وهذا وإن كتابة أول قصيدة آشورية بطولية ذكرت أعلاه ما هي إلا علامة أخرى لوجود النفوذ البابلي في آشور، وأيضاً استعمال اللهجة البابلية (وليس الآشورية) عند كتابة النقوش الملكية الآشورية وهذه اللهجة البابلية قد ازداد عددها ابتداءً من زمن شلمناصر الأول.

شلمناصر الأول

يعود شلمناصر الأول (١٢٧٤ – ١٢٤٥) ق.م وهو ابن حدد نيراري إلى فترة قدر لها أن تلعب دوراً مرموقاً في الشؤون الآشورية خلال القرون الخمسة التالية، فنحن نقابل في نقوشه كلمة يوروواتري الذي تغير إلى يوراتري، ففي أوائل الألف كانت يوروواتري تدل على مملكة قوية متمركزة على بحيرة (فان) شرقي تركيا، وكانت هذه قادرة أن تتحدى الإمبراطورية الآشورية نفسها، ولكن وفي أثناء حكم شلمناصر كانت هذه المملكة تتألف من اتحاد شعوب واقعة في جبال أرمينيا.

ويذكر شلمناصر ثماني أراضٍ جبلية تؤلف اسم يوروواتري، ومع أن هذه لم تصبح مملكة واحدة إلا أنها كانت امتداداً واسعاً من السكان المستفيدين نظراً لأن شلمناصر يتكلم عن تخريبه إحدى وخمسين مدينة من مدنهم، حيث يشير المصطلح الآخر إلى أي مركز سكني ابتداءً من القرية حتى المدينة الرئيسية..

وطبقاً لأفضل الترجمات الحديثة يقول شلمناصر: إنه قد هاجم شعب يوروواتري لأنهم تمردوا. والترجمة تدل أن شلمناصر كان يظن أن هذا الشعب من أتباعه الخاضعين له، ولكن الفعل يستعمل غالباً للدلالة على معنى محايد عن أولئك الذين يعبرون الحدود، ويبدو أنه من المحتمل أن هذا هو المعنى الصحيح للكلمة، فإن بعض شعب يوروواتري كانوا يحاولون الاندفاع جنوباً إلى حيث كان شلمناصر يدعي بأنها أرض آشورية، وهكذا تقدم شلمناصر لمهاجمتهم وصدهم حفاظاً على الأمن القومي.

ويخبرنا شلمناصر أنه قد سجل بعض شباب يوروواتري جنوداً في خدمته، وهذا يعني: وجهاً جديداً في السياسة الآشورية، إذ إنه ابتداءً من هذا الزمن أصبحت تنقل الشعوب المغلوبة على مقياس أصبح واسعاً حقاً، وهذا العمل يتطلب بعض التفسير، فهناك تفسير مألوف وهو أن الهدف الرئيسي للآشوريين هو إسكان الشعوب المغلوبة ذات الميول التمردية حيث لا يستطيعون القيام بأي إزعاج لاسيما إذا سكنوا بين ظهر أي مجموعة عرقية غريبة.

ومن الممكن أن يكون هذا سبباً وجيهاً لهذه السياسة، ولكن من الصعب أن يكون سبباً وتفسيراً كاملاً، فلو كان الأمن العسكري هو الاعتبار الرئيسي فإن الآشوريين الذين لم يكونوا شعباً متأنقاً، فإن باستطاعتهم إحراز هذه الغاية عن طريق القتل الجماعي، ولذلك فإنه من الممكن أن يكون الحافز لهذه العملية من الإبعاد والتهجير الجماعي هو حافز إقتصادي.

وبعد التوسع في داخل هانيجالبات (وهي أساس ميتاني القديمة) فقد كسبت آشور أراضيَ جديدة واسعة لا تمتلك صفات زراعية مزدهرة فحسب، بل بلدات ومدن ناجحة وهذه الأخيرة قد وجد فيها صناعات مزدهرة متعددة من أعمال معدنية، ونشر الخشب، وخراطة بالمخرطة، والبناء، وصناعة الجواهر وهلمَّ جرًا، وقد ألف أصحاب الحرف هؤلاء مجموعة من المختصين يمكن استخدامها لمصلحة آشور.

هذا وإن القوة البشرية الإضافية التي أصبحت متوفرة حالما استولت آشور على مناطق أخرى إلى الشمال، سمحت بالاستثمار الواسع للأراضي الآشورية الزراعية المنتجة، وإن تنفيذ مثل هذه الإجراءات اقتضى حدوث حركات وتنقلات على مقياس واسع للسكان، ويذكر شلمناصر نفسه عن تهجير (١٤،٤٠٠) من الشعب من هانيجالبات، ومن الممكن أن نضيف أنه ذكر قضية إحداث العمى بالنسبة لهؤلاء المهجرين، ولكننا نظن أن العمى كان لعين واحدة فقط، وإلا فإن هؤلاء العميان سوف يصبحون عبئاً اقتصادياً أكثر منهم مصادر قوة نافعة.

ولم يذكر شلمناصر ما فعله بأولئك الأسرى، ولكن هناك بعض الوثائق الإدارية التي صدرت في زمن شلمناصر أو خلفائه أعطت فكرة عما حدث لهؤلاء من أسرى الحرب من المناطق الأخرى، وهذه النصوص تذكر وجود حصص من الإعاشة من الحبوب والصوف، وهذا الأخير كان لتزويد العمال بمادةٍ خام لصنع ملابسهم.

وهناك نص يذكر حصص الإعاشة من القصر (وهذا يعني: رئاسة الإدارة) وهو يعين شخصية المستلمين، وكان هناك (٧٢٠) أسيراً من أراضي شوبرو

مقسمين في أربع مجموعات، كل مجموعة تحت إشراف مشرف آشوري مع وجود رئيس مسؤول عن الجميع، وكان هناك (٩٩) أسيراً من أراضي نياري و (١٧٤) أسيراً من كادموخ تحت إشراف موظفين آشوريين، وكانت هذه الأراضي في المناطق الشمالية.

وكانت كادموخ في المنطقة ما بين الدجلة وطور عابدين، وكانت شويرو داخل أو شمال طور عابدين، كانت نياري تقع إلى الشمال من نهر دجلة وإلى الغرب من بحيرة (فان).

ومع أننا لا نعلم الأعمال التي كان هؤلاء يكلفون بعملها، إلا أننا من الممكن أن نستنتج ذلك، ففي النص يذكر وجود إعاشة (على مقياس أكثر كرماً) لبعض الآشوريين الذين يعملون كبنائين، وإن شمول البنائين الآشوريين يعني: إنهم كانوا مهندسين معماريين يشرفون على أعمال البناء بينما كان يعمل الأجانب كعمال بناء، وينبغي أن نلاحظ أن مجموع العمال الأجانب بالإضافة إلى سبعة موظفين آشوريين مسؤولين عنهم فإن المجموع النهائي يبلغ الألف.

وإذا عُدنا للتاريخ السياسي نجد أنه وخلال حكم شلمناصر كان هناك استئناف لأعمال الشغب في هانيجلبات، فقد ثارت تلك المنطقة بقيادة ملكها التابع لآشور، وهكذا انقض شلمناصر على تلك المنطقة طبقاً للأسلوب الذي اتبعه والده، ولكن ظهر عامل جديد الآن في هذه القضية والوضع وهو أننا نسمع الآن عن شعب يدعى (أخلامو) قد دعموا وساعدوا الهانجالباتيين، وهؤلاء الأخلامو كانو حلفاء للآراميين وهم موجة جديدة من الساميين أتوا من الصحراء خلال الألف الثاني، وقد قُدر لهم أن يقوموا بصدمات وتأثيرات كبيرة في الشرق الأدنى.

وفي هذه المناسبة استلم المتمردون الهانيجالبات مساعدات من الحثيين وكانت هذه المساعدات لا تشمل المساعدات العسكرية ولكنها اشتملت على عقوبات اقتصادية ضد الآشوريين، ففي إحدى المعاهدات مع إحدى الدول الخاضعة وهي دولة أمورو في سورية، يقول الملك الحثي:

((لا ينبغي لأي تاجر من تجاركم أن يذهب إلى بلاد آشور، ولا ينبغي أن تسمحوا لأي تاجر منهم أن يدخل بلادكم)).

وكان الحثيون لا يزالون هم القوة العالمية الرئيسية، ولكن الأهمية المتنامية لآشور قد اعتُرف بها الآن، وعدا عن الاحتكاك فإن كلاً من شلمناصر وخليفته (توكولتي نينوترا) قد قاما بمحادثات دبلوماسية مع الملك الحثي وذلك كما تدل بعض القطع من رسائلهم، ولم يعد الملك الحثي يهزأ بنظيره الآشوري كما حدث في زمن آشور أباليت، ولكنه كان يطلق عليه اسم الأخ المساوي له.

إن التطورات التي حدثت في زمن شلمناصر تقدم لنا الفرصة السانحة للمس طبيعة الملكية الآشورية، ومنذ البداية كنا نتكلم عن الحكام الآشوريين كملوك، ولكن الأشخاص المشار إليهم كانوا غالباً ما يستعملون ألقاباً أخرى، وكانوا يظنون أنفسهم تقريباً ملوكاً، فقد كان الملك الحقيقي للبلاد هو الإله آشور.

ومن وجهة دينية كان الحاكم البشري هو نائب الملك الإلهي، ومع ذلك وبسبب ذلك كانت قوته تعد أكثر من قوة بشرية نظراً لأنه كان يعمل نائباً عن الإله، ونحن نلاحظ هذا الوعي والشعور بأن الملك هو ممثل الإله وبصورة خاصة لدى شلمناصر، فإن توسعه ودخوله المناطق الجبلية الشمالية والشمالية الشرقية قد أدت به أن يفكر أنه هو الراعي الإلهي الذي رفعتهِ الآلهة فوق البشر المتحضرين، ولقد كان يُجبر الآخرين أن يدعوه راعي المجتمع البشري والمستوطنات البشرية، والراعي الصادق، وكان هذا اللقب من ألقابه الفريدة التي استعملها الكثير من خلفائه.

وعلى المستوى الإنساني فإن أنشطة شلمناصر في الحدود الشمالية يبدو انها كانت تضارع اهتماماً جديداً بالمدينة الشمالية العظيمة نينوى، فالنصوص منذ زمن شلمناصر تذكر عن إعادة بناء أحد المعابد هناك بالإضافة إلى معبد يخص آلهة تدعى: آلهة نينوى (أي: عشتار التي يحترمها أهالي نينوى) وقد وجدت هذه النصوص في داخل (العاصمة آشور نفسها).

هذا وقد وجدت أنواع من الألواح المختصة بشؤون العمل في تل (الرماح) على بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الغرب من نينوى، ويعود تاريخها إلى عهد متأخر من حكم شلمناصر أوائل عهد خلافته، وهذا يشهد على وجود تجارة مزدهرة في القطاع الشمالي من آشور بما فيها تجارة القصدير مع بلاد نايري، والأناضول.

وقد سمعنا فيما بعد انه لا شك ولحماية هذه التجارة فإن شلمناصر قد وضع حاميتين في مدينتين على حدود (نايري) ولكن هاتين الحاميتين قد احتلتهما جيوش الآراميين فيما بعد، ومع أن نينوى لم تصبح العاصمة الرسمية لآشور حتى الألف الأول ق.م إلا أن أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية بدأت تتفوق على آشور حالما بدأت فترة توسع الدولة الآشورية شمالاً وغرباً، وإن اهتمام شلمناصر بنينوى يعكس هذا الوضع.

توكولتي نينوترا الأول

لقد استمرت عملية توسع آشور المتحركة تحت حكم توكولتي نينوترا الأول (١٢٤٤ – ١٢٠٨) وهو ابن شلمناصر، وكان هذا من الفاتحين الذين يشبههم البعض بنمرود، وأنه كان نسخة عن نمرود، وهو الذي تصفه التوراة في سفر التكوين (٨/١٠) بكونه الصياد القوي، أمام الإله، وهناك حالات مشتركة بين أعمال توكولتي نينوترا الباهرة وأعمال والده وجده، ولا عجب في ذلك ما دام أن المشكلات التي كانت آشور مضطرة لمعالجتها لم تتغير.. ولكن (توكولتي نينوترا) فاق أجداده ليس في النسبة للمسافة فحسب، بل بالنسبة لاستثمار المناطق التي كانت تدور في فلك آشور.

هذا ولقد أصبح اختراق آشور واضحاً للعيان.. ولقد أصبح توكولتي نينوترا صريحاً بالنسبة للأراضي التي غزتها جيوشه خلال المنطقة الواسعة في الجبال الشمالية التي دعاها أرض القوطيين، وتظهر المعلومات التي أوردها أن لديه معرفة أوفى من معرفة أسلافه بالنسبة لتنظيم الشعب في تلك المنطقة، فلقد سمَّى

المملكة الرئيسية وحددها باسم (اكوميني أو أكوماني وفيما بعد أصبح اسمها كوماني) واستطاع أن يعرف اسم ملكها.

ولقد عرف أن البنية الاجتماعية في تلك المملكة كانت اتحاداً مفككاً تحت حكم الأمراء، ولكنها كانت متقدمة اجتماعياً نظراً لأنه كان فيها مدن مسوَّرة، وكانت جيوشها حسنة التنظيم، وهذه الحقيقة أدَّت إلى اقتراف سكان الجبال خطأً تكتيكياً، إذ بدلاً من الاعتماد على حرب العصابات في أرضهم الجبلية الصعبة، الأمر الذي كان سوف يقدم لهم فوائد للتفوق على الجيوش الغازية، فقد أشركوا قواهم في معركة محددة، وفي مثل هذه الأمور لم يكونوا أكفاء للقوى الآشورية المدربة، وهكذا أصبح توكولتي نينوترا سيداً لأراضي القوط الواسعة، وقد أسر أمراء آكوميني ونقلهم إلى آشور وأخذ منهم عهداً بالولاء، وبعدها سمح لهم بالعودة إلى بلادهم كأتباع.

وهنا نرى المظهر الاقتصادي للفتوحات الآشورية، وذلك لأن أولئك الأمراء الأتباع المغلوبين كانوا خاضعين لنظام التجنيد وجباية الضرائب الذي في هذه الحالة يعني أن عليهم أن يؤمنوا العمال لقطع الأخشاب وإرسالها إلى آشور، وهكذا بدأ توكولتي نينوترا في استثمار غابات طوروس الشرقية خدمة لمشاريعه العمرانية في آشور، وكان على الأمراء تقديم جزية ثقيلة سنوياً لآشور، وكانت الزيارات المنتظمة من هذا النوع تؤمن القناة التي من خلالها يُؤثر النفوذ الثقافي الآشوري على شعب آكوميني، ونجد أيضاً بعض الموظفين من أكوميني يعملون عمالاً في آشور في ذلك الوقت، مقابل استلام الإعاشة من آشور.

ولقد عمل توكولتي نينوترا على جمع أخبار فتوحاته بالوصف الجغرافي لحدوده، التي كانت عبارة عن نصف دائرة من الجبال والأراضي الجبلية ابتداءً من الزَّاب الأدنى حتى الفرات، وتعتمد التفاسير الدقيقة لهذا الوصف على إثبات شخصية الأماكن المذكورة التي لم تكن خالية من الالتباسات، ولكن إحدى التفاسير الممكنة لحدوده موجودة في الخارطة في الصفحة المقابلة.

وبعد أن أصبح الشمال هادئاً اتجه توكولتي نينوترا الآن إلى جارته الجنوبية وهي بابل، وكانت المصادمات الحدودية الظاهرة السائدة في العلاقات الآشورية البابلية، ولكن ما حدث الآن كان مسألة أشد خطورة تطورت إلى غزوة ناجحة لبابل، ولقد أنشدت قصيدة بطولية للاحتفال بهذا النصر وطبقاً لهذه القصيدة التي تعبر عن وجهة النظر الآشورية، فإن الملك البابلي (كاشتيلياش) هو الذي انتهك حرية السلام وذلك بالإغارة على آشور.

ولكن محب السلام (توكولتي نينوترا) عمل على حل الخصام بصبر عن طريق الوسائل الدبلوماسية حتى أجبرته غطرسة الملك البابلي ولم تترك له خياراً سوى إعلان الحرب، ولقد تبع ذلك غزو ونهب وسلب بابل ومعبدها العظيم، قد عُزل ملك بابل وأصبحت بابل محكومة لمدة سبع سنوات من خلال حكام آشوريين.

وكان لهذه الأحداث أبعاد دينية، فلم تكن بابل بلاداً بربرية يمكن غزوها مثل المناطق الواقعة فيما وراء آشور الشمالية، بل كانت مصدراً ومركزاً حضارياً وكانت العاصمة بابل مزاراً دينياً ذا مرتبة عالية للقداسة، وإذا سلبت بابل في العالم القديم كان مثل سلب الفاتيكان أو القدس في هذه الأيام.

وكان للقصيدة البطولية وظيفة تقديم تبرئة دينية لآشور من التهجم ضد الدين والتقوى، فضلاً عن تغذية الشعور بالفخر لدى الآشوريين بالنصر، فقد عمل توكولتي نينوترا ما قصدت القوى الإلهية منه أن يعمل، وتروي القصيدة كيف أن آلهة بابل بالإضافة إلى الحارس الإلهي مردوك في مقدمتهم قد أشاروا في أول الأمر عن عدم رضاهم عن أعمال ملك بابل كاشتيلياش، وذلك برفض أي إشارات مشجعة لمقاومته توكولتي نينوترا، ولهذا فقد هجرته هذه الآلهة كلياً، وانسحبت من تلك المدن التي كانت تخصهم، وقد تمثل هجر مردوخ لمدينته بابل بأن أخذ ملك آشور تمثال الإله مردوخ ونقله إلى آشور حيث ظل هناك نحو قرن من الزمان على الرغم من استعادة بابل لاستقلالها.

وبشكل تهكمي فإن استيلاء ملك آشور على بابل كان له تأثير طويل الأمد على آشور أكثر من تأثيره على بابل نفسها، إذ إنه عن طريق هذا الانتصار والاحتكاك الثقافي الواسع فإن آشور أصبحت مفتوحة لتأثير النفوذ البابلي الديني والسياسي، وبالإضافة إلى ذلك فإن الأسرى الذين أخذوا إلى آشور ومن بينهم ملك بابل كان لهم وقع وتأثير مرموق على آشور، إذ إنه وخلال سبع سنوات حدث عصيان في بابل مما سبب حدوث صدمة بالنسبة لملك آشور.

يذكر ملك آشور في نقشين كتبا في نهاية حكمه أنه وفي بداية حكمه جلب إلى آشور (٢٨٨٠٠) أسير حتى من منطقة فيما وراء نهر الفرات (أي: من شمال سورية) وهذا القول محير وذلك لأنه لم يذكر أي خبر من هذا القبيل في أي نقوش من السنوات الأولى، فنحن نعلم من كثير من الرسائل أن ملك آشور وفي بداية حكمه كان يحاول أن يبدأ علاقات سياسية حسنة مع الحثيين، فهل من المعقول أن يكون ملك آشور قد ألغى نقوشه الماضية للحفاظ على حساسية الحثيين، لكن هذا يبدو غير محتمل الوقوع.

إن أي هجوم عام يقوم به ملك آشور على الأراضي الحثية سوف يُسيئ إلى العلاقات. وبغض النظر عن كون ملك آشور قد اختار أن يسجل هذه الحقيقة أو لا، وعلى كل حال فإن والده شلمناصر في نقوشه يشير إلى ذبح الجيوش الحثية، كانت هذه النقوش موضوعة في آشور بحيث إن المراسلات التي قام بها ملك آشور قلما تسبب الفتور بين الدولتين، ويبدو أن ادعاء ملك آشور بالانتصار على الحثيين لم يكن سوى نوع من المبالغة المؤسسة على غارة بسيطة، وقد قدم هذا الانتصار على الحثيين في نقوشه لتلميع اسمه وصورته عندما ساءت الأمور معه بعد التمرد الناجح الذي حدث في بابل، وهكذا أصبحت كرامته في الميزان فأصبح من الواجب اختراع انتصار ضد قوة عظمى ليقابل تأثيرات حظه العاثر.

وخلال القرون بدل الملوك الآشوريون عواصمهم ومن بينهم توكولتي نينوترا، ولم يوضح الملوك الذين قاموا بالتبديل أسبابهم، ولكن هناك عاملين بارزين يبدو أنهما عملا في ذلك السبيل في درجات متفاوتة.

والأول: كان استراتيجياً، فالعاصمة القديمة ربما كانت لا تصلح بأن تكون مركزاً للدولة في الحالة الراهنة، ولكن هناك عاملاً ثانياً : وهو التوتر الحاصل بين المواطنين والحكومة، ففي المدن القديمة كان المواطنون يتمتعون بحقوق تقليدية بما فيه الإعفاء من بعض أشكال الضرائب فضلاً عن الحقوق المتوارثة على الأرض، فقد كان من الممكن أن تطغى المشاريع العمرانية في العاصمة على حقوق المواطنين تلك، أو ربما كانت احتياجات الدولة الحالية تقنع الملك أن يخفف من الامتيازات الضرائبية للمواطنين، وأن أياً من هذه العوامل سوف يولد الاحتكاك.

وهكذا ولتخفيف مثل هذه الاحتكاكات كان الملك يجد أنه من المرغوب فيه نقل عاصمته، وهذا ما فعله ملك آشور توكولتي نينوترا، فقد بنى في أواخر مدة حكمه عاصمة جديدة هي كار توكولتي نينوترا على الضفة المقابلة لنهر دجلة لآشور، وذلك لكي تستخدم هذه المدينة كمركز لحكومته ابتداء من زمن حملته على بابل حتى نهاية حكمه.

فلقد كانت التوترات خلال دولة آشور هي العامل الرئيسي لبناء العاصمة الجديدة، وقد سبب هذا التوتر إنهاء حكم توكولتي نينوترا وإنهاء حياته أيضاً، وخلال سبع سنوات من تغلب الآشوريين على بابل حدث عصيان هناك سبب إرجاع ملك بابل الشرعي إلى عرشه الموروث من أجداده، وإرجاع استقلال بابل عن آشور، فقد عملت التقاليد الدينية القديمة في الشرق الأدنى على زعزعة حكم توكولتي نينوترا، فقد كان أي عصيان ناجح تهديداً لحكم الملك مستدعياً موافقة الإله على حكم الملك، وكان هذا العصيان خطراً عندما يحدث في بابل نظراً لما تمتعت به بابل وألهتها من هيبة وكرامة.

وهكذا حدث بالنسبة لملك آشور، إذ إنه وطبقاً لبعض التواريخ لقد تبع استيقاظ بابل لنيل الاستقلال حدوث مؤامرة في القصر في كار توكولتي نينوترا، وتقول هذه النبذة التاريخية:

((لقد عمد ابن توكولتي نينوترا وهو آشور ناصر بعل ونبلاء آشور إلى القيام بعصيان ضد الوالد الذي مدَّ يد الشر على بابل، وأنزلوه عن عرشه وسجنوه في بناء في كارتوكولتي بنينوترا، وقتلوه بواسطة أحد الأسلحة)).

لقد سبب قتل الملك مع تورط أمير من الأمراء في الجريمة بعض التشويش والبلبلة في قضية وراثة العرش، وقد انعكست هذه البلبلة على مصادرنا التاريخية، فالقاتل قد ربح العرش مؤقتاً ولكن ومع أنه فعل هذا فإن ذلك لم يدم طويلاً، لأن الوريث الشرعي المعترف به كان ابناً آخر من أبناء توكولتي نينوترا وهو (آشور نادين أبلي) وإن المدة القصيرة التي حكم بها هذا الابن وثلاثة من خلفائه، فقد حكم الأربعة مدة ثمانية وعشرين عاماً فقط، تشير إلى وجود فترة من عدم الاستقرار نتيجة لذلك التوتر الداخلي الذي انعكس من خلال تلك المؤامرة ضد الملك توكولتي نينوترا.

صمت مرحلة الانحطاط

لقد أحب الملوك الآشوريون تسجيل أعمالهم ومآثرهم ليس لاطلاع البشر عليها بل للتأكد أنهم قد حصلوا على التأييد من الآلهة.

وهكذا فإن حدوث فترة تخلو من النقوش الملكية من المحتمل أن تكون فترة افتقر فيها ملك آشور إلى وجود منجزات كبيرة أثناء حكمه، ونحن الآن ندخل في مثل هذه الفترة، فقد أصبحت النقوش قليلة تعكس العجز الذي ضرب آشور، فنحن لا نعرف شيئاً مهماً عن حكم آشور نادين ابلي سوى أن نهر دجلة قد تغير مجراه، فقد عاد إلى مجراه القديم بفضل الأدعية الملكية للآلهة مع مساعدة المهندسين الآشوريين، ولم يكن هذا أمراً سهلاً، فإن انتقال نهر يعني الحكم بالموت على أي مدينة تعتمد على النهر في مواصلاتها وأساليب الري فيها، وحتى حدوث تغيير طفيف في مجرى النهر ربما أدَّى إلى نتائج خطيرة لاسيما بالنسبة لوسائل الدفاع عن المدينة، إما عن طريق تقويض أسس الأسوار والتسبب في

سقوطها، أو عن طريق ترك أجزاء صغيرة من السور كانت تحميها مياه النهر معرضة للانهيار.

والحقيقة أن طوفان المياه كان من الأسباب الأساسية لسقوط آشور نهائياً عندما كانت آخر عاصمة فيها وهي نينوى تحت الحصار عام ٦١٢ ق.م.

وكانت هناك عدة مشكلات تواجه آشور في هذه الفترة المظلمة عدا عن انتقال النهر، فلقد حدثت حركات لبعض الشعوب على مقياس واسع بحراً وبراً في الجزء الشرقي من البحر الأبيض المتوسط مما سبب انهيار الامبراطورية الحثية، وحدوث محاولات استيطانية على طول الشواطئ الشرقية، ولقد كان لهذه الحوادث صدى وآثار تالية على التجارة وطرقها، قد أثرت على آشور بشكل منعكس، بينما أثرت الشعوب المهاجرة تأثيراً مباشراً على ممتلكات آشور الغربية والشمالية، وأصبحت بابل حسب بعض المراسلات بين حكام المملكتين، في حالة ووضع سياسي مكّنها من التدخل في شؤون آشور، وانعكس هذا في قضية وراثة العرش الآشوري، فقد كان الملك الرابع من الملوك الصغار الذين تلوا توكولتي نينوترا واسمه (نينوترا – ابيل – ايكور) بعيداً جداً عن الأسرة الحاكمة بحيث إنه عزا حقه في الوراثة إلى ملك عاش قبل قرنين.

وهكذا أصبح هناك بعض التخلخل في قضية وراثة العرش، وقد أصبحت خلفية هذا الوضع ظاهرة عندما نعلم أن (نينوترا – ابيل – ايكور) حصل على السلطة من إحدى قواعد بابل بعد اصطدام آشوري بابلي، وقد حصل هذا الأمير على السلطة بعد دعم وموافقة بابل.

ولكن وبمرور الزمن فقد خدم هذا التدخل مصالح آشور، إذ أعطى هذا التقارب قاعدة لتجدد الاستقرار الداخلي بحيث إن ابن الملك الجديد وهو آشور – دان الأول (١١٧٩ – ١١٣٤ ق.م) كان حكمه أطول حكم في تاريخ آشور، إذ إن ندرة وجود النقوش توحي أن آشور كانت على طريق التوحد بهدوء، دون حدوث أي مغامرات سياسية وعسكرية.

وقد ذكر عن تصادم حدودي بين آشور وبابل ولكن هذا لم يكن أكثر من حادث عارض موضعي ولم يكن يعني أي اعتداء من قبل إحدى المملكتين.

والحقيقة أنه ونحو منتصف القرن العشرين لم تكن آشور ولا بابل هي التي سيطرت على الحوادث في منطقة ما بين النهرين، بل وجدت قوة ثالثة وهي عيلام في جنوب غرب إيران (خوزستان) فكانت هذه المنطقة ابتداء من الألف الثالث حتى يومنا هذا ذات تورطات قليلة من حين لآخر مع الثقافة والتاريخ في منطقة ما بين النهرين، وقد انعكست هذه الروابط الثقافية في التوراة التي تقول: إن عيلام كان أخا آشور (سفر الخروج ١٠ – ٢٢). مع أنه بالنسبة للغة كانت لغة عيلام مختلفة عن لغة بابل وآشور.

وفي أوائل حكم آشور – دان عندما حدثت بعض الاضطرابات في بابل حاولت عيلام التوسع إلى جنوب ما بين النهرين، فقد غزا أحد حكام عيلام بابل في القرن الثالث عشر، وتصادم هناك مع توكولتي – نينوترا ولكن التوسع العيلامي في القرن الثاني عشر كان قضية طويلة الأمد، فقد هاجم العيلاميون المنطقة المحاذية لنهر ديالا – حيث كان هناك طرق تجارية مهمة ووصلوا إلى بابل نفسها عام ١١٦٠ ق.م، وهكذا انتهت سلالة الملوك الكاشيين القديمة وظل قسم كبير من منطقة شمال شرق بابل تحت الحكم العيلامي نحو ثلاثين عاماً حتى أصبح حكم بابل عبئاً على موارد العيلاميين، ولقد أثر هذا على آشور هامشياً عندما امتدت سيطرة العيلاميين شمالاً تجاه الزاب الأدنى في منطقة حدودية كانت معرَّضة للخصومات ما بين بابل وآشور، ونتج عن ذلك تأكيد أهمية آشور استراتيجياً واقتصادياً في المنطقة إلى الجنوب الشرقي من الزاب الأدنى.

في منطقة الشرق الأدنى القديمة كانت الفرصة الرئيسية لظهور تأثير الرأي العام الشعبي عند موت أحد الملوك، إذ إنه كانت تحدث اضطرابات عند موت أحد الملوك لاسيما إذا كان حكمه طويلاً، تصل إلى حد التمرد.

وكان الأمراء المتنافسون يضعون أنفسم على رأس الفئات المتنافسة، وقد حدث هذا عند موت آشور – دان، عندما اختصم ولداه الذي كانت بابل تؤيد أحدهما، فقد حكم أحدهما وطرد وأما الثاني فمن المحتمل أنه قتل.

هذا وقد عادت الحالة السوية الاعتيادية إلى آشور عند حكم آشور - ريسن - ابشي الأول (١١٣٣ – ١١١٦) ق.م ولكن الحالة الطبيعية الاقتصادية لم تُفقد أبداً، ويمكن أن نستنتج ذلك من نصوص ترجع إلى هذه الفترة تذكر وتسجل وصول بعض الأغنام والمواشي إلى البلاط الملكي من بعض الموظفين المختلفين، وإعطاء الترتيبات المفضلة بالنسبة لتوزيع هذه المواشي في العاصمة، وأما الإنتاج الزراعي والأعمال الرتيبة لشبكة الإدارة الآشورية فقد استمرت ولم تقاطعها سوى بعض المصادمات في الخارج أو النزاعات للحصول على السلطة في الداخل.

الفصل الخامس

الإمبراطورية الآشورية الوسطى

لقد وصلنا الآن إلى واحد من أبرز الشخصيات في التاريخ الآشوري وهو تغلات – بلاسر الأول (١١١٥ – ١٠٧٧) ق.م وهذا يضعنا وجهاً لوجه أمام مشكلة متواترة، فقد بدا أن الفترات التي كانت آشور فيها دولة فتية نشيطة وكان ملوكها شخصيات مرموقة، هذه الفترات كانت تتعاقب في أوجه كانت الشخصيات الرئيسية تذوى وتذوب في خفايا النسيان، وهكذا يجابُهنا السؤال: هل رفع الملوك الأقوياء شأن آشور وقوتها إلى درجة الازدهار عن طريق قدرتها الموروثة الداخلية؟ أم أن تلك الظروف المواتية العالمية التي مرت بها الدولة الآشورية قد أثرت في ملوكها، وأثرت على تجسيد الدولة المنظور بحيث أكسبتها هالة من التصميم والقوة؟ وأظن أن الحقيقة تقع فيما بين هذين الرأيين المتطرفين.

إذ لا يستطيع أي ملك مهما كانت قوته أن يرفع آشور إلى ما كانت عليه من قوة وازدهار ضمن ظروف معاكسة دولياً وأحوال قاسية، ولكن عندما ظهرت ظروف دولية مواتية لآشور فإن أي ملك حازم قادر يستطيع تحقيق الفوائد الكاملة من هذه الظروف.

ففي الجزء الأعظم من القرن الثاني عشر كانت الظروف غير مواتية لتقدم آشور، فلقد ظهر العامل العيلامي ولكن الحركة العنصرية التي حدثت حول الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط والتي كشفت عن خرافة سقوط طروادة بعد أن جرفت وطردت الإمبراطورية الحثية من الأناضول، وجلبت بعض الشعوب الجديدة التي تتمثل في أفضلها المعروفة وهم الفلسطينيون الذين في سورية وفلسطين وهددوا حتى مصر.

ولا شك أن الموجات الطاغية الناتجة عن هذه الحركات (إذا جاز لنا أن نستعمل هذا العنوان لنخفي معرفتنا بالتفاصيل) ينبغي أن تكون قد وصلت إلى

منطقة الفرات وعطلت التجارة على طول ذلك النهر وبذلك قد عطلت النماذج التجارية في آشور نفسها.

تجدد آشور

بدأت المسائل بالتحسن في الثلث الأخير من القرن الثاني عشر عندما ظهر بعض الملوك المرموقين مرة ثانية في آشور وبابل، وتدل النقوش العائدة إلى آشور – ريشن – ايشي أنه كان في وضع يستطيع فيه أن يقوم بزحف على الجبال الواقعة إلى شرق وشمال آشور خارج أراضي آشور الأصلية، ولكنها واقعة ضمن السيطرة الآشورية، وقد ساعد الازدهار المتزايد على تنفيذ بعض مشاريع إعادة البناء مثلاً إصلاح الأبنية المتضررة بسبب حدوث زلزال في أوائل القرن.

وبظهور تغلات بلاسر الأول ابن ووريث آشور – ريشن – إيشي، ظهرت لنا علائم واضحة على انبعاث آشور الذي أصبح ممكناً عند حدوث التجديدات في الظروف العامة، ولكن وبسبب شخصية الملك نفسه، فقد ظهرت استراتيجية واضحة عن طريقها استطاع تغلات بلاسر أن يعالج بنجاح المشكلات المواجهة لآشور، وقد سهّلت كل خطوة من خطواته إقدامه على معالجة الخطوة التالية.

ولكن لدينا الآن الصدى الأخير، وهو حوادث تغلات بلاسر والحركات التي قامت بها الشعوب في شواطئ البحر الأبيض المتوسط وآسيا الصغرى حوالي عام ١٢٠٠ ق.م. ويخبرنا تغلات بلاسر أنه وفي بداية حكمه إلى شعب يبلغ تعداده عشرين ألفاً يدعى شعب الموشكي الذين احتلوا الأراضي الواقعة إلى شمال غرب طور عابدين لمدة خمسين عاماً أتوا واحتلوا أرض (كادموخ) المجاورة لأور من الجهة الشمالية الغربية والتي كانت تعد مقاطعة آشورية، وقد ترك أسلاف الموشكي بعض الشك أنهم أحد الشعوب التي قامت بالهجرات العامة في آسيا الغربية في أواخر الألف الثاني ق.م.

الحرب الوقائية

ليس لدينا أي دلالة عن أي عمل آشوري ضد شعب الموشكي ما داموا ساكنين فيما وراء (طور عابدين) إذ كانت أعمال تغلات بلاسر تنحصر بالدفاع عن أمن آشور ولم تكن أعمالاً عدائية نظراً لأن التدخلات الآشورية إنما بدأت عند غزوهم كادموخ، والحقيقة أن هذه الغزوة اعتبرت تهديداً مباشراً لآشور وذلك لأن تغلات بلاسر قام بهجوم سريع معاكس، وقد سجل أنه لم ينتظر حتى يؤمن مؤخرة الجيش أي: إنه رأى الوضع بشكل ينبغي فيه العمل السريع الذي لا يسمح بالتأخير بالنسبة للإجراءات العادية التكتيكية.

ولقد نجحت هذه الهجمة التلقائية الأولى، فقد وقع ستة آلاف من الموشكي في الأسر وبعد ذلك استقروا في الأراضي التي غزوها واعتبروا كأتباع لآشور، وفضلاً عن مساعدة هؤلاء في الإنتاج الزراعي، فقد كانت لهم فوائد عسكرية لتغلات بلاسر وذلك لأنهم قدموا له (١٢٠) عربة حربية وقطيعاً من الخيول وبعض الملحقين من الموظفين الأكفاء.

إن نجاح العملية ضد شعب الموشكي شجعت تغلات بلاسر على اتخاذ خطوات أخرى في بيان الحرب، فقد عبر بعض أهالي كادموخ الموالين للغزاة إلى الضفة الشمالية من نهر الفرات لكي يتحدوا الآشوريين من قلعة هناك، فقد طارد تغلات بلاسر هؤلاء المتمردين ثم بدأ في خصام مع شعب يدعى بابنجو (من الواضح أنهم كانوا يتكلمون اللغة الحورية، مما يظهر من أسماء ملوكهم) وكان هؤلاء منتشرين إلى الشمال من نهر دجلة، ويظهر أن اسم بابنجو لم يكن اسماً اصطلاحياً عرقياً بل كلمة (حورية) تعني: شعب جبلي.

وبعد مناوشات طفيفة حدثت في جوار نهر دجلة قاد تغلات بلاسر جيشاً واتجه إلى حيث كان شعب البانجو في الداخل، ومع أنه كان يشير إلى حرق المدن والاستيلاء على الغنائم، إلا أن قلة التفاصيل حول أسماء المدن يجعل من الواضح أن هذه الغزوة لم تكن سوى غزوة استطلاعية.

وقد كان لغزوة وعمل تغلات بلاسر القوي الحازم ضد شعب الموشكي في كادموخ آثاره على المناطق المجاورة الواقعة إلى الغرب حيث كان هناك مجموعات أخرى من الشعوب، وقد وصف أحدهم الشعوب بكونه العساكر غير الراضين من الحثيين، وربما كان ذلك يعني المجموعات المنظمة التي انتقلت باتجاه جنوب شرقي بعد تفسخ الامبراطورية الحثية.

وهناك أيضاً ذكر لشعب (كاسكا) الذين كانوا يعيشون بمحاذاة البحر الأسود في فترة سابقة، وربما رحب مثل هؤلاء بالفرصة التي تجعلهم يُقبلون أعضاءً ضمن قوة وطيدة راسخة ولهذا فقد خضع هؤلاء عند قدوم تغلات بلاسر الذي قبلهم أتباعاً له وهكذا بدأ تكوين ذلك التمازج العرقي الفريد الواسع في آشور.

تغلات – بلاسر في الأناضول

لقد تابع تغلات بلاسر غزواته الاستطلاعية فيما وراء كادموخ بقيادة جيشه الرئيسي المدعوم بالعربات الحربية عبر نهر دجلة ثم شمالاً إلى داخل أرض (بانجو) وحيث كانت الجبال غير صالحة لسير العربات يخبرنا تغلات بلاسر أن جنوده كانوا يحركون العربات بالقوة البدنية فقط وذلك لأن ذلك كان ضرورة في بعض الأحيان، ولكن كان هناك طرقات يمكن أن تمر بها العربات بسهولة فوق جزء كبير من تلك المنطقة، ولقد حاول شعب (بانجو) إيقاف جيش تغلات بلاسر عن طريق بعض المناوشات في الجبال ولكنهم فشلوا واستمر الجيش الآشوري في تخريب ونهب عدد من الأراضي في (بانجو).

وقد عدد أسماء تلك الأماكن مما يدل أنه كان على معرفة بالمنطقة، ويبرهن تعداده لأراضٍ مختلفة أنه لم يكن هناك أي مملكة قد نشأت هناك.

من الواضح أن حملات تغلات بلاسر قد قادته إلى شمال نهر دجلة وإلى الأناضول الشرقية ولكن لا يعلم بالضبط إلى أين وصل، ومع ذلك فإن لدينا وسيلتين من المعلومات حول هذه القضية، إحداهما وصوله إلى مدينة (ماليد) (تعرف اليوم باسم ملاطية) وقد سجل فتحه لهذه المدينة.

وهناك إثبات آخر يقدمه نقش تركه تغلات بلاسر على إحدى الصخور في منطقة (ملازكرد) إلى الشمال الغربي من بحيرة (فان) وقد كان نص النقش كما يلي:

«تغلات بلاسر، الملك القوي، ملك العالم، ملك آشور، ملك أركان العالم قاهر بلاد (نايري) ابتداءً من أرض (تومي) إلى أرض (دايينو) وقاهر أرض حبجا حتى البحر العظيم».

من الواجب أن يقدم لنا هذا النص حدود حملات هذا الملك، فهو يعدد خمس مناطق جغرافية ولسوء الحظ لا يمكن تعريف أي واحدة بشكل حازم لا يتطرق إليه الشك، وحتى وبالنسبة لتغلات نفسه كانت (نايري) اسماً غامضاً فقد كانت الأرض المرافقة للملوك الستين (لنايري) الذين واجههم وطاردهم خلال إحدى حملاته، وكانت (تومي) ودايينو تعني شيئاً معروفاً لديه، فقد كان يثبت مناطق تدخل داخل ذلك الاسم العام وهو (نايري) ولكن وعلى الرغم ممّا كتب عن تلك انبلدان إلا أنه ليس هناك من شيء أكيد.

وكل ما يستطيع أن يقوله المرء: هو أن (نايري) كانت واقعة إلى الغرب من بحيرة (فان) وجنوب (طور عابدين) مع وجود قليل من التأكد حول الحدود الغربية والشمالية وأن (تومي) و(دايينو) كانتا النهايتين الجنوبية الشرقية والشمالية الغربية بالتوالي بالنسبة (لنايري) والبحر العظيم، ولكن يعتمد الفهم الخاص لهذه الأمور على ماذا يعني البحر العظيم؟ ومن المعتاد أن يعني: البحر الأبيض المتوسط، ولكن هناك اسم آخر لهذا البحر وهو البحر الأعلى مع أو دون إضافة كلمة (إلى الغرب).

وتظهر بعض الملابسات بالنسبة للحقيقة التي مفادها أن البحر الأعلى (دون إضافة كلمة إلى الغرب) من الممكن أحياناً أن يدل على بحيرة (فان) وليس من المستحيل أن للبحر العظيم صفتين مزدوجتين وهما البحر الأعلى وفي نقوش تغلات بلاسر تعني بحيرة فان.

هـذا وإن التفسيرات الوحيدة غير هـذه، هـي إمـا أن نفهـم البحـر العظيـم هنـا بمعناه العام وهو البحر الأبيض المتوسط الذي لا يمكـن أن يطـابق الوضـع جغرافيـاً أبداً أو أن نعتبره البحر الأسود، وهـذا التفسير يناسب اختراقات تغـلات بلاسـر، مـع أن بعض العلماء يقبلون ذلك بالمعنى المذكور هنا.

ومهمـا كانـت جغرافيـة توسعـات تغـلات بلاسـر إلى الشمـال، فمـن الواضـح ان الباعث الرئيسي لهذه التوسعات كان اقتصادياً، فهو يسجل الغنـائم بشكـل أوانٍ نحاسية وبرونزية وكذلك مجموعـات الخيـول والمواشـي الـتي تُعدُ بـالألوف وقطعـان الـثيران والحمير، ولقـد ذكـرت الاهتمامـات الاقتصادية لتغلات بلاسـر في نقوشـه فهو يقول:

((لقـد جعلـت جميـع أراضـي آشـور مجهـزة بالمحاريـث بحيـث تزيـد مخزونـات القمـح فـوق الـتي كانـت في زمـن أسـلافي، ولقـد ربيـت قطعـان الخيـول والمواشـي والأغنـام)). وكـان واضحـاً أيضـاً بالنسبة لسياسته الراميـة لزيـادة مسـاحة أراضـي آشـور وطبقـة العمـال فيهـا وذلـك بواسـطة تهجيـر الشعوب المهزومـة، وكـذلك فقـد طـور الذراع الحربي وزاد في عدد العربات الحربية بشكل لم يعهد به أحد من قبل.

تهديد الآرامين

لم تكـن أعمـال تغـلات بلاسـر البطوليـة محـددة بحملاتـه إلى الشمـال، فقـد امتدت نشاطاته إلى جميع الجهـات حوله ولاسيما علـى ضفاف الفـرات وهـي الـتي يقول عنها:

«لقـد عـبرت نهـر الفـرات ثمـانٍ وعشـرين مـرة في اقتفـاء آثـار الآرامـيين». ولقـد عـرف نهـر الفـرات وهـو الشريان الرئيسي للمواصـلات وشـهد حركـات القبائـل الرحـل الـتي كانـت تتـدخل بالسكان المستقرين أو بـالإدارة المركزيـة، وفي زمـن تغلات بلاسر الأول ازداد هذا التهديد بنسب هائلة وذلك عند ظهور أولئك الآرامـيين الرحل من الصحراء.

فقد كانت أصولهم من الداخل من منطقة جبل بشري وهي المنطقة الواقعة ما بين الفرات والموقع الذي أصبح فيما بعد مدينة القوافل تدمر، ولم يكن سبب تهديد الآراميين وهجومهم إلى منطقة الفرات الذي بدأ في هذا الزمن معروفاً أو واضحاً، ولكن مع غياب أي شواهد ملموسة يمكننا أن نخمن فقد كان جبل بشري مشجراً، إلا أنه كان عارياً من الأشجار بشكل أكيد قبل العصر المسيحي، وإنه لتخمين معقول أن إزالة الأحراج كانت مسببة عن السكان الأصليين في تلك الفترة وهم الآراميون في الألف الثاني ق.م، إذ إن إزالة الأحراج ستكون سبباً في إفراغ وتوقف ما يدعي بالأمطار العاصفة المسببة لخصب التربة، والتي راحت بالتناوب مع فترات من القحط تسبب تآكل التربة وحدوث فترة من الجفاف، وعند حدوث هذا فإن هذه العملية سوف تجعل المنطقة عاجزة عن إعالة سكانها السابقين مما يستغرق مضي نحو سنتين أو ثلاث سنوات عجاف لبدء عمليات الهجرة العامة من المنطقة.

وطبقاً لتغلات بلاسر فقد عمد الآراميون إلى عبور نهر الفرات ودخول ما يدعى الأراضي الآشورية الدائمة، والاستقرار بمحاذاة الطول الكامل للنهر ابتداءً من منطقة الحدود البابلية حتى (كار شميش) (كركميش).

ولكن تغلات بلاسر طردهم بعد أن نقل جنوده عبر الفرات على طوافات مصنوعة من جلود الماعز، ربما كانت من نوع الطوافات المعروفة في هذه الأيام وتدعى: كيليك **Kelek**.

لقد سجل تغلات بلاسر أن أذى الآراميين كان مستفحلاً بحيث إنه كان مجبراً على ملاحقتهم ثمانية وعشرين مرة: مرتان في كل سنة وليس من المؤكد كيف ينبغي أن نفهم الجملة الأخيرة، فهل كان ((مرتان في كل سنة)) بحيث كان زمن الحملات أربعة عشر عاماً؟ أم آن إظهار القوة مرة واحدة تكفي بشكل طبيعي ما عدا سنة واحدة حين كانت الحالة في غاية السوء بحيث إن تغلات بلاسر كان مجبراً ان يقوم بحملة ثانية؟

والنتيجة هي تأييد وجهة النظر التي مفادها أن تغلات بلاسر كان يعني مرتين كل سنة وأنه وبعد أربعة عشر عاماً، قام الأموريون بمغادرة الأراضي الآشورية.

وفي الواقع وقبل نهاية حكمه الذي دام ثمانية وثلاثين عاماً استطاع تغلات بلاسر الاختراق حتى ساحل البحر الأبيض المتوسط، ليس بطريق سورية الشمالية خلال أراضي الحثيين فحسب، بل أيضاً من خلال تدمر وهذا يعني أنه كان يزحف خلال قلب الأراضي الآرامية.

فهل ظل الآراميون وحتى نهاية عهد تغلات بلاسر يؤلفون تهديداً كافياً على محاذاة الفرات مما يلزم القيام بحملة سنوية تأديبية؟ وكان هذا العمل بمنتهى الغباء تكتيكياً علماً بأن تغلات بلاسر كان رجلاً عسكرياً ولم يكن أحمقَ.

وعندما وصل تغلات بلاسر إلى شاطئ البحر الأبيض المتوسط أظهر فجأة أن لديه شعوراً إنسانياً، فقد أراد أن يقوم برحلة قصيرة في أحد القوارب، وعندما كان في القارب فإنه ربما حاول تجريب الحربون وهو رمح يستعمل لصيد الحيتان، وقد قال في هذه المناسبة:

«لقد ركبت السفن في مدينة أرواد الواقعة في أراضي أمورو وقمت برحلة ناجحة دامت ثلاث ساعات من أرواد حتى سامورو، وقد قتلت في البحر نهيرو وهو حصان البحر».

ولقد ذكر الملك هذه المغامرة بفخر واعتزاز فقد سجل هذه المفخرة في زينة مدخل قصره، وقد قال:

«لقد صنعت من البازولت صورة لما يسمونه نهيرو وهو حصان البحر الذي قتلته بواسطة الرمح في بحر (أمورو) وذلك بأمر الآلهة العظام أسيادي».

هذا وإن تحديد حصان البحر هذا قد سبب صرف كميات من الحبر حين سجلت الآراء المختلفة حول كون هذا المخلوق دولفيناً أم حوتاً.

من الواضح أنه كان لتغلات بلاسر اهتمام بالحيوانات الغريبة وكانت هذه ظاهرة اتصف بها كثير من الملوك الآشوريين الذين كانوا يرحبون بامتلاكهم

الحيوانات الغريبة مثل السعادين والتماسيح التي وردت إليهم كجزية، أو من الحيوانات هذه أنشأ تغلات بلاسر حديقة حيوان من الحيوانات التي حصلوا عليها من الصحراء السورية، وكان هناك عدد من الحيوانات البرية حول آشور القديمة، وكانت هذه الحيوانات أكثر عدداً مما هي عليه الآن، وكان فيها أنواع كثيرة من الحيوانات اللبونة.

وتشير النصوص إلى صيد الدببة والضباع، والأسود والنمور والفهود، والغزلان والماعز البري، وكل هذه الأنواع لا تزال موجودة في منطقة ما بين النهرين قبل قرن من الزمن، مع أن القطط الكبيرة الحجم قد اختفت، وهناك حيوانات لبونة مثل البيزون (الثور الأمريكي) والجاموس المائي (وقد كان هذا في الأصل برياً ثم أعيد تقديمه كحيوان أهلي بعد أن انقرض من البراري) أما الخنازير البرية (التي لا تزال موجودة بأعدادٍ وافرة) وعدة أنواع من الغزلان (التي أعتبر بعضها منقرضاً وأما الباقي فهو معرض للخطر من الصيادين العرب الذين يصطادونها في الصحراء بواسطة استخدام مركبات ذات أربعة دواليب ومعهم أسلحة أوتوماتيكية.

وكان هناك الأغنام البرية والوشق والفهد الصياد وحمر الوحش أو (الأخدري) التي ما تزال موجودة في سورية بشكل وافر في الجزيرة في القرن التاسع عشر ق.م، ولكنها انقرضت منذ عام ١٩٢٧.

وهناك نوع من الحيوانات أرسله التجار إلى تغلات بلاسر من الخارج، والتي حاول تربيتها بشكل قطعان وهو الجمل ذو السنامين وقد ذكر هذا الجمل ابن الملك ضمن نصوص المسلة المكسورة، وربما جلب هذا الحيوان من المنطقة فيما وراء زاغروس نظراً لأن الاسم الذي عُرف به وهو (أوردو) مشتق من الكلمة الهندية الأوروبية التي تعني: الجمل ذو السنامين.

ويذكر تغلات بلاسر حيواناً آخر يدعى بورهيشي كان قد أرسل إليه كنوع من الجزية، ويعتقد بعض العلماء أن هذا الحيوان هو الياك (ثور التبت) ولكن الحقيقة أن الياك موجود في أراضيه وبيئته (وهي جبال التبت العالية فلا يمكن أن يكون موجوداً في آشور سواء عن طريق الجزية أو عن طريق التجارة، والحقيقة أن

كلمة بورهيشي موجودة إلى جانب كلمة أوردو المكتوبة على المسلة المكسورة، ومن الممكن أن يكون هذا الاسم قد اخترعه الآشوريون عندما قابلوا الجمل لأول مرة، نظراً لأن الكلمة ربما تعنى (ذو العجزة) وهذا يشير إلى السنام.

وهناك حيوانات من ذات الأربع قوائم وجدت قرب منطقة ما بين النهرين في الأزمنة القديمة وهي تشمل حيوانين مسهبين جداً وهما الثور البري وهو حيوان بري كان ارتفاع العجل من هذا النوع ستة أقدام حتى منطقة الكتف، وكان هناك نوع من الفيلة، وقد كان الملوك الآشوريون مولعين بصيد الآسود والفيلة فما سبب انقراض هذين النوعين مع أنهما كانا ما يزالان موجودين بعد قرنين من عهد تغلات بلاسر؟

وهناك نوع آخر من الحيوانات المرموقة القديمة وهو النعام الذي وجده الملوك الآشوريون وصادوه وأتلفوه في الصحراء السورية مع أن هذا النوع نجا وكان ما يزال يشاهد هناك في القرن العشرين الميلادي.

أما الأسود فقد كانت شائعة الوجود وخطرة بالنسبة للحيوانات الأليفة وللبشر في الأرياف المكشوفة، ويذكر الملوك الآشوريون المجازر التي حدث فيها قتل نحو ثمانمائة أسد مرة واحدة، ويبدو أن هذه الضحايا كانت تصطاد وبعدها يطلق سراحها وتوضع في حدائق مخصصة، إلا أن الرسوم تعطينا بعض الدلالات التي تشير إلى الانتشار الواسع للأسود.

وفي قصة الطوفان يقترح على الإله إنليل استخدام الأسود للفتك بالبشر بدلا من الطوفان وهذه طريقة أفضل، وهذا يدل أن الأسود كانت تعد تهديداً حقيقياً لحياة الإنسان، ويأتي تقرير من ماري يعود إلى الألف الثاني ق.م، أن أسداً قد أمسك به على سطح أحد المنازل، وكان من الواضح أن الأسود كانت تستطيع الدخول مباشرة إلى داخل القرية.

كان تغلات بلاسر الأول رجلاً ذا همة عالية ونشاط مستمر واهتمامات واسعة، وفي أثناء حكمه حصلنا على مجموعة من القوانين الآشورية التي تم تنظيمها في مجمل القوانين الآشورية، وربما كان ذلك بناءً على أوامر هذا الملك،

وكانت إحدى تلك القوانين تعالج مشكلات ملكية الأراضي وغيرها كان يعالج مشكلات تختص بالنساء.

مراكز الحدود البابلية

ننتقل من تغلات بلاسر المهتم بالحيوانات والمشرع القانوني إلى تغلات بلاسر مؤسس الاستراتيجية العسكرية، وذلك لكي نطلع على مواقفه بالنسبة لقضية الحدود، وهي القضية الحساسة سياسياً في الجبهة الجنوبية مع بلاد بابل، وقد حدثت هنا المصادمات الحدودية المعتادة التي استجاب لها تغلات بلاسر أخيراً ودفع بقواته إلى ما وراء الحدود للاستيلاء على المدن الشمالية بما فيها العاصمة بابل، ولكنه لم يقم بأي محاولة لتنصيب نفسه ملكاً على بابل، وبدا أن هذه الحملة لم تكن سوى غارة تأديبية للضغط على بابل لقبول حدود تمر أبعد جنوباً.

ومن جهة أخرى كان للتماس مع بابل نتائج تزايد نفوذ الثقافة البابلية والنفوذ البابلي في آشور، وكانت إحدى مظاهر هذا النفوذ ابتداء إبدال أسماء الأشهر البابلية لتحل محل الأسماء الآشورية.

ولقد شهد حكم تغلات بلاسر أيضاً نمواً متزايداً لأهمية نينوى السياسية، وهذا كان ضرورياً لأجل السيطرة على الشمال، وقد اعترف بهذه المدينة أنها المدينة الثانية والعاصمة الثانية لدولة آشور، وقد كانت مشهداً للأعمال العمرانية المرموقة وذلك بما فيه إعادة بناء سورها.

لا تكفي الظروف الدولية لوحدها لتفسير الحماس والنشاط الآشوري في زمن تغلات بلاسر إذ إن حكمه يعطي مثلاً جيداً لأهمية المقدرة الشخصية والنشاط عند هذا الحاكم، وقد مرَّ على عرش آشور فيما بعد ملوك اتخذوا لهم اسم تغلات بلاسر، وهذا ما يدل على شخصية تغلات بلاسر العطرة الدائمة التي تبشر بالنجاح، ولكن لم يعمد أي حاكم فيما بعد إلى اتخاذ أسماء أبناء هذا الملك الذين خلفوه رغماً عن الاسم الشهير للابن الثاني وهو آشور – بيل – كالا وهذا

الاسم يعني: الإله آشور هو سيد الجميع وهذا الاسم يعكس أماني الأب أكثر من إنجازات الابن.

الهجرات الأرامية

بعد انتهاء حكم تغلات بلاسر حدث انحطاط سريع يصاحبه التزايد الدائم لأهمية الآراميين، الذين ناضل هذا الملك ضدهم بشكل مثابر وناجح، ويعتمد البحث حول كيفية تركيب التفاصيل حول الطريقة التي استطاع بها الآراميون قلب الموازين ضد آشور على كيفية فهمنا لأحد الأنصاب المعروف باسم المسلة المكسورة، ونظراً لأن المسلة مكسورة فنحن لا نستطيع معرفة اسم الملك الذي كتب تلك النقوش، ولكن غالباً ما ينسب الآن إلى ابن تغلات بلاسر وهو الخليفة الثاني لوالده واسمه آشور – بيل – كالا.

وتمتلك هذه النصوص بعض المظاهر القديمة، فهي تتكلم بضمير الغائب وأحياناً بضمير المتكلم وتبدو أن المقاطع المكتوبة بضمير الغائب وكأنها لا تتحدث عن آشور بيل كالا بل عن أحد أسلافه، وباعتبارات التقوى فقط أن هذا السلف من المحتمل أن يكون والد آشور – بيل كالا وهو تغلات بلاسر وعندما نجد أن هذا النص يذكر شؤون الصيد، وجمع الحيوانات، وهذا يتفق مع ما يذكره تغلات بلاسر عن نفسه، عند ذلك تبدو المسألة وكأنه ليس فيها مجال للشك، ولكن وبينما تذكر نقوش تغلات بلاسر عن أحوال مغادرة الآراميين عبر الفرات (وهذه المسألة مذكورة من المسلة المكسورة) فان المسلة المكسورة تضيف بعض المراجع التي تعود إلى الشهر التالي حول مهاجمة إحدى القوافل الآرامية في أماكن مختلفة، وتقع بعض هذه الأماكن بعيداً عن نهر الفرات في مواقع داخلية في أراضي آشور مثلاً في طور عابدين بمحاذاة نهر دجلة قرب حرّان وبمحاذاة نهر الخابور، وليس هناك ما يدل فيما إذا كانت القوافل الآرامية تحتوي على التجار والوحدات المقاتلة، أو أنها عبارة عن مجموعات تحاول أن تجد لنفسها مكاناً تأوي إليه.

ولكن من الواضح أن هذه القوافل كانت واسعة الانتشار، وبنفس الوقت لم تكن هذه القوافل قوية، ولم تكن تعمل بشكل متناسق نظراً لأن الملك الآشوري كان قادراً على مطاردة كل مجموعة بسرعة، وفي الوقت نفسه مطاردة قافلتين أو ثلاث وحتى أربع في الوقت نفسه ،وفي نفس الشهر، ويستنتج من كل ما ذكر أنه رغم محاولات تغلات بلاسر الناجحة لضبط محاولات الآراميين وكبحها عند عبور الفرات من جبل البشري، فإن مجموعات صغيرة كانت تنجو من هذه الشبكات وتنجح في النفاذ إلى بلاد آشور، وهذا ما سبب عدم قدرة خلفاء تغلات بلاسر على عدم التأثر بالضغوط الآرامية.

تولى آشور – بيل – كالا – العرش (من ١٠٧٤ – ١٠٥٧) بعد أحد أخوته الذي حكم مدة سنتين، وتتحدث تواريخه بطلاقة عن الأعمال السريعة ضد المناطق الشمالية الجبلية، وقد ادعى عن حصوله على نجاحات عسكرية.

ولكن الأمر الواضح هو أنه مع ذكر الغنائم التي غنمها الآشوريون إلا أنه لم يذكر كلمة واحدة عن الجزية، وأنها جُلبت إلى آشور من قبل الأتباع المغلوبين، وكان بوسع الجيوش الآشورية أن تعيث خراباً ولكن دون هدف ثابت، وذلك لأنه، وفي أثناء حكم آشور – بيل – كالا، لم تعد آشور قادرة على تجسيد انتصاراتها العسكرية في ترتيبات إدارية مهمة أكثر من القبول الرسمي بالسيادة الآشورية، وهكذا يذكر آشور – بيل – كالا حملات له ضد الآراميين، ولكن كانت مضامين تعابيره تدل أن الآراميين لم يعودوا ذلك الشعب الذي يمكن طرده من الفرات بمحض الإرادة، إذ إن قول هذا الملك: إنه كان ينهب الآراميين باستمرار يدل أن المشكلة الآرامية قد استفحلت.

الاتفاق الآشوري البابلي

في الحقيقة إن الآراميين قد تحولوا إلى تهديد خطير بالنسبة إلى كل منطقة ما بين النهرين، بلاد بابل وبلاد آشور على السواء، وكانت النتيجة الحتميَّة أن

تتحد آشور مع بابل لدرء الخطر المشترك وللدفاع المشترك، ويوصف هذا الموقف في إحدى الحوليات:

((في زمن آشور بيل – كالا ملك آشور ومردوك – شابيك – زيزي ملك كاردونيش (بابل) عقد في هذا المكان اتفاق ودي بينهما))، وهذا مما قوى مركز الآشوريين، ولكنه لم يكن منقذاً من الضغط الآرامي، وعند موت ملك بابل أصبح آشور – بيل – كالا ملك آشور في وضع اضطره للتدخل في شؤون قضية الوراثة البابلية، وطبقاً للحولية التي ذكرت آنفاً فقد عين أداد – ابلا – أدينا ابن اسجيل – شادوني ابن شخص مجهول ملكاً عليهم، هذا وإن كلمة شخص مجهول تدل أن أسرة الملك الجديد لم تكن من أصل ملكي بابلي قديم، ونستطيع أن نحصل على صورة واضحة لما كان يحدث عندما نجد أن هناك حولية أخرى تدعو أداد – ابلا – أدينا رجلاً آرامياً مغتصباً (مع وضع اسم مختلف لوالده لإضافة علائم الشك حول أصوله).

ويبدو أن آشور بيل كالا كان الآن يسلك الطرق الدبلوماسية في معالجة التهديدات الآرامية وذلك بقبول أمير آرامي بارز تابعاً وحليفاً له، وقد استخلص أقصى قدر من المنفعة من الموقف وذلك بالزواج من ابنة أداد – ابلا – أدينا.

وتقول الحولية: "لقد تزوج آشور – بيل – كالا ملك آشور ابنة أداد – ابلا – أدينا ملك كاردونيش وحملها معه مع مهرها الثمين"، ولقد كانت نتيجة هذه الحوادث أن وضعت آشور في مركز قوى بالنسبة إلى بابل في الوقت نفسه، وبكسب ولاء الزعيم الآرامي الرئيسي فقد أزال خطر التهديدات الآرامية مؤقتاً.

وفي الوجه الآخر للعملة وُجد أن آشور قد أظهرت نفسها أنها غير قادرة في تلك الظروف أن تتابع سياسة مستقلة، وفي الوقت نفسه أن الحلف الذي استطاعت آشور عن طريق التدخل في شؤون وراثة العرش في بابل ترك آشور معرضه لتدخل بابل في شؤون آشور الداخلية الخاصة، ولقد حدث هذا بالضبط وبمرور الزمن فقد أزيح ابن آشور – بيل – كالا عن العرش بعد مرور أقل من عام على يد عمه شمسي – أداد الرابع وهو ابن آخر من أبناء تغلات – بلاسر الذي وكما عرفنا من

قائمة الملوك الآشوريين استولى على العرش من قاعدة بابلية وذلك بدعم وموافقة البابليين.

وفي القرن التالي الذي تم فيه حكم ستة من نسل شمسي أداد الرابع فإن معرفتنا بالتاريخ الآشوري كانت سطحية نظراً لعدم وجود نقوش ملكية وهذه دلالة واضحة على ضعف الدولة الآشورية، وهناك نص يعود إلى حوالي عام ٩٧٠ يحمل هذه الحقائق، وهذا النص يمجد أحد الحكام المحليين لكونه شيد الأبنية وحفر الأقنية ونهر الخابور، وذلك أنه ومنذ زمن آشور القوية كانت مثل هذه الأعمال من صلاحيات الملك، وإن قيام حاكم محلي بمثل هذه الأعمال يدل أن السلطة المركزية في تلك الفترة كانت ضعيفة جداً، إن لم تكن معدومة.

تظهر الشواهد من بابل البلبلة الجدية التي سببتها الهجرات الآرامية المستمرة في ذلك الزمن، وفي تلك المدينة (أي: بابل) كان يقام مهرجان سنوي ديني يدعى (الأكيتو) الذي كان يلغى عندما تكون الظروف السياسية غير مواتية بحيث يستحيل القيام بالمسيرات، وتذكر الحوليات التي تسجل هذا الخرق للعادة المذكورة في عامي ٧٧١ و٧٧٠ حين ألغي المهرجان نظراً لأن الآراميين المعادين قد هددوا ضواحي مدينة بابل مباشرة.

الممالك الآرامية

بعد أن استقر الآراميون شكلوا لأنفسهم ممالك بشكل تدريجي وكان أقدم هذه الممالك في سورية، وإن إحدى هذه الممالك الآرامية وهي مملكة (صوبا). (سوبايت حسب النقوش المسمارية) قد (تعرضت إلى الهجوم من قبل الملك شاول افسرائيلي قبل عام (١٠٠٠) ق.م بقليل. (وبعد[1]) قليل توسعت المملكة الإسرائيلية الجديدة تحت حكم داود وسليمان لتشمل المنطقة حتى الفرات، وإن عدم وجود

[1] لقد استقى المؤلف هذه المعلومات من التوراة وليس هناك أي نقش آشوري يؤيد هذا الكلام الذي نعتبره مختلفاً – المترجم.

مواجهة آشورية والقدرة على تنفيذ هذا التوسع على الحدود هو سبب آخر يظهر عجز وعدم قدرة آشور من ذلك الزمن).

لماذا أدى الوضع الآرامي إلى ضعف دول منطقة ما بين النهرين بحيث سمحت لإسرائيل بالتوسع شمالاً حتى الفرات.

إن الإجابة على هذا السؤال تتوقف على المدى الذي وصلت إليه تلك المجموعات من البدو الرحل من الآراميين في استيطانهم وإنشائهم ممالك مستقرة، إذ إنه عند حدوث اتحاد بين العشائر القبلية فليس هناك أي سلطة مركزية، وهذا ما أشارت إليه النصوص التوراتية، ومن مثل هذه الحالات فإن كل فريق يفعل ما يريد وهو يعني ما يفعله حقاً في نظره، وعلى العموم فليس هناك أي حاكم منفرد يستطيع قبول أي معاهدة وينفذها في جميع أرجاء المنطقة.

وليس هناك من أحد يستطيع تأمين حركات التجار وللتأكد من أن قوافلهم سوف لا تتعرض للنهب أو تهديدات أي عشيرة يمكن للقوافل أن تدخل أراضيها وتمر بها.

وكذلك ليس هناك من أحد يستطيع أن يتكلم عن العلاقات السياسية بالنسبة للمنطقة بأجمعها، ففي سورية أصبح الآراميون على طريق الاستقرار في ممالك مستقرة حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، بينما وفي منطقة ما بين النهرين كانوا ما يزالون في طريق الهجرات والاستقرار خلال جيلين.

وفي النصف الثاني من القرن العاشر أصبحت الجماعات الآرامية المستقرة تؤلف ممالك منظمة في منطقة ما بين النهرين كما كان الحال في سورية، ولقد استفادت آشور من هذا الوضع، وابتداء من حكم آشور دان الثاني (٩٣٤ – ٩١٢) بدأت النقوش الآشورية بالتكاثر معلنة استئناف الازدهار الآشوري من جديد.

الفصل السادس

نشوء الامبراطورية الآشورية الجديدة

في حولياته يكتب (آشور دان) وكأنه يخاطب القارئ الحديث عندما يسجل أنشطته وأعماله العسكرية الخاصة، فهو ينظر إلى الماضي إلى الاضطرابات التي مرت بآشور خلال القرن السابق الذي لا نملك عنه سوى قليل من المعلومات، ويخبرنا أنه كانت إحدى الشعوب المغلوبة على أمرها تقترف أعمالاً تخريبية وجرائم قتل منذ زمن شلمناصر الثاني (١٠٣٠ – ١٠١٩ ق.م).

وقد قام الآراميون الذين بدأ بتدمير وإحراق مدنهم بالاستيلاء على الأراضي الآشورية في زمن آشور رابي الثاني (١٠١٢ – ٩٧٢) وهو يتكلم عن أهالي آشور الكادحين الذين غادروا مدنهم وبيوتهم بسبب الفقر والحاجة والجوع والمجاعات وغادروها إلى بلاد أخرى، وهو يؤكد لنا أنه قد أرجع هؤلاء إلى مدنهم وبيوتهم وأعاد استقرارهم فأصبحوا يعيشون بسلام.

الأمن العسكري والتطور الاقتصادي

تشير التعليقات التي أكدها آشور دان أنه وخلال القرن السابق لعام ٩٣٤ كانت الإدارة المركزية في دولة آشور قد أصابها الانهيار التام مع حدوث انهيار اقتصادي، ونتيجة لذلك فإن أنشطة آشور دان الاقتصادية قد اتجهت إلى تطوير الاقتصاد بشكل لا يقل عن تطوير الأنشطة العسكرية والأمن العسكري، ولم يقم بأي محاولة لينافس المآثر العسكرية التي قام بها تغلات بلاسر، ولكنه اكتفى بتأسيس سيطرة سليمة لآشور داخل حدودها الطبيعية ابتداء من الجانب الأقرب من (طور عابدين) حتى الهضاب الواقعة فيما وراء أربيل، وأما سياسته بالنسبة إلى إعادة إسكان الشعوب في آشور فقد تطرقنا إليها في الفقرة السابقة، ولكي يعالج الانهيار الذي ذكر سابقاً في الإدارة المركزية أنشأ بعض الوظائف الحكومية في المقاطعات، ولدعم الاقتصاد بشكل مباشر تبارى مع منجزات

تغلات بلاسر الأول في تأمين المحاريث في جميع أنحاء البلاد، وذلك لزيادة إنتاج القمح في كل مكان بكميات أكبر من السابقة، ولقد ساعدت كل هذه الأمور على تأمين قاعدة متينة لتطوير وتوسع أفضل بشرط أن يستطيع الحكام الذين تلوه الاستفادة من هذه الإصلاحات.

ولقد ثبت أنهم استفادوا فقد خلف آشور دان أربعة ملوك أكفاء من أسرته المباشرة، وخلال قرن من اعتلائه العرش أصبحت آشور قوة عالمية يحسب حسابها، وهؤلاء الحكام الأربعة وبصورة خاصة الثالث منهم رووا منجزاتهم بالتفصيل، ولا يتسع هذا المقام لسرد أكثر من خلاصة موجزة لأعمالهم الرئيسية أثناء حكمهم.

ولقد قام ابن آشور دان وهو حدد نيراري الثاني (٩١١ – ٨٩١) بحملة لاعادة وتوكيد السيطرة الآشورية في المنطقة الشمالية الغربية، فقد زحف نحو الجبال الشمالية فيما وراء (طور عابدين) ومع أنه قد اتخذت إجراءات عسكرية عنيفة ضد المعارضين، إلا أن إجراءاته لم تكن تأديبية وضارية على شكل طائش، فإن غرضه كان إنشاء أحوال مستقرة بحيث يحصل على الاستفادة التامة المنتجة من الموارد التي تسبب أكثر الفوائد بالنسبة لآشور.

وهو يقول عند تسجيل نتيجة حملته ضد شعوب الشمال في (كوماني): لقد أسكنت بقية عساكرهم الذين هربوا أمام أسلحتي الحربية ولكنهم رجعوا، لقد أسكنتهم في مساكن آمنة.

ظل الآراميون المشكلة المزمنة، ففي أسفل طور عابدين استقر بعضهم بشكل واسع فيما بين الخابور والقوس الغربي لنهر الفرات، وبصورة خاصة منطقة منابع الخابور حيث حاولت مجموعة متحدة من الآراميين الذين وصلوا بعد مضي حكم تغلات بلاسر الأول، وحاول هؤلاء تأكيد استقلالهم ولقد احتاج حدد نيراري حوالي ست حملات سنوية لإخضاعهم، وأخيراً نجح في ذلك بعد تجويع الحاكم الأعلى في عاصمته المحصنة نصيبين.

وبعد أن زحف بمحاذاة الخابور استطاع الحصول على الخضوع النهائي الرسمي للسلطة الكاملة للمدن التي كان يسيطر عليها الآراميون، وفي أثناء ذلك استلم حدد نيراري الهدايا التي تعبر عن كامل خضوعه كتابع من قبل حاكم آرامي من منطقة بعيدة آرامية، وهي منطقة بيت عابدين وهي واقعة على منطقة تقوس الفرات.

وفي المنطقة الجنوبية الغربية عمدت بابل وفي أثناء فترة ضعف آشور إلى الاستيلاء على أراضي واقعة إلى الجنوب من الزاب الأدنى، ولهذا بدأ حدد نيراري بالعمل، ولكن ومع أنه أعطى لنفسه لقب فاتح بلاد كاردونياش بأجمعها، إلا أن نشاطاته هناك لم تكن أكثر من مناوشة حدودية لدفع الحدود الآشورية جنوباً حتى نهر (ضهايم) أو ديالا ولقد ختمت اتفاقية الحدود بتحالف مصاهرة وزواج.

واستمر توكولتي – نينوترا في العمل لاستعادة سيطرته على المناطق الجبلية الشمالية والشرقية وفي الجنوب دفع الحدود مع بابل حتى موقع مكان بغداد الآن، وهكذا اكتفت المستوطنات الآرامية بتقديم الجزية علامة على قبولهم التبعية الآشورية، إلى جانب تمردات عرضية كانت تتطلب بعض الأعمال العسكرية، وكانت إحدى القبائل الآرامية المزعجة في ذلك الزمن وهي قبيلة (ايتوى) وكانت تمتلك بعض الصفات القتالية قد حصلت عل احترام الآشوريين، وفيما بعد (عندما أصبحت قضية ولائهم مؤمنة) شكلوا ما يدعى بالفصائل الصدامية التي تعمل على تطويع الشعوب المزعجة المتمردة.

وإن نوع الجزية التي كان بعض الآراميين يدفعونها تشير إلى ثرواتهم وطبيعة نشاطاتهم التجارية، وفضلاً عن الذهب والفضة كانت مثل هذه الجزية تحتوي على البرونز والقصدير والمُرّ[٢]، وهذا ما يظهر وجود علاقات تجارية مع بلاد العرب (التي كانت تعتبر المصدر الأقرب للمر) وكذلك يذكر الجمل ذو السنام الواحد (مما يشير أيضاً إلى العلاقات مع الصحراء العربية) وكذلك العاج والمفروشات

---

[٢] المُرّ: مائع يسيل من شجرة فيجمد وهو طيب الرائحة مُرّ الطعم – المترجمان.

المرصعة بالعاج (من كليكيا) والمواشي والأغنام والحمير والبط والحبوب، ولكن لم يكن هناك أي ذكر للخيول التي كانت ضمن الجزية الأرمنية، إذاً من المحتمل أنهم كانوا يستعملون الحمير والجمال وسائل للنقل في ذلك العهد، هذا وقد استلم (توكولتي نينوترا) الخيول بالألوف بشكل جزية من المناطق الشمالية وبذلك بدأ استخدام الفرسان على مقياس واسع في الجيش الآشوري.

آشور ناصر بعل الثاني

الاستراتيجي الإمبراطوري في آشور

يبدأ حكم آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣ – ٨٥٩) وبه نصل إلى إحدى نقاط الذروة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت سجلاته متعددة، الأمر الذي يعكس منجزاته كمؤسس فعلي للإمبراطورية الآشورية الجديدة.

لقد بدأ آشور ناصر بعل في إظهار قواه إزاء ذلك القوس من الجبال الممتد من شرق أربيل حتى شمال غرب نينوى أي: شمال كردستان، وقد وصل إلى كادموخ وهو السهل الواقع إلى الغرب من نهر دجلة، وإلى شمال غرب نينوى وذلك عندما واجهته الاضطرابات في مكان آخر، فقد كانت الدولة الخاضعة اسمياً لآشور وهي (بيت عابدين) الواقعة على منعطف نهر الفرات نحو كركميش، تحاول تأكيد استقلالها وكسب الدعم الأوسع، فقد أحرزت نجاحاً دبلوماسياً، والحقيقة أن المدينة الرئيسية في تلك المنطقة حيث يلتقي الخابور بالفرات، قد قامت بقتل حاكمها الموالي لآشور وكان هذا رجلاً يظهر من اسمه أنه لم يكن من أصل آشوري (لم يكن الآشوريون عنصريين).

ولقد ولّت هذه المدينة أحد أبناء بيت عابدين ملكاً عليها، هذا وقد كان رد آشور ناصر بعل على هذا الوضع فورياً، فزحف بجيشه جنوباً حتى أسفل نهر الخابور، وقد استلم في طريقه خضوع المدن الموالية الواقعة على ضفاف النهر، ثم

استولى على معقل المتمردين وسحق كل معارضة بقوة ونشاط وأعاد المدينة مرة أخرى تحت الحكم الآشوري.

ولقد ثبت أن ثروة المدينة المتمردة كانت ثروة لا بأس بها مما جعل آشور ناصر بعل يلاحظ أن الغنائم الضخمة والوافرة كانت كالنجوم في السماء لا يمكن عَدُّها، فقد كانت تشمل بالإضافة إلى أصناف الجزية المذكورة آنفاً: العربات الحربية والخيول، وكانت هذه أول مرة يشار بها إلى الخيول في المناطق الخاضعة للآراميين، إذ من الواضح أن الجماعات الآرامية في منطقة ما بين النهرين لم يعودوا بدّواً رحلاً شبه مستقرين ويشتغلون بالتجارة، بل قد وصلوا إلى طريق إنشاء ممالك متطورة مستقرة ذات ذراع عسكري منظم يتطلبه ذلك الوضع.

تعتبر كادموخ التي وصلها آشور ناصر بعل عندما اتجه إلى منطقة الخابور المفتاح الموصل إلى هضبة طور عابدين كاشياري والمناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة، وهنا بدأ الملك يوجه اهتمامه لتلك المنطقة، فقد ادعى عدد من الملوك الآشوريين الأقدمين أنهم قد استولوا على (كاشياري) ولكن التضاريس الأرضية في تلك المنطقة جعل منها منطقة صعبة المنال، ولم تكن سيطرة الآشوريين هناك إلا سيطرة مؤقتة.

وعندما تمرد أحد الحكام الموالين وهاجم الموقع العسكري الآشوري، بدأ آشور ناصر بعل عملياته مباشرة وتحرك ضد المذنب ولم يتورع عن القتل والنهب والحرق وسمل العيون والتمثيل بالضحايا، وكان أن أعلنت الممالك الصغيرة في المنطقة ولاءها وخضوعها فوراً.

وبعد إظهار جبروته ضد المناطق الواقعة إلى الشمال من نهر دجلة المعروفة باسم (نياري) قام آشور ناصر بعل بترميم مدينة قديمة واقعة على نهر دجلة (توشتمان) لتكون حامية عسكرية ضد كاشياري ونياري في وقت واحد، ولكن لم تكن هذه المدينة مُجرَّد حامية عسكرية بل كانت قاعدة رئيسية ومستودعاً للتخزين. وكان سكانها من الآشوريين الذين يحصلون على الحبوب والمؤن

الأخرى من المناطق المجاورة وبحيث تستطيع في حالة تعرضها للهجوم الصمود مدة غير محدودة.

وهكذا فقد أنشأ آشور ناصر بعل خطاً دفاعياً قوياً على طول حدوده الشمالية والغربية، وبعدها عمل على تحسين هذا الخط بجعله حلقة أمنية آمنة، أما في الشرق فقد زحف إلى جنوب كردستان وهي المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب الشرقي من كركوك، وقد استطاع بعض الملوك الآشوريين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الاحتفاظ مؤقتاً بهذه المنطقة التي لم تكن تحت حكم آشوري حازم وكامل مدة نحو ألف عام، ولكن تمثل عمليات آشور ناصر بعل بداية العمل ضد أحد المتمردين، ولكن ذكره بعد ذلك لأماكن لم يَرَها أي إنسان في حياته والتي لم يصل إليها أي ملك من أسلافه.

كل هذه التصريحات توضح أن هذه العمليات لم تكن سوى توسع عسكري سافر، فقد كانت بعض الشعوب التي واجهها غريبة عن الآشوريين، فقد قيل إن بعضهم كانوا يصففون شعورهم كالنساء (أو يزينون أنفسهم) ولقد زادت عمليات إخضاع هذه المنطقة وسلسلة الدفاع الآشورية على طول زاغروس ابتداءً من منابع نهر ديالا (وهي منطقة الحدود مع بابل) حتى منابع نهر الزاب الأدنى.

ولقد استخدم آشور ناصر بعل في غزواته أربيل ونينوى قواعد لعملياته الحربية، مع أن عاصمة آشور كانت واقعة في أقصى الجنوب، وأصبحت الإمبراطورية بحاجة إلى إنشاء عاصمة شمالية، فقد أدرك آشور ناصر بعل قيمة المدن من نوع (توشتمان) (وهي واحدة من عدة مدن مثالها) في كونها حاميات عسكرية وقواعد تخزين ومراكز إدارية، حيث من الممكن للملك اتخاذها نقاط انطلاق دون وجود تلك العوائق التي تساعد على التورط بالمشكلات التي تسببها وجود المراكز الدينية أو المدن التجارية، ولذلك فقد بنى الملك مدينة تجارية وهي (كالخ) (التي يُمثّلها الآن تلة نمرود) في موقع المدينة القديمة التي كان قد أسسها شلمناصر الأول بالتي، وقد تحولت إلى خرائب، وقد كان لهذا الموقع أهمية استراتيجية ليس لكونه واقعاً إلى الشمال بل لكونه واقعاً في الزاوية التي يتصل

بها نهر الزاب الأعلى بنهر دجلة، ولقد زوَّد الملك عاصمته الجديدة بالمياه عن طريق قناة مدَّت من الزاب الأعلى، وبنى فيها أبنية رائعة مع أنظمة للصَّرف الصحي وزرع فيها الحدائق، وأسكن فيها شعوباً من مختلف أرجاء الإمبراطورية وجعلها مدينة عالمية حقاً، وأخيراً دشنها بإقامة وليمة دامت أسبوعاً كاملاً وقد سُجِّل هذا العمل في نقشٍ كامل ذكر فيه حتى قائمة المأكولات.

وهنا نعود إلى استراتيجية آشور ناصر بعل العسكرية فقد كان عليه القيام بإجراءات لاحقة في الغرب، وبعد أن زحف آشور ناصر بعل إلى الغرب عبر نهر دجلة ابتداء من (كالخ) حتى وصل إلى الخابور، ثم اتجه جنوباً أخيراً مستلماً الجزية حتى وصل الفرات، وهناك زحف بمحاذاة النهر حتى حدود بابل، وقد استولى على إحدى البلدات الحدودية البابلية، وهذا يمثل ما ندعوه اليوم ممراً للوصول إلى شفير الهاوية فلم ينتج عن ذلك نشوب حرب ضد بابل بل تطور إلى نتائج دعائية كان آشور ناصر بعل يعرفها تماماً، وهنا يخبرنا:

«لقد وصلت حالات الخوف من سلطتي حتى أرض (كاردونياش) (بابل) ولقد عمَّ الفزع من جيشي وأسلحتي بلاد الكلدانين (جنوب بابل)».

وبعد أن قضى على محاولة عصيان مسلح في المنطقة الحدودية بسرعة، ولم يعد أمام آشور ناصر بعل أي شيء يخشاه في تلك المنطقة فقد تم له تحييد كل معارضة بابلية محتملة.

البحر الأبيض المتوسط

بعد اكتمال الحلقة الأمنية المؤلفة من بلاد بابل وزاغروس وطوروس الشرقية (وطور عابدين) والخابور هذا السور الذي كان يحيط بآشور، فقد تقدم آشور ناصر بعل الآن لتنفيذ المرحلة الثانية من استراتيجيته.

والحقيقة أنه لم يحدث أن استطاع أي حاكم آشوري أن يسيطر على الطرق المؤدية إلى البحر الأبيض المتوسط منذ أيام تغلات – بلاسر الأول قبل نحو قرنين ولهذا فقد عمد (آشور ناصر بعل) إلى الاندفاع ابتداء من أعالي الفرات من زاوية

الخابور كاسحاً كل مقاومة في طريقه، مع قيامه بصيد النعام والثيران البرية في طريقه، وهذه كانت ما تزال منتشرة في الصحراء السورية في ذلك الزمن، وقد انتهت هذه العمليات بالقيام ببعض الحملات ضد الدولة الآرامية في (بيت عابدين) على قوس الفرات، وتطلبت عملية تهدئة تلك المنطقة بشكل فعال القيام ببضع حملات وتأسيس مدينتين جديدتين وهما (مرفأ آشور ناصر بعل) و(معبد آشور) وذلك للتحكم بمعابد الفرات فأصبحت بيت عابدين رسمياً ولاية آشورية أثناء أوائل حكم خليفته.

بعد أن أمن مؤخرته، أصبح آشور ناصر بعل مستعداً للاندفاع نحو البحر الأبيض المتوسط بعد أن عبر الفرات عن طريق الأطواف في منطقة كريمين، ولقد أمنت له عملية سحق المعارضة خضوع جميع ملوك شمال سورية الذين تقاطروا لتقديم الولاء، وكعلامة من علامات الضّمان فقد أخذ بعض الرهائن (ربما من أبناء الملوك) وحفظ هؤلاء الأبناء معه خوفاً من حالات الغدر في طريقه عبر نهر العاصي إلى جبال لبنان والبحر الأبيض المتوسط، حيث استلم الجزية من المناطق الواقعة جنوباً حتى مدينة صور.

لقد أصبح آشور ناصر بعل الآن مُسيطراً سيطرة تامة على جميع المنطقة ابتداءً من جنوب لبنان حتى جنوب كردستان، مع سلطة غير ثابتة على اتساع لا بأس به من منطقة طوروس، ولقد توجهت حملات تالية تهدف إلى توطيد سلطة أكثر من كسب أراضٍ جديدة وذلك باستثناء استيلائه على مدينة (أمد) (ديار بكر) التي كانت وما تزال المفتاح المؤدي إلى منطقة واسعة ابتداء من سفوح الجبال في طوروس الشرقية.

لقد تابع ابن آشور ناصر بعل وخليفته وهو شلمناصر الثالث (٥٥٨ – ٥٢٤) سياسة والده ومدَّدها مع أنه قد عمد إلى بعض التطويرات والتحسينات الجديدة، ولكن تواريخه ليست موثوقة ولذلك فسوف نناقش المعطيات بشكل جغرافي.

مدخل على حقل الألغام في نصوص العهد القديم

أولاً ـ في الغرب: لقد تابع شلمناصر الثالث خطة والده في تأمين سيطرته على المنطقة الفينيقية الساحلية، ونرى على الأبواب البرونزية التي أقامها صورة جلب جزية صور عن طريق القوارب، ولكنه عندما حاول التقدم إلى مناطق في أقصى الجنوب من داخل سورية صادف مقاومة في قرقر (عام ٨٥٣) من قبل تحالف مؤلف من الملوك السوريين والفلسطينيين بما فيهم (حداد ايزير) الدمشقي وآهاب الإسرائيلي، وكلاهما مذكوران في التوراة، ولقد جلب آهاب قوة من الفرسان، وهنا وفجأة يدخل عالم التاريخ في النصوص التوراتية ولذا:

«وداعاً أيها العقل المسالم الهادئ!».

«ووداعاً أيها الفكر المطمئن!».

إذ إن نزعة الموالاة والمحاباة التوراتية الدينية ترفع رأسها المتوحش، وفي الحالة الحاضرة وبالنسبة للملك الإسرائيلي صاحب العلاقة فهناك ميل أن تطرق السياسة الاستراتيجية الآشورية بسيل من الأسئلة المحرجة التي تتساءل هل ملك آشور أم إسرائيل هو الذي كسب المعركة؟ وأن الشاهد الوحيد المباشر الذي نمتلكه حول المواجهة هو حسب تسجيلات شلمناصر نفسه فهو يدعي أنه قد قهر الائتلاف، ولكن وحتى لو كان شلمناصر منافياً في أقواله وإدعاءاته النجاح وأن معركة قرقر قد سببت نكسة (وذلك كما يعتقد بعض الباحثين) للاستراتيجية الآشورية بما يخص سورية وفلسطين، فإن ذلك لم يكن سوى أمر مؤقت، إذ إنه وبعد اثني عشر عاماً قامت الإمبراطورية الآشورية بالسيطرة على فلسطين وأصبح خليفة أهاب الإسرائيلي المغتصب وهو جيحو تابعاً موالياً لآشور، ونراه وهو ينحني بإجلال واحترام أمام شلمناصر وذلك على نصب تذكاري آشوري.

فيما وراء جبال أمانوس وطوروس

ومن وجهة استراتيجية فإن أهم منجزات شلمناصر كانت توسيع السيطرة الآشورية باتجاه الشمال الغربي فيما وراء أمانوس حتى كليكيا وتجاه أواسط

الأناضول، وكانت أهمية هذا الحدث هي أن كليكيا كانت المصدر الرئيسي للحديد بالنسبة للشرق الأدنى، وكانت مُهتمة أيضاً بالتجارة البحرية مع قبرص وبلاد اليونان بحيث نرى أن الروابط الآشورية الاقتصادية المهمة قد توسعت وتضخمت، وفي الجنوب كان على شلمناصر القيام بغزوة صغيرة لبابل وذلك بقصد تأمين استمرار الوضع على الحدود، ولكن المشكلة التي واجهها كانت جنوب بابل حيث كانت القبائل الكلدانية قد استقرت، وهذه دلالة على ما يحدث في المستقبل.

أما في الشمال الشرقي فقد كان هناك تطورات أخرى ذات قيمة استراتيجية على المدى الطويل، فقد تآلفت شعوب طوروس الشرقية وشكلت ما سوف يصبح مملكة قوية وهي مملكة (أورارتو) على بحيرة (فان) ولقد برهنت هذه المملكة ولمدة تزيد عن قرن أنها منافس قوي لآشور، فقد توسعت غرباً عبر الأناضول حتى سورية الشمالية، وتنافست مع آشور بالنسبة للسيطرة على الطرق التجارية والمناطق الرئيسية لإنتاج المعادن وتربية الخيول، وهكذا أصبحت حملات الآشوريين التي كانت موجهة ضد بعض الإمارات الصغيرة في منطقة (نياري) (وصبحا) أصبحت هذه الحملات تلاقي وتواجه من قبل معارضة قوية من دولة أورارتو وجيشها الذي كان مستنداً إلى سلاسل من القلاع.

فيما وراء زاغروس.. الميديون والفرس

ظهرت عناصر جديدة في أقصى الشرق، فقد عبر شلمناصر زاغروس من حيث كان آشور ناصر بعل قد خيَّم في منطقة جنوب كردستان، وقد حدثت أول مواجهة له مع الميديين والفرس على الجانب الشرقي، ولقد كانت هذه الشعوب المتحدة من القبائل الإيرانية قد هاجرت إلى إيران من الشمال في حوالي نهاية الألف الثاني، وكان الفُرس الذين استقروا فيما بعد في جنوب غرب إيران لا يزالون في الشمال الغربي.

أمـا الميـديون الـذين سـوف يقيمـون عاصـمتهم في اكباتانـا (هـوارث الحاليـة) وسوف يثبتون أنفسهم كتلاميذ ناجحين في فن الحرب الآشوري بحيث إنهم سوف يقومون بعملية حصار ناجحة للمدن الآشورية العظيمة، هؤلاء الميديون كانوا في زمن شلمناصر عبارة عن مجرد شعب عميل من البدو الرُّحل الذين يُشار إليهم باسم الميديين الواسعي الانتشار، وذوي الفائدة لآشور، والذين يتوسطون الطريق التي كانت تجلب اللازورد إلى منطقة ما بين النهرين من أفغانستان.

الحرب الأهلية

لقد دام حكم شلمناصر الثالث ووالده معاً مدة ستين عاماً، كانت تتسم بسياسة رشيدة واحدة يمارسها حاكمان يملكان عقلين راجحين.

ولكن وعندما سنحت فرصة صغيرة للتعبير عن الرأي العام كان هذا الوضع سبباً لظهور السخط وعدم الرضا، ولا غرابة أنه على الرغم من استمرار التوسعات الإمبراطورية فقد كتب على نهاية حكم شلمناصر أن يوصم بحدوث الاضطرابات والتمردات، إذ إنه وفي الإمبراطورية نهاية عهد شلمناصر وقبل موته بعدة سنوات حدث هناك نزاع قوي يرأسه ولدان من أولاد شلمناصر، ويذكر الحلف الناجح لشلمناصر وهو شمسي أداد الخامس أن سبعاً وعشرين مدينة قد تمردت، وكان هذا التمرد يشمل المدن الآشورية الرئيسية وهي نينوى وأربيل وآشور وأرابخا.

وكانت مدينة (كالخا) هي الاستثناء الوحيد إذ إن من الواضح أن (كالخا) ظلت تحت سيطرة شلمناصر وشمسي أداد الخامس، فقد كان بُعد النظر الذي أبداه آشور ناصر بعل وشلمناصر عند تخطيط وتنظيم عاصمتها الجديدة (كالخ) قد أثبت الآن أن الحاكم الذي يحتفظ بهذه المدينة سوف يسيطر على الإمبراطورية بأجمعها.

وبعد استعادة السلام في آشور كانت نشاطات شمسي أداد الخامس متركزة بالحدود الشمالية الشرقية وببابل التي غزاها شمسي أداد وأزاح فيها عن العرش ملكين متعاقبين (٨١٣ – ٨١٢ ق.م) وليس لدينا أدلة قاطعة عن هذا التطور

الأخير، وهناك تطور آخر وهو أن شمسي أداد قد استلم مساعدة بابلية لتأمين مملكته (وقد استنتج هذا من الرخم الفخارية التي تشير إلى المعاهدة المعقودة بينه وبين الملك البابلي).

وإن المحاولات التالية من قِبَل بابل للاستمرار وإذلال آشور بالتدخل في شؤونها قد أدت لقيام شمسي أداد بإجراء أعمال مضادة عنيفة، وإن الخراب الذي أحدثه شمسي أداد في مدن شمال بابل قد سبب تمزُّقاً ساعد على تصاعد ونمو النفوذ الكلداني.

الأم الملكية التي أصبحت أسطورة

يقدم لنا شمسي أداد حلقة تؤدي إلى أسطورة كلاسيكية، إذ إن زوجته وتدعى (شمورامات) وهي التي ذكرت في الأساطير اليونانية ابتداءً من هيرودوتس فصاعداً، ووجدت في الأساطير وحكايات العصور الوسطى باسم سميراميس، ولقد ذكر ديودوروس المؤرخ الصقلي الذي كتب عن تاريخ اليونان في القرن الأول ق.م بأنه خصص عدة صفحات من القصص الخيالية حول هذه السيدة، التي كانت تجسيداً للمرأة الخارقة الفائقة الجمال، المحبة للنصح وذات المقدرة العسكرية والقوة الجنسية والمهارة الإدارية والطموح، وقد أدت هذه الصفة الأخيرة بها عندما أصبحت أرملة الملك أن تبني بابل وعدة مدن أخرى في منطقة ما بين النهرين وما وراءها.

بينما تقول الأساطير الأرمنية: إنها قد بنت مدينة عظيمة تُطل على بحيرة (فان) شرقي تركيا، والحقيقة أن هذه العاصمة قد بناها ملك أورارتو المعاصر لهذه الملكة.

إن ذرة من الحقيقة وراء كل هذه المعلومات تشير أن سميراه [illegible] كانت امرأة متسلطة، وأنها كانت امرأة بارزة مرموقة في عهد ابنها حدد نيراري الثالث (٨٠٩ – ٧٨٢) ويتصورها بعض الباحثين كوصية على العرش، مع أنه ليس لدينا أي دليل مقنع على هذا سواء كانت وصية على العرش أم لم تكن، ولكن عظمتها

الاستثنائية قد شهد عليها وجود نصب تذكاري حجري، فقد وجد بين اللقيات في العاصمة الآشورية القديمة صفاً من الأعمدة الحجرية منقوش عليها تذكار أشخاص مختلفين، وفي الصف الأول ذكرت أسماء موظفين كبار، بينما في الصف الثاني كُتب أسماء ملوك ما عدا ثلاثة أسماء، ومن الاستثناءات الثلاثة كان واحد باسم الملكة (سيدة القصر آشور بانيبال) وواحد باسم سيدة (من المحتمل أن تكون سيدة من سيدات القصر مع أن الاسم واللقب مفقودان) سنحاريب، والثالث باسم سميراميس، ويقول النص:

مسلة شمورامات

ملكة (حرفيا سيدة قصر) شمسي أداد

ملك الجميع – ملك آشور

كنة شلمناصر

ملك الأقطار الأربعة

وإن وجود مسلة شمورامات (سميراميس) في الصف المخصص للملوك وأنها هي لوحدها من السيدات الثلاث الموجودة هناك كانت توصف بأنها أم ملك، هذا يوحي أنها كانت تتمتع بوضع خاص في أثناء حكم (حدد نيراري) ويمكننا أيضاً أن نلاحظ أن حاكم (كالخ) عندما كرس تمثالين إلهين أضاف نقشاً تكريمياً يربط بين عبارة:

«تكريماً لحياة حدد نيراري ملك أراضي آشور سيده» أضاف عبارة «تكريماً لحياة شيمورامات سيدة القصر – سيدته» وهذا يشير مرة ثانية إلى الوضع الاستثنائي لشيمورامات.

أورارتو – المملكة المنافسة

كان لدى حدد نيراري الثالث مشكلات أخرى أكثر من وجود أم متسلطة، ولكي نفهم ما كان يجري في الإمبراطورية الآشورية في النصف الأول من القرن الثامن ق.م علينا أن ننظر لما كان يحدث في الشمال، فيما يدعى الآن تركيا

الشرقية (سابقاً أرمينيا) كان هناك مملكة أورارتو التي كان يحدها ثلاث بحيرات وهي بحيرة (فان) وبحيرة (أورميا) وهي (ريراية) في أذربيجان (شمال غرب إيران) وبحيرة سيفان في أرمينيا السوفييتية (سابقاً) (جنوب روسيا) ولقد تطورت هذه المملكة في القرن التاسع من اتحاد شعوب موجودة في داخل وفيما وراء طوروس، وغزاها الآشوريون خلال عدة قرون، ومع أن هناك نقشاً من اسم أورارتو موجوداً ضمن النقوش الآشورية يرجع إلى القرن الثالث عشر، إلا أنه يشك أنه كان لا يعني أكثر من جزء هامشي صغير لما أصبح يدعى فيما بعد مملكة أرارتو.

وعلى كل حال كانت أورارتو المنافس الرئيسي لآشور، هي من صنع الدولة الآشورية نفسها، فإن الغزوات الآشورية الدائمة لجبال طوروس وما وراءها والقبض على أمرائها وأخذهم كأسرى وكرهائن، وتشغيل أهاليها بالسخرة، والشباب لخدمة الجيش الآشوري، ووجود مسؤولي الإدارة الآشورية وكتبتهم لمراقبة وتسجيل حمولات الخشب والمعادن والخيول القادمة إلى آشور، كل هذه عرفت شعب أورارتو على قسم كبير من ثقافة وبنية آشور التحتية، وإن هذا الرابط قد انعكس في أن أول النقوش الأورارتية الباقية كانت مكتوبة باللغة الآشورية، ومعظمها مكتوبة بالخط المسماري المبني على اللغة الآشورية.

يمكننا أن نُرجع البداية الحقيقية لأورارتو كمملكة مرموقة إلى زمن شلمناصر الثالث، فلم يصف شلمناصر غزواته لأورارتو فحسب بل لقد صورها في لوحات مجسمة من البرونز كسى بها بوابات إحدى المدن التي بناها قريبة من كالاخ، فنحن نرى خلال تلك الصور قدوم جنود المشاة من الأورارتيين فوق الجبال المنحدرة، ونرى المسؤولين الآشوريين من الخيالة والرماة الآشوريين أثناء العمل، ونرى حادثة إحراق (ارزاشكن) أول عاصمة لأورارتو، ولم تكن آرزاشكن في منطقة بحيرة (فان) ولكن على بعد منها إلى الغرب أو الشمال الغربي، ولقد بنى ملك أورارتو (ساردوري) عاصمة جديدة له تدعى (تورشيا) وذلك طلباً للأمان من

خطر الحملات الآشورية، وكانت هذه العاصمة الجديدة في موقع عالٍ يسهل الدفاع عن كل الشاطئ الجنوبي الشرقي لبحيرة فان.

لقد قدمت الاضطرابات الداخلية التي حدثت في أثناء حكم شلمناصر الثالث فرصة لأورارتو للتوسع، فقد عبر الآشوريون تحت قيادة شلمناصر جبال زاغروس واتجهوا إلى إيران، وربما كان ذلك بحثاً عن الخيول، وقد قابلوا إلى الجنوب من بحيرة أورومیا شعباً يدعى (المانى) فضلاً عن الإيرانيين (الذين لم يتخذوا مكان إقامتهم النهائية بعد في الجنوب) وقابل شعب ميديا أيضاً.

وهنا تتوسع (أورارتو) جنوباً الآن إلى داخل الأراضي الجبلية الواقعة بين (توروشيبا) وآشور، وشرقاً وجنوب شرقاً إلى داخل بلاد أذربيجان الخصبة حتى بحيرة أورومیا، وعندما حاولت أورارتو مواصلة التوسع جنوباً من بحيرة أورومیا بدأت المنافسات للاستيلاء على أرض مانيا، الأمر الذي لم يتقرر إلا بعد أن استولت آشور على جميع بلاد أذربيجان عام ٧١٤ ق.م، غير أن الاضطرابات الآشورية الداخلية زمن شلمناصر الثالث قد أخضعت سيطرة آشور على المنطقة الشمالية الغربية وبذلك مكنت أورارتو من التوسع حتى الفرات الأعلى، وكانت هذه منطقة ذات أهمية قصوى بالنسبة لآشور نظراً لأن النهر كان هو الطريق الطبيعية الموصلة إلى بلاد الأناضول من سورية ومنطقة ما بين النهرين.

وعندما هجمت أورارتو على إحدى المحميّات الآشورية المهمة هناك وهي دولة (ميليد) دَبَّ القلق بين أتباع آشور الآخرين من الداخلين في فلك آشور في شمال وجنوب سورية، وقد انعكس هذا في الامتناع عن تقديم الجزية في زمن حكم الملك شمسي أداد الخامس.

كانت أهمية سورية الاقتصادية بالنسبة لآشور متعددة الجوانب، فقد كانت سورية مصدراً للقوة العاملة الماهرة، كما أنها قدمت الخشب من جبال أمانوس ولبنان، وكانت تشرف على الطرق الآشورية إلى البحر الأبيض المتوسط، وكانت سورية هي خط التزويد الأساسي بالمعادن والخيول من الأناضول وآسيا الصغرى، هذا وقد وصل (حدد نيراري) الثالث إلى حل بالنسبة لهذا المشكل

الاستراتيجي وذلك بالقيام بحملات في جنوب سورية التي كانت أسهل منالاً من سورية الشمالية بسبب التضاريس الطبيعية، ولكن الحقيقة أن ذلك كان بسبب أن هذه الحملات لا تشمل أورارتو مباشرة.

وقد بدأ الحملة بالهجوم على (أرباد) إلى الشمال الغربي من حلب، ولكنه ركز فيما بعد على استعادة سيطرته على سورية الجنوبية، واستلام الجزية من المناطق حتى جنوبي صور وصيدا وإسرائيل (وقد ذكر اسم ملكها بالتحديد وهو يوشع) وكان هدفه الرئيسي من غزو جنوب سورية الاستيلاء على مدينة دمشق الغنية التي ادعى حدد نيراري أنه استلم نحو ثلاثين طناً من النحاس أو البرونز، وضعف تلك الكمية من الحديد، وأما من لبنان فقد حمل نحو مئة شجرة أرز من التي احتاجها لأجل بناء قصوره ومعابده.

لقد ألمحنا إلى الدور الذي لعبتُه سورية كمصدر من مصادر الحصول على القوى البشرية، ولقد أدرك حدد نيراري الحاجة لتطوير أراضيه، وفي إحدى النصوص يضيف إلى قصة غزوته لجنوب سورية بعض التفاصيل حول مشروع إعادة الاستيطان في منطقة الخابور العليا الخصبة، ومن المعقول أن نستنتج أن الشعب الذي وصل إلى هذه المستوطنات الجديدة قد أتى من جنوب سورية.

وجواباً على تهديدات آشور لسورية حاول ملك دمشق تنظيم اتحاد يضم جميع الدول ابتداءً من (ميليد) وكليكيا حتى دمشق مع أنه وجدت بعض الجزر التي كانت تدين بالولاء لآشور مثل حماة التي بقيت كذلك.

وقد كان الوضع النهائي أن وُجدت دولة قوية وهي دولة (أورارتو) الي كانت مسيطرة على المنطقة بأجمعها غرباً ابتداءً من جنوب بحيرة (أوروميا)) حتى (ميليد) مع بعض الدول ابتداء من ميليد جنوباً حتى كركميش التي كانت تخضع للنفوذ الأورارتي كلياً، وإلى أقاصي الجنوب حيث كان هناك اتحاد متضامن نسبياً تحت قيادة دمشق التي كانت غير موالية لآشور، كل هذه الأمور أثرت تأثيراً سلبياً على تزويد آشور بالأشياء الضرورية مثل الخيول والمعادن والأخشاب فضلاً عن الكماليات مثل اللازورد من أفغانستان، والذي كان يصل

إلى آشور عن طريق يسير خلال شمال إيران، ومثل التوابل من جنوب بلاد العرب والتي كانت تصل إلى آشور من خلال فلسطين وسورية.

ولو كانت آشور تحت حكم رجل استراتيجي قادر لاستطاعت حل هذه المشكلات، وبوجود سهولها الغنية بنبات الذرة الممتدة على طول نهر دجلة العظيم، ووجود طرق المواصلات السهلة عبر المنطقة بأكملها، فقد كانت آشور ذات موقع جغرافي يؤهلها لتكون دولة محاربة أكثر من حالة أورارتو الجبلية التي كان من الصعب صوغها بشكل دولة موحدة، بينما كانت التضاريس الطبيعية لأورارتو تجعل من المستحيل هزيمة هذه الدولة ككل، ولكن عملت بعض الظروف على التأكيد أن باستطاعة آشور السيطرة على تلك المناطق الخاضعة لنفوذ (أورارتو) والتي كانت ذات أهمية استراتيجية لآشور، ولكن وفي ذلك الوقت بالذات لم تكن الظروف مناسبة في آشور، وكذلك فقد كان المشكل في سورية ليس مُستعصياً على الحل.

أما محاولات دمشق لإنشاء تحالف سوري شامل فقد كانت ناجحة إلى حدّ ما وبشكل مؤقت، هذا وقد ذكرت قضية مقاومة حماة، وتوضح التوراة أن بريكام الثاني ملك إسرائيل لم يكن يرحب بالاتحاد الذي اقترحته دمشق، ولكنه استفاد من انهماك دمشق في تلك الشؤون فاصبح حليفاً لآشور عندما قامت بحملة ضد دمشق عام ٧٧٣، وكانت آشور تفضل وجود إسرائيل قوية ولكن لا تؤلف تهديداً لآشور في منطقة الفرات السورية، على تحالف الدول الآرامية بقيادة دمشق والذي كان يهدد مصالح آشور حقاً.

الملوك الضعفاء والولاة المغالون في القوة

ومع ذلك ولمدة حكم ثلاثة ملوك ومضي نحو أربعين عاماً بعد حدد نيراري الثالث لم تُظهر آشور أي مبادرة ظاهرة، ولا يعني هذا أن آشور قد لانت فجأة، إذ إن قوائم التواريخ السنوية تذكر حدوث حملات سنه ضد مملكة أورارتو في مدة ثماني سنوات، وأربع حملات ضد سورية فيما بين عام ٧٧٢ وعام ٧٥٤، ولكن

تدل المؤشرات أن هذه الحملات كانت إما حملات دفاعية قام بها الحكام المحليون أو غارات محدودة أو مصادمات حدودية، إلا أنه لم تكن هناك محاولات كبيرة للتوسع الآشوري، وقد كان أحد عوامل هذه الظاهرة هو الوضع الداخلي، حيث حدث تغير في السلطة وانتقال تلك السلطة من الحكومة المركزية إلى الولاة المحليين، وهذا كان تطوراً تدريجياً بدأ بالحدوث منذ زمن شلمناصر الثالث.

هذا، وإن تأكيد ذلك الملك ووالده على وجود سيطرة آشورية حازمة على مناطق مثل منطقة الفرات الوسطى والعليا، ومناطق شمال طور عابدين كل ذلك كان يقتضي وجود إدارة محلية ذات سلطات بالغة القوة لحماية أمن تلك المناطق الحدودية النائية.

ولقد لاقت تلك الاستراتيجية لحماية آشور داخل حدود الفرات وشمال دجلة نجاحاً باهراً، فقد سمحت بالعمل السريع ضد أي قلاقل محلية، واستطاع الحكام في جواد قوى (أورارتو) التحرك بسرعة ضد أي حركات مهددة، ولكن يظهر أنه كان هناك وجه آخر لهذا التطور، فالحكام في هذا الوضع كانوا قادرين في غياب ملك قوي قادر على اكتساب مقياس واسع من الاستقلال، وأن تصبح هناك أسر محلية حاكمة، ولقد أظهرت هذا الأمر بعض النقوش التي كانت تخص ثلاثة حكام مختلفين من هذه الفترة كانت تسجل مفاخرهم التي تشمل بعض أوجه النجاح العسكري وتأسيس بعض المدن، وكانت هذه الشؤون منحصرة بالنقوش الملكية.

وفي إحدى الحالات نجد أحد الحكام الذي كان يحكم منطقة بمحاذاة الفرات الأوسط، كان هذا الحاكم يؤرخ أعماله بعدد سنوات حكمه ووجوده في السلطة دون ذكر وجود أي ملك، وهذا يدل أنه كان حاكماً مُستقلاً فعلاً، ومن الممكن أن نضيف أن هذا الحاكم فعل الكثير لخير الإنسانية أكثر من عديد من الملوك، فقد قدم تربية النحل لشعبه، والتي كانت انجازاً يفتخر به وهو يكتب هنا مايلي:

أنا شاماش – ديش – يويسور حاكم سوهو وماري (على الفرات الأوسط) أقول: إن النحل الذي يجمع العسل الذي لم يره أحد من أجدادي ولم يجلبه إلى هذه البلاد، لقد جلبته من جبال حبحا (تركيا الشرقية) وبدأت استثماره في بلدة جباري ابني (وهي إحدى المدن التي اسسها) وإن أهالي تلك البلدة يجمعون العسل والشمع، وإنني أفهم كيف يذيبون العسل والشمع ويفهمها أصحاب البساتين أيضاً ويمكنكم سؤال أي شخص في المستقبل من الشيوخ القدماء في البلاد فيما إذا كان صحيحاً أن شاماش – ريشن – يوشور حاكم سوهو هو الذي قدم النحل إلى هذه البلاد.

إنه لأمر مهم أن يقول شاماش – ريشن – يوشور: إنه حصل على النحل من الشمال، لأنه من المعلوم أن الحثيين كانوا يربون النحل في خلايا في الألف الثاني ق. م.

وبوجود حكومة مركزية ضعيفة مع وجود مشاكل اقتصادية ناتجة عن التدخلات في تأمين البضائع التي كانت آشور معتادة عل الحصول عليها من سورية ومن الشمال، بوجود هذه المشكلات بدأت التوترات تشتدّ، وفي أثناء حكم آخر ملك في هذه الفترة وهو آشور نيراري (٧٥٣ – ٧٤٥) حصلت أورارتو على مكاسب سياسية وربما عسكرية في شمال سورية، وقد ادعى معاصره الأورارقي (ساردوري) الأول أنه قد استولى على أرض (آشور نيراري) ملك آشور، ولم يذكر أي تفاصيل سوى أنه ذكر اسم مكان يوحي بأنه من أراض آشورية قرب كركميش، ولم يكن آشور نيراري في مركز يسمح له أن يقوم بجواب عسكري.

وتسجل قائمة حوادث السنين الخمسة من السنين الثمانية التي حكمها بأنه لم تحدث أي حملة عسكرية، ويظهر أنه قد صمم على حماية مركز آشور في سورية الشمالية بشكل دبلوماسي، ولدينا نص من نصوص معاهدة مفادها إشراك دولة سورية شمالية لدعم آشور ضد أورارتو، وكانت لهذه المبادرة تأثيرات قليلة، وهكذا استمرت أورارتو بالتقدم في سورية الشمالية.

وفي النهاية: انفجرت التوترات خلال آشور عبر تمرد داخل العاصمة (كالخ) ونُصب حاكم كالخ ملكاً وكان مُغتصباً، ولكنه كان يحمل دماء ملكية، وكان اسمه (بول) كما هو مسجل في كل من التوراة وبعض النقوش المسمارية، ولكنه اتخذ اسم (تغلات بلاسر) لقباً ملكياً كما أنه كان دلالة على نوع السياسة التوسعية التي كان ينوي اتخاذها والسير بموجبها وذلك اقتفاءً لخطى الصاحب الأول لهذا اللقب.

الفصل السابع

عنفوان الإمبراطورية

الإصلاح الإداري

لقد قدَّم حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥ – ٧٢٧) قرناً من التوسعات العظمى في آشور الإمبراطورية، ولقد تبع ذلك التغير الدرامي في الأوضاع الدولية التنظيم الإداري الذي أعطى الملك السيطرة المباشرة والسريعة على جميع موارد الإمبراطورية.

وبالنسبة للتنظيمات الإدارية القديمة للمناطق، انتقلت بعض أنظمة الولاية التي كان يُنفذها بعض العائلات النبيلة إلى ما يشبه نظام الملكية الوراثي، وأصبح الوالي حاكماً شبه مستقل، ولكن هذه الأنظمة قد تحطمت وظهر بدلاً منها بُنية من الموظفين الذين كان يُعينهم الملك وأصبحوا مسؤولين أمامه في العاصمة، ولقد نظمت في الإمبراطورية أنظمة للمواصلات السريعة وشبكة من مراحل البريد التي اقتبسها الفرس فيما بعد وادعوا أنهم هم الذين اخترعوا هذا النظام الذي انتشر عبر الإمبراطورية.

وقد طُلب من موظفي الولايات إرسال تقارير بالنظام إلى العاصمة وبالسرعة المطلوبة، وكان للملك بعض المفتشين المتنقلين وذلك لفحص أعمال موظفي الولاية حتى أعلى المراتب وبالنسبة للدول الخاضعة لآشور والتي تقع فيما وراء الولايات المحكومة بشكل مباشر فقد عين تغلات بلاسر ممثلين عنه لضمان المصالح الآشورية في البلاط ولاسيما في الشؤون التجارية والسياسة الأجنبية.

أما العائلات الحاكمة المحلية، فما داموا يدفعون الجزية المفروضة عليهم، وما داموا يقبلون تعليمات الممثل الإمبراطوري بالنسبة للشؤون العامة، فقد تركوا أحراراً ومستقلين ولديهم الثقة بدعم القوى الإمبراطورية لهم ضد أي ثورة داخلية أو هجوم خارجي، وليس من الصعب أن نجد أمثلة على أوضاع من هذا النوع، إذ إن

لدينا نقشاً آرامياً يمثل أحد الأتباع المخلصين وهو ملك (سامال) التي تقع على بعد حوالي سبعين ميلاً إلى الشمال من حلب، ويذكر هذا الملك كيف أعاد تغلات بلاسر والد هذا الملك إلى الحكم بعد ن حصل تمرد ضده، وكيف أن الملك الآشوري قد قضى على المعارضة، وفي التوراة نرى كيف أن (أحاز) ملك يهوذا وعندما هدده ائتلاف معادٍ، التجأ (أحاز) هذا إلى ملك آشور تغلات بلاسر.

ولقد أنشئ نظام للتجسس في آشور، ومن هذا الزمن نسمع عن جواسيس من (أوراريتا) كان الآشوريون يدفعون لهم رواتبهم، ولقد سمعنا عن تقاريرهم في بعض الحالات، ومن المعقول أن نفترض أن هذا الإجراء لم يكن محصوراً بأورارتو، وفي أثناء هجوم سنحاريب على أورشليم عام ٧٠١ ق.م كان الموظفون الآشوريون يعرفون بالطبع (إذا جاز لنا آن نصدق القصص التوراتية) كميات وافرة من المعلومات عن التطورات الداخلية في مملكة يهوذا.

لقد بدا من الواضح معرفة أعمال تغلات بلاسر بصفة عامة، إذ من الصعب الوصول إلى ما فعله بصورة خاصة، وذلك لأن حولياته قد حفظت بشكل سيء، وإن إعادة ترتيب مفصلة لتاريخ وجغرافية حملاته ما تزال تقدم عدة ساعات سعيدة من الأبحاث بالنسبة لدارسي الخط المسماري، أما نقوش تغلات بلاسر فقد تعرضت إلى الأذى من عدة نواح، فقد كتب حولياته بالخط النافر على جدران قصره، وقد عمد أحد خلفائه إلى نزع تلك الألواح المجسمة واستعملها لتزيين قصره الجديد الذي كان يبنيه، وقد أساء ترتيبها وأتلفها عند القيام بهذا العمل..

وبعد ذلك وفي أوائل القرن التاسع عشر الميلادي حاول أحد الحفارين الوصول إلى الألواح فتسبب في زيادة الإساءة، وذلك لأنه قص بعض الأجزاء المنقوشة للتخفيف من وزنها وتسهيل نقلها.

«آه أيها الفن، كم من الجرائم تقترف باسمك!». وقد حاول عضو بعثة الحفريات هذا أن يتجنب ضياع المعلومات وذلك بنسخ النص على أوراق، ولكن الأوراق تعرضت للغرق واختفى قسم منها بين دهاليز المتحف البريطاني، وفوق ذلك فإن الذين توصلوا إلى النصوص الأصلية وقطع الورق نشروها بشكل سيئ، وإن

أحد العوامل الكامنة وراء هذا الخلل النهائي هو أن تغلات بلاسر كان واقفاً ضد غالبية التواريخ التوراتية كما يظهر في كتاب الملوك، وهكذا فقد أصبح الاهتمام الرئيسي لبعض الباحثين لا ينتمي إلى تاريخ الشرق الأدنى في مظاهره العريضة بل كان همهم تثبيت وتأكيد الأقوال التوراتية حول التاريخ الإسرائيلي.

السياسة تجاه الدول التابعة

لقد وسع تغلات بلاسر الإمبراطورية الآشورية، وقد اعتبر آشور ناصر بعل وشلمناصر الثالث منطقة نهر الفرات حداً من حدود آشور العظمى تعبيراً عن حكم المناطق بشكل مباشر، وإلى الغرب كان هناك دويلات خاضعة وموالية مرتبطة بآشور بالمعاهدات أو بالتهديدات العسكرية.

ولكنها كانت بالحقيقة مستقلة رسمياً، ولكن تغلات بلاسر بدل كل هذه المفاهيم، ففي أثناء حكمه أصبحت بعض الولايات التابعة سابقاً فيما وراء الفرات ولايات محكومة بشكل مباشر، وقد تابع خلفاء هذا الملك توسيع هذا الوضع.

فهل كان هذا العمل نتيجة لاتباع سياسة واستراتيجية جديدة أم لم يكن سوى نتيجة اتباع سياسة سابقة؟

ولكن الشواهد تشير إلى تصويب الرأي الأخير، فقد قدمت التوراة تفاصيل حول ضم مملكة إسرائيل إلى الحكم الآشوري، ومن الواضح أن تغلات بلاسر حاول جهده لكسب تعاون إسرائيل كدولة تابعة، ولكن وبعد أن فشلت هذه المحاولات عمل أحد خلفاء هذا الملك إلى غزو إسرائيل واحتلالها.. وكذلك في مملكة يهوذا نرى أن أحاز ملكها قد استنجد بتغلات بلاسر طالباً العون، ولم يكن ليفعل هذا لو كان يدري أن هذا سوف يؤدي إلى ضم مملكته لآشور (وهذا لم يتم بالنتيجة) وهنا نرى أحد حكام الولايات في شمال سورية التابعين لآشور يعدد بوضوح العلاقات الوثيقة ما بين أبيه وبينه من جهة وبين تغلات بلاسر الثالث من جهة أخرى.

(لقد أمسك أبي بحاشية سيده ملك آشور العظيم وعندئذ عاش هو وعاشت (عدي) (اسم المملكة) لقد سار أبي إلى جانب دواليب عربة سيده تغلات ملك آشور ورافقه في حملات امتدت من الشرق إلى الغرب، ولقد مات والدي تحت قدمي سيده تغلات بلاسر ملك آشور، وقد بكت عليه جميع معسكرات سيده، وقد أقام له سيده تمثالاً على حافة الطريق، وحُمل أبي قادماً من دمشق، ونظراً لولائي وولاء والدي فقد عينني سيدي تغلات بلاسر ملكاً).

ومن الواضح أنه لم يكن لهذا الملك أي سبب يدعوه أن يفكر أنه ما دام تابعاً ومواليا لآشور فان مملكته سوف تضم إلى آشور.

لقد كانت مشكلة آشور العظمى عند تولي تغلات بلاسر الحكم هي (أورارتو) وقد كانت السيطرة على الطرق التجارية السورية ضرورية لتأمين ورود الأخشاب والمعادن والخيول، ولقد كانت مملكة أورارتو مصممة على السيطرة على سورية الشمالية، وبوجود هاتين القوتين في الميدان (مع وجود قوة ثالثة وهي مصر التي كانت أقل قوة ولكنها استعادت بعض قواها في هذا الوقت بحيث لا يجوز إغفالها) ولهذا فقد ثبت أن معظم الدول التابعة غير جديرة بالثقة في الأوقات الحرجة، وذلك من وجهة النظر الآشورية، ولهذا فقد اضطرت آشور وحفظاً لأمن الطرق التي كانت تعتمد عليها أن تقدم وتنفذ حكماً مباشراً للولايات، وأن تضعف المجال المحلي للتمردات عليها وذلك عن طريق تهجير الفئات المتنفذة.

وهنا وبغض النظر عن مبادئ تغلات بلاسر التوسعية، وبسبب حالة سجلاته السيئة، فإننا نلاحظ أن التفاصيل قد بقيت موضوعاً للبحث بالنسبة لعدة نقاط، وفي الاستعراض التالي سوف نذكر التفاسير التي اقترحها الباحث الإسرائيلي حاييم تدمور.

التوسع خلال حكم تغلات بلاسر الثالث

ذكرنا سابقاً موضوع الخصومات الحدودية المستوطنة التي وقعت بين آشور وبابل، والتي طال ذكرها، ولم نقصد كسر التقاليد أثناء حكم تغلات بلاسر

عندما نبدأ بتأكيد الحقوق الآشورية بالحدود المتنازع عليها مع بابل في الجهة الجنوبية الشرقية، وبهذه المناسبة استطاع تغلات بلاسر نظراً لضعف بابل المسبب عن الاضطرابات الداخلية أن يُثبت الحدود في أقصى الخطوط الجنوبية على طول نهر ديالا من زاغروس إلى نهر دجلة، ولقد حدثت أيضاً عدة اختراقات آشورية إلى الجنوب، حيث كان هناك بعض القبائل وهم الكلدانيون الذين ذكروا آنفاً والذين سوف نقابلهم كخصوم مقاومين لآشور فيما بعد، كان هؤلاء الكلدانيون يمزقون ويوقعون الفوضى في بابل، وبعد ذلك التفت تغلات بلاسر إلى الاهتمام بمشكلته الرئيسية وهي شمال سورية.

وهنا نجد أن مملكة أورارتو قد قامت بتقدم ذي أهمية حديثاً، فقد أخضعت عدة دول على الخط إلى الغرب من نهر الفرات وهي ميليد وكوموخ وكركميش وأصبحت هذه الدول تابعة لأورارتو، هذا وقد انضمت (ارباد) إلى الجنوب الغربي من كركميش وهي التي كانت تسيطر على مشارف المناطق في أقصى الجنوب، تلك المشارف التي كانت ذات أهمية بالنسبة للطرق الآشورية إلى منطقة البحر الأبيض المتوسط، والتي كانت ترتبط بمعاهدة اسمية مع آشور، وقد انضمت هذه المملكة إلى الائتلاف ضد آشور.

وفي عام ٧٤٢ ق.م قام تغلات بلاسر بمهاجمة (أرباد) التي كانت تحتلها الجيوش الأورارتية، وتشمل قائمة (ليمو) (وهي وثيقة تقدم قائمة تقريبية للحوادث ذات الأهمية بالنسبة للأغراض التاريخية) مايلي وذلك بالنسبة لحوادث عام ٧٢٣ ق.م:

((في (أرباد) حصل انكسار لقوات أورارتو)) ولكن استغرق حصارها مدة سنتين حتى استولى الآشوريون على تلك المدينة، وقد تسبب هذا في خضوع عدة مدن لحكم آشور عن طريق دفع الجزية، بينما كان تغلات بلاسر يقوي مواقعه في شمال سورية، وكان هذا في عام ٧٤٠ الذي أصبح يسجل عام فتح أرباد وجعلها قاعدة للعمليات الرامية إلى هزيمة الدول الخارجة عن الطاعة.

وهنا التفت تغلات بلاسر لمعالجة دولة خاضعة لأورارتو وهي بلاد (أولويو) في منطقة (دوهوك زاخو) الواقعة إلى الشمال من نينوى. والتي كانت متاخمة لأراضي آشور والتي لا يجوز تركها مُرتاحة تحت أيادٍ أجنبية، وهي تمثل تهديدات أورارتو لآشور، وهكذا استولى تغلات بلاسر على هذه المنطقة التي كانت مزدهرة، كما ذكر أن تسعاً وعشرين مدينة قد أصبحت تحت الحكم الآشوري المباشر، وقد هاجر إليها بعض السكان المنقولين من المناطق المغلوبة، ونظن أنهم كانوا من شمال سورية، ولقد جلبت لتغلات بلاسر تلك النشاطات التي بدأها من قاعدة (أرباد) عام ٧٤٠ جلبت له الجزية التي تدل على القبول النهائي للحكم الآشوري، وذلك من عدد من الدول التي تم قهرها حتى حدود فلسطين.

وفي هذه النقطة نرى أن تسجيلاتٍ واسعة كانت متأثرة بحيث كانت إعادة بناء عدة أماكن ممكنة، ولا تزال الاختلافات الأكاديمية لدرجة قطع الأعناق مستمرة حول تفاصيل تافهة، مثل الاختلاف على التاريخ المضبوط حول دفع الجزية من قبل (مناحيم) في إسرائيل، والتي سجلتها التوراة، ومع ذلك فيبدو أن بعض الدول البعيدة في جنوب سورية وفلسطين قد استنكفت عن دفع الجزية، وبهذا أظهرت أنها لم تكن موالية لآشور، ولهذا فقد قام تغلات بلاسر عام ٧٣٨ بعرض لقواه العسكرية في جنوب سورية وكان هذا سبباً في دفع مناحيم الإسرائيلي الجزية لآشور، وفي سفر الملوك يذكر أن بول (وهو تغلات بلاسر ملك آشور تقدم ضد الأراضي ولهذا فقد قدم مناحيم إلى بول ألف مثقال من الفضة، وتعهد أن يبقى معه لكي يثبت بقاء المنطقة تحت حكمه).

وإن ما ورد في التوراة عن الحوادث التي سبقت الحوادث التي ذكرناها، يذكر أن مناحيم قد استولى على العرش في إسرائيل في أواخر حكم عزريا ملك يهوذا، ومن الممتع أن نعلم أن تغلات بلاسر قد قابل شخصاً اسمه (عزر ياهو) وهو شخصية بارزة في التحالف السوري وكان يحظى بدعم سوري حتى حماة، ولقد اعتبر البعض أن (عزر ياهو) هو ملك يهوذا نظراً لأن عزر ياهو قد التحق به أو حتى ألف تحالفاً سورياً يشمل الدول المناهضة للدول الخاضعة لآشور، ولكن ومع أن

هذا كان ممتعاً بالنسبة للتواريخ التوراتية، إلا أن هذا الخبر ليس له أي صلة بإعادة إنشاء تغلات بلاسر لاستراتيجيته الجديدة.

وابتداءً من عام ٧٣٧ حتى عام ٧٣٥ ق.م كان تغلات بلاسر مشغولاً بتنفيذ إجراءات ضد أورارتو في أقاصي المناطق الشرقية حتى أراضي الميديين الواقعة إلى الشرق من زاغروس في شمال غرب إيران.

هذا ولقد أعطى انسحاب الجيش الآشوري الرئيسي من سورية انطباعاً مضللاً عن مقدرة الآشوريين على الاحتفاظ بقوتهم ومركزهم، فلقد شكلت اتحادات ضد آشور لاسيما ما بين دمشق والدويلات في فلسطين، مع أن (أحاز) كان خارج هذه التحالفات (ربما كان ذلك بناءً على نصيحة النبي أشعيا) وهكذا دعا هذا الملك راعيه وملكه تغلات بلاسر لتأييده، ولقد أخمد تغلات بلاسر تلك الإضطرابات بسهولة وحول دمشق وبعض أجزاء إسرائيل إلى ولايات، مع أنه ترك الجزء الأوسط من إسرائيل تحت حكم ملك وطني وهو (هوشيا) الذي عينه بدلاً من المتمرد (بيكاخ) وذلك بدلاً من أن يجعل جميع المناطق المهزومة تحت حكم آشوري مباشرة، فقد كان تغلات بلاسر حريصاً على محاولة الاحتفاظ بولاء الممالك الخاضعة كلما كان ذلك ممكناً.

النزاع مع الكلدانيين

لقد ظهرت بعض المشكلات أمام تغلات بلاسر في منطقة جديدة، فلقد ذكرنا سابقاً عن الكلدانيين الذين كانوا يمزقون بابل وقد كان هؤلاء شعوباً قبلية ولديهم بعض أوجه الشبه بالآراميين، فقد دخلوا إلى جنوب بابل حوالي عام (١٠٠٠) ق.م، وأنشأوا أول مستوطناتهم في مناطق المستنقعات في أقاصي جنوب بابل وهي المستنقعات العراقية الشهيرة، وبعد ذلك بدؤوا بالتحرك إلى أعالي نهر الفرات ومحاولة السيطرة على بعض المدن القديمة.

وفي عام (٧٣٤) قام أحد الزعماء الكلدانيين البارزين من قبيلة (أموكاني) باحتلال بابل وكان اسمه (وكين – زير) بالاستيلاء على العرش، ولهذا فقد انقسمت بابل في ولائها، وبالنسبة للشعب الكلداني فإن جارهم الشمالي كان يمثل النظام القديم المستقر القائم ضد الكلدانيين المُخربين، وعندما استجاب تغلات بلاسر للوضع بإرسال القوة العسكرية فإن كثيراً من السكان المدنيين في بابل وحتى بعض السكان غير الموالين للكلدانيين مثل شعب باكودو قد رحبوا بهذا العمل، وقد ذكر باكودو في كتب (أرميا وزكريا)، ولدينا بعض المراسلات الحقيقية التي تعود إلى تلك الحملة التي بعث بها بعض القواد إلى الملك، وتذكر إحدى هذه الرسائل قضية المحادثات التي جرت على أبواب بابل ما بين الموظفين الآشوريين والشعب في الداخل، فقد كان الآشوريون يودون التفاهم مع العامة مباشرة متجاوزين الحكام المتمردين، وذلك بنفس الطريقة التي تمت بها المقابلة بين القائد الآشوري (ربشاتي) مع اليهود أثناء حصار أورشليم عام ٧٠١ ق.م وهذه الحادثة قد ذُكرت في التوراة، ولكن الموقف الكلداني كان قوياً بحيث إن غلبة الآشوريين لبابل قد تمت خلال ثلاث سنوات، ولقد كان النجاح الآشوري مدين للدبلوماسية أكثر منه للقوة العسكرية، وبين المراسلات الملكية التي تعود إلى هذه الفترة هناك عدة رسائل تظهر أن تغلات بلاسر كان على ارتباط مع عدد من قواد وزعماء كلدانيين مختلفين، بما فيهم المدعو (باردوك – أبيل – أيدينا) من قبيلة (بيت باقين) وهو نفس (بيروراك – بالادان) المذكور كأحد المفاوضين

مع (حزقيا ملك يهوذا في فترة تالية) وإن رد الفعل الذي أظهره أشعيا إزاء تلك المفاوضات يظهر أنه لم يكن يثق ببيروداك – بالادان، إذ إن أشعيا كان له أسبابه الخاصة، فقد كان بيروداك جاسوساً مزدوج النزعات، إذ إن الرسائل الآشورية الموجودة الآن تظهر أنه وفي زمن المتمرد (أوكين – زير) كان ميروداك يقبض أموالاً بالسر من تغلات بلاسر لطعن رفقائه من الكلدانيين في الظهر.

ولقد عرفت تكتيكات الآشوريين في احتلال بابل بالتفصيل، فقد توجهت الهجمة من ولاية (أرابخا) (كركوك) فقد تحرك الجيش الآشوري جنوباً أسفل الضفة الشرقية لنهر دجلة ليدخل بابل بعد عبور النهر في مكانٍ ما قرب بغداد، وقد كانت بعض القبائل الموالية تحرس الطرق بينما كان الجيش الآشوري يتحرك غرباً ليصل إلى المدن البابلية الشمالية التي كان الكلدانيون المتمردون يحتلونها، وهكذا سقطت بابل وهرب (أوكين – زير) جنوباً ليلتقي بعاصمته القبلية في المستقعات الجنوبية، ولكن جيشاً آشورياً لحق به وتابعه إلى هناك بعد أن ضربوا أراضيه وأراضي حلفائه من القبائل، مع أن الزعماء الموالين لآشور مثل بيروداك – بالادان نجت أراضيهم ولم تخرب وعندما استقرت الأمور بعد ثلاث سنوات أصبحت بابل تحت الحكم الإداري الآشوري، وبالتالي فقد أمسك تغلات بلاسر بيد الإله (مردوخ) أي أنه (أخرج معه تمثال الإله) في احتفال جرى في بابل وبذلك فقد كان مخولاً بشكل رسمي بامتلاك بابل وتنصيبه ملكاً عليها، تلك الوظيفة التي لم يحصل عليها أي ملك آشوري منذ أكثر من أربعة قرون..

وقد اعترف الكهنة رسمياً باحتفال باهر لتغلات بلاسر ممثلاً للآلهة والملك الشرعي لبابل وذلك بإشراكه في وجبة ووليمة سرية خاصة بالأسرار المقدسة والمقامة تكريماً للآلهة، وقد حدث هذا في عام ٧٢٩ ق.م، ولقد توفي تغلات بلاسر بعد عامين بعد أن ترك آشور تحكم إمبراطورية ممتدة من الخليج الفارسي إلى حدود مصر وتتوسع شمالاً خلال شمال سورية إلى كليكيا والأناضول.

ولقد اكتسبت الحملات الآشورية تحت قياة تغلات بلاسر السيطرة على الساحل الفلسطيني جنوباً حتى قطاع غزة، وكان هذا يظهر تهديداً لمصر وأيضاً

لقد تدخل الآشوريون بالتجارة المصرية، فقد فرضوا حظراً على تصدير الأخشاب من لبنان إلى مصر، وكانت هذه العوامل حافزة لمصر لتنظيم حركات ضد الآشوريين في فلسطين وجنوب سورية في السنوات التالية، وقد كانت النتيجة الأكثر دراماتيكية محاصرة وسبي السامرة من قبل الآشوريين وكانت السامرة هي عاصمة ما تبقى من إسرائيل وهي التي ذكرتها التوراة.

اعتلاء سرجون العرش

لقد ادعى سرجون الثاني أنه ابن تغلات بلاسر وقد استولى على العرش بعد قيام اضطرابات في العاصمة القديمة آشور ضد سلطة شلمناصر الخامس الذي حكم وقتاً قصيراً من (٧٢٧ – ٧٢٢) وقد قام شلمناصر الخامس هذا بمحاولة لفرض أعمال السخرة على المجتمع بعكس كل من سبقه. فقد كان لسلطة ملوك آشور حدوداً، واعترافاً بالدعم الذي لقيه سرجون عند استلامه السلطة فقد أعلن سرجون الإعفاء من بعض الضرائب وبعض الالتزامات ليس لشعب آشور فحسب بل أيضاً لجميع معابر بلاد آشور، وهكذا فقد فرض أعباء ضخمة على الأموال الإمبراطورية.

لم يكن أمراً غير متوقع أن قيام الإضطرابات في بلاد آشور قد أيقظت كصدى لما حدث في بعض الأجزاء الأخرى من الإمبراطورية، وسرعان ما واجه سرجون بعض الإزعاجات في بابل.

ولقد قابلنا في وقت مضى عيلام الواقعة في جنوب غربي إيران، وفي أواخر القرن التاسع بدأنا نسمع عن قيام العيلاميين مع الكلدانيين وقبائلهم بمصادمات مع دولة آشور، وقد كان قرب أراضي عيلام من مناطق الكلدانيين في بابل الجنوبية قد وحد اهتمام الشعبين، وفي بداية حكم سرجون أمن بيروراك – بالادان حلفاً رسمياً مع عيلام وبمساندة هذا الشعب استطاع الإستيلاء على بابل عام ٧٢١ ق.م، وقد ادعى حقه في ملك بابل بكونه منحدراً من آحد الجدود الذي عين نفسه ملكاً في أول ذلك القرن، وكما حدث في عصيان أوكنزر فقد تحرك

الجيش الآشوري إلى الجنوب إلى بابل إلى الشرق من نهر دجلة، ولكن في هذه المرة حال دون تقدمهم حلفاء (بيروراك) – بالادان وهم يؤلفون الجيش العيلامي في (الدير) ومع أن سرجون ادعى سحق جيش (همبانيجاش) ملك عيلام ولكن الحقيقة أن أي عمل ضد (بيروراك – بالادان) قد صد لمدة عقد من الزمان.

ولقد منع سرجون من تكريس موارد أكثر وذلك بسبب المشكلات التي ظهرت في أمكنة أخرى، ومن هذه الأماكن كانت سورية حيث حاولت عدة مرات إنشاء تحالف آخر ضد آشور وذلك بالتحالف مع أرباد والسامرة، ولكن استطاع سرجون القضاء على هذا التحالف بسهولة وسقطت حماة لتصبح تحت حكم آشور المباشر، وتلمح التوراة لبعض العمليات التي قام بها سرجون في المنطقة الساحلية في جنوب فلسطين، مع أنه ينبغي أن يقال إنه مهما كانت هذه الحركات الدرامية القادمة من العاصمة أورشليم، إلا أن هذه الحركات كانت ذات تأثير بسيط على القوة الإمبراطورية الآشورية.

المشكلة الأورارتية الحل النهائي

وكما كان الحال مع تغلات بلاسر، فقد كانت المشكلة الرئيسية التي واجهت سرجون في الشمال، فقد كانت أورارتو لا تزال المنافس لطرق التجارة خلال كليكيا والأناضول، والآن لقد مدت أورارتو نفوذها فوق المنطقة إلى الجنوب من بحيرة (أورميا) الواقعة في شمال غرب إيران (أذربيجان) وكانت هذه المنطقة ذات أهمية لآشور لتزويدها بالخيول والطرق القادمة من الشرق الأقصى، ولقد كانت الرسائل المرسلة من الحكام المحليين إلى الملك في هذا الزمن مملوءة بالإشارات إلى بعض التصادمات مع (أورارتو) وعن محاولات أورارتو للاندفاع جنوباً في زاغروس، وتشير بعض هذه الرسائل إلى استخدام جواسيس من أورارتو في نظام الاستخبارات الآشوري الرائع.

ولهذا قرر سرجون القيام بغارة على (أورارتو) نفسها وكانت عملية محفوفة بالأخطار نظراً لصعوبة التضاريس الطبيعية، ولقد توجت الاصطدامات الحدودية

مع أورارتو بنشوء حملة منظمة في صيف عام ٧١٤ والتي اصبح لدينا معلومات مفصلة عنها وذلك من تقرير كتبه سرجون بشكل رسالة إلى إله البلاد آشور، وبعد أن ترك سرجون قاعدته (كالاخ) تقدم شرق الصور الزاب العلوي والسفلي وهكذا إلى زاغروس، ويمكننا اعتبار سرجون إما شاعراً مجيداً أو أنه كان هناك أحد الكتاب في بطانته ممن يملكون مقدرة شعرية، وذلك لأن التقرير كان يعكس في شعره صدى حياً للرهبة التي تجاوب بها مع المنظر الجليل الرهيب:

في الجبال العالية حيث تنمو الأشجار من كل صنف متضافرة الأغصان.

في أواسط الفوضى الجبلية حيث تظهر ممراتها حوضاً مرعباً.

حيث تمتد الظلال وكأنها غابة من أشجار الأرز.

وحيث لا يرى من يدوس تلك الدروب أي شعاع من أشعة الشمس.

ومن الممكن أن ينحني الشاعر دهشة أمام الجبال، ولكن كان سرجون متأكداً من وجود مهندسين عسكريين في جيشه قادرين على جعل الممرات قابلة للاستعمال.

"لقد زودت مهندسي بمعاول من نحاس وراحوا يكسرون ويحطمون صخور الجبال الوعرة كما لو أنها من حجر كلسي وذلك ساعدني على العبور."

ومع أن النص يذكر النحاس إلا أنه يعني خليطه وهو البرونز.

وبعد أن عبر المنطقة إلى الشرق من زاغروس توجه سرجون نحو بلاد المناي، وقد وصل الآن إلى جنوب بحيرة (أوروميا) وقد كان شعب المناي المسكين في وضع لا يُحسدون عليه لأنهم أصبحوا حاجزاً عازلاً بين جارين جبارين، وقد عانوا أكثر من مرة عندما تتغير السلطة في أي منطقة من هذه المناطق لاسيما عندما يقبلون نظام الحكم في المنطقة المعنية، وهكذا فقد خضع حاكم المناي فوراً لسرجون مع أن جاره قد وضع مصيره مع (روسا) ملك أورارتو.

أما الوصول إلى أورارتو إلى الغرب من بحيرة أورومیا فقد وقفت أمامه ومنعته عدة حصون تشكل خطاً واحداً، ولذلك فقد أخذ سرجون جيشه إلى أعلى الجانب الشرقي من البحيرة وذلك لكي يلتف حول مراكز الدفاع الرئيسية المناهضة لآشور وفي الوقت الذي بدأ فيه التلامس مع جيش أورارتو الرئيسي الذي كان يدافع عن ممر جبلي إلى الجنوب من ابريز، فقد أصبح سرجون منفصلاً عن قادته في الوطن مسافة نحو ثلاثمائة ميل وهذا يشمل جميع منطقة الزاغروس، وكانت هذه المسافة عبارة عن تضاريس طبيعية صعبة، وهكذا أصبح جنود سرجون على وشك التمرد وقد قال معلقاً على ذلك:

«إن جنود آشور المتعبين الذين قد قطعوا مسافة طويلة قد أصبحوا مرهقين جداً وبطيئين في حركاتهم، فهم قد عبروا وأعادوا عبور الجبال الشديدة الانحدار وقد لاقوا المشقة العظيمة عند الصعود والنزول، ولقد أصبحت أرواحهم المعنوية منخفضة وتميل إلى التمرد ولا أستطيع أن أخلصهم من هذا الضجر وليس لدي الماء لأطفئ عطشهم ولا أستطيع نصب أي معسكر أو أن أقيم خطوطاً دفاعية».

لقد أدرك سرجون في تلك اللحظة عدم قدرته على الاعتماد على انضباط جيشه، فقد عمد إلى قيادة هجوم بالعربات الحربية وجنود الخيالة وهو يذكر رئيس الخيالة بالاسم وعندما اندحر العدو عندها قام بقية الجيش الآشوري الذين تشجعوا بانتصار الخيالة وانتصار خطة سرجون الممتازة، قام هؤلاء بالانقضاض على التحالف الأوراري وحطموا خطوطهم الحربية وأوقعوا فيهم الذعر، ولهذا فقد قاد القائد الأورارتي جيشه في انسحاب منظم من المعركة ولكن بقية التحالف الذي أصبح بدون قيادة منتظمة هربوا في فوضى عارمة فوق الجبال حيث هلك عدد منهم في البراري، وكان انكسار الجيش الأورارتي صدمة للمعنوية الأورارتية، واستطاع سرجون أن يلتف حول النهاية الجنوبية لبحيرة أورومیا غرباً إلى زاغروس مرة ثانية وبعد ذلك توغل دون مقاومة في أراضي أورارتيا، عندها هرب الملك (روسا) من عاصمته ثوروشبا (وربما كان هذا الهروب غير ضروري وكان من السهل الدفاع عن منطقته (ولم يكن سرجون مستعداً لحصار طويل

الأمد) وبعدها التجأ الملك (روسا) إلى الجبال وهناك وطبقا لما قاله سرجون مات (روسا) من الحزن مع أن نصاً متأخراً (وربما كان أقل موثوقية) يذكر أن سرجون قال إن الملك روسا قد انتحر.

لم يزل الخط الذي تبعه آشور في حملته يحتوي على كثير من النقاشات، ويظن البعض أنه سار رأساً حول بحيرة (فان) ويقول آخرون إنه توجه راجعاً إلى آشور بواسطة عدة طرق ممكنة إلى الجنوب من بحيرة (فان) هذا وإن ما هو أكيد نظراً لأن سرجون يخبرنا ذلك بصراحة (أو بالحري يخبر الإله آشور) أنه وقبل مغادرتهم بادر الآشوريون إلى نهب أورارتو حيثما ذهبوا وكانوا ينهبون ويحرقون المدن والمحاصيل الزراعية ويتلفون الحدائق ويفتحون وينهبون مخازن الحبوب ويحطمون السدود بحيث أن سالت مياه الأقنية هدراً إلى المستنقعات بينما تركوا المراعي عارية، وقد قطعوا الأشجار سواءً كانت أشجار الحدائق أو الأشجار المزروعة حول القصور أم أشجار غابات عادية وأحرقوها جميعها.

وفي أثناء عودته إلى آشور ترك سرجون جيشه الرئيسي وقاد فصيلاً مؤلفاً من حوالي ألف جندي من الخيالة فوق طرق صعبة متجهاً إلى إحدى المدن وهي (موزازير) وهي جزء من أورارتو في عمق الجبال وتقع إلى الشمال الغربي من رواندیز التي قد أهملت إعلان الخضوع التام لآشور وسرجون نظراً لبعدها عن آشور، وكانت موزازير المعقل الرئيسي لإله أورارتيا وهو (هالديا) حيث كان يتوج ملك أورارتو عادة، ولقد كانت قداسة موزازير وارتباطاتها الملكية قد جعلتها كنزاً وطنياً، وقد عمد سرجون إلى تعداد الغنائم التي حصل عليها من المعادن الثمينة والأحجار الكريمة والمفروشات المرصعة بالذهب والفضة والأواني الذهبية والفضية من جميع الأنواع والأسلحة الاحتفالية، المؤلفة من المعادن الثمينة والأواني البرونزية ابتداءً من الأواني الصغيرة حتى القدور الضخمة والتماثيل والزخارف، وهناك بعض التسميات التي لا نفهمها وقد وجد الكتبة الآشوريون الذين سجلوا هذه الأسماء بعض هذه الأسماء غريبة ويقولون: إنه من الصعب كتابة هذه

الأسماء، ولقد تم ضم موزازير رسمياً إلى آشور ولكن موقعها كان بعيداً جداً فكان من الصعب الاحتفاظ بها بعد رحيل سرجون.

ولم يكن تجاوب سرجون مع مشكلة أورارتيا منحصراً بالناحية العسكرية فحسب، بل استعمل الدبلوماسية لكسب لحلفاء، إذ إن لدينا رسالة تقدم بعض التفاصيل عن بعض المفاوضات الودية مع مميتا ملك (موشكي) فقد كان (مميتا) يسيطر على الطريق التجاري الغربي الذي قدم لدولته ثروة عظيمة (وقد كان مميتا هذا هو ميداس ذو اللمسة الذهبية في الأساطير اليونانية) ولا شك أنه وحفظاً لمصالحه التجارية فقد أقام علاقات ودية مع أورارتو وسورية الشمالية، أما في شمال سورية فقد حاولت كركميش تأمين الدعم الفعلي لميتا في إنجاز تحالف ضد آشور، وهكذا فقد تفاوض سرجون مع مميتا لكي يتجنب تلك التهديدات للمصالح الآشورية وقد اقترنت مبادراته الدبلوماسية مع استعراضات للقوة العسكرية التي يمتلكها في شمال سورية وما وراءها.

سرجون في بلاد بابل

بعد أن حطم سرجون مقاومة أورارتو استطاع الآن أن يتجه إلى تلك المشكلة المتأصلة وهي مشكلة (بابل)، وكانت عملياته العسكرية هناك والتي بدأت في عام ٧١٠ ق.م ودامت حتى عام ٧٠٧، ولقد قلد سرجون تكتيكات تغلات بلاسر، الأولى وذلك بالتحرك جنوباً على الضفة الشرقية لنهر دجلة وبذلك كسب السيطرة على طول المنطقة الممتدة حتى كركميش، وبذلك فقد دق إسفيناً ما بين ميروداخ – بالادان وبين حلفائه المحتملين من العيلاميين، وبعد ذلك توجه إلى بابل الأصلية، وقد ادعى بيروداك – بالادان في النقوش أنه قد حمى مصالح المدن البابلية القديمة، ولكن هناك جزءاً لا بأس به من سكان تلك المدن كانوا يشكون في مصداقية هذه الأقوال، وقد سمعنا فيما بعد عن إطلاق سراح بعض الأسرى من عاصمة بيروداك – بالادان لقاء إعادة بعض الأراضي المصادرة وعن إخماد حركات النهب والسلب ضد التجار والقوافل التجارية، ولهذا فقد كان

هناك فئة قوية ضمن المدن البابلية الشمالية مستعدة لقبول التدخلات الآشورية، وقد فتحت بعض هذه المدن ومن بينها العاصمة أبوابها ورحبت بسرجون الذي اعترف به رسمياً حاكماً شرعياً لبابل وذلك بالاشتراك في الطقوس المقدسة.

وفي أثناء ذلك فقد هرب بيروداك – بالادان من بابل وبعد أن حاول الوقوف في الجنوب هرب إلى منطقة قبائله في المستقعات الجنوبية، وقد أصبح محاصراً في عاصمته القبلية في المستقعات الجنوبية فقد اشترى دعم سرجون بدفعه كمية كبيرة من المال عام ٧٠٧ ق.م وبذلك تركوه دون أن يُمس ليسيطر على أراضيه القبلية ولكننا سوف نقابله فيما بعد.

لقد اقتربت نهاية سرجون الآن، وربما قربها تحطم أورارتو، ففي القرن الثامن ق.م آتت موجة جديدة من الهنود الأوروبيين السريعي الحركة وهم (السيمريون) وكانت هذه الموجة مندفعة نحو الأناضول من الشمال إلى أسفل الجانب الشرقي من البحر الأسود، وحتى وقبل هجوم سرجون على أورارتو كان هؤلاء السيميريون قد أنزلوا التخريبات الخطرة في ولايات أورارتو الشمالية. ولقد كان إخلاء السكان الذي حصل نتيجة لتخريب سرجون لأورارتو، ترك أورارتو عاجزة عن صد الغزاة وهكذا فقد انفجر السيمريون وانتشروا عبر هضبة الأناضول. وتشير بعض الشواهد لعلم الأثار لحدوث غارة على آشور نفسها، فلقد هدد هؤلاء بالتأكيد مصالح آشور في شمال سورية ولذلك فقد وجه سرجون جيشه ضد السيميريين في تلك المنطقة وفي إحدى التفاسير لبعض الشواهد الغامضة فقد مات سرجون في إحدى المعارك، والحقيقة أنه قد رحل من مسرح الأحداث في عام ٧٠٥ ق.م وفي نفس الوقت تحرك السيميريون باتجاه القسم الداخلي من أسمرا الصغرى.

بناء قلعة سرجون

كان سرجون أحد الملوك الآشوريين الذي انتقل إلى عاصمة إدارية جديدة، مع أنه لم يخبرنا لماذا فعل ذلك، ولكننا نستطيع التخمين ففي العالم القديم كان سكان المدن الكبيرة ولاسيما العواصم يحصلون وبسرعة على امتيازات خاصة

لأنفسهم، وكان الملك مجبراً على الاعتماد على موظفيه في العاصمة وكان يكافئهم بإعفائهم من الضرائب وأعمال السخرة وبمنحهم بعض الأراضي، وحسب النظام الإقطاعي كانت مثل هذه الامتيازات تستمر إلى الخلف وتصبح متوارثة، وبالإضافة إلى نفوذ كهنة المعابد التي كان لها نفوذها وأمكنتها في طقوس الدولة، لذلك فقد ظهرت مجموعة محصنة منهم، وكانت هذه المجموعة قادرة على مواجهة الملك نفسه.

ولقد ظلت (كالاخ) العاصمة الإدارية والعسكرية لمدة تقرب من قرنٍ ونصف وهو وقت كافٍ لظهور مجموعة قادرة على مقاومة الملك نفسه، والحقيقة أن الحاكم سرجون الذي أعلن أن (تغلات بلاسر الثالث كوالده قد تولى السلطة من موقع والي (كالخ) وقد كان سرجون نفسه يعلم من تجربته الشخصية الخطر المحدق بالسلطة الملكية من جراء المصالح التي اكتسبتها المدن القديمة، وذلك لأن اعتلاءه العرش قد حدث بعد تمرد ضد الملك الذي سبقه من قبل شعب آشور الذين كان ينبغي دعمهم، فرد جميلهم بتثبيت امتيازاتهم التقليدية، وهذا هو أحد العوامل التي دعته لإنشاء عاصمة جديدة، وهي دور شاروكين (أي: قلعة سرجون) وهي واقعة على بعد حوالي ١٢ ميلاً إلى الشمال الشرقي من نينوى والتي تتمثل اليوم بموقع (خورسا باد).

وأما العامل الثاني فقد كان عاملاً استراتيجياً فقد كانت سفوح جبال طوروس تبدأ على بعد حوالي ثلاثين ميلاً إلى الشمال من نينوى، وفيم وراء تلك التلال تقع مملكة (أورارتو) وهي القوة الوحيدة التي كانت تهدد آشور الآن، وفي أي وقت كان بمقدور جيش أورارتو أن يزحف من أحد الممرات ويصل إلى سهول نينوى (وقد ظل هذا الخطر حتى أنهى سرجون هذا التهديد عام ٧١٤).

وكان الموقع الذي اختير لبناء العاصمة الجديدة (دور شاروكين) يقف كحارس ما بين نينوى وأقرب ممر يخترق الجبال، ولقد ثبتت أهمية هذا الموقع عندما استعمل كقاعدة رئيسية من قبل الجيش العراقي في زمن التمرد الكردي في نفس الجبال الشمالية حوالي عام ١٩٧٠ م.

سنحاريب

لقد اعتلى خليفة سرجون وهو ابنه سنحاريب ٧٠٤ – ٦٨١ العرش كإداري متمرس وجندي، فقد عَلم عِلم اليقين مشاكل الحدود الشمالية حيث إنه كان قائداً عسكرياً هناك، وإن معرفته بالوضع الجديد الذي لم تكن أورارتو فيه في وضع لا تستطيع به إيذاء المصالح الآشورية فحسب، بل كانت بحاجة إلى الحماية الآشورية في الشمال، وهذا ما أدّى بسنحاريب إلى إقامة علاقات ودية مع أورارتو.

نينوى العاصمة العالمية

لقد كان أول عمل قام به سنحاريب، وكان العمل الذي ظل قائماً، هو انتقال جديد إلى عاصمة جديدة، فقد كانت مدينة سرجون الجديدة وهي دور شاروكين قد بُنيت لحراسة المركز الشعبي وهو نينوى، وقد استمرت هذه العاصمة مستخدمة كقلعة لهذا الغرض، ولكن، كانت نينوى نفسها هي التي شُيِّدت وظهرت بشكل رائع لا مثيل له، فقد اختيرت كعاسمة، وقد بقيت كحقيقة حتى سقوط الإمبراطورية الآشورية، وقد بقيت في ذاكرة التاريخ إلى الأبد.

ولقد بنى سنحاريب سوراً ضخماً حول المدينة طوله حوالي ثمانية أميال، وقد احتوى على ١٥ بوابة رئيسية، ولقد ذكر أحد المؤلفين الكلاسيكيين وهو ديودورس الصقلى رواية حول أسوار نينوى يقول فيها:

((إن هذه الأسوار كانت عريضة جداً بحيث تتسع لثلاث عربات حربية لتسير جنباً إلى جنب فوق تلك الأسوار)).

ولكن وفي القرن التاسع عشر الميلادي أصبح الناس يسخرون من هذا الكلام، ولكن بقايا الأسوار في هذه الأيام تُظهر وجود مسافة واسعة كافية لتسير فيها سيارتان كبيرتان جنباً إلى جنب، وفي داخل تلك الأسوار شق سنحاريب شوارع جديدة، وساحات عريضة، ومدد مجاري المياه وبنى حواجز حجرية عريضة

لحماية قصره الجديد، وحول القصر أنشأ حديقة ضخمة تشبه جبل أمانوس حيث وُزعت كل أنواع النباتات وأشجار الفاكهة كالتي تنمو في أرض الكلدان.

وفيما وراء هذه الحديقة أُنشئت البساتين، وفي وقت لاحق عمل سنحاريب إضافات جديدة فقد جلب جميع النباتات الموجودة في سورية وكذلك نبات المرّ التي نمت وترعرعت بشكل أفضل مما هي عليه في موطنها الأصلي، وقد زرع جميع أنواع الكروم الجبلية، وقد كانت كل هذه المشاريع بحاجة إلى كميات كبيرة من المياه لاسيما في أشهر الصيف الحارة في نينوى، ومع أن نهر دجلة كان يجوب أسفل نينوى إلا أن ضفافه كانت منخفضة جداً، فلم يكن من الممكن استخدامها للري خلال الصيف، ولكن كان هناك مصدر آخر للمياه وهو نهر خوسر، وهو يَرفد نهر دجلة عند نينوى وهو أصلح للري ولكن كان لنهر خوسر نقيصة واحدة وهي عدم انتظام جريانه الذي ينقص إلى أقصى حَدْ في الوقت الذي تكون الحاجة ماسة إليه.

وقد عالج سنحاريب هذه النقيصة عن طريق أعمال المهندسين، وذلك بتحويل عدة جداول جبلية كانت على بعد حوالي ثلاثين ميلاً، واستعمل مياهها لتغذية نهر خوسر، ومن الممكن اليوم ملاحظة بقايا بعض هذه الأعمال، فإن أحد مصادر المياه القادمة إلى نينوى في مكان يدعى (عن طريق الخطأ) (بافيان) وقد وُجدت عنده نقوش ولوحات جدارية نافرة موجودة على صخرة عالية تصلح لتكون مكاناً للرحلات المتعة، وإن وجود اللوحات الجدارية يوحي أنها كانت بقعة كان سنحاريب نفسه يتمتع بزيارتها ليتجنب حرارة الصيف في نينوى، وتشمل بعض بقايا أعمال سنحاريب الهندسية وهي قناة طولها أكثر من ٣٠٠ ياردة وعشرين ياردة عرضاً، وتحتوي حوالي نصف مليون طن من الصخور، وقد بُنيت لحمل المياه إلى بعض الوديان.

هذا وقد اعتمد سنحاريب مشاريع مماثلة لتحسين الموارد المائية في أربيل وهي المدينة المهمة الثانية، وشمال آشور كما حسن موارد المياه في كالخ فقد تعهدها آشور ناصر بعل عند بنائه لها لأول مرة.

قلاقل كلدانية جديدة

لقد احتل العمل في نينوى الجزء الأكبر من حكم سنحاريب، ولكن وفي أثناء ذلك كان هناك بعض الاضطرابات السياسية في بابل، فقد كان هناك إحدى المشكلات حول بابل فهل ينبغي أن تمنح بابل قدراً وافراً من الاستقلال مع وجود ملكها الموالي لآشور؟ أم هل ينبغي ضمها كلياً وحكمها حكماً مباشراً من قبل ملك آشور؟ إلا أنه كان هناك مستشارون يميلون إلى بابل، ومستشارون غير متعاطفين مع بابل في البلاط الآشوري وفي أحوال مختلفة أظهر ملوك آشور تعاطفاً مع هذه الفئة أو تلك، فقد كان والد سنحاريب وهو سرجون وابنه أسرحدون كلاهما متعاطفين مع الميل للتعامل برفق مع بابل مع كثير من الاعتبار بميول بابل الوطنية.

ومن الممكن أن يكون لدى سنحاريب ميلاً في البداية لاتباع سياسة والده، فقد مضت سنتان قبل أن يقوم بالاحتفالات الدينية لتنصيبه ملكاً على بابل رسمياً، ولكن وفي هذا الوقت بدأت بعض العوامل تعمل على أن يقوم سنحاريب بأقصى أعمال العنف الممكنة ضد بابل، ففي عام ٧٠٢ قام العدو القديم بيروداك – بالادان بتنظيم بعض القبائل الكلدانية مع بعض القبائل الآرامية مع اكتساب تأكيدات بالدعم من العيلاميين، وهكذا فقد أوقع بابل في مصاف العصيان، لذلك فقد تبع ذلك شيء من الفوضى فقد اعتلى عرش بابل أحد الولاة الذي كان ألعوبة بيد سنحاريب لمدة شهر واحد عندما أطاح به بيروداك – بالادن، ولكن رد سنحاريب كان سريعاً ونشيطاً فقاد جيشه جنوباً وحاصر واحتل مدينة (كوناة) وهي قاعدة بيروداك – بالادان.

وقد كان بيروداك هذا رجلاً سياسياً أكثر من عسكرياً، فقد هرب جنوباً تاركاً سنحاريب على طريق احتلاله لبابل ودخولها، ولقد أرسلت فصيلة من الجيش الآشوري للتفتيش عن المتمرد جنوباً (ولكن بدون نتيجة) وقد طلب من تلك الفصيلة أن تزيل تحصينات كل المناطق الآرامية والكلدانية، وتخريب هذه

المناطق التي تضم فعلاً جميع بابل الجنوبية من نيبور إلى الخليج الفارسي، ويقول سنحاريب مايلي:

«في أثناء حملتي لقد حاصرت وهزمت وحملت الغنائم من... مجموع ٣٣ بلدة ذات أسوار منيعة، وتابعة لقبيلة بيت داخوري ومعها ٢٥٠ قرية مجاورة وكذلك من ثماني مدن مسوّرة قوية من قبيلة بيت سالي، ومعها ١٢٠ قرية محيطة بها و٣٩ بلدة مسورة قوية من قبيلة بيت (راموخاني)، مع ٣٥٠ قرية مجاورة، وكذلك ثماني بلدات قوية مسورة من قبيلة بيت – ياقين بالاضافة إلى مئة قرية محيطة بها، ويبلغ مجموعها جميعها ٨٨ بلدة قوية مسورة، في منطقة كلدية بالإضافة إلى ٨٢٠ قرية مجاورة، ولقد سمحت لعساكري أن يستهلكوا الحبوب والتمور في حدائق النخيل ويأخذوا محاصيلها في السهل، ولقد مزقت وأتلفت مدنهم وأحرقتها وحولتها إلى روابٍ منسية».

وبعد أن تلقت كلديا هذا الدرس القاسي تُركت تحت حكم الموظفين الآشوريين يساعدهم أحد النبلاء البابليين وهو بيل – ابني الذي رُبي حسب قول سنحاريب في البلاط الآشوري وقد عُين كملك ألعوبة على بلاد بابل.

حصار أورشليم

لقد واجه آشور الآن في عام (٧٠٤) ق.م تمرداً في مكان آخر، فقد التحق خرقيا ملك يهوذا الذي كان يدعمه ميروداك – بالادان المذكور في التوراة بكونه قد أرسل سفارة له، فقد التحق حزقيا هذا بتمرد قامت به المدن الساحلية تدعمها مصر، وهكذا فقد دخل جيش سنحاريب إلى فلسطين وعالج المدن الساحلية وطرد المصريين وتغلب على دولة يهوذا، ووضع عاصمة (حزقيا) وهي أورشليم تحت الحصار.

وتوافق نقوش سنحاريب على هذا، وإن رواية سنحاريب حول هذه المسألة قد نُقلت وتكررت في كتب العهد القديم وتواريخه، ولكن نورد لمسامع أي شخص لم يسمع بهذه الأخبار مايلي:

«وبالنسبة لحزقيا ملك يهوذا الذي لم يخضع لنير حكمي فقد حاصرت واستوليت على ٤٦ من بلداته القوية المسوّرة، ومعها عدد لا يُحصى من القرى المحيطة بها، وذلك باحضار السلالم لرفع المنجنيقات القاصفة إلى الأسوار وكذلك عن طريق هجومات المشاة وحفر الأنفاق، وشق الثغرات وأدوات الحصار، ولقد حاصرت الملك في أورشليم وكأنه طائر في قفص».

وهكذا فقد دفع حزقيا الجزية علامة على خضوعه، وفتحت أبواب أورشليم بأعجوبة كما يقول النص التوراتي، وذلك نظراً لأن عودة الجيش الآشوري إلى منطقة ما بين النهرين قد أصبحت أمراً مُلحاً ضرورياً وذلك لتقهقر الوضع بالنسبة لبابل، حيث حدث عند انسحاب الجيش الآشوري أن استأنف (بيروداك – بالادان) حياكة دسائسه، وقد ثبت أن بيل – ابني غير قادر على الاحتفاظ بحكومة فعالة، وقد عُزِل هذا في عام ٧٠٠ واستبدل بآشور نادين – شم وهو أحد أبناء سنحاريب الصغار.

وهكذا قام الجيش الآشوري بحملة تأديبية في الأراضي الكلدانية وهرب (بيروداك – بالادان) إلى عيلام ولم يذكر عنه شيء بعد ذلك.

ففي أول ظهور له على مسرح الأحداث قبل أكثر من ثلاثين عاماً كان هذا الرجل زعيماً محترماً لقبيلة كبيرة، وهكذا أصبح الآن في الخمسين من العمر وربما أكبر وهكذا فمن المحتمل أن يكون قد مات ميتة طبيعية.

ولكن بقي هناك بعض التجمعات المعادية لآشور في بابل وعيلام، وقد تنظمت هذه التجمعات الآن وحاولت التوسع بدعم من عيلام.

الحرب مع عيلام

لقد أظهر الكلدانيون أنهم أحد العوامل المعطلة والمُعيقة لآشور ومصالحها ومصالح مدن بابل الشمالية خلال العقود الأربعة الماضية، وبدعم ومساعدة عيلام وتقديم الملاذ من إجراءات التأديب الآشورية، لهذا فقد أصبح الكلدانيون في وضع يصعب السيطرة عليه، ولهذا فقد قرر سنحاريب معالجة المشكلة وذلك بضرب عيلام بشكل مباشر، ففي عام ٦٩٤ ق.م قام بهجوم بحري عبر الخليج العربي، وكانت هذه العملية تعد عملية ضخمة في مصطلح اللوجستية وهي فن نقل الجيوش وتزويدها بالمؤونة والسلاح، فقد كان لديه سفن بُنيت في نينوى فأبحرت إلى أسفل دجلة بقيادة بحارة فينيقيين، ونقلت الجيوش إلى البر بواسطة عجلات أوصلتهم إلى قناة تصب في نهر الفرات.

وبعد ذلك أبحر الجيش إلى الخليج، وهناك تم إنزال الجنود ونقلهم إلى شواطئ عيلام، حيث رغم المقاومة أمن الآشوريون رأس جسر ومن هناك استولوا على عدد من المدن العيلامية ونهبوها مع أنهم لم يتقدموا نحو العاصمة (سوزا).

ولقد آجابت عيلام بتكتيك أتى مفاجئاً بالنسبة لسنحاريب إذ بدلاً من الدفاع عن الجنوب قامت عيلام بغزوة عبر نهر دجلة فإلى شمال بابل، وبواسطة عامل المفاجأة هذا قطع العيلاميون المواصلات الآشورية واعتقلوا الابن الذي نصبه سنحاريب ملكاً على بابل، ونصبوا ملكاً مطيعاً لهم على بابل، ويظهر كما لو أن نظام الاستخبارات الآشوري كان أقل فاعلية بالنسبة لعيلام وقواها مما كان عليه بالنسبة لأورارتو، ولكن لم تكن قوى العيلاميين الغازية نداً للقوة الآشورية وهكذا فقد انسحب العيلاميون بعد اشتباك بسيط مع جيش سنحاريب الراجع من القتال.

ولكي يمنع إعادة حدوث تدخل العيلاميين عمد سنحاريب في عام ٦٩٣ إلى مهاجمة عيلام خلال ولاية (الدير) التي قام العيلاميون منها بغزوة ضد بابل

الشمالية، وهنا قام شخص آخر من المدعين بحقه في العرش البابلي بعصيان وطلب مساعدة العيلاميين والتحالف معهم.

وبالنتيجة فقد واجه سنحاريب حلفاً مؤلفاً من العيلاميين والكلدانيين ومؤيديهم في عام ٦٩١ ق.م على نهر دجلة في مكان ما شمال بابل، ولكن تذكر بعض التواريخ البابلية أن سنحاريب قد أُجبر على التراجع مع أنه ادّعى أنه انتصر، ويذكر هذا التاريخ البابلي أن أحد الباحثين الذي ناقش هذه القضية قد وصم قصة سنحاريب عن المعركة أنها كذب ضخم وغير عادي، وربما كان في هذا القول شيء من المبالغة، فلم يكن المشهد الذي وقعت فيه المعركة جنوبي ديالا التي اعترف بها بأنها أحد حدود آشور الجنوبية الشرقية، وأن الجيش العيلامي المتجه شمالاً قد واجه الجيش الآشوري هناك، وهذا يعني أن عيلام كانت تهدد بغزوها لآشور.

وقد كان نجاح جيش سنحاريب في تلك المعركة الدامية قد دق التحالف العيلامي في الصميم وبشدة لدرجة أنه مع أنهم كانوا يقفون على الحدود إلا أنهم لم يستطيعوا المرور، ومن وجهة نظر سنحاريب، إنه مع وجود الجيش الآشوري تحت التهديد الواضح، فإن هذه كانت معركة انتصر بها سنحاريب حقاً، ولكن وحدات جيشه قد عانت ومُنيت بخسائر فادحة بحيث ترك الجيش الآشوري في وضع لم يستطع أن يتحرك إلى بابل بشكل فعَّال، وقد كانت ضرورة الرجوع إلى القاعدة من وجهة نظر البابليين معناها التقهقر أو الانسحاب.

نهب بابل

الحقيقة أن الجيش الآشوري لم يواجه أي نكسة فعلية نظراً لأنه وبحلول عام (٦٩٠) كان هذا الجيش قد رجع إلى بابل التي كانت في حالةٍ يرثى لها، وهنالك وثيقة رسمية نشرت بشكل ترجمة فحسب وهي تقول:

(ساد في البلاد عدا الحصار المجاعة والجوع والحاجة وكان ثمن اثنين (كا) من الشعير بشيكل واحد من الفضة (حوالي جنيه استرليني واحد) وهو ثمن ***Pint***

باينت[1] حسب الأسعار الحديثة، وقد كانت بوابات المدينة مغلقة ولم يستطع أي شخص الخروج وقد ملأت جثث الرجال التي لم تجد أحداً يدفنها ساحات بابل.

وبعد خمسة عشر شهراً سقطت بابل على يد جيش سنحاريب وقد هرب الملك البابلي الذي كان محتفظاً بالعرش من بابل ولكن ألقي عليه القبض بسرعة وقتل.

وقد أعطى سنحاريب للقاتل ما قيمته وزن المغتصب المقتول من الفضة.

وبالنسبة لبابل نفسها فإن موقف سنحاريب بالنسبة لتلك المدينة المقدسة دينياً وثقافياً قد تغير في مدة عقد ونصف، وتخلّص من المعارضة.

وكذلك فإن فقدان سنحاريب لولده -كل هذا- هزَّ المدينة بعنف فقد أعطى سنحاريب الإذن لجنوده بالنهب والسلب فقد نهبوا المعابد وحملوا معهم التماثيل الإلهية ودمَّروا البيوت والمعابد وأسوار المدينة، وحفروا الأقنية حولها بقصد تهديمها حتى الأساسات.

وبالنسبة لبقية حياة سنحاريب وهي مدة ثماني سنوات أخرى لم يكن هناك من ملك رسمي لبابل مع أنه وبحكم الواقع كان سنحاريب هو الملك وهكذا سُجل في قائمة ملوك بابل.

إن نهب سنحاريب لبابل كان مفهوماً ولكن لم يكن فكرة حسنة، إذ إن لدينا بعض الدلائل التي تشير إلى وجود فئات مناصرة لآشور وفئات مضادة لها في بابل، في الوقت الذي كان لدى آشور جماعات يعترفون بالثقافة البابلية باحترام، فضلاً عن وجود من يرغب في رؤيتها مهدمة ومدمرة.

ولهذا، فإن خطوة سنحاريب قد أدت إلى استقطاب تلك المشاعر داخل آشور، وكان هناك عصابات حتى ضمن العائلة المالكة الآشورية.

---

[1] الباينت **Pint** مقياس للسوائل يساوي ١ على ٨ غالون، والغالون =٤،٥ ليتر (المترجم).

وقد مات سنحاريب في بابل عام (٦٨١) مقتولاً حسب أقوال التوراة على يد اثنين من أبنائه، وأحدهما يدعى: أراد-موليس الذي يتحول اسمه في النص التوراتي إلى أدراملك.

الفصل الثامن

بداية الثورة ثم السقوط والانهيار

وراثة العرش الملكي

لم يكن الابن الذي ورث سنحاريب أحد قاتلي الوالد، بل كان هو أسرحدّون (٦٨٠-٦٦٩) ق.م وإن الظروف التي أحاطت بارتقائه العرش تصور عدداً من مظاهر المجتمع الآشوري، فقد كان ابناً حدَّد له سنحاريب وراثته وذلك كما يخبرنا في نقوشه، وليس من الحكمة أن يكون هذا ادِّعاء كاذباً.

مادام أن وارث العرش يعيش في قصر منفصل خاص بحيث كانت النوايا المعروفة حول الوراثة معروفة للجميع.

وليكن معلوماً لدى القارئ أن وراثة العرش كانت بالتسمية، فالولد البكر ليس من الضروري أن يصبح ملكاً.

ولكن وحتى الملك الحاكم لم يمتلك الصَّلاحيات المطلقة حول قضية الوراثة ما دام أن قضية تسمية ولي العهد ينبغي أن تصادق عليها الآلهة (وهذا يعني في الواقع قرار الكهنة وقبولها).

وبعد أداء القسم من قبل العائلة الملكية وممثلي الشعب.

وهنا يذكر لنا نقش أسرحدّون شيئاً عن هذه الإجراءات المُتَّبعَةُ:

"سر ولا تتراجع.

فنحن سائرون إلى جانبك.

وسوف نذبح أعداءك."

وهذه رسالة لتطمين جيش أسرحدون لشرعية قضيته:

"ولكن مع أنني كنت الأخ الأصغر لأخوتي الكبار ومع ذلك وبأمر الإله آشور- وسن- وشمش- وبعل- ونابو- وعشتار أربيل، فإن والدي الذي أنجبني قد رقاني ورفع قيمتي بين إخوتي قائلاً:

((هذا هو ابني الذي سيرثني)) وعندما طالب الحصول على رأي الإله شمس والإله أباد (وهما من آلهة الوحي) قالا له: نعم وبحزم.

قائلين: ((إنه هو وريثك)).

ولقد أظهر والدي الاحترام اللائق لكلمتيهما المهيبتين.

وبعدها جمع شعب آشور صغيرهم وكبيرهم، وكذلك إخوتي ذرية بيت والدي وقد جعل الجميع يقسمون بكلام مهيب أن يحموا حقي في الوراثة، وذلك أمام الإله آشور وسين وشمش ونابو وهم آلهة آشور، والآلهة الذين يسكنون في السماء والأرض.

وفي شهر سعيد وفي يوم سعيد وطبقاً لأوامرهم (أي أوامر الآلهة) دخلت القصر الذي يوحي بالرهبة حيث يوجد روح وعطر الملكية.."

ولكن لم تجرِ الأمور كما كان يشتهي سنحاريب فقد اضطر أسرحدون أن يناضل لأجل وراثة العرش.

وعندما حدث اغتيال سنحاريب كان قائد الجيش أسرحدون متمركزاً في مكان ما في القرب، ولربما ظن البعض أن عملية الاغتيال قد تم توقيتها في غياب ولي العهد.

ولكن أسرحدُون قد أبقى جيشه في تمام الحيطة والاستعداد لخوض المعركة فقد استطاع أن يتحرك باتجاه آشور بالسرعة الفائقة دون التوقف لإجراء الترتيبات والتفتيشات والتزود بالمؤن، وكان تأخره الوحيد هو الطلب من الآلهة أن تمنحه وحياً.

وجاء هذا الوحي في وقته كما يلي:

"سر ولا تتراجع

فنحن نسير إلى جانبك

وسوف نذبح أعداءك."

وكانت هذه الرسالة لتجعل جيشه واثقاً بقضيَّته ولبذر الشكوك بين أفراد عساكر منافسيه.

ولقد واجهته عساكر قتلة الملك في منطقة الخابور الأعلى وقد حدثت اشتباكات حادة.

كانت الروح المعنوية لدى قتلة الملك وعساكرهم الذين تورطوا في حرب أهلية ضد شخص يعلمون علم اليقين أنه ولي العهد الذي وافقت الآلهة على تنصيبه.

كانت أرواحهم المعنوية منخفضة وفي منتصف المعركة انتشرت صيحات تقول: هذا هو ملكنا.

وهكذا انتقل عساكر قتلة الملك إلى أسرحدون وأظهر ممثلو الشعب الطاعة فأصبح العرش عرشه بالتأكيد:

عطف المشيئة الإلهية على بابل

كان أسرحدون ينتمي إلى الجماعة المتعاطفة مع بابل في داخل آشور، وقد كرَّس جهود الناس بها وموارد مالية لإزالة الأضرار التي ألحقها والده ببابل، فقد كانت هناك المشكلة الأساسية التي مفادها: إن الآلهة وضعت مدينة بابل تحت اللعنة لمدة سبعين عاماً.

وكان من الواجب إزالة هذه اللعنة، وهذا النوع من الأوضاع هو تفسير لتغيير الخطط الإلهية ووضع الكهان في موقف ليتخذوا فيه دورهم الحقيقي.

فقد فسَّر الكهنة الموقف بقولهم:

ومع أنه في أوقات سابقة لقد حكموا باللعنة على بابل مدة سبعين عاماً، إلا أن الإله الرحيم مردوخ وهو رئيس الآلهة في المدينة قد عدل من شدة هذا الحكم، وذلك بنقل الحروف المسمارية لتصبح المدة إ حدى عشرة سنة.

وهكذا، فقد انتهى الحرمان بالنسبة إلى بابل في أول سنة من حكم أسرحدون.

ولقد حدث أن أتلفت بابل قنوات المياه بحيث أصبحت مكاناً يكثر فيه القصب والأجمات، ولهذا فقد عمد أسرحدون إلى تحويل المياه وقطع النباتات البريَّة التي كانت تسيطر على المدينة، وبعدها تقدم لإعادة بناء المدينة وأسوارها ومعبد مردوخ العظيم وهو معبد الساجيلا.

ولقد وضع أسرحدون سلَّة فوق رأسه كأنه أحد العمال، ووضع قالباً من الغضار، وقد أعاد السكان المواطنين الذين هربوا، وأعاد لهم أراضيهم، وأعاد للمواطنين حقوقهم وامتيازاتهم وأعفاهم من الضرائب.

ولقد أعاد الملك عادة تقديم القرابين الدينية في معبد الساجيلا، وأعاد الاحترام لطبقات عديدة من خدمة المعبد مع حدوث نفس الإجراءات في المدن الأخرى في بابل، وأعيدت الامتيازات القديمة للمواطنين في تلك المدن، لقد ساعدت هذه السياسة الرامية إلى إعادة العطف على بابل.

خدمت هذه السياسة مصالح آشور، ومع أن الكلدانيين قد أظهروا بعض الاضطرابات إلا أن أسرحدون وبعد أن قابل هذه الاضطرابات بحزم، استطاع استبعاد الزعماء المعادين ووضع آخرين من قبائلهم من الذين كانوا قادرين على قبول التبعية لآشور.

سيطرة الميديين

لقد أولى أسرحدون اهتماماً متزايداً بالميديين، وقد ساعد على دوام استقرارهم، وذلك بتقديم مساعدات عسكرية لزعمائهم ضد أي حركات تحرُّرِيَّة.

وكان الميديون لا يزالون قبليين في أنظمتهم، مع أنه كان لديهم بعض المدن، وكانوا منتشرين في إيران الشمالية، وكانوا لذلك أقوياء جداً، وقد كانوا يمثلون حلفاء مفيدين بالنسبة لأسرحدون ضد عيلان، وحصناً إضافياً على طول

الحدود ضد أورارتو، وضد شعوب جديدة، نعرف شعبين منهم باسم السيمريين والاسكنديين (وكانوا متواجدين في شمال إيران فضلاً عن الأناضول) وكانوا مندفعين جنوباً خارج أروميا.

وقد انعكس اعتراف أسرحدون بالميديين وتعاظم أهميتهم السياسية في المعاهدات التي عقدت مع الأمراء الميديين الموالين لآشور، واحتوت هذه المعاهدات على تعهد هؤلاء الأمراء بدعم ترتيبات الملك بالنسبة لوراثة العرش بعد موته.

وباختصار، كانت ترتيباته تقضي أنه نصب ولدين من أولاده خلفاء له على العرش وبمباركة الآلهة أي: عرش آشور، وعرش بابل وأعلن ذلك رسمياً خلال اجتماع حدث في نينوى عام (٦٧٢ ق. م).

وأعلن أن أحد ولديه وهو آشور بانيبال أصبح ولي العهد في آشور، والثاني شماش -شم- أوكين أعلن ولياً للعهد في بابل، وقد ألزم الولاة المحليين والأمراء التابعين تحت أداء القسم أن يدعموا هذا الاتفاق الذي كانت شروطه كما يلي:

(عند موت أسرحدون ملك آشور فسوف تنصّبون ولي العهد آشور بانيبال ملكاً، ولسوف يمارس الملك السيادة عليكم وسوف تقومون بحمايته في الريف وفي المدن، ولسوف تحاربون حتى الموت من أجل حمايته، وإذا حدث ومات أسرحدون في حالة كون أبنائه صغاراً فلسوف تساعدون آشور بانيبال على استلام ولاية العهد وعلى استلام مهام عمله كملك آشور، ولسوف تساعدون شاماش - شم- أوكين أخاه النِّد له وهو ولي عهد بابل إن أصبح ملكاً لبابل).

ومن الواضح أن أسرحدون كان يأمل أن يتجنب تكرار حدوث الحرب الأهلية التي هددت اعتلاءه على العرش، ولكننا سوف نرى أن خطته قد فشلت على المدى البعيد.

السلام الآشوري في الغرب

في الشمال الغربي كانت آشور تدفع أماكن سيطرتها بالتدريج إلى ما وراء سورية وكيليكيا إلى داخل آسيا الصغرى، ولكن هذا التقدم واجه تحدياً أتى من قبل السيمريين والآسكنديين (وهم الجومر والأشكيناز في التوراة).

ولم تكن كيليكيا راضية عن هذه الأحوال، فقامت صيدا وهي إحدى المدن الفينيقية المرتبطة مع كيليكيا بمصالح بحرية مشتركة، والتي أساءت فهم القوة الآشورية بالتمرد على آشور.

ولقد نهبت صَيدًا وأصبحت أراضيها عبارة عن ولاية آشورية.

ولكن، كانت آشور لا تزال تفضل الحكم غير المباشر، إذا كان ذلك ممكناً، لأن ملك منطقة صور المجاورة قد بقي موالياً وخاضعاً لآشور، ولذلك فقد تُرك له الحكم وبعض المستوطنات البعيدة التي كانت تابعة لصيدا أو أضيفت هذه لملكته.

وفضلاً عن صيدا فلم تُظهر سورية أو فلسطين أي مقاومة أو اضطرابات لآشور.

وقد استطاع أسرحدون أن يكلف مجموعة من الملوك الخاضعين له لتقديم مواد لازمة لإعادة بناء قصره.

وتشمل قوائم أسماء الملوك هذه ملوك حور ويهوذا أو حيدوم وموآب وغزّة وعسقلان وإيكرون وبيبلوس وعمون وأشدود، فضلاً عن أراضي منطقة تدعى (يدنانا) في منتصف البحر والتي ربما كانت قبرص التي أصبحت الآن جزءاً من الإمبراطورية الآشورية.

وكان اسم ملك يهوذا (مناسًا) وقد ذكر في التوراة أن مناساً قد أخذ إلى بابل على يد قواد جيش آشور، ولكن أطلق سراحه فيما بعد، ولم يؤلّف كتاب أيام الأخبار المذكور في التوراة إلاّ بعد أن أصبحت بابل عاصمة إمبراطورية بدلاً عن نينوى، وذلك ربّما فسَّر ذكر بابل بدلاً من نينوى.

ومن الممكن أن تكون هذه القصة أساساً لذكر زيارة مناسا لآشور إطاعة لأمر أسرحدّون وطلبا منه لإتمام عمليات بناء قصره.

وإلى الشرق والجنوب من الدول الواقعة في شرق الأردن (وهي عمون وموآب وصيدا ورفح) التي كانت خاضعة خضوعاً تاماً لسيطرة الآشوريين تقع الصحراء بما فيها القبائل العربية، وكان لهذه القبائل أهميّتُها بالنسبة لآشور، وذلك لسببين وبصورة خاصة فقد كان العرب مسيطرين على تجارة البخّور والتوابل الآتية من جنوب بلاد العرب.

وكان العرب هم وحدهم القادرين على التفاوض مع قبائل صحراء سيناء فيما بين جنوب فلسطين ومصر، وكانت آشور على اتصال مع عرب الصحراء منذ حُكم تغلات - بلاسر الثالث، وكانت تُوسِّع نفوذها بالتدريج إلى داخل الصحراء.

وقد تابع أسرحدون هذه السياسة، بل زاد من سيطرة آشور عن طريق التدخل فيما بين الأخصام المتنافسين للحصول على السيادة القبلية وذلك لدعم المرشح الراغب في قبول السيادة الآشورية.

غزو مصر

وبعد أن أصبحت فلسطين تحت السيطرة الآشورية، وبعد أن أصبح عرب الصحراء تحت قيادة زعماء موالين لآشور، قام أسرحدّون بتنفيذ توسيع كبير للإمبراطورية، فلقد كانت هناك علاقات تجارية بين آشور ومصر منذ عهد قديم، ومنذ حكم (تغلات بلاسر الثالث) عندما وطدت سيطرتها على الساحل الفلسطيني حتى غزة، ولقد كان هناك خطوط حدودية مع مصر مع أنها تمر ضمن حاجز عريض وهو الصحراء.

وكان أحد العوامل في هذا الصدد ربما ظهور أُسرة عدوانية جديدة في مصر من أصول مصرية جنوبية، كانت هذه الأسرة تحاول زيادة نفوذها بين المدن الساحلية في فلسطين وقد تجسَّدت هذه السياسة بحدوث تمرُّد في صور التي

كانت موالية وتابعة أمينة (لأسرحدون) لقد بدأ الهجوم على مصر عام (٦٧٥ ق.م) ولقد صادف هذا الهجوم عدة صعوبات ونكسات.

وهناك نقش يروي حادثة الهجوم النهائي الناجح عام (٦٧١ق.م) ولكنه يقدم فكرة عن المشكلات، ويقول الملك: إنه قد وصل إلى رابيحو وهي على جانب وادي مصر (العريش الآن) حيث لا يوجد أي نهر ولذلك فقد اضطر أن يحصل على الماء لعساكره من بئر بواسطة الحبال والسلاسل.

وقد استخدم الجمال في مواصلاته والتي قدمها له حلفاؤه من ملوك العرب، ووجد أن المسيرة صعبة لاسيما وأنها كانت واقعة خلال الكثبان الرملية مدّة خمسة عشر يوماً، ومنطقة تحتوي على أفاعٍ ذات رؤوس مزدوجة وهي مميتة، وقد استغرق معهم السير شهراً كاملاً لقطع تلك المسافة فيما لو كانت الأرقام دقيقة.

وعلق الملك بقوله: إن الإله مردوخ قد خفَّ لمساعدته وحفظ حياة جنوده وهذه دلالة على مروره بأيام صعبة عندما بدأ يفكر أن جيشه لا يستطيع التقدم.

وعندما وصل إلى أرض مصر هزم جيش فرعون (تارقا) وبعدها حاصر واستولى على (ممفيس) العاصمة التي تبعد حوالي عشرين ميلاً جنوب القاهرة (اليوم) وبعد هذا النجاح تقدَّم أمراء مصر السفلى للاعتراف بسيادة (أسرحدون) الذي عيَّن موظفين آشوريين في الإمارات المحلية، وأعلن (أسرحدون) نفسه ملكاً على مصر السفلى والعليا والحبشة، ولكن هذا كان إدّعاءً فارغاً، إذ ما كان الجيش الآشوري يغادر أرض مصر حتى تقدم الفرعون (تارقا) وأعاد احتلال (ممفيس).

هذا وقد عاد (أسرحدون) في عام (٦٦٩ ق.م) بحملة جديدة على مصر ولكنه مات وهو في الطريق إليها.

آشور بانيبال

لقد نجحت خطة (أسرحدون) بالنسبة لوراثة العرش بحيث بقي آشور بانيبال في نينوى (وشماش - شم - أوكين) في بابل، ولكن كان لكلا المملكتين مشكلاتهما، وقد تضافرت التوترات الناتجة فعملت على جَر آشور إلى حرب أهلية.

إن معرفتنا عن حكم آشور بانيبال متقطعة، فمع أنه قد ترك نقوشاً كثيرة، إلا أن الطريقة التي رتَّب بها كاتبه هذه النقوش بحيث كان يحدد الحملات في منطقةٍ معيَّنة مع أنها كانت قد حدثت في أوقات مختلفة، كل هذا ترك الفوضى في تسلسل الحوادث، وهناك بعض الباحثين الذين يعيدون ترتيب هذه الحوادث بطرق مختلفة وبالتفصيل.

كانت مشكلة أسرحدون العاجلة هي عدم إكماله لفتح مصر، ففي عام (٦٦٧ ق.م) استطاع إرسال جيش آشوري قوي إلى هناك واحتُلت ممفيس مرة ثانية، ولقد عمد بعض الأمراء الشماليين بقيادة (نخو) أمير (سايس) على سحب اعترافهم وولائهم لآشور والانضمام إلى (تارقا) ولكن استطاع الجيش الآشوري أن يعتقل قائد الفتنة.

ولكن في بلاد كمصر كان الأمراء المصريون ضروريين للقيام بالإدارة الصعبة للبلاد، ولذلك فقد عومل (نخو) بشكل رحيم، فأخذوه إلى نينوى وأثقلوه بالهدايا والرعاية وبعدها - بعد أن أقسم يمين الولاء لآشور سمح له بالعودة إلى مصر، وقد أُمِر الإداريون الآشوريون في مصر أن يقدموا (لنخو) الدعم العسكري الضروري، وعُين ولده الذي كان يحمل اسماً آشورياً في مركز إداري رفيع المقام.

استمرت السلالة المصرية الجنوبية في محاولاتها للحكم في مصر العليا، فقام خليفة (تارقا) بحصار الحامية الآشورية في ممفيس عام (٦٦٤)ق.م وقد جلب بعض سُعاة البريد هذا الخبر إلى نينوى، حيث سارع أسرحدون إلى دخول مصر ثانية على رأس جيشه عام (٦٦٣ ق.م) فطرد المحاصرين من ممفيس ثم طاردوهم حتى

العاصمة القديمة الجنوبية طيبة التي استولى عليها الآشوريون ونهبوها، وحملوا كنوزها وأهلها إلى آشور.

وتذكر التوراة قصة مدينة طيبة مع استخدام اسمها العبري (نو-آمدن) في سفر ناحوم (١٠-٨٣).

وهذا يدل على مدى اتساع آشور التي وصلت إلى الذروة في الجنوب الغربي، وقد شهدت نفس تلك الفترة القصيرة توسع آشور في الشمال الغربي في آسيا الصغرى، حيث حصلت غزوة سيميرية وأجبرت بعض الحكام الوطنيين على الالتجاء إلى حماية آشور، وكان من بين هؤلاء الحكام (جايجس) حاكم ليديا في جنوب آسيا الصغرى والذي يخبرنا آشور بانيبال أن إله هذا الحاكم وجّهه في أحد أحلامه أن يطلب مساعدة عسكرية من آشور بانيبال ضد السيميريّين.

وتدل الحوادث أن طلبه قد لُبِّي نظراً لأن (جايجس) تمكن من إلحاق هزيمة في صفوف السيميريين، وبعد ذلك أرسل بعض الغنائم التي احتوت على حاكمين من الولاة إلى نينوى عام (٦٦٣)ق.م.

ولكنه كان شهر عسل قصير الأمد، فقد واجهت آشور اضطرابات ضارية في مصر، إذ إنه وقبل نصف قرن من الزمان عمد أحد القوّاد الآشوريين إلى تحذير حكومة أورشليم بقوله:

((لا تثق بأي شخص مصري)).

إذ إن تعبيره كان أكثر دراماتيكية كقوله:

((الآن أنا اتّكلْت على عكاز من قصب مكسور –أي: على مصر- والتي إذا توكأ رجل عليها فإنها سوف تدخل في كفّه وتثقبها، وهكذا فرعون ملك مصر بالنسبة إلى جميع من يثقون به)).

لكن الآشوريين أهملوا هذا الإنذار، وبعد موت (نخو) الأمير الأعلى لمصر الشمالية في عام (٦٦٣) ق.م فقد عيَّنوا بدلاً عنه ابنه (بسامي تيكوس) الذي كان

المسؤول الآشوري الأعلى والذي كان شديد الولاء للآشوريين حتى كان يحمل اسماً آشورياً.

ولكن في بداية عام (٦٥٠ ق.م) بدأ (بسامي تيكوس) في تأكيد استقلاله المحلي، وذلك بطرد الحامية الآشورية التي تُركت في مدن مصر، وكان لهذا العمل أصداء كثيرة، إذ يخبرنا (هيرودوتس) وهو المؤرخ اليوناني في القرن الخامس ق.م والذي ولد في غرب آسيا الصغرى:

إنه وفي زمن (بسامي تيكوس) كان القراصنة من آسيا الصغرى واليونان ينْزلون إلى مصر، ولكن (بسامي تيكوس) هذا قد استطاع أن يستميلهم لخدمته، وإن هؤلاء القراصنة المزعومين ربما كانوا أتباع (جايجس) حاكم ليديا، ولقد كان لمصر وآسية الصغرى الجنوبية مصالح تجارية مشتركة.

وآخيراً أصبح كل من (بسامي تيكوس) و(جايجيس) أتباعاً مخلصين لآشور، ولكن حالما سارع (بسامي تيكوس) بتخليص مصر من النفوذ الآشوري، فقد كان (جايجس) مجبراً أن يختار ما بين مصر وآشور، فقد اختار أن يساعد مصر.

ولذلك فقد لَعَنَه (آشور بانيبال) بصفته ناكراً للجميل، وأعلن أن دعم آشور له لن يستمر، وبذلك فقد أفسح المجال أمام السيميريين للقيام بهجوم جديد نحو عام (٦٥٢)ق.م عندما حصلت غزوة ضد مملكة جايجس مما سبب هزيمة مملكة جايجس وقتل ملكها.

وفي عام (٦٥١) ق.م استطاع (بسامي تيكوس) إجلاء الآشوريين من مصر، وهكذا وبنشوء الاضطرابات في أمكنة أخرى لم تعد آشور قادرة على إبقاء الإمدادات الضرورية لجيشها للبقاء في مصر مع وجود خط طويل صعب من المواصلات إلى هناك.

إبادة عيلام

كانت المشكلات الرئيسية في الشرق حيث كان المركز الرئيسي للاضطرابات هو عيلام.

وهي المملكة التي عَمَّرت نحو ألف سنة في جنوب غرب إيران، في هذه المنطقة كان هناك في هذه الفترة عاملان هامان سببا الاضطرابات وعدم الاستقرار:

أولهما: وجود عدد من أفراد العائلة الملكية الطامحين المتنافسين على السلطة.

وثانيهما: تعرض الملوك العيلاميين إلى الموت المفاجئ (وهذا يدل على وجود مرض وراثي في الأسرة الحاكمة، وربما لأن ملوك عيلام كانوا يتزوجون من أخواتهم) والحقيقة إن عدم الاستقرار الاجتماعي والسياسي يؤذي العلاقات التجارية، ومن الممكن أن ينتشر عبر الحدود.

ففي بداية حكم (آشور بانيبال) عمل الملك على نشر الاستقرار في عيلام، فقد ذكرت الإجراءات التي اتخذها لمساعدة ملك عيلام في أيام الشِدَّة ويقول:

"عندما حَدَثَتْ المجاعة في عيلام وازداد القحط وقلة الطعام أَمَرت بإرسال الذرة إليه للإبقاء على حياة شعبه، وقد أمسكت بيده (لدعمه) وقد أعددت له جميع الأشخاص الذين هربوا من بلادهم أثناء المجاعة والتجؤوا إلى آشور مدة حتى هطلت الأمطار في بلاده، ونتج عن ذلك زيادة المحاصيل الزراعية، وهؤلاء الأشخاص الذين التجؤوا إلى آشور قد أعدتهم إليه."

ومع ذلك وعلى الرغم من مساعدات آشور بانيبال الكريمة عمد ملك عيلام (أورتاكس) إلى التجاوب مع بعض مبادرات الزعماء القبليين في بلاد بابل واستفاد من انشغال آشور في الحرب مع مصر فشنَّ هجوماً على بابل عام (٦٦٥ ق.م).

ولذلك فقد اضطر آشور بانيبال أن يرسل جيشاً إلى الجنوب ليصد (أورتاكس).

وهذا مما ساهم في إساءة العلاقات ما بين آشور بانيبال وأخيه، إذ اتضح للأخ (شاماش - شم - أوكين) أنه على الرغم من توليه مملكة بابل فقد كانت أمور الدفاع عن تلك البلاد منوطة (بآشور بانيبال).

وأما (أورتاكس) فقد كان شأنه شأن الملوك العيلاميين الآخرين، فقد مات ميتة فجائية غير منتظرة، ولهذا فقد استولى على العرش أحد أبناء عمه الملكيين وهو: (تيومّان) الذي عمل على تأمين مركزه وذلك بمحاولة قتل ابني الملكين السابقين، وقد عمد هؤلاء الأمراء الخمسة والثلاثون الآخرون من أفراد العائلة المالكة بصحبة بعض النبلاء إلى الفرار طلباً لحماية آشور بانيبال، الذي وفّر لهم الحماية والملجأ وذلك على الرغم من طلب (تيومّان) القضاء عليهم.

وهنا نرى دلالات طريفة متزايدة لأهمية البروتوكولات، إذ إن آشور بانيبال شعر بضرورة صياغة سبب لرفض طلب (تيومّان) بالقضاء على أولئك الأمراء.

والآن نصطدم بمشكلة إعادة الترتيب التاريخي لنقوش آشور بانيبال التي لم تكن مرتبة ترتيباً تاريخياً كما لاحظنا، والتي توحي أن الحملة التي قُتِل فيها (تيومّان) حدثت بعد الفترة التي كان ينبغي فيها القضاء على منافسيه على عرش عيلام.

ولكن السجلات العيلامية تدل على أن حكم (تيومّان) قد دام حوالي عقد من الزمن مع سعيه للتوسع الدائم في إيران.

والحقيقة، إن السجلات العيلامية هي أكثر مصداقية وذلك يَظْهَر من الشعور بالمرارة التي تسيطر على (آشور بانيبال) عندما يتكلم عن (تيومّان) وهو الملك العيلامي الذي كان آشور بانيبال يكرهه كراهية مطلقة.

إن رد الفعل الذي أظهره آشور بانيبال ينبغي أن يكون قد حدث خلال فترة زمنية لا بأس بها، وليست عبارة عن أشهر قليلة من الاحتكاك مع (تيومّان).

وأخيراً وفي أواخر صيف عام (٦٥٣ ق.م) تلقى آشور بانيبال، وكان مقيماً في أربيل، أخبار تعبئة جيش (تيومّان) ضده.

وهكذا عمد آشور بانيبال إلى الاستغاثة بالإلهة عشتار في أربيل وهي آلهة الحرب، وقد تقدمت جيوشه إلى داخل عيلام عن طريق يمتد خلال الدير، بينما تقهقر (تيومًان) والتجأ إلى عاصمته (سوزا) ثم حاول الهرب ولكنه كان سيئ الحظ، وهنا يذكر آشور بانيبال ما حدث:

لقد هرب (تيومًان) ملك عيلام حفاظاً على حياته واختبأ في إحدى الغابات، ولقد انكسر عمود العربة -عربته الملكية- وانقلبت العربة عليه، وقد قال (تيومًان) لولده وهو في غاية اليأس:

((ارفع القوس)) -ويُظَن أنه يعني أحد أجزاء العربة المكسورة التي كان الملك محصوراً تحتها-.

وقد حاول ابن (تيومًان) مساعدته ولكنه أمسك به وضربت عنقه.

وقد أخذ رأس (تيومًان) إلى آشور بانيبال الذي نفَّث كراهيته بضرب الوجه الميت والبصق عليه.

ثم إنه احتفل بنصره بإقامة وجبة احتفالية رائعة مع زوجته، وهذه الوجبة تظهر في اللوحة النافرة حيث يظهر وجه (تيومًان) متدلياً من شجرة.

لقد بقيت عدة زُمَر وعصابات قبلية مناوئة في بابل، وخلال طيلة هذه المدة كانت هناك دسائس دائمة بين هؤلاء الناس والعيلاميين والتي كانت تسبب عدم الاستقرار والرفض للإدارة الآشورية في بابل تحت إمرة (شاماس- شم- أوكين).

وإن وجود العساكر التي كانت تحت قيادة آشور بانيبال والمخصصة للعمل في بابل كانت سبباً في تعكير العلاقات الودية بين الأخوين.

ومع ذلك فقد بقيت العلاقات الودية بين الأخوين مستمرة حتى عام (٦٥٤ ق.م) وذلك لأنه طبقاً لأحد التواريخ عام (٦٥٥ ق.م) -يقال: إن فراش بعل قد عاد من آشور إلى بابل.

وأيضاً في السنة التالية أعيدت عربة بعل وجميع الأشياء اللازمة وقسم من الغنائم المأخوذة قبل خمسة وثلاثين عاماً عندما نهب سنحاريب بابل.

ولكن وتحت سلطة ملكين ضعيفين كالدمى كان آشور بانيبال قد نصبهما بالتوالي ملك ونائب الملك في عيلام، زادت المؤامرات والدسائس بين مختلف الفئات المتناحرة في عيلام وبابل.

وهكذا وفي عام (٦٥٢ ق.م) نشبت الحرب الأهلية، وعندها هاجم (شاماش، شم، أوكين) الذي كان يدعمه الجيش العيلامي الحامية الآشورية في (كُوثاه).

وعلى الرغم من المحاولات التي قام بها (شاماش، شم، أوكين) ليثير اضطرابات ضد آشور في بابل إلا أن بعض المواطنين في المدن الكبيرة قد استمروا في دعم آشور.

هذا وقد هزم الآشوريون جيش عيلام وأخرجوا القوى الكلدانية التي كانت موجودة في جنوب بابل والتي كانت تدعم (شاماش- شم- أوكين)، وبعد ذلك استلموا زمام المبادرة وذلك بوضع (بورشيبا) وبابل التي يحكمها (شاماش- شم- أوكين) تحت الحصار.

ولم يصل أي دعم (لشاماش- شم- أوكين) من عيلام حيث نشبت الحرب الأهلية بين مطالبين متنافسين على العرش.

وقد كان (شاماش- شم- أوكين) محصوراً في بابل ولكنه دافع عن تلك المدينة حتى أجبرته المجاعة على الاستسلام عام (٦٤٨ ق.م).

ولقد ساءت أحوال المدينة أخيراً بحيث إن المواطنين أكلوا لحوم أولادهم وبناتهم الموتى نظراً لشدة جوعهم.

ولقد مات (شاماش- شم- أوكين) بعد حدوث حريق في قصره، وربما مات منتحراً مع أن ذلك لم يثبت رسمياً.

وقد كان آشور بانيبال حريصاً أن تجري حفلة دفن مناسبة لأخيه وزوجته في قبر بعد أداء الطقوس المناسبة، ولكن وفي هذه الأثناء أمسك بعدد من المتمردين الآخرين حيث قتلوا وقطعت أجسادهم لتكون طعاماً للكلاب والخنازير والذئاب، والطيور الجارحة وطيور السماء وأسماك البحر العميق.

وفي أثناء حكم آشور بانيبال الطويل الأمد فقد حدثت اضطرابات قبلية من الجنوب في بابل التي كان يحكمها ملك ضعيف يدعى (كاندالانو) ولم يكن هذا أكثر من واجهة تمثل الحكم المباشر لآشور هناك.

وأما في عيلام فقد أصاب تيومان بعض النجاح في إحلال الاستقرار، ولكن بعد تحديه الأخرق لآشور وموته بعد ذلك حصل نزاع أهليّ بين مدَّعين متنافسين على السلطة ووراثة العرش، الأمر الذي أنتج الفوضى في البلاد.

ولقد قام (آشور بانيبال) بعدة تدخلات بالنسبة لوراثة العرش بين المدعين العيلاميين الذين كانوا يطلبون حمايته لمصالحهم، ولقد كانت الأمور معقدة بسبب الفروق الاجتماعية ما بين آشور وعيلام.

فبينما كان الحال في آشور أن ينتقل الحكم الملكي من الأب إلى الابن، إلا أنه بالنسبة لعيلام كانت الوراثة تتم من حيث الأم بحيث كان أخوال الملك باستطاعتهم المطالبة بوراثة العرش دون أبنائه.

وهكذا فإن أي وريث شرعي للعرش طبقاً للمبادئ العيلامية من الممكن عدُّه مغتصباً للسلطة عند الآشوريين.

بينما كان الرجل هو الوريث الواضح والمنظور من وجهة نظر (آشور بانيبال) ربما كان له أخوال لهم الحق بالادعاء بالوراثة من وجهة النظر العيلامية.

هذا ولم تحدث أي حركات لإعاقة الاستقرار الكامل حتى زمن آشور بانيبال، ولم يكن من المحتمل إن يحدث ذلك نظراً لأن مملكة عيلام الهرمة لم تكن تعاني من انقساماتها الداخلية فحسب، بل أيضاً من التوترات الناتجة عن اندفاع شعوب جديدة من الشمال كانت تحاول الاستيطان وهم الفرس.

وكان الوضع في عيلام يتمثل بتهديدات مستمرة لبابل، ولم تكن الفوضى في عيلام سبباً في تعطيل التجارة مع المناطق في الشرق فحسب، بل أيضاً عملت حالة الفوضى في عيلام لجعلها قاعدة مرموقة بعيدة عن السيطرة الآشورية للقبائل الكلدانية التي كانت تبغي الاستقلال في بابل.

لقد أجبرت هذه الحالة في عيلام آشور بانيبال على اتخاذ خطوة خطيرة تؤدّي إلى تخريب البلاد بكاملها، وهذا استغرق القيام بحملتين، والمحتمل أن يكون تاريخ الأولى قبل منتصف عام (٦٤٠ ق.م)، فقد زحف الجيش الآشوري خلال عيلام مخرباً مدنها الرئيسية واستولى على العاصمة ونهبها وهي (سوزا) ولم يُظهر جنود آشور بانيبال أيَّ احترام للمعابد التي دُنّست ولا للآلهة أو أدوات العبادة التي أخرجت من أمكنتها ونقلت إلى آشور، وحتى القبور الملكية قد دُنّست وذلك لكي يعاني الملوك العيلاميون الموتى بعد موتهم من الانتقام الآشوري الذي نجوا منه وهم أحياء.

وقد كان آشور بانيبال واضحاً وصريحاً بالنسبة لنواياه فقد قال: "لقد هدمت وأتلفت قبور ملوكهم القدامى والحديثين الذين لم يحترموا إله آشور أو عشتار أسيادي ..

ولقد عرَّضتهم للشمس ونقلت عظامهم إلى آشور ولقد أوقعت القلق في أشباحهم وحرمتهم من تقديم المأكولات وجريان المياه من أمامهم."

ولقد أُخِذَ عدد كبير من الموظفين الكبار وعائلاتهم أسرى إلى آشور وضُمَّت الوحدات العسكرية العيلامية إلى الجيش الآشوري.

وتخبرنا التوراة أن بعض الأشخاص المبعدين من عيلام ومن (سوزا) نقلوا إلى شمال فلسطين.

ولهذا فإن دماء عيلامية تجري في عروق السَّمرة وهم أهالي السامرة في شمال فلسطين.

ولقد أصبح كثير من المناطق، بعد أن أخذ سكانها وحيواناتها كغنائم إلى آشور، خراباً يباباً: "لقد جعلت حقولهم خالية من أصوات البشر ومن خطوات الماشية والأغنام، ومن الأصوات السعيدة في مساكن الحصادين، وبدلاً منها جعلت حُمُرُ الوحش والغزلان وجميع أنواع الحيوانات البريّة."

ولكن ظهر أن (آشور بانيبال) قد انحرف كثيراً عن السياسة التي اتبعها في بداية حكمه وهي محاولته لتهدئة عيلام عن طريق المساعدات الاقتصادية، فقد

كان تخريبه لعيلام عملاً أسوأ من الأعمال الوحشية، فقد كان من أسوأ التدابير في الحكم.

إذ لم تكن الحيوانات البريّة التي ذكرها آشور بانيبال والتي أصبحت تترصّد للدخول إلى تلك القفار التي تركها وراءه، إذ إن القبائل الفارسية التي كانت تضغط للدخول إلى المناطق المحيطة بأراضي مملكة عيلام المهيبة، وكان من عوامل فخرها أن تكمل احتلال تلك المنطقة.

وفي ذلك الوقت كان الفرس لا يزالون أتباعاً للميديين وبناءً على الضغط الآشوري أصبحوا مملكة رئيسية في شمال إيران.

وبعد قرن من الزمان أصبحوا يحكمون ابتداءً من القاعدة التي نجحوا في اقتطاعها من حكام عيلام حتى كامل المنطقة وأكثر من ذلك المناطق التي كانت تابعة للامبراطورية الآشورية.

لقد أصبحت نقوش آشور بانيبال التاريخية قليلة وذلك بعد قيامه بحل المشكلة العيلامية وإن ندرة النقوش الملكية، عندما لا تكون بسبب خلل في الاكتشافات الأثرية (بل بالعكس حدثت هناك حفريات وافرة في الأبنية المرافقة لعهد آشور بانيبال) إنما هو عادة يدل على اضطرابات في عهد الحاكم المذكور أيضاً.

ولدينا نقوشه في اللوحة النقشية البارزة التي تظهر أي نوع من الحكام كان هذا الرجل وأي نوع من الرجال كان.

إلا أنه وبالحكم عليه من هذه الأعمال من الممكن عدُّه أنه قد أصبح طاغية لا يحرِّكه إلا الظمأ إلى الانتقام الشخصي دون النظر إلى الاعتبارات السياسية الرصينة.

هذا وإن إحدى الحوادث الأخيرة التي سجلها كانت معاملته لملك عربي، فقد كان العرب قد ساعدوا أخاه (شاماش-شم-أوكين) عند تمرده في بابل، وقد

نصب آشور بانيبال أحد الأمراء الذين بقوا على قيد الحياة من الذين أظهروا خضوعهم ملكاً على العرب.

وفي النهاية: انضمَّ هذا الملك إلى الأنباط وهم العرب الذين كانوا يسيطرون على الطرق التجارية الواقعة غرب بلاد العرب، وكان انضمامه إليهم مضاداً لرغبات آشور بانيبال.

ولهذا فقد انطلق آشور بانيبال مخترقاً الصحراء جاعلاً دمشق قاعدة له، وانقض على القبائل التي واجهها ونهبها ودمر آبارهم حتى اضطر العرب إلى خلع ملكهم، وأمسك به آشور بانيبال ونقله معه إلى نينوى حيث أذله بأن ربطه من عنقه إلى حجر الكلاب وجعله كلب حراسة عند بوابة المدينة.

لقد كان الملوك الآشوريون الأوائل قساة -نعم- وبلا رحمة، إذ عندما وجد أي عصيان كانوا يقمعونه. وحيث توجد معارضة كانوا يحبطونها، ولكن آشور بانيبال فقط وحده قد وضح التبرير لأعماله في نقوشه الظاهرة.

فهو من جلد وجوه أعداء ميتين، وهو الذي نبش قبور الذين لم يستطع معاقبتهم وهم أحياء.

وهو الذي أبقى على حياة الملوك الأسري لكي يذلّهم وهم أحياء، وليس من حق المؤرخ أن يقوم باللوم، لكنه ينبغي أن يسجل الأحداث.

ولكن وجود الأذى كقوة دافعة وراء آشور بانيبال ما هو إلا أحد الحقائق التاريخية، وأن سلوكه كان نوعاً من السلوك الذي يعطي للحرب اسماً بَشِعاً.

لقد كان من عيوب آشور بانيبال أنه لم يكن رجلاً استراتيجياً عظيماً ولا سياسياً ولا جندياً، فقد كان فجاً خالياً من الاستبصار السياسي بقدر ما كان حقوداً في مجال النقمة.

ولسوء حظّه أنه استُدعي لاستلام مهامّ الملك في الوقت الذي كان لديه ميول للدراسة، ومع ذلك فنحن مدينون له بشيء فقد كان الملوك الآشوريون الأوائل يجمعون بعض النصوص القديمة بقصد إنشاء مكتبة، ولكن بالنسبة لآشور

بانيبال قد أصبحت هذه الرغبة غراماً وهو يعطينا الانطباع بأنه كان نوعاً من الرجال الذين يلذ لهم معالجة لوح طيني جيد.

وربما كانت دوافعه ما هي إلا تقدير أسطوري للحكمة القديمة أكثر من حبه للأدب إكراماً للأدب.

إذا إنه حينما كان يسمع بوجود نص قديم كان يطلب إرسال النصوص، أو يحصل على نسخ منها وذلك لأجل مكتبته في نينوى، وهذه النصوص التي بقيت مخبأة في الأرض حتى منتصف القرن التاسع عشر الميلادي والتي بقيت منذ اكتشافها مخبأة في المتحف البريطاني، المصدر الرئيسي الوحيد لمعرفتنا الثقافية البابلية والآشورية القديمة.

لقد كان استعمال كلمة مدرسية (أكثر من كلمة (بحثية) متعمّداً، إذ لم يكن هناك أي دليل أن (آشور بانيبال) كان مهتماً بالبحوث.

إذ إن ما كان مهتماً به بالنسبة للنصوص القديمة كان علاقة هذه النصوص باللاهوت والدين والأدعية والصلوات والطقوس ومعاني الفأل الحسن، والتعاويذ اللازمة لطرد الأرواح الشريرة وتجنُّبها.

هذه هي الأمور التي كانت تشغل بال (آشور بانيبال) وكانت المؤسسة الدينية بما لها من المصالح في هذه المنطقة كانت تشجعه لأنه كان يعتمد دوماً على نوع الوحي الذي يريده في أي من المواقف الحرجة، وذلك حسبما كان كثير من نقوشه تروي بالتفصيل.

إن جميع ما علينا الإشارة إليه بالنسبة لما كان يحدث في العقد الأخير من حكمه ما هي إلا بعض الوثائق الاقتصادية التي ليس فيها معلومات كثيرة، فهناك بالحقيقة بعض المعلومات الدينيّة المتعلّقة بآشور بانيبال، وما يذكره عن كونه محاطاً بالمتاعب والتي يمكن أن نفهمها فإنها تعكس تدهوراً في شؤون آشور بانيبال الشخصية.

ولكن ليس من الضروري أن تكون تلك النصوص دليلاً على نهاية حكمه، لكنها تُعد مؤلفات رسمية تدعو إلى نوع من الأدب يدعى (أناشيد التوبة) أكثر منها تعابير عن تنبؤ آشور بانيبال شخصياً بمصيره التالي، إذ لم يكن آشور بانيبال رجل سياسة عظيم، وليس من المحتمل أن يكون قد تنبأ بالجائحة والزلزال الذي سوف يصيب إمبراطوريته بعد حين.

سقوط الامبراطورية الآشورية

خلال أربعين عاماً من الفظائع التي قام بها جيش آشور بانيبال في عيلام انتهت الامبراطورية الآشورية.

والحقيقة أنه ليس هناك حقائق ملموسة وتتابع مفصل للحوادث التي أنتجت هذا الحدث، وكل ما لدينا ما هو إلا بضعة مؤشرات مبعثرة، مثلاً ذكريات سيدة عجوز، أو أسماء الملوك أو تاريخ بعض الوثائق الاقتصادية أو بعض نصوص متناثرة لمنح ملكية الأراضي، وبعض التلميحات لبعض التواريخ، أو بضع قطع من الفخار منقوشة، أو قطع من النقوش وبعض الأبنية أو بعض التقاليد المحفوظة ضمن السجلات اليونانية بعد بضعة قرون.

وهو أن السيدة العجوز المشار إليها هي والدة نابونيداس وهو أحد ملوك الأسرة البابلية (الكلدانية الجديدة) التي حكمت منطقة ما بين النهرين والغرب بعد سقوط آشور، إذ هناك نصب تذكاري نصب عند موتها يجعلها تقول على لسانها: إنها قد عاشت ابتداءً من السنة العشرين لحكم آشور بانيبال ملك آشور (كان تاريخ مولدها عام ٦٤٩ ق.م) حتى السنة الثانية والأربعين من حكم آشور بانيبال، والسنة الثالثة والأربعين لحكم آشور-ايتللو-ايلي ابنه، والسنة الحادية والعشرين لحكم نابوبلاسر، والسنة الثالثة والأربعين لحكم نيبوشاوريزير، والسنة الثانية لحكم أميل-مردوف، والسنة الرابعة لحكم فيري جليسار طوال خمسة وتسعين عاماً.

وحتى استلم ابنها العرش عام (٥٥٥)ق.م إن هذا يثبت تاريخ وفاة آشور بانيبال في عام (٦٢٧)ق.م وهو واحدة من الحقائق الأكيدة للتاريخ النهائي للإمبراطورية الآشورية، والحقائق الأخرى المتعلقة بهذه الفترة من الممكن إيجازها بما يلي:

١- بعد وفاة شماس - شم - أوكين أصبحت بابل تحت حكم رئيس صوري يعرف باسم كاند لانو.

٢- لقد خلف آشور بانيبال ابنه آشور – ايتيللي- ايلي الذي بدأ حكمه قبل عدة سنوات من وفاة آشور بانيبال

٣- لقد حدثت اضطرابات واسعة خلال الإمبراطورية، ففي فلسطين كانت هناك الأنشطة الإصلاحية التي قام بها الملك يوشع ملك يهوذا عام (٦٢٩) ق.م وكانت تشمل بند رموز العبادة المرافقة للآشوريين وربما اشتملت عناصر من الشعور المناهض لآشور، بينما كان هجومه على الأراضي المجاورة دون التدخل الآشوري تعكس وجود الصعوبات التي واجهت آشور بالنسبة للنظام وذلك الوقت الذي يعود تاريخه ربما إلى عام (٦٣٤ ق . م) وما كان يعرف عن حركات الشعوب القبلية الشمالية والتي كانت تهديداً لفلسطين، وقد حدثت تمردات أخرى بما فيها تمرد قائد عسكري يدعى سن – شم – ليشير الذي كان يعمل على اعتلاء العرش .

٤- تم قبول ولد آخر من أبناء آشور بانيبال وهو شن – شا – ايشكون ملكاً لآشور خلال معظم الفترة التي تلت وفاة والده حتى عام (٦١٢ ق . م).

٥- أعلن أحد الأمراء الكلدانيين وهو نابوبولاستر ملكاً على بابل عام (٦٢٦) ق.م ولكنه لم ينجح بشكل كامل وبسرعة للسيطرة على كل بابل.

٦- لقد سقطت نينوى عام (٦١٢ ق.م) تزودنا هذه المعلومات بمادة تاريخية تشبه أحجية الصور المجزأة والتي -ونظراً لكثرة عدد القطع المفقودة- يمكن جمعها معاً بطرق مختلفة، وإن إعادة ترتيب المحاولات لتناسب المعطيات الأكيدة، دون القيام بافتراضات، ليس لدينا براهين إيجابية لها.

١

ولقد حدثت اضطرابات (كما حدث في يهوذا) في أواخر نهاية حياة آشور بانيبال، ولقد باشر آشور – ايتللو- ايلي الحكم إما كي يريح والده المسن والمنهك القوى أو نظراً لطموحه الشخصي، وذلك حوالي عام (٦٣٠ ق.م).

وعند وفاة آشور بانيبال عام (٦٢٧ ق.م) اندلعت التمردات الحقيقية، فقد كان هناك نزاع للحصول على السلطة المركزية أولاً: في بابل أزيح بنتيجته (كاندلانو) ملك بابل عن العرش (إذ كان الأنا؟؟ الثانية لآشور بانيبال) وقد كان آشور –ايتللو- ايلي يحاول الاستيلاء على بابل من خلال مساعدة أحد القواد الموالين له.

وبعد ذلك عين سن شم ليشير ملكاً موالياً.

وفي نفس العام (٦٢٧) ق.م حصل ابن آخر من أبناء آشور بانيبال وهو سن – شار – ايشكين، ومن الممكن أن يكون توأم آشور –ايتللو- ايلي ، قد حصل على دعم إحدى الحاميات الآشورية في بابل، وقام بانقلاب نجح مؤقتاً، إذ استولى بعده على بابل وادعى حقه بالملك.

ولذلك فقد تحرك أحد الأمراء الكلدانين وهو نابو بولاسر خليفة بيروداك - بالادان في طموحه أو ربما بنسبته (مع أنه ليس لدينا إثبات على ذلك) وكان هذا قد أعلن نفسه ملكاً على أراضي المستقعات الجنوبية التابعة للقبائل، وتحرك شمالاً لطرد سن -شار- ايشكين ولكي يؤكد ادعاءه بحقه في ملك بابل، ولكن كان لا يزال هناك قوى آشورية منتشرة في بابل، واستمر سن –شار- ايشكن بالسيطرة على بعض المدن البابلية ولاسيما (نيبور) وإيديسن حتى (٦٢٠ ق.م) وحتى بعد ذلك.

ليس لدينا أي معرفة لما كان يجري لآشور –ايتللو- ايلي أو حتى عن موته، ولكن نعلم أنه لم تكن له أي سيطرة فعلية على بابل حتى عام (٦٢٧)ق.م ومن الواضح أنه وفي عام (٦٢٣) ق.م وبالتأكيد ومن الممكن أن يكون ذلك في أوائل (٦٢٦) ق.م فقد أعلن سن –شار- ايشكن نفسه ملكاً على آشور بدلاً من أخيه، وفي أثناء ذلك عمد نابوبولاستر -رغم الانتكاسات- إلى مد سلطته على جميع بابل، وكان أيضاً قد اتخذ الإجراءات لاكتساب بعض الحلفاء في الخارج، وبعد

اعتلائه عرش بابل، أعاد إلى (سوشه) الآلهة الغيلامية التي نهبها الآشوريون سابقاً، وكانت هذه وسيلة لشراء النية الحسنة.

وفي عام (٦١٦) ق.م أصبح نابو بولاسر في وضع ساعده على اتخاذ موقف الهجوم ضد آشور، مع أن تحركاته ومبادراته لم تكن أكثر من بعض المحاولات لتعديل الحدود التي كانت مجال خلاف بين بابل وآشور وذلك لمصلحة بابل، وتذكر بعض المصادر أنه قد حدثت بعض الصدامات التي تدل أن آشور كانت تحصل على دعم كل من مصر والمانيين في شمال غرب إيران.

وفي السنة التالية تحرك نابوبولاسر شمالاً نحو نهر دجلة ووصل العاصمة القديمة آشور، ولكن تقدمه كان قبل الأوان وقد أجبر على الانسحاب إلى تكريب، حيث وضع هو نفسه تحت الحصار، وهكذا برهن الآشوريون أنهم لا يزالون قادرين على اتخاذ موقف الهجوم، ولكنهم أجبروا على التراجع الذي يظن أنه كان نتيجة لسماعهم خبر هجوم سريع من قبل الميديين، والذي حدث فيما بعد في نفس السنة في جنوب شرق آشور، ومن هناك وفي عام (٦١٢) ق.م تحرك الميديون ووصلوا إلى قلب آشور واحتلوا كلا تاربي (وهي شريف خان الحديثة) وهي قلعة على بعد نحو خمسة أميال إلى شمال شرقي نينوى التي سيطرت على مواصلات العاصمة مع الشمال والغرب.

وكذلك كان الحال مع العاصمة القديمة آشور وتذكر إحدى التواريخ أن جيش نابوبولاسر وصل بعد سقوط آشور، ولكنه لم يشترك في هذا السقوط.

ومن الممكن أن يكون ذلك صحيحاً، ولكن من المحتمل أن يكون هذا قد ذكر لتبرئة نابوبولاسر من اللوم والاستهجان الديني لنهب تلك المدينة التي كانت مركزاً دينياً محترماً.

ولقد عقد نابوبولاسر والميديون الذين كانوا يعملون بشكل مستقل معاهدة تحالف رسمية عند اجتماعهم في آشور.

وكانت آشور لا تزال تملك بعض الحلفاء، وفي عام (٦١٣ ق.م) قامت الشعوب القبلية الساكنة على طول الفرات الذين طالما قاموا باضطرابات في الماضي ضد

آشور، نرى الآن تلك الشعوب تتمرد ضد نابوبولاسر، ولقد كان هذا التمرد القبلي طبقاً للتحالف مع آشور، وذلك لأنه وبينما كان نابوبولاسر يحاصر إحدى المدن المتمردة وصل جيش آشوري وأجبره على رفع الحصار والانسحاب إلى بابل.

وهنا تبرز أمامنا بعض المشكلات: إذ كيف استطاع الآشوريون جمع جيش على الفرات ذي قوة كافية لإجبار نابوبولاسر على التقهقر عندما كان الآشوريون في السنة السابقة في ضيق عظيم بحيث استطاع الميديون الاستيلاء على مدن في طرفي الدولة.

فربما كان هناك شيء يعمل على كبح جماح الميديين (وهذا افتراض تخميني دون وجود أي شهادة تثبته) أو أن الميديين كانوا مجبرين على الانسحاب لمواجهة تهديد آخر، ومن المحتمل أن يكون هذا التهديد آتياً من (الأسكنديين) الذين أتوا من الأناضول ومن شمال غربي إيران خلف السيميريين، وكانت لهم علاقات ودية مع الآشوريين منذ عهد أسرحدون، وهناك روايات تفيد أن الميديين قد تفرقوا تحت ضغط الأسكنديين بشكل كبير، وربما كان هذا التهديد سبباً في الانسحاب المؤقت للميديين من آشور عام (٦١٣ ق م).

ولا تذكر السجلات البابلية في تلك الفترة شيئاً عن الأسكنديين ولكنها تذكر شعباً يدعى (الأومان ماندا).

ربما كان هذا الاسم يدل على بعض التجمعات القبلية التي كان الأسكنديون جزءاً منها وتسكن في الشمال.

وتذكر الروايات اليونانية أن الأسكنديين قد تحالفوا مع الميديين، ومن الممكن أن يكون نابوبولاسر عضواً في هذا التحالف نظراً لأنه وفي عام (٦١٢) التحق (بالأمان ماندا) والميديين وشاركهم في حصار نينوى. ولقد سقطت المدينة خلال ثلاثة أشهر. وهذا أمر مستغرب، إذ إن هذه الفترة قصيرة، نظراً لأن مدينة بابل قاومت الجيش الآشوري الماهر في فنون الحصار لمدة تزيد عن سنة، وتتفق الروايات اليونانية مع التوراة في وصف هالة السرور والغبطة عندما سقطت نينوى مع ما كان فيها من وسائل الدفاع الضخمة.

ولكن هذا السقوط أصبح حتمياً بعد حدوث الطوفان، ولم يكن هذا الطوفان ناتجاً عن نهر دجلة بل عن رافد له يدعى (خوسر) فقد كان طوفان خوسر الذي كان يجري في وسط المدينة سبباً في إتلاف قسم كبير من وسائلها الدفاعية، مما ساعد دخول المحاصرين وقد نهبت المدينة وسلبت ومات سن-شار-أيسكين أثناء ذلك الدمار.

لم ينته أمر الآشوريين بعد، فقد هرب الناجون من الموت إلى حَرَان حيث أعلن آشور-أباليت ملكاً، وكان هذا من العائلة المالكة.

وفي أثناء ذلك كان الميديون والأومان مانديون قد انسحبوا، ولقد سارع نابوبولاسر الذي أصبح يتنافس مع حلفائه السابقين لنيل وراثة الإمبراطورية الآشورية المتداعية، سارع إلى تقوية مركزه في آشور فاحتل المنطقة الغربية حتى نقيتين، وقضى على جيوش المقاومة داخل آشور نفسها.

وهذا وفر مدة سنتين لآشور أباليت لكي يعيد تنظيم قواته في حَرَان التي طلب وهو فيها المساعدة من مصر.

ففي عام (٦١٠) ق.م عاد شعب (الأومان ماندا) إلى منطقة ما بين النهرين، وذلك لضمان المصالح البابلية هناك، عندها انسحب أباليت ليلتقي بالحلفاء المصريين القادمين.

وبعد محاولة لاستعادة حَرَان أقامت قوى التحالف الآشوري المصري قاعدة لها في كركميش.

وفي هذه الأثناء حدث هناك بعض التغيرات بالنسبة لملك مصر، فقد قرر الفرعون الجديد نخو الثاني (٦١٠-٥٩٥) ق.م تقديم الدعم المتزايد لآشور أباليت، وقاد الجيش المصري إلى سورية.

ويبدو أن الدبلوماسية الكلدانية قد فعلت فعلها بنجاح في فلسطين فلم يكن نخو الثاني يجبر على إخماد انتفاضة في غزة فحسب (أرميا ١٠-٤٧) بل إن حوشيا ملك يهوذا قام بمحاولة مميتة بالنسبة له لضرب القوى المصرية بحدود عام (٦٠٨

ق.م)(ملوك ٢٣ : ٢٩) على الرغم من هذه المعوقات فقد أوصل نخو جيشه إلى القاعدة الآشورية المصرية الرئيسية في كركميشن.

ولكن حدثت الآن كارثة لمصر، إذا إنه وحتى هذا الوقت لم تكن أي الجيوش الكلدانية تبدي براعة عسكرية، وكانت نجاحاتها تتوقف على الحرب الأهلية الآشورية، وبعد ذلك كانت تتوقف على الدعم الذي كان يأتيها من الميديين ومن (الأومان ماندا) ولكن حدث الآن أن استفادوا من خدمات أحد القواد ذوي المقدرة المرموقة وهو (نيبوشا درميزر) وهو ابن نابوبولاستر.

ففي عام (٦٠٥) ق.م سلّم نابوبولاستر صلاحياته في حكم بابل لابنه نيبوشا درميزر الذي قاد جيشه إلى أعالي الفرات للقيام بهجوم مباشر على الجيش المصري القوي في كركمش.

وقد سجل (أرميا) الحادث كما يلي:

إن إله الجنود يود تقديم ضحية.

في البلاد الشمالية إلى جانب نهر الفرات.

آه أيتها البنت المصرية العذراء.

لقد سمعت الأمم بما لحق بك من عار.

ولقد امتلأت السماء بصراخك.

وذلك لأن المحارب قد اصطدم بمحارب.

وقد سقطا معاً.

ومع أن الأبيات الأخيرة تشير أن كلا الطرفين قد لاقيا مذبحة ثقيلة الوطأة، إلا أن الجيش المصري هو الذي واجه انكساراً معنوياً.

وهنا يصور أرميا الرعب والهلع أثناء هروب الناجين من الموت ورجوعهم إلى مصر.

لقد هزم محاربوهم

وهربوا بسرعة

ولم ينظروا إلى الوراء

لأن الرعب كان يحيط بهم من كل جانب (٥٠:٤٦)

ولم نسمع شيئاً بعد ذلك عن آشور أباليت أو عن أي واحد من الناجين من جيشه، وبعد اندحار الجيش المصري من آشور الأخير، انتهت الإمبراطورية الآشورية.

وبعد اندحار المصريين سقطت سورية وفلسطين بيد نيبوشا درميزر.

وفي نفس السنة ورث عن والده العرش فظهر ملك جديد في إمبراطورية جديدة، وأصبحت العاصمة العالمية هي بابل بدلاً من آشور.

الفصل التاسع

المجتمع الآشوري والعادات الآشورية

الآشوريون أمة وليس عرقاً

إن أي مجموعة بشرية ولكي تتميز كمجتمع مترابط عليها أن تمتلك سمات محددة تربط بين أفرادها بعضهم إلى بعض، وتميزهم عن جيرانهم.

وإن ما نبغيه هو أن نكتشف ما الذي كان يميز الآشوريين ويفرزهم كشعب مختلف عن غيره في العالم القديم.

نحتاج إلى العناية عند إطلاق المصطلحات نظراً لأن لدينا صوراً عقلية لمجموعة تدعى الآشوريين.

وليس معنى هذا أن أحد أفراد هذه المجموعة سوف ينظر إلى الأشياء بنفس الطريقة، وسوف يعين هويته الشخصية باتخاذه اسم الآشوريين، والحقيقة أننا نعلم أنه وفي أحد الأوقات لم يكن هذا هو الحال بالضبط، وذلك نظراً لأن لاسم آشورايو الذي يترجم بكلمة آشوري كان يعني شيئاً أكثر تحديداً مما نفهمه من كلمة آشوري.

ففي القوانين التي كانت سائدة في العصر الآشوري الأوسط كان لهذا الاسم معنى طبقي يطلق فقط على الشعب من الطبقة الدنيا.

لقد أطلق بعض شعوب الشرق الأدنى القديمة تعريفاً واضحاً لما كانوا يُعدونه أساساً لوحدتهم مما يميزهم عن جيرانهم.

ويمكن أن نتبنى وجهات النظر حول مثل هذه الأمور دون أن تتوافق مع الحقائق التاريخية، إذ إن الإسرائيلين التوراتيين هم خير مثال عن وجود شعب ذي معتقدات ذات أسس تاريخية مشكوك في أمرها، وكانت تقاليدهم الراسخة تؤكد أن هناك عاملين قد وحداهم وميزاهم عن الآخرين.

فقد كانت قبائلهم حسب قولهم تنحدر جميعها من أبٍ واحد (وهذا بالطبع غير صحيح) وقد دخلت هذه القبائل في ميثاق وعهد استثنائي مع إله محدد وهو (يَهْوَه) (وهذا أمر مشكوك فيه) فقد شعر الإسرائيليون بوعي قومي مؤسس على مفهوم الأصل المشترك من رجل واحد مع الانفصال عن السلالات والأصناف الأخرى غير الموجودة وتقاليدهم وعن أمتهم، وحماية قوانينهم ولكن الآشوريين تحرروا من هذا النوع من العنصرية.

فلم يعلن أي إله آشوري أبداً كون سلالة أي شخص معين ما هي إلا ذريته الخاصة فحسب، ولم يعد أي مشرع آشوري أبداً إلى سن تشريع ضد الشعوب الأجنبية الأخرى كما فعل الإسرائيليون، فتقول التوراة: (لا ينبغي أن يتبادلوا الزواج مع الأجانب، ولا تزوجوا أبناءكم لأبنائهم ولا تسمحوا أن يتزوج بناتهم من أولادكم).

لقد كانت معتقدات الإسرائيليين مرتبطة بالطبقية القبلية لإسرائيل، وقد سعت آشور كما نعرفهم في الأزمنة التاريخية، كي لا يكونوا قبليين أصلاً.

ولم تلعب قضية الانحدار من أب واحد أي دور في قضية توحيد الآشوريين.

ولم يكن هنالك حسب علمنا أي تقليد لوجود أي عهد أو معاهدة بين الآشوريين وآلهتهم مع أن الإله آشور قد لعب دوراً بالنسبة للوعي الذاتي للآشوريين لدرجة تسمح أن نسميه إلهاً قومياً، ولم يفكر الآشوريون أبداً بأنهم شعب مكتفٍ بذاته أو استثنائي.

إذ إنهم ومنذ البداية عدّوا التجارة مع الشعوب الأخرى عنصراً أساسياً في الحياة، ولم يروا أي عواقب وخيمة ناتجة عن الاختلاط مع الشعوب الأخرى، كما فعل الإسرائيليون، وقد كانت سياستهم الأخيرة والتي اتبعوها بالنسبة إلى التهجير مرتبطة بهذه النقطة، وغالباً ما كنا نسمعهم يقولون: إن الشعوب المهجَّرة كانت تستوطن وتعامل كالآشوريين بالضبط.

لقد خلقت سياسة التهجير التي ابتدعها الملوك الآشوريون شكلاً جديداً وفريداً من أشكال المجتمع، بل إن مزيج المجموعات الوطنية كانت الفروق العرقية فيه غير ذات بال.

فلقد نقلت مختلف الشعوب في الشرق الأدنى إلى آشور وبدؤوا بالعمل كمزارعين أو حرفيين أو تجار أو جنود، وبمرور الزمن أصبحوا متوحدين في تلك الخلطة الكبيرة التي هي آشور، ولم تكن هذه الخطة مجرد مصادفة أو منفعة.

فقد كانت هناك أسسٌ نظرية لها قد عُبِّر عنها باصطلاحات لاهوتية دينية.

فقد كرم الآشوريون آلهتهم بأن خولهم سلطان الحكم فوق جميع أرجاء العالم المعروف.

فقد دعا الملك توكولتي نينوترا الأول نفسه بأنه الشخص الذي نادى باسمه الإله آشور والآلهة العظمى بإخلاص وثقة، وأنه الشخص الذي سلمته الآلهة زمام أركان الأرض ليحكمها، وأنه الشخص الذي وثقت به الآلهة وأتمنته على أملاكها.

وهكذا فإن الآلهة قد خصصت جميع البلدان الأجنبية لملوك آشور.

والآن دعونا نعود إلى الأسباب التي وحدت الآشوريين أنفسهم، إذ نحن نلاحظ أن اللغة هي من العوامل الموحدة الرئيسية.

وقد كان الآشوريون يعتقدون أن الشعوب القاطنة في الجبال حولهم كانوا يتكلمون بشكل مضحك، وهكذا كانت النقوش الملكية تطلق على اللغات التي كانت تتكلم بها الشعوب الأخرى، وكانت تذكر أن بعض الغنائم لها أسماء من الصعب كتابتها.

ولكن لم تكن هذه القضية علامة كافية للاختلاف نظراً لأن الجيران الجنوبيين في بابل كانوا يتكلمون لهجة مختلفة ولكن بنفس اللغة.

وكان الدين هو القوة الموحدة الأعظم فعالية، فقد كانت جميع شعوب الشرق الأدنى تدين لعدد من كبار الآلهة، مع أنه كان هناك بعض المناطق أو السياقات الاجتماعية كان لإلهٍ معين أو مجموعة من الآلهة مركزاً فريداً فيها.

وكان منها الإله آشور الذي كان من المعتقد أن يمتلك السياسة في بلاد معينة أصبحت تدعى فيما بعد بلاد آشور.

ومن هنا أتى الاسم آشور، وقد نشأ الاعتقاد أن سلطة آشور امتدت فوق العالم المتحضر، وكان من وظائف وواجبات الملك تأكيد وصيانة سيادة الإله آشور.

وللوهلة الأولى، ربما يبدو هذا وكأنه نوع من النزعة القومية والإمبريالية ذو شكل معيَّن، وفيه الفكرة التجريدية للقومية الممثلة بالإله ولكن ليس الأمر بهذا الوضوح والصراحة.

فقد كانت تلك الفكرة مؤسسة على فكرة لاهوتية ودينية لآشور، وهي أن الإله كان لديه خطة بالنسبة للبلاد، وأنه قد انفصل عن أرضه وشعبه، فالقومية ليس لها أهمية دون وجود مجموعة بشرية، ولكن بالنسبة للتفكير في الشرق الأدنى يستطيع الإله أن يتواجد بشكل مستقل عن شعبه وحتى عن وطنه، وباستطاعته حتى هجر ومعاقبة شعبه، الأمر الذي ليس باستطاعة القومية المجرَّدة عمله.

وقد كانت آشور تؤلف سلسلة من الوحدات الثانوية، فقد كان الفلاح العادي مرتبطاً بقطعة من الأرض إما بوضع اليد أو بالحق في حرثها وزراعتها، وكانت هذه القطعة من الأرض تخص قرية معيّنة وكانت القرية بدورها مرتبطة إمّا مباشرة أو عن طريق إحدى البلدات بإحدى المدن الرئيسية، مثلاً مدينة آشور أو نينوى أو أربيل أو أرابخا، وقد كان ارتباطها بالمدينة متمثلاً بالضرائب التي تدفعها، والأعياد الدورية الدينية التي لها الحق والواجب بالمساهمة فيها.

وبإمكان الاستئناف للسلطات في المدينة في حالة حدوث خصومات قضائية أو إدارية وفوق الجميع متمثلة بالحقيقة التي مفادها: إن المدينة هي الوجهة الزاخرة

بالأحداث التي تتجه إليها جميع المنتوجات في البلاد، ومراكز الإنتاج والتوزيع الذي يجري للبضائع المستوردة والمصنعة التي لا يمكن إنتاجها في القرية.

وقد كانت المدن الكبرى نفسها مرتبطة بعضها مع بعض من جهة العمل تحت إدارات مدنية متشابهة، ومن جهة أخرى بكونها جميعها خاضعة بشكل أو بآخر من أشكال التوجيه من قبل مركز مشترك للإدارة تحت إشراف الملك.

وهنا تنتهي الدورة في هذه النقطة ونجد عندها أن الملك هو المركز المشترك لجميع الآشوريين، وفوق ذلك فإن الملك يقدم الارتباط مع العالم الآخر لكونه الممثل البشري للإله آشور.

ومن جهة سياسية فقد كانت دولة آشور مستقرة مدة عدة قرون، فقد كان هناك عدد من الدسائس والمكائد من حين لآخر في أعلى مستويات المجتمع لاستبدال الملك الموجود بشخص آخر من فروع العائلة المالكة، ولكن لم تحدث أي حوادث من التمرد الشعبي أو المحاولات لتغيير المؤسسات الاجتماعية، وكان الاستقرار السياسي انعكاساً ونتيجة للاستقرار والطبيعة التي يتميز بها المجتمع الآشوري غير المجزأ.

كان الآشوريون شعباً هجيناً وهم يعرفون ذلك، وكان النقاء العرقي ليس بذي قيمة بالنسبة إليهم، ومنذ أقدم الأزمنة كان لديهم تاريخ عنصري خليط، ومع أن أجدادهم لم يتأثروا بهذه الأمور منذ أواخر الألف الثاني والألف الأول، إلا أنهم كانوا جميعاً على تمام الوعي، وهذا مذكور مراراً في النقوش الملكية، أن شعوباً من خارج آشور كانوا يتوافدون ويضافون إلى الأعداد الأصلية من البلاد ويمتزجون بها، إلا أنهم كانوا يعاملون كأهل البلاد الأصلية.

وفي الفترة المعروفة بالفترة الآشورية الوسطى (وهي النصف الثاني من الألف الثاني ق.م) كان هناك بضعة من الآشوريين بينها بعض الموظفين الكبار يحملون أسماء حورية، وكان الاختيار في الإمبراطورية الآشورية في القرن الأول لا ينحصر في خط النَّسب الذي أتى منه الشخص، بل في سلوك هذا الإنسان تجاه المجتمع الأكبر وولائه للإمبراطورية العالمية التي يحكمها الإله آشور.

وكان هناك إمكان وصول أحد الملوك المقهورين في بابل إلى أعلى درجات الإدارة في آشور، وتظهر لنا أسماء بعض الحكام الآشوريين في المناطق أنهم كانوا من أصل آرامي أو فينيقي أو يهودي.

ولم يكن الإنسان في آشور مجبراً أن يعبد الإله القومي آشور، وذلك لأن مجموعة الآلهة المتواجدة حول آشور كانت مجموعة مرنةً تقبل الآلهة من أصول غير آشورية، وهذا لا ينطبق على الإسرائيليين المتزمتين الذين لا يقبلون سوى الإله (يَهْوَه) فقد كانت ثقة الإله آشور بنفسه وسيطرته لا تجيز أن يكون إلهاً غيوراً.

لقد رأينا الخطوط المختلفة في بُنية آشور ما قبل التاريخ، والأشهر فيها تلك المجموعات الثقافية التي وجدت في حسونة وخَلَف (وبشكل هامشي) في السامره، ولقد أتت فيما بعد بعض التأثيرات من الجنوب وهم شعب أبيد في فترة ما قبل التاريخ، والسومريون عند فجر التاريخ وكلاهما ينحدران من أصول عرقية تلك المساهمات البارزة في المظاهر الثقافية، وهناك آثار لتلك المظاهر (تختلف عن السومرية) تبقى في أسماء الأمكنة، وبعضها لا يمكن تفسيرها بأنها إما سومرية أو ساميَّة، ففي أوائل الفترة السومرية (وربما قبلها) بدأت الهجرات الجماعية للشعوب التي تكلمت اللغات السامية الآتين من الجنوب الشرقي والتي ظلت تشاهد الإمدادات التي تأتي لنجدتها حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية.

وفي الألف الثاني أتى إلى المنطقة تدفق قوي من الحوريين الذي ترك آثاراً دائمة في الثقافة الآشورية ولكن لم تكن أقل توكيداً في البنية العرقية أو الإثنية، وهذا هو ما شكل الإطار.

ولقد تدفق إلى هذا الإطار أو البنية عدة عناصر عرقيَّة دون انقطاع عن طريق ثلاث أقنية رئيسية من الهجرة، وهي: السبي، والزيجات المختلطة من قبل بعض الناس كالتجار الذين يقضون وقتاً طويلاً في الخارج، وكانت هذه القناة هي التي لا نعرف عنها الكثير وكانت أقلها أهمية.

باستطاعة الهجرة إحداث تغييرات كبيرة في بُنية المجتمع، فنحن نعلم أنه في منتصف الألف الثاني انقضَّ المهاجرون الحوريون على السكان القدماء في بعض

أجزاء دولة آشور، بينما أحدث الآراميون الساميون الآتون من وراء نهر الفرات عدة تغييرات رئيسية في نهاية الألف الأولى قبل الميلاد، وإن المستوطنين من هذا النوع ربما ظلوا متقوقعين عدة أجيال ولكن وبمرور الزمن دخلوا هم أيضاً في عالم آشور المختلط، إذا إن المنطقة التي وجدت الإمبراطورية الآشورية فيها دعمها الأخير حيث وقفت للنهاية كانت ما بين حرّان وكركميش، تلك المنطقة التي كانت في زمن ما حوريه وبعد ذلك أصبحت آرامية بشكل سائد ومهيمن.

وكانت هناك طبقات أخرى من المهاجرين تشتمل على شعوب تفرقت بسبب الاضطرابات في آسيا الصغرى نحو سنة (١٢٠٠ق.م).

وكان هناك شعب من هؤلاء يدعى شعب الحوشكاي القريب من الفرنجيين الذين أتوا فيما بعد والذين سمح لهم بالقيام بعدة مصادمات مع دولة آشور بالاستقرار وقد عدّوا وكأنهم آشوريين.

وعلى مقياس أقل ولكن لا يمكن إهماله لفترة طويلة كانت الهجرات التي وصلت إلى دولة آشور وسهولها والمؤلفة من عائلات منفردة آتية من الجبال.

ونظراً لضآلة أهميتها الفردية فليس من المحتمل أن نسمع عن حوادث فعلية بالنسبة لهذا الاستيطان المستعمل لدى شعوب كردستان وهم بين السكان في وثائق وجدت قرب كركوك في القرن الخامس عشر قبل الميلاد.

ولكن وفي النهاية نجد أن أكبر المساهمين في تغيير حالات السكان وامتزاجهم كانت سياسة التهجير، وبالنسبة للعالم الحديث نجد أن هذه الكلمة تعني شؤونا عاطفية، ومن السهل أن تصبح الحقائق الأساسية حقائق ضئيلة الأهمية في مواضع تحبط أحاسيس الرحمة والشفقة.

ولقد نوقشت هذه القضية برمتها على يد **b.oded** في كتابه الهجرات الجماعية والمهاجرون في الإمبراطورية الآشورية الجديدة (١٩٧٨).

لقد مارس الملوك الآشوريون تهجير الشعوب المهزومة في القرن الثالث عشر ق.م ولكنها بقيت ظاهرة رئيسية لسياسة الدولة ابتداء من القرن التاسع ق.م حيث كان عدد المهجَّرين يصل إلى ربع أو نصف مليون نسمة بالنسبة إلى عدد من الملوك.

ولقد ساعد هذا على إنشاء مجتمع داخل الامبراطورية الآشورية وداخل آسيا نفسها، وكان هذا المجتمع خليطاً في عرقيته ولغته، فلم يكن للملوك الآشوريين أي خلفية عرقية بالنسبة إلى مغامراتهم العسكرية وتوسعاتهم وتهجيراتهم، وأشركوا الدول المهزومة والخاضعة في الجيش الآشوري، وقد أسكن آشور ناصر بعل الشعوب من الأراضي المهزومة في عاصمته الجديدة (كالاخ) وكان صريحاً في هذه المسألة فقد كتب يقول:

((كلا.... لقد بنيتها من جديد، وأسكنت فيها شعوباً قد هزمتها بيدي من البلاد التي حكمتها، من سوهو ولاقي وسوقا عند نقاط عبور الفرات، وزاموا وبيت عديني وحاتي وقد أسكنتهم هناك)).

ولما لم تكن هذه الشعوب من أصول عرقية واحدة ولكنها كانت تمثل انتشاراً عريضاً من الجنسيات، ولقد أسهمت مثل هذه الهجرات في حدوث خلفية جديدة كلياً للمدن الآشورية التي كانت هدفاً لقدوم أكثرية المهاجرين المعروفين.

وأصبحت المدن الآشورية عالمية ومتعددة اللغات، حيث أصبح الشعب الآشوري الحقيقي عبارة عن أقلية.

ونظراً لأن المهاجرين كانوا يتحركون بشكل مجموعات والوقت الذي نقل فيه الآشوريون الشعوب الأجنبية عمداً بشكل مجموعات احتفظت بعصبيتها العرقية، فإن هذه المجموعات لم تتمثل بسرعة السكان الذين وضعوا فيما بين ظهرانيهم، ولقد عرف الملوك الآشوريون أن هناك عدداً من اللغات كانت مستعملة داخل بعض مدنهم.

وبينما بذلت جميع المحاولات لإقناع المستوطنين الجدد بقبولهم كأفراد في الإمبراطورية، إلا أنه ليس هناك من سبب يدعونا لافتراض أن هذا الضغط لاستعمال لغة معينة أو خدمة إله معين قد نجح في مبتغاه.

وهكذا نرى الملك سرجون الثاني يتكلم عن معاملته لمزيج من الشعوب المستوطنين بجانبه في عاصمته الجديدة دور شاروكين بما يلي:

(هناك شعوب من جهات الدنيا الأربع، ذوو لغات غريبة وكلام مختلف يسكنون في الجبال والسهول، لقد استوليت عليهم كغنائم طبق كلمات آشور سيدي لقد جعلتهم ذوي غرض واحد، ونية واحدة وجعلتهم يسكنون في داخل المدينة (أي: داخل دور شاروكين) وجعلت مواطني آشور الماهرين في عمل كل الأعمال مراقبين ومشرفين لكي يعلموهم العادات وأن يخدموا الآلهة والملك).

لم تكن ثقافة الإمبراطورية الآشورية الجديدة ثقافة آشورية محضة، ولم تكن حتى آشورية بابلية بل كانت ثقافة هجينة نغلة.

وقد كان أحد العوامل الرئيسية التي دخلت أثناء الألف الأول قبل الميلاد، مسببة عن دخول الآراميين، وهم بدو رحل أتوا من الصحراء السورية، فقد كان للغتهم الآرامية تأثير على اللغة الآشورية التي أخذت كثيراً من الكلمات والمصطلحات من اللغة الآرامية.

أما نظام الكتابة الآرامية الأبسط الذي كان يجري على قطع من الخزف أو الجلد والبابيروس، هذا النظام بدأ استعماله جنباً إلى جنب مع النظام المسماري على الخزف، وقد كان مقدراً لهذا النظام أن يتفوق (ولكن لم يحدث ذلك إلا بعد سقوط الإمبراطورية الآشورية) وأصبحت الآرامية بالحقيقة لغة رسمية في آشور أثناء حكم تغلات بلاسر الثالث (٧٤٥-٧٢٧) لأننا نشاهد على أحد أنصابه كاتباً يكتب بمواد مناسبة للخط الآرامي إلى جانب كاتب آخر يكتب بالخط المسماري وكان كلاهما يسجلان نسخاً متشابهة عن غنائم الحرب.

لم يكن الآراميون الشعب الوحيد الذي أثر على الثقافة الآشورية في الفترة الآشورية الجديدة، أو أننا نجد بين الكتبة أشخاصاً مصريين مذكورين إلى جانب الآشوريين والآراميين بشكل أناس يستلمون الإعاشة، وبهذا أصبحوا على صلة رسمية بالبلاط، وإن قوائم الإعانة هذه تذكر أشخاصاً غرباء آخرين لم تذكر مهنهم ولا أعمالهم بل كان من المحتمل أن يكونوا ضباطاً عسكريين أو

تجاراً أو مبعوثين أجانب، أو ربما رهائن من الأمراء احتفظ بهم في البلاط الآشوري كضمانات أو كفالات للسلوك الحسن للدولة التي أتوا منها.

وكان بين أولئك المجموعات من الموظفين الأجانب أشخاص إسرائيليون وفينيقيون وميديون ومانيون (من شمال غرب إيران) وأناس من شمال سورية وآسيا الصغرى والأناضول.

لقد كان عدد كبير من اللغات يتمثل في البلاط الآشوري، فقد جلب الأمراء الملكيون من الدول التابعة إلى البلاط الآشوري بقصد تثقيفهم وتعليمهم ولكي يقولبوا بقالب الحكام الموالين في المستقبل، وليخدموا كرهائن لتأمين السلوك الحسن للدول الحاكمة والموالية لآشور.

وكان هناك أيضاً إداريون ذوو خبرة أجنبية ومعرفة باللغات الأجنبية فضلاً عن كونهم مترجمين وكتبة، ولدينا أمثلة من هذا النوع وجدت في نص يخبرنا كيفية وصول أحد السفراء إلى آشور من بلد بعيد يفترض أنه ليديا (مع أن ذلك لم يثبت نهائياً) في آسيا الصغرى.

ويتمثل الملك آشور بانيبال أنه هو المتكلم:

لقد وصل حدود بلادي

وعندما رآه شعب بلادي قالوا له:

من أنت أيها الغريب

ومن أي بلد لم تطأها

أي قدم على الطريق (إلى هنا)

ولقد جلبوه أمامي – إلى نينوى عاصمتي

وهي التي تحتوي لغات من الشرق والغرب

والتي نصبني الإله آشور متسلطاً عليها

ولكن لم يكن عندنا من أحد يتقن لغته

فقد كانت لغته غريبة

ولم يستطيعوا فهم خطابه

ولقد جلب معه من حدود بلاده.

ولم يفهم ما قد جلبه معه، ولكن من المظنون أنه كانت رسالة مكتوبة باللغة الأكرية وذلك للتغلب على الحواجز اللغوية.

الطبقات الاجتماعية

إن معرفتنا عن التركيب الاجتماعي الآشوري هي معرفة متقطعة وغير سوية، إذ إنه وفي بعض الفترات، لدينا معلومات تتصل بشكل مباشر بمظاهر الحياة الاجتماعية.

بينما وبالنسبة للمظاهر الأخرى فإننا مجبرون أن نستنتج ما نستطيع فهمه من الإيماءات الواردة من نصوص ربما كان فحواها مختلفاً عن الاهتمامات التي نحن بصددها، بحيث إن التلميحات التي يعطونها غامضة ومحيرة.

وكما هو الحال بالنسبة للثقافات الأخرى فلقد مرت المجتمعات الآشورية بتغيرات بمرور الزمن، وإن ما هو حقيقة بالنسبة لها في إحدى الفترات من الممكن أن لا يكون هكذا في فترة أخرى، وإن آحد الأزمنة التي لدينا أخبار صادقة عنها (على الرغم من وجود عدة فجوات في التفاصيل) هو العصر الآشوري الأوسط حتى نهاية الألف الثانية ق.م، وكان هذا الأمر نتيجة لمصادفة سعيدة أي: عند اكتشاف الألواح المسمارية في آشور، والتي تحمل نصوص القوانين الآشورية المتوسطة وهي ذات ارتباط خاص ببعض نواحي المجتمع.

وبصورة خاصة هناك لوح متطاول يضم (٥٩) فقرة حسب التقسيم الحديث، وهو يهتم اهتماماً بالغاً بالمسائل التي لها علاقة بالنساء.

تذكر لنا القوانين أن المجتمع الآشوري كان مؤلفاً من فئتين متميزتين اجتماعيتين وهما: فئة الأحرار، وفئة غير الأحرار.

وكـان الكلـدانيون يطلقـون علـى هـاتين الفئـتين اسمـي عـايلو (اميلـو) للفئـة الأولى، وأوردو (أردو) للفئـة الثانيـة، وتترجـم عـادة بـالتوالي: الرجـل الحـر، والعبـد، ولقد ظهرت تعقيبات في هذا المقام عند تقديم نوع ثالث وهو (الآشورابو) والآشوري.

ومن الواضح أن الآشورابو كان رجلاً حُراً، ونظراً لأن نصوص القـوانين تحـدد فرْقاً ما بين معاملة الآشوريو والعايلو فإنـه مـن الواجـب أن يكـون هنـاك نـوع خـاص من الرجل الحر.

وتـدل القـوانين أن الآشـورية كـانوا أقـل شـأناً مـن العـايلو أي: إنـه كـان هنـاك تدرّج في الأوضاع ما بين الرجال الأحرار.

وعنـدما تحـصل رغبـة للإشـارة إلى رجـال أحـرار مـن درجـة منخفـضة عنـدها تستخدم كلمة آشوريو، ولكن بعض الباحثين قد فسروا هذا بشكل مختلف أي: بوجود تقسيم ثلاثي للطبقات الاجتماعية باعتبـار أن (عـايلو) تعني: الرجـل الشريف النبيل.

ولكـن نظـراً لأن عـايلو تبـدو بأنهـا تـستعمل للدلالـة علـى مرتبـة أعلـى مـن الآشوريو، فإن ذلك يبدو قضية من الصعب الدفاع عنها.

وقد أصبح الوضع مختلفاً بحلول زمن الإمبراطورية الآشورية الجديدة في الألـف الأول ق.م، وكـان الوضع الأهم بالنسبة للرجـال الأحـرار يخص الموظفين الملكيين الذين كانوا يدينون بمراكزهم وسلطانهم للعطف الملكي وليس للوراثة، مـع أنـه كان يحدث أحياناً أن يُعَيَّن شخص في وظيفة كان والده يَشْغَلها سابقاً.

وأمـا في أسـفل الـسلم الاجتمـاعي فـإن التمييـز مـا بـين الرجـل الحـر والعبـد تلاشى، وذلك بسبب اختزال جميع مجتمعـات الفلاحـين وإلحاقهـا بالعبوديـة بعـد أن خسر الفلاحون حقوقهم القديمة بالنسبة للأراضي.

الأساس الزراعي للحياة الآشورية

كانت آشور أصلاً بلداً مؤلفاً من قرى زراعية، وبلدات ريفية، مع وجود عدد قليل من المدن الرئيسية وهي: آشور، ونينوى، وأربيل، وربما أرانجا، وهؤلاء فقط اعتبروا المدن الحقيقية.

وأما المدينة الخامسة وهي: كالنج فعلى الرغم من الذروة التي وصلتها والمنعكسة في الأطلال الضخمة في نمرود، إلا أنها لم تكن ذات أهمية قومية سوى خلال قرنين من الزمن في الألف الثالث قبل الميلاد.

وكان هناك بين المدن المهمة التي كانت كثيراً ما تذكر والتي كانت ذات أهمية محلية هي: كاليزي وكوربعل (لم نجد موقعها بعد) وشيبانيبا.

وهناك عدد لما يمكن أن ندعوها بلدات ريفية نجدها في هذه الأيام بشكل ركامات وروابٍ كبيرة، وبعضها تحدد موقعه، وبعضها لم يتحدد.

ولكن ليس هناك ما يشبه خليط المدن التي تواجدت اعتباراً من زمن السومريين فصاعداً في بابل جنوباً، وبمحاذاة نهر الفرات وديالا، وكانت الفروق مرتبطة بالمناخ.

أما في بابل فقد كانت الأعمال الزراعية مستحيلة دون وجود الري، وهذا مع وجود مجاري المياه ومصادرها الضخمة يقتضي وجود تجمعات كبيرة من الناس داخل بنية اجتماعية موحدة، لكن هذا العامل كان أقل أهمية بالنسبة لآشور، حيث تتوفر الزراعة المدعومة بماء المطر في كل مكان تقريباً.

وهذا لا يعني أن الري لم يكن موجوداً في آشور بل لقد كان فعلاً موجوداً ولا يزال، ولكن كان مساعداً مفيداً أكثر منه ضرورة لا يستغنى عنها للزراعة هناك.

سوف نبحث في موضوع الحياة والبلدات والمدن في مكان آخر من هذا الكتاب.

أما في الوقت الحاضر فسوف نعالج قضية الأرض، وإن مسألة امتلاك الأرض في آشور هي قضية معقدة ولا تزال عصيَّة على الفهم، لاسيما وأنه في حالة وجود مفهوم لا بأس به حول الوضع، لكن ليس من الممكن عمل أي استنتاجات تصلح لكل المناطق وكل الأزمنة، إذ إن المصدر الرئيسي لاستنتاجاتنا هو كتاب القوانين الذي يعود إلى أواخر الألف الثاني، وهذا يعالج بالإضافة إلى قضايا أخرى مسألة امتلاك الأرض.

وقد عرف من عدة وثائق ذات علاقة بمسألة بيع الأراضي، ويبدو أنه أصلاً وفي بلاد آشور وقبل أن تتطور الدولة لتصبح كينونة قومية كانت الأرض ملكاً لعائلات كبيرة، إذ إنه لا يزال هناك آثار لهذا النظام في الفترة الآشورية الوسطى، مع أنه وفي ذلك الوقت كانت العائلات الكبيرة قد تجمعت بعضها مع بعض لتصبح مجتمعاً قرويًّاً أوسع، ولكن هذا التطور قد حدد حرِّية العمل لأية عائلة كبيرة إلى حدٍّ ما، فلقد قسِّمت أراضٍ كثيرة كانت يسيطر عليها المجتمع الفردي إلى أقسام تدعى: (الحصص) وهناك ما يدل على أن تلك الحصص قد أعيد توزيعها دوريًّاً فيما بين العائلات الكبيرة وأصبح لبعض الأفراد حقوق مكتسبة عن طريق الشراء...

ولكن كيف استطاع بعض الأفراد من الخارج اكتساب مثل هذه الحقوق؟ إنها قضية معقدة، إذ نحن نعلم أنه بالنسبة لمنطقة كركوك في آشور وحوالي عام (١٤٥٠ق.م) (هذا هو تاريخ ما يعرف بوثائق (نوزي)) لم تكن الأراضي ممكنة التحويل قانونياً من ملكية شخص إلى آخر خارج نطاق العائلة، ومع ذلك فقد كان هناك وسائل للالتفاف حول هذا الموضوع، وهذه المشكلة في القانون ذي العلاقة بالعرف والعادات وليس بالقانون.

ومع أن نقل ملكية الأرض كان ممكناً ضمن إطار العائلة، إلا أن البيع لشخص آخر خارج نطاق العائلة من الممكن ترتيبه عن طريق تخيّل تبني البائع للمشتري وإعطاء هذا الأخير قطعة من الأرض بشكل حصة موروثة أي: عن طريق الإرث، وعلى كل حال فإن لدينا هنا بعض الأعمال التي لم تكن آشورية في

الأصل، نظراً لأن العامل العرقي الثقافي السائد حول كركوك نحو عام (١٤٥٠ق.م) كان ذا أصل حوري يرجع إلى المهاجرين الذين تعود هجرتهم إلى قرنين أو ثلاثة قرون سابقة.

وأما في آشور وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى كان من الممكن للأفراد شراء بعض الحقوق في الأرض دون القيام بعمل أي حيلة أو ذريعة، وإن عملية بيع أراضي الأحبار هذه قد امتدت إلى الفترة الآشورية الجديدة في الألف الأول ق.م.

ومن المحتمل ونظراً لأن معظم عمليات نقل الأرض حدثت في الأزمنة القديمة، فإن مالك الأرض عن طريق الوراثة لم يكن لديه أي نية لبيع هذه الأرض، ولكن حقوق الملكية هذه كان من الممكن رهنها كضمان للديون، والأغلب أن مثل هذه الإجراءات سوف تكون مقدّمة لفقدان المالك الأصلي لحقوقه.

هذا ومن الممكن وجود الحاجة إلى إجراء قرض وذلك للتغلب على الصعوبات المادية للعائلة ابتداء من وقت البذار حتى وقت الحصاد، وإذا حدث حصاد سيئ في الموسم فإن ذلك سوف يجعل المدين غير قادر على الدفع، مما يؤدي إلى حبسه.

وهكذا فقد كان يحدث في الفترة الآشورية الوسطى أن يكون مقرضو الأموال الذين كانوا قد حصلوا على الثروة عن طريق التجارة هم المشترون البارزون لحقوق الملكية، وكان بوسع الشخص الذي اشترى الأرض من حيث المبدأ أن يختار قطعة الأرض شريطة ألا يؤدي ذلك إلى المساس بحقوق المجتمع ككل، أو حقوق العائلات الكبيرة.

وفي الأصل كان شراء قطعة من الأرض ينتج عنه أن يصبح المشتري عضواً في المجتمع القروي، وأن لا يلتزم بالامتيازات التابعة لحق الملكية فحسب، بل أيضاً أن يلتزم بواجبات المجتمع التي توجبها مثل هذه الحقوق، وفي مثل هذه الحالة فإن الأرض سوف لا تضيع بالنسبة للمجتمع بل بالعكس تبقى الأرض جزءاً من أرض المجتمع.

وهكذا فإن المجتمع قد يربح عضواً جديداً، ولكن وبالتدريج يعمد بعض الأشخاص الأغنياء مادياً وبعض العائلات التي نجحت في بناء ضيع متكاملة بعد

بيع قطع الأرض التي كانت أراضي للمجتمع وهذه الضيع لم تكن خاضعة لإعادة التوزيع.

وفي النتيجة أصبح الفرد أو العائلة الكبيرة لا يتمتع الآن بحقوق ملكية الأرض بل أصبح بالفعل المالك الحقيقي لها.

ولكن ماذا حدث لتلك العائلات التي خسرت حقوق ملكيتها للأرض بسبب الديون أو حبس الرهن، وما دامت الحقوق في المجتمع مرتبطة بحق ملكية الأرض فإن هؤلاء الناس يفقدون مكانتهم وأوضاعهم، فقد كان المدين لا يقوم برهن أرضه وبيته فحسب بل أيضاً أولاده وبناته وفاءً للرهن، وإن عجز عن الدفع فلا يخسر أملاكه فحسب بل إن أفراد عائلته الذين كفلوه يصبحون عبيداً، من الممكن بيعهم.

وكان هناك إمكانات أخرى فإن عضوية الفرد في المجتمع لم تجلب له الحق بأراضي المجتمع فحسب، بل تجلب له بعض الالتزامات لخدمة المجتمع، مثلاً رصف وفتح الطرق وأعمال الري أو الخدمة العسكرية، ولكن أصبحت الحقوق والواجبات الآن منفصلة بعضها عن بعض فالحقوق والامتيازات قد استولى عليها الأغنياء، في حين فرضت الواجبات على الفقراء، وحالما زادت الفروق بين معاملة مالكي الأراضي والفقراء الذين يملكون أرضاً أصبح مالكو الأراضي يعاملون الفقراء معاملة لا تشبه معاملة العبيد تماماً، بل كتابعين ملتزمين بتأدية بعض الخدمات للمجتمع التي كانت أصلاً مسؤولية أصحاب الأرض، وقد استطاع هؤلاء التابعون أن يستمروا في الأرض التي كانوا هم بأنفسهم أو أجدادهم يملكون الحق فيها.

وفي منتصف الفترة الآشورية الوسطى كان مقرضو الأموال هم ذوي العلاقة بالنسبة لشراء الأراضي التي كان يملكها الفلاحون، وفي أثناء الفترة الآشورية المتوسطة كان من أشهر الناس في هذا المجال هم الموظفون في الإدارة الملكية، ومع أنه في هذا الوقت كانت معظم الأراضي قد ضاعت من مالكيها من الفلاحين الأصليين، إلا أن العملية لم تكتمل بعد، ففي أوائل القرن الثامن كان

لا يزال هناك بعض الأراضي التي لا يزال عليها أصحاب الأراضي الصغار نظراً لأن هذه الأراضي قد بيعت إلى موظفين كبار كانوا يبنون بعض الضيع.

ولقد حصلت انتقادات على مثل هذه الأوضاع في يهوذا ، وقد قاد هذه الانتقادات النبي أشعياء (٥-٨) الذي قال:

((ويل لأولئك الذين يصلون بيتاً ببيت، أو يضيفون حقلاً إلى حقل)).

فقد قيل: إنه وفي بعض الحالات كان الموظفون العاملون في شراء الأراضي يعملون في الوقت نفسه بصلاحيات رسمية في إنشاء ضيع ملكية ، ولكن من الصعب إثبات هذه الأقوال..

الفلاحون الفقراء - الأقنان والعبيد

وفي القرن الثامن لم يعد المواطنون الذين اشتغلوا فعلاً في الأرض من المواطنين الأحرار بل كانوا يُعدّون جزءاً من الأرض التي يشتغلون فيها ، وكان من الممكن أن يباعوا مع الأرض وينتقلوا مع انتقال ملكية الأرض.

وهكذا نرى أنه وفي مرسوم ملكي نموذجي يُعطى أحد الموظفين المرضي عنهم إعفاءً من الضرائب بالنسبة للبساتين والحقول والأشخاص الذين قد حصل عليهم وجعلهم أملاكاً خاصة به شأنهم شأن الأرض.

ولكن هل يجوز لنا أن نعد هؤلاء الفلاحين عبيداً؟

علينا أن نفهم معنى العبودية ، وما هو الدور الذي لعبته في حياة الآشوريين ، فقد وجدت العبودية ولكن العبودية كمؤسَّسَة لم تكن ذات أهمية اقتصادية مرموقة ، ومن الممكن مناقشة هذه الملاحظة ، ولهذا أصبح من الواجب أن نوضح ما نعنيه بكلمة العبودية في السياق الحالي.

وتعود هذه الملاحظات للعبيد كأفراد وليس لأسرى الحرب ولا لتلك المجموعات القومية التي هُجِّرت بشكل جماعي ، ولا لتلك المجموعات الزراعية التي كانت تطالب بالاستقلال عن مالك الأرض ، فالعبد بمفرده كان شخصاً ليس له أي حقوق يملكها شخص آخر ، ومن الممكن بيعه وشراؤه.

أما أسرى الحرب والمهجرون من جهة أخرى والذين من الممكن نقلهم من موطنهم الأصلي للقيام بعمل بعض الواجبات للدولة، فإنهم ظلوا أحراراً، وتظهر هذه المسألة بما لا يدعو مجالاً للشك، وتسجيلات المفاوضات فيما بين الموظفين الآشوريين والشعوب الواقعة تحت الحصار (كما هو الحال في بابل وآشور) وهناك كان المحاصَرون يخبرون بصراحة أنه من الممكن تهجيرهم، ولكن لم يذكر أي شيء عن استعبادهم، وكان من الممكن أن يصبح أحفاد الأشخاص المهجرين مندمجين بحيث لا يمكن تمييزهم سوى بالنسبة لأسمائهم عن السكان الآشوريين الأصليين.

وقد كان الجزء الأكبر من الأعمال الزراعية يُنْجَز عن طريق الرجال الأحرار وليس عن طريق العبيد، وهؤلاء كانوا آشوريين أحراراً أو من المجتمعات المهجَّرة من الأحرار.

أما الفلاحون الآشوريون المساكين فقد كانوا في نفس الوضع كالجماعات من الأحرار المهجَّرين الأجانب، مع أنه كان من الممكن بيعهم مع الأرض ولا يمكن بيعهم كأفراد بعيداً عن الأرض، وبهذا الاعتبار لم يكونوا عبيداً مع أنهم أحياناً كان اسم العبيد يطلق عليهم.

إن اسم العبيد أو كما يترجم بكلمة (أردو أو آورادو) لم يكن وصمة عار، بل كان يعني: حالة متدنية لشخص تابع لشخص آخر ذي سلطة معترفٍ بها، وكان الموظفون الكبار عندما يكتبون إلى الملك يشيرون إلى أنفسهم بكلمة (آوردو) ولكن هنا لم يكن أكثر من مجاملات تعني خادمكم المطيع، وبالتأكيد لم تكن تعني حالة حقيقية من العبودية كما نفهمها، وحتى الملك كان يدعو نفسه بالعبد بالنسبة لعلاقته مع الآلهة.

ومع ذلك كانت هذه اصطلاحات خاصة ليس لها علاقة بالعبودية الحقيقية التي فيها تصبح جميع الحقوق لأحد الأشخاص ملكاً لشخص آخر، وقد وجد أن هذا الوضع قد شهدت عليه الوثائق القانونية حيث يوصف أحد الأشخاص بصفة عبد لشخص آخر، ولكن هناك مفارقات، إذ حتى في مثل هذه الأحوال هناك

كان الأشخاص الذين يوصفون كعبيد يملكون الأراضي التي يمكن لأحفادهم أن يرثوها.

تثير العبودية شعوراً عميقاً في الأزمنة الحديثة لدرجة أنه من الصعب أن لا ننظر إليها إلا بشكل مختلف عمّا هي في مفهوم العالم القديم، ولكن في منطقة الشرق الأوسط القديم كانت حقيقة حيادية من حقائق الحياة، وهي بذلك تشبه الوظائف في الأوضاع الاقتصادية الغربية في الوقت الحاضر، وهي التي تُملي علينا موجبات أنشطتنا وتحدد استعمال الناس لأوقاتها طيلة حياتهم، وهكذا وكما أن الضغط الاقتصادي يجبر الشخص المحترم في هذه الأيام على العمل في وظيفة يكرهها أو تجبره على البطالة، وهكذا في الأزمنة القديمة كان هناك عدة عوامل تتحدد لتوصل شخصاً ما إلى حالة العبودية بسبب الديون.

وإن العبد الآشوري لا شك أنه يكره بعض النتائج التي تجلبها له حالة العبودية تماماً، كما يكره رجل حر بعض النتائج (مثلاً الضرائب في بعض الأحوال والأشياء الممنوعة في أحوال أخرى) والتي قد جلبتها له حالته.

وليس هناك من سبب أن نفترض أن أي شخص سواء كان عبداً أو غير ذلك سوف يتحدى العبودية كمفهوم اجتماعي، وذلك كما يتحدى معظم الناس في العالم الغربي الوظائف باعتبارها أحد المفاهيم حتى ولو اعتبروا أن الوظيفة التي يمارسونها تحديداً (أو عدم وجودها) هو أمر مثير للإزعاج.

لم يكن أسرى الحرب عبيداً بمعنى الكلمة، وقد يتحدث أحد الملوك أحياناً فيهم بقوله:

(لقد جعلتهم مثل شعب آشور).

فقد كانت أحوالهم عندما استقروا على الأرض تشبه أحوال الآشوريين الفقراء المساكين. بمعنى أنهم إذا بيعت الأرض فإنهم سوف يباعون معها، ولكنهم لا يمكن بيعهم بصفة منفصلة عن الأرض.

ونحن نرى حالات مشابهة بالنسبة للجنود وذي الأصول الأجنبية.

ويـذكـر الملـوك الآشـوريون أحيانـاً أنهـم قـد أخـذوا فـصائل مـن الـشباب مـن الشعوب المقهورة، وضموهم إلى القوة العسكرية ولكن لم تستعمل كلمة عبيد للدلالـة علـى مثـل هـؤلاء، بـل علـى العكـس مـن الواضـح أن مثـل هـذه الوحـدات العسكرية داخـل القـوى العسكرية الآشـورية لم يكونـوا أقـل مرتبـة مـن مرتبـة الآشوريين نفسهم.

كان العبيد بكل معنى الكلمة أناساً قد بيعوا وفاء لدين أو كانوا من نسل هؤلاء، وبطبيعة أوضاعهم فإنهم لا يجوز لهم تملك الأرض مع أنه يبدو أنه كان من الممكن أن يحوزوا هذه الأرض بعد زمن نظراً لأنه - وكما لاحظنا- لدينا نصوص تذكر أملاك أولئك الأشخاص الذين وصفوا في الوثائق الرسمية أنهم عبيد، وفوق ذلك فليس لهؤلاء الأشـخاص أي حق بالحماية ضد المعاملة السيئة أو ضد البيع كعبيد في الخارج، فقد كان كتاب القانون في الفترة الآشورية الوسطى يوضح ذلك بإسهاب.

"إذا كان هناك أي رجل آشوري أو امرأة آشورية ممن يعيشون في بيت شخص آخر رهن لدين فإن كان هؤلاء قد استحوذوا تعويضاً عن كامل هذا الدين، فإن باستطاعة الدائن أن يضربهم ويقتلع شعورهم ويشد آذانهم ويثقبها."

ويقول أيضاً: (إن الرجل الآشوري ((والمرأة الآشورية)) الذي لم يستطع سداد القيمة الكاملة للدين الذي بذمته يمكن أن يُباع ويدخل إلى بلد أجنبي).

وهكذا ففي نهاية السلم الطبقي الأعلى هناك مواطنون حائزون على حقوق كاملة.

وفي النهاية الأخرى لهذا السلم هناك طبقات محرومة وهم عبيد بكل معنى الكلمة، من المحرومين من الحقوق، والمحرومين من امتلاك الأملاك والأراضي، ومن الممكن بيعهم عند رغبة سيدهم.

وبين هاتين الطبقتين المتطرفتين كان هناك أناس حافظون لسلطة الأسياد مع احتفاظهم ببعض الحقوق.

وهـذه المجموعـة المتوسـطة تـشمل الفلاحـين الفقـراء مـن أبنـاء الـوطن أيـضاً الفلاحـين الـذين اسـتوطنوا في بعـض الأراضـي في آشـور وكانـت أحـوالهم مـشابهة لوضع العبيد بكونهم لا يستطيعون ترك العقار الذي استوطنوا فيه.

ومن جهة أخرى كـان لهم بعض الحقوق الباقية نظراً لأنه لم يكـن ممكنـاً تجزئـة المجتمعـات والعـائلات طبقـاً لمزاج صـاحب الأرض وهـم يـستطيعون الاحتفـاظ وتوريث أملاكهم بشكل منتظم.

لقد كـان عدد الآشوريين الذين كـانوا يباعون كأقنان يباعون مع بيع الارض قليلاً جداً ، وفي إحدى الحالات ما يبلغ معدله أقل من واحد لكل عشرة فدادين، ويقدر أنه -وفي هذه الأيام وفي العراق- يستطيع شخص واحد أن يقوم بزارعة حوالي سبعة أو ثمانيـة فـدادين أو أكثـر عـن طريق الزراعـة الـشاملة الانتـشار وأن تكـون تلك المساحة خاصة بـه، وهـي طريقـة تعتمـد اسـتغلال مـساحات واسـعة مـن الأرض بأقل جهد ممكـن، أكثر منها عن طريق الزراعة التكثيفية التي تهدف إلى زيـادة إنتاجيـة الأرض عـن طريـق زيـادة رأس المـال واليـد العاملـة المخـصصين لهـا ، وتكـون الطريقة الأولى بدون مكننة أي: استعمال الآليات (أنظر كتاب الأراضي فيما وراء بغداد (عام ١٩٤٥).

وهكـذا لـيس هنـاك مـن حاجـة أن نفـترض وجـود قـوة زراعيـة عاملـة غـير الأشخاص المذكورين ضمن مبيعات الأراضي بأنهم ملتصقون بالأراضي المباعة.

ونحـن علـى تمـام العلـم أن بعـض أصـحاب العقـارات كـانوا يمتكلـون عـدداً لا بـأس بـه مـن العبيـد ، ولكـن معظـم هـؤلاء مـن المحتمـل أن يكونـوا قـد خـدموا في الأشغال المنـزلية.

ومـن الممكـن أن تكـون هنـاك قـوة عمـل زراعيـة متـوفرة في بعـض العقـارات، ويكون هؤلاء بشكل أسرى الحـرب الـذين اسـتولي عليهم بأعـداد كـبيرة ووزِّعـوا في الأراضي الملكية وأراضي المعابد والحرف الكبيرة وعند الموظفين الملكيين.

ولقد ذكرنا سابقاً شيئاً عن الموظفين الذين كـانوا يبنـون لأنفسهم خيمـاً إذا كـان يحق للموظفين الملكيين امتلاك بعض الأراضي عن طريق الوراثة أو الشراء.

وكان هؤلاء يستطيعون استلام منح من الأراضي من المالك، وهذه ساعدت في حيازتهم دخلاً اعترافاً بما أدوه من خدمات.

وفي حالة أي موظف كبير المنزلة فإن الأراضي التي يهبها الملك له من الممكن أن تبلغ عدة ألوف من الفدادين، ومن الممكن أن يمتلكوا أراضي كبيرةً بصفة شخصية.

إذ نحن نعرف أن بعض الموظفين الملكيين الكبار، وليسوا من أعلى مرتبة، كان الواحد منهم يمتلك ما قيمته ألف فدان.

العائلات الفلاحيّة

لقد حالفنا الحظ إذ نملك بعض الشواهد المفصلة حول تركيب العائلات الآشورية الفلاّحيّة المصحوبة ببعض الوثائق العائدة إلى الألف الأول، وتدعى (ولكن ليس هذا بشكل دقيق ومضبوط) قائمة الإحصاء الآشوري، وتعطينا هذه الوثائق بعض التفاصيل عن المزارعين المرتبطين ببعض الضيع في مقاطعة حرّان، وهي تسمّي الأشخاص ذوي العلاقة مع نبذه عن عائلاتهم وهنا نورد نموذجاً عن هذه الوثيقة:

"أدار-دوري، فلاح

نشوح ديليني ابنه في سن المراهقة

امرأة واحدة- مجموع العائلة ثلاثة

ثلاثون وحدة من الأرض ١٥ منها محروثة

حد سقية واحدة

بقرة واحدة

وهذا مجمل العقار الزراعي باريزوا

في المقاطعة الإدارية حرّان."

وإن الغرض الدقيق من هذه الوثائق يبقى مفتوحاً للمناقشة.

ولكن في حالة واحدة كانت هذه الوثائق عبارة عن نوع من التسجيلات التي كان من المحتمل استعمالها في وسائل جمع الضرائب.

أما بالنسبة لأغراضنا الخاصة فإن اهتمامنا كان بالتفاصيل التي تعطينا فكرة عن بُنْيَة السكان، وهذه تظهر أن القروي الآشوري كان يتزوج امرأة واحدة (ولكن ليس بدون استثناءات) وتعطينا الإحصاءات معدلاً وسطياً لوجود ٣،١،٤ من الأطفال لكل عائلة.

وكما هو الحال فإن هذا يعني أن العائلات كانت صغيرة جداً لا تكفي للحفاظ على عدد السكان.

وعلى كل حال فإن المعدل الوسطي الحقيقي للأطفال ربما كان أكبر من المتوقع.

وهناك بعض الحالات تترك فيه البنت المتزوجة بيتها لتعيش مع زوجها.

وهناك بعض الأبناء المتزوجين الذين تركوا بيتهم ليكونوا بيوتاً جديدة خاصة بهم، هناك بعض الأبناء البالغين الذين تركوا بيتهم للحاق بالخدمة العسكرية أو خدمات في الدولة.

وبعض الأبناء الذين يبقون في بيوتهم يدعون بالأبناء المراهقين والبنات باللواتي وصلن إلى سن الزواج.

ومع أن هذا لا يتطلب من الأشخاص ذوي العلاقة أن لا يكونوا في سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة إنه من المعقول أن نفترض أن السن الوسطي الذي كانت البنات يتزوَّجن به أو السن الذي يترك به الشباب بيوتهم كان حوالي السادسة عشرة.

ويمكننا الافتراض أيضاً أن المرأة الآشورية كانت قابلة لإنجاب الأطفال حتى عمر يزيد عن اثنتين وأربعين عاماً (أي: من سن ستة عشر حتى الأربعين) فإذا كان إنجاب الأطفال يتم بشكل منتظم خلال تلك الفترة فإنه في الوقت الذي تبلغ به

الأربعين من العمر فإن ثلث أولادها سوف يصبحون في السادسة عشرة أو فوق ذلك مع إمكان أن يكونوا قد غادروا منازلهم، فإذا طال بها العمر حتى أصبحت في السادسة والخمسين من العمر فإن معظم أولادها سيكونون قد تركوا المنزل.

هذا وإن المعدل الوسطي (٤، ٣، ١) طفل لكل عائلة كما هو مذكور أعلاه ليس من الضروري أن يمثل أكثر من نصف المعدل الوسطي للأطفال الباقين على قيد الحياة، وهكذا فإن الأطفال الأحياء سوف يكون عددهم من طفلين إلى ثلاثة أطفال في كل عائلة، وهذا يكفي للحفاظ على عدد مناسب للسكان.

ولادة الأطفال ووفياتهم

علينا أن نتذكر أن الأطفال الذين ظلوا على قيد الحياة وحتى سن المراهقة ربما كانوا يؤلفون نسبة صغيرة من المواليد، فقد كانت وفيات الأطفال سوطاً مُسلَّطاً على أهالي أرض ما بين النهرين القديمة، وذلك من معرفتنا من النصوص السحرية التي يقصد منها الحماية ضد الشياطين الذين كانوا يهاجمون بني البشر بشراسة وهم على عتبة الحياة.

وتذكر النصوص عن طفل صغير مات قبل الأوان أو عن ابنة آنو (وهي شيطانة مؤنثة) التي كانت تعذب الأطفال، أو عن اعتقاد يسبب حدوث القشعريرة لدى السامع وهو أن ابنة آنو تظل سائرة خلف النساء اللواتي هن على وشك الولادة.

وقد كانت العائلة المالكة فضلاً عن عامة الشعب تشعر بتلك الأيادي الباردة للموت التي تزحف على الأطفال وتسبب موتهم، وأن اسم أحد ملوك آشور المعروفين وهو سنحاريب (أوسن-آهي-ايدييا) يعني: إن الإله سِن قد عوض عن الأخوة.

وهذا الكلام يشهد أن بعض الأمراء الصغار قد ماتوا وذهبوا إلى القبر.

وكانت العناية بالمرأة قبل الولادة قضيّة يتدخل فيها السحر، بما فيه الحَجب والطقوس والتعاويذ.

ونجد مثلاً ذكر بعض الحجارة التي تلبس حول الخصر لامرأة لا تلد بسهولة.

ولدينا أيضاً نص يعالج المرأة التي تمرض أثناء الحمل:

أولاً: كان يتم خلط عدد من العقاقير من مصدر نباتي فوق نار، وبعدها تمزج هذه بالزيت والبيرة، وكانت تنقع بعض الأنسجة الصوفية وتوضع في فرج المرأة لتسد عنق الرحم، وكان من الواجب عمل هذا مرتين يومياً، وقد ذكر عن عملية الدهن بالزيت والتضميد بشكل إجراءات مكملة.

وفي حالة عدم فائدة هذا العلاج كانت خدمات السحرة تستدعى، حيث تزور المرأة دار الموتى.

ويقدم النص تعاويذ لمساعدة المرأة سيئة الحظ، وبعض هذه التعاويذ كما يلي:

"المرأة التي ولادتها صعبة، واقعة في كرب عظيم، فالطفل قد علق وهي التي خلقت هذا الطفل يحيط بها غبار الموت، فقد خَبَت عيناها فهي لا تستطيع الرؤية، وشفتاها مطبقتان ولا تستطيع فتح شفتيها، وهي لا تضع أي حجاب، وهي لا تخجل."

[وهنا تتكلم المرأة]:

((قف بجانبي يا مردوخ الرحيم، والآن هل أنا محاطة بالكرب العظيم، تقدم إلي، وأنزل ذلك المخلوق المستعصي، خليفة الآلهة، يأتي كمخلوق بشري، دعه ينزل، دعه يرى النور)).

وبعد ذلك تأتي تلاوة أقوال حول: ((خادمة الإله القمر، وهي زوجة الإله القمر تتمثل بشكل بقرة، ولادتها صعبة وعسيرة وظلت في كرب عظيم حتى نزلت من السماء ابنتا الإله (آنو) ليدهنوها بالزيت وماء آلام الولادة.))

وتنتهي التعويذة بالشكل التالي:

((وكما تيسَّرَت ولادة خادمة الإله القمر، لذلك فلتتيسَّر ولادة كل السيدات اللواتي هن على وشك الوضع.))

ولقد استعملت بعض العقاقير للمساعدة على الولادة، مثلاً لحاء بعض الأشجار التي كان على المرأة أن تعلكه.

وكانت المرأة تدلّك المنطقة فوق المعدة بمرهم مؤلف من عدة مواد، أو التدليك بواسطة وتد متحرك مصنوع من خشب سحري فيمرَّر فوق جسمها.

وكانت القابلات يَحْضُرْنَ الولادة، وكانت تلك القابلات تقدمن بعض المعونات العملية والمشورات الصَّاعِدة عن حكمة وتجربة، من خلال الحدود التي تفرضها طبيعة الشبح السحري.

وكان الموت أثناء الولادة من الأخطار الحاضرة المتوقعة دوماً، وهناك إشارات كثيرة لهذا الأمر، وكان الخطر الذي تُشَكّله (لاماتشو الرهيبة) تسمية أخرى لابنة (آمو) على الأم جاثماً بالنسبة للأم والطفل في عبارة يذكر فيها وهي:

((إنها تلامس أحشاء المرأة التي سوف تلد)).

وهناك اسم آخر يطلق على (لاماتشو) وهو: ((الواحدة التي تشعل النيران)).

وتلك إشارة إلى رفع حرارة المرأة الذي يحدث في حالات مميتة حقيقية بسبب حمى النفاس.

وحتى عندما يصل الطفل سالماً إلى هذا العالم ربما يظل هذا الطفل معرَّضاً للخطر إذا فشلت الأم في إرضاعه.

وكان الأغنياء من الرجال يعوّضون عن ذلك بالالتجاء إلى مرضعة، ولكن بالنسبة للطفل من عائلة فقيرة فليس هناك إلا الموت.

وهناك نص يتكلم بدون رحمة عن جفاف حليب الأم مما يسبب وفاة الطفل.

وقبل وجود النفايات النووية المسؤولة عن الولادات المشوهة كان الأطفال يولدون وفيهم شذوذات مختلفة، ونحن نعلم هذا بصورة خاصة نظراً لأن مثل هذه الولادات كانت تعتبر نذير شؤم، وكانت تدوَّن حالاً.

ونجد مثلاً ذكر طفل ولد بقدم واحدة أو توائم سيامية وحالات الخنَث وفي حالات ولادية طبيعية ولكنها استثنائية نجد ولادة أربعة توائم.

ويوضع الطفل الحديث الولادة في سلة تستخدم كمهد وحالما ينمو ترتدي أمه أو المرضعة مقلاعاً خاصاً بالطفل لتحمله حولها، ويمكن أن نضيف أنه وبالنسبة

لآشور كما هو الحال في الشرق الأدنى قديماً وحديثاً كانت ولادة الولد الذكر علامة خير وبركة، وكانت عادة نبذ الطفل وتركه ليموت هي العادة التي ذكرناها سابقاً كانت هذه النقمة من نصيب الإناث أكثر من الذكور.

الزواج

كان الرجل الآشوري يتزوج امرأة واحدة فقط، مع أن هذا كان يحدث لفترات مختلفة وبالنسبة لفئات اجتماعية مختلفة.

وفوق ذلك بقدر اهتماماتنا بالموضوع ولاسيما الرجال لم يكن زواج الواحدة يعني رقابة العلاقة الجنسية إذ إن هذا له علاقة بالوضع القانوني أكثر منه التحديد الجنسي.

ولم يكن هناك ما يمنع الرجل من الاقتران بزوجة ثانية أو خليلة بالإضافة إلى السيدة التي اختارها كزوجة شرعية سوى حالته الصحيَّة ومقدرته الجنسيَّة.

ولكن كان هناك استثناءات حتى في هذه المسألة وذلك لأنها وابتداء من الفترة الآشورية القديمة (التي تبدأ من الألف الثاني) نقابل عقود الزواج يمنع فيها الرجل من الاقتران بزوجة ثانية مع أن له الحق باستخدام العاهرات.

وفي بعض الأحيان كان عقد الزواج يقضي أنه في حالة عدم إنجاب الأم لأي طفل عندها يمكن للزوج أن يقترن بأمة بقصد ذلك الغرض ويعتبر الأطفال في هذه الحالة أبناء الزوجة.

كانت العائلة أبوية بالنسبة لكل المظاهر القانونية والاجتماعية، وكانت حالات النسب والوراثة مختصة بالأب، وكان الابن الذكر في العائلة هو صاحب السلطة، وكان مدى السلطة الأبوية واسعاً لدرجة أن الزوج يستطيع في بعض الظروف إعدام زوجته بينما يستطيع أبو الزوج (الحمو) الزواج من كنته الأرملة، وكان هذا طبقاً للمبدأ الذي يقول: إن المرأة تظل تحت سلطة الذكر رئيس العائلة.

وبالنسبة للزواج فهي تخضع لسلطة حماها (أي: والد زوجها) بدلاً من سلطة والدها.

كان للزواج بصفته عملاً شرعياً بعض المتطلبات، فبالنسبة للزواج العادي الطبيعي ينبغي كتابة وثائق خاصة، إما عند رفع الخليلة إلى مرتبة الزوجة وإما أنه يتطلب منها أن تلبس الحجاب رسمياً، ولا يمكن الاعتراف بالزواج من أرملة إلا بعد انقضاء سنتين على معيشتهما معاً.

إن العلاقة ما بين الزوج وزوجته كانت مختلفة كما هو الحال في العالم الحاضر.

ففي إحدى الحالات نسمع عن الحب والعشق في سن الشيخوخة، ومن جهة أخرى نسمع عن الخصام بين الزوج وزوجته الذي يؤدي في حالة تفاقمه إلى خروج الزوجة من المنزل.

وكما ذكرنا سابقاً، يمكن للرجل أن يرفع مقام خليلته إلى مقام الزوجة.

وتذكر قوانين الفترة الآشورية الوسطى كيف كان يجري ذلك بالتفصيل.

فإذا ألبس الرجل الحجاب لخليلته فإنه يكلف خمسة أو ستة من جيرانه بالقدوم ويلبسها الحجاب أمامهم، ويعلن أن هذه زوجتي وتصبح عند ذاك زوجته.

إن الإشارة إلى الحجاب يظهر في سياق القانون الذي سبق هذا القانون الذي يحدد بالتفصيل أي النساء ينبغي أن يتحجَّبن والتي لا يجب أن يفعَلْنَ ذلك.

كان الحجاب من أشرف الأوضاع، فمن جهة ينبغي أن تلبسه المرأة المتزوجة علناً أمام الجمهور، بينما كانت العاهرات ممنوعات منعاً باتاً من الحجاب، فإذا اكتشف أن إحدى العاهرات كانت تسير وهي محتجبة فإنها تتعرض لعقوبات شديدة بما فيه خمسين جلدة بالعصا وصب القطران على رأسها.

كان الشكل الرسمي للزواج هو أن تترك المرأة العائلة التي ولدت ضمنها وتدخل بيت الزوج.

ومع ذلك يظن بعض الباحثين أنه وفي أثناء الفترة الآشورية الوسطى كان هناك إمكانات أخرى نظراً لأن القوانين الآشورية تقدم شروطاً لبقاء الزوجة في بيت أبيها.

فالقانون السائد ينص أنه إن كانت المرأة تعيش في بيت والدها مع تردد الزوج لزيارتها من حين لآخر.

وبعدها يتم ذكر التشريع بالنسبة للحقوق في الأملاك التي وهبها الرجل لزوجته.

ومن الواضح وطبقاً لقوانين أخرى أنه إذا بقيت الزوجة في بيت والدها فإن ذلك يكون بشكل مؤقت، وأن السلطة النهائية على المرأة نفسها وعلى الأموال والأموال التي أتت معها تكون بالتحديد في العائلة التي تزوجت منها وليس في عائلة أبيها.

لقد ظن بعض الناس أن الوضع هنا حين تبقى الزوجة في منزل والدها إنما هو حالة زواج البنات الصغار القاصرات، وقد كان هذا موجوداً بلا شك نظراً لأن القوانين الآشورية قد نصت على زواج الصبيان اعتباراً من سن العاشرة.

ويمكن للإنسان الافتراض أنه وبالنسبة لزواج القاصرات كانت الزوجة القاصرة تستمر بالعيش مع والدها حتى تصبح في سن تكتمل فيه قدرتها على تحمل الوضع الزوجي، وعندها تذهب إلى بيت زوجها.

ولكن حتى ولو حدث هذا أحياناً فليس لدينا ما يشير أن الزواج من القاصرات كان الحالة الوحيدة التي تطرّق إليها القانون.

وإن أبسط تفسير هو: إن القانون كان مؤسساً على التمييز ما بين مرحلتين مختلفتين في عملية الزواج.

ففي آشور كما هو الحال في المجتمعات الأخرى كانت الرسميات القانونية للزواج (وهو عمل عقد الزواج) يمكن أن تنفصل خلال فترة زمنية عن فترة المقارنة القانونية.

إذ إن القانون الذي يجيز للزوج زيارة زوجته في منزل والدها إنما يشير إلى وضع يجعل المرأة تتأخر في العودة إلى منزل زوجها مع أن عقد الزواج قد تم في منزل والدها، وهكذا فإن زواج القاصر ربما دلَّ على حالة منفردة خاصة.

ولا شيء في هذا الوضع يمنع الزوجة في أي وقت كان العودة إلى منزل زوجها بطريقة عادية.

كان هناك عدة هدايا ومدفوعات مختلفة متصلة بالزواج، ففي وقت الزواج كان الزوج يقدم المجوهرات للعروس، مع أن هذه الهدايا لا تصبح في ملكيتها الخاصة وإنما تبقى ملكاً لزوجها، وفي حالة وفاته فإنها تنتقل للورثة، وإذا لم يكن له ورثة فإن الزوجة تحتفظ بها.

وما دام هناك أولاد فإن الزوجة لا تعتبر وريثة للزوج، ومن الممكن أن يخصص شيئاً من أملاكه لتتفقها الزوجة في حالة وفاة الزوج وصيرورتها أرملة، مع أن هذه الأملاك جزء من أملاكه مادام على قيد الحياة.

وَيُقَدَّم مبلغ آخر لوالد العروس ولكن ينبغي إرجاع هذا المبلغ في حالة وفاة الزوجة دون مولود ذكر.

ويتبجح بعض الحقوقيين والمختصين بالعلوم الإنسانية على اعتبار هذا المبلغ مهراً، ولكن بالحقيقة أنه ليس كذلك، ومن الممكن أن تجلب الزوجة بعض الممتلكات مساهمة في عملية الزواج كنوع من المهر.

ونحن نجد أحد عقود الزواج في القرن السابع يحدِّد المهر الذي خصصته إحدى الموظفات الكبيرات في القصر لابنتها.

فقد كان هذا المهر يشتمل على مجوهرات وملابس وأسرَّة وكراسي وعدة أوانٍ ومقلايات وأدوات منزلية، ولقد بقي هذا المهر ملكاً للزوجة، وبعد ذلك تحوَّل إلى الأطفال وليس لورثة الزوج الذين من الممكن أن يكونوا إخوته.

ولكن مع أن الملكية بقيت مخولة للزوجة إلا أنه يبدو أنه لم يكن لها الحق بالتصرف به مادام زوجها على قيد الحياة.

من الواضح أن العائلة الآشورية كانت ذكورية في توجيهها، فلقد كانت النساء تحت سلطة الرجال، وطبقاً لقوانين العهد الآشوري المتوسط فقد كان للزوج الحق في إيقاع العقوبات البدنية على زوجته حتى التشويه الجسماني.

ولكن وصف مثل هذه الأعمال البربرية في القوانين إنما لا يتمثل معياراً دارجاً بل يشير إلى الحدود التي لا ينبغي للزوج تجاوزها، فقد كان على الأقل ممنوعاً من قتل زوجته ما عدا في حالة الزنا الثابت، وهناك حق من حقوق الزوج على زوجته وهو أنه يستطيع بيع الزوجة مع أنه هنا لم يكن شائعاً، إذ ليس لدينا إلا وثيقة واحدة تذكر مثل هذا الموضوع.

يبدو أنه كان هناك بعض المراسيم التقليدية التي كانت تحدث ما بين زمن عقد الزواج وبين ليلة الزفاف.

وهناك قانونان يشيران إلى صب الزوج الزيت على رأس عروسه، ومع عدم وجود تفاصيل حول هذا الموضوع فإن هذه العادة إنما تنتمي إلى ممارسات المسح بالزيت التي كانت كثيرة الشيوع في الشرق الأدنى القديم، ولطالما ذكرت في التوراة.

ولما كان القانونان المذكوران يتطرقان لذكر جلب العريس أطباقاً من الطعام للوليمة، فمن الواضح أنه كان هناك حفلة لعرس الزواج.

كانت القوانين الخاصة بالجنس صارمة بالنسبة للزوجات، إذا يستطيع الرجل المتزوج أن ينزل عقوبة الموت بزوجته الزانية ما لم تنجح في إقناع زوجها أنها اغتُصِبَتْ.

وكان للأرامل حرية أوسع، وقد صوَّر لنا أحد القوانين إحدى الأرامل التي تعيش مع رجل دون وجود عقد زواج، وإذا استمر هذا الوضع مدة سنتين فإن الأرملة تصبح زوجة رسمية يحميها القانون على الرغم من عدم وجود عقد زواج.

ويمكن للرجل أن يطلق زوجته، وفي بعض الأماكن وبعض الأوقات كان الطلاق يتم بأن يمزق الزوج حاشية ثوب المرأة أمام شهود رسميين.

وفي بابل يذكرون وجوب دفع أموال لقاء الطلاق، ولكن في آشور لم يكن يطلب من الرجل أن يقدم لزوجته السابقة أي تعويض مع أنها تحتفظ بالهدايا التي قدمها الزوج في زمن الزواج، وليس للزوجة أي حق بطلب الطلاق بناء على رغبتها، والحقيقة أنه وفي بعض الأماكن وبعض الأزمنة في منطقة ما بين النهرين إذا حدث وتجرأت على التعبير عن مثل هذه الرغبة فإنها تلزم على الخروج من بيت زوجها عارية ومفلسة.

لكن لم تكن المسائل دوماً وفي كل مكان إلى هذا الحد ضد الزوجة.

وفي منطقة نوزي في آشور (وهي قرب كركوك) وفي القرن الخامس عشر قبل الميلاد نجد امرأة قد تم تبنيها كإبنة ثم تزويجها إلى أحد العبيد وكانت تقول: خلصوني من منويا (وهو زوجها) وقدموني لأرتيا كزوجة.

وعلى العموم وفي آشور إذا حدث وأن غادر الزوج المنزل دون إعطاء الزوجة أي نفقة ودون وجود أولاد يعيلونها فإنه وبعد خمس سنوات يجوز لها أن تتزوج زوجاً آخر.

وفي الحالات العادية لا يستطيع الزوج الأول المطالبة بالزوجة إذا حدث وعاد.

ولقد كان هناك بعض الاستثناءات، وإذ لو كان غياب الزوج على الرغم من إرادته مثلاً وقوعه في الأسر، عندها يستطيع استعادة زوجته حتى بعد مضي خمس سنوات على غيابه شريطة أن يقدم للزوج الثاني زوجة بدلاً عن زوجته.

ولكن إذا كان سبب غيابه خدمة الملك لا يجوز للزوجة أن تتزوج رجلاً غيره حتى ولو بعد مرور خمس سنوات.

ربما يعجب المرء كيف تستطيع المرأة دون وجود معيل مدة خمس سنوات أن تُدَبّر نفسها.

أو من الممكن أن تعود لبيت أبيها أو لبيت أحد أخوة زوجها مع أن القانون لا يذكر شيئاً عن مثل هذه الأحوال.

ولكن ما يقوله القانون واضح جداً إذا يقول:

((إذا صادف أن ذهبت المرأة وعاشت مع رجل آخر قبل انقضاء خمس سنوات على غياب زوجها وأنجبت أطفالاً فإن لزوجها الحق لدى رجوعه ونظراً لأنها لم تنتظره طبقاً لعقد الزواج بل تزوجت فإن لزوجها الأول الحق أن يستعيدها ويأخذ الأولاد.))

وبهذا يعطي القانون انطباعاً وهو أنه: مع أن الزوجة قد تصرفت تصرفاً غير مناسب فإن الوضع سوف يكون مقبولاً دون إنزال أي عقوبة عليها.

وهذا اعتراف أنه وفي بعض الظروف تضطر المرأة إما أن تتخذ زوجاً آخر أو أن تموت جوعاً.

ومن الممتع أن الأطفال الذين ولدوا من خلال المرأة غير الشرعية، ومع أنهم أولاد غير شرعيين إلا أنهم يعتبرون ملكية ذات قيمة ويمكن للزوج الأول أن يطالب بهم.

ومن الممتع أيضاً أن الآشوريين لم يقيموا أي اعتبار للعذرية بينما زاد اليهود والإسلام والمسيحيون من اعتبارها بشكل كبير.

الحياة الجنسية

نعلم القليل عن الجانب الجنسي في الحياة في أرض ما بين النهرين القديمة مع أن جزءاً قليلاً من شواهدنا إنما هي متصلة بصورة خاصة بآشور أكثر منها ببابل.

يوصف الاتصال الجنسي في عدد من الأختام الأسطوانية والألواح الفخارية التي تظهر أن العملية الجنسية كانت تمارس بأوضاع مختلفة، فضلاً عن أن مواجهة الوجه للوجه يُعد الوضع الطبيعي في المجتمع الغربي الحديث (مع أن ذلك غير معتبر في أجزاء أخرى من العالم) وهناك بعض الصور التي يظهر فيه الرجل وهو يجامع المرأة من الخلف.

وَيُفَسّر بعض الباحثين في تاريخ آشور أن هذه الممارسة كانت من الشرج، ويفسرونها بأنها نوع من اللواط، ولكن وعلى الأقل فإن الشخص المستلم هو امرأة، ويشبه هذا الوضع ممارسة الاتصال بالفرج من الخلف.

ومن جهة أخرى فإننا نعلم بالتأكيد أن بعض الرجال من منطقة ما بين النهرين كانوا يمارسون الاتصال الشرجي مع المرأة من الخلف، ونحن نعلم ذلك من مجموعة من الرقيَّات تشير واحدة منها إلى وضع يستمر الرجل فيه القول لزوجته: ((اقلبي إلى الخلف)).

ولا نعلم فيما إذا كان هذا العمل ما بين الرجل والمرأة هو شكل من أشكال منع الحمل، أم هو مجرد عمل نوع من التغيير وهذا ما علينا أن نحزره.

ولكن هناك إشارة واضحة إلى كاهنة ذات مرتبة عالية كانت تمارس الاتصال الجنسي من الشرج وذلك منعاً للحمل.

وهناك وضع آخر مذكور يصوّر الرجل مستلقياً على ظهره بينما المرأة فوقه من الأعلى، وعدا عن كون هذا تبادلاً للأدوار فإنه ربما كان تلميحاً لإحدى النصوص التي تذكر:

إن رجلاً عمورياً كان يقول لزوجته:

((أنت ستكونين الرجل ولذلك دعيني أمثل دور المرأة)).

ومع ذلك فقد كان تبادل الأدوار معروفاً في بابل وربما في آشور.

وفي بعض الأحيان كان بعض الناس يمارسون الجنس وهم وقوف، وهناك إشارات إلى اللعب بالجنس يشجع الرجل فيه زوجته أن تداعب قضيبه حينما تطلب المرأة من الرجل أن يداعب فرجها.

وإن تقبيل ومداعبة الثديين مذكور في النصوص، وقد صوّر هذا الوضع الأخير.

وكذلك نجد ذكراً لبعض النساء وهن يمارسن العادة السرية وهن يتبادلن النظرات مع الرجل.

وكان كل من الرجل والمرأة على السواء يلجؤون إلى دهن أعضائهم الجنسية بقصد تسهيل الجماع والإدخال.

وكان منع الحمل ساري المفعول أيضاً أحياناً، لأننا نجد نصوصاً تشير مثلاً إلى (الناديتو) وهن جماعة من خادمات المعابد، يحافظن بطرق بارعة على عدم دخول المواد المنوية إلى أرحامهن.

ولكن لا نعرف ما هي تلك الطرق البارعة في مثل هذه الحالة، وفي حالات أخرى نجد بعض المعلومات الخاصّة حول وجود سدّادات توضع داخل الفرج لهذا الغرض، وكانت الرقى والأعشاب تستخدم للغرض ذاته.

وعندما كانت نساء الناديتو وغيرهن من خادمات المعابد يمارسن الجنس بشكل فوضوي كانت محاولتهن لمنع الحمل تبوء بالفشل، لأن هناك ذكر لولادة أطفال لهن فإذا ولد أطفال غير مرغوب بهم (ليس فقط بالنسبة لنساء المعابد) فإن هؤلاء الأطفال كانوا يلقون في الشارع ليموتوا أو لتأكلهم الكلاب.

ولكن كانت مثل هذه القسوة تحدث ضمن النوايا الحسنة، وقد ذكر عن شخصٍ يختطف طفلاً من فم أحد الكلاب في الشارع.

وأما الشذوذ الجنسي واللواط بين الرجال فقد ذكر عن وجوده في منطقة ما بين النهرين ابتداءً من الألف الثالث فصاعداً، مع أن بعض اللوحات والأختام التي فسرت بأنها تصف القيام بهذا العمل إنما هي صور حالات من الاتصال الجنسي (وهو من الفرج وليس الشرج) مع امرأة من الخلف.

وهناك نصوص تشير إلى علاقات لواطية بما فيها اللواط بين رجل ورجل، أو بين رجل وصبي.

وأما في بابل فيظهر أنه لم يكن هناك أي إدانة لهذا العمل.

وأما في آشور وفي الفترة الآشورية الوسطى كانت مثل هذه الأعمال وفي بعض الظروف تعامل بقسوة بالغة.

ومن الممكن أنه وفي هذا السياق كانت هناك فروق بين بابل وآشور في المواقف.

ففي آشور: كانت القوانين تنص أنه إذا وجد شخص يمارس اللواطة مع شخص آخر فإنه أولاً: تمارس اللواطة على هذا الشخص، ثم يتعرَّض هذا الشخص للإخصاء.

وليس من الواضح فيما إذا كان هذا القانون يعالج اللواطة بالنسبة لجميع الحالات المكتشفة أم أن الإشارة كانت بالنسبة إلى الاغتصاب الجنسي اللواطي.

وبالنظر إلى المبدأ القديم الذي يجعل العقوبة مناسبة للجُرم وأن الجاني كان يتعرَّض بنفسه إلى الاغتصاب الجنسي فإن الوضع الأخير كان هو السائد.

كان الخصي ظاهرة مألوفة، ولكن وجود الرجل الذي تعرَّض للإخصاء كعقوبة كان قليل الوقوع، إذ العمل الشائع كان إخصاء الصبيان، إذ إن عمل الخصيان الفعلي هو الخدمة في البلاط الملكي.

وقد أصبح كثير من الخصيان موظفين مسؤولين كبار، وقد استمر هذا الوضع في الإمبراطورية التركية والفارسية حتى القرن التاسع عشر بعد الميلاد.

ولكن لم يكن جميع رجال البلاط الآشوري خصياناً، وكانت هذه الحالة تؤكد تسمية بعض رجال البلاط بـ (شا-ذقني) بمعنى (أبو لحية) وهذا يكون غير مخصي.

وتسمية أخرى باسم: (شا-ريش) وهو المخصي.

وكان هناك في آشور شأن البلدان الأخرى قسم صغير من الذكور الذين لم تتطور وظائفهم الجنسية، وأصبحوا خصياناً طبيعيين وكان هذا سبباً لوجود شكل من الدعارة الذكورية.

ولقد اعترف أهالي منطقة ما بين النهرين أن للجنس عنصره من الدين، فقد كان هناك دعارة دينية (ذكورية، وأنثوية، وخنثوية) مرتبطة ببعض المعابد التي كان يجري فيها بعض الممارسات الجنسية، كانت تشمل اللواطة في بابل.

وكانت الإشارة إلى النشاطات الجنسية في المعابد في آشور أقل منها في بابل، ولكن هناك شواهد كافية عن وجودها في آشور، مع أن الداعرين الذكور كانوا من الخصيان، إلا أن هذا لم يكن هو الواقع دائماً.

فقد كانت (الداعرات) من النساء موجودات في منطقة ما بين النهرين بشكل طبيعي عادي، وذلك لوجود عادة السحاق (ذكر عنها في حالة واحدة فحسب) وهذا يتعارض مع كثير من الإشارات إلى بعض الزوجات اللواتي يتّخذن العشاق، وهذا قد كان ينتج الشر لجميع الأطراف إلا أنه كان ذا جاذبية خاصّة.

فإذا استطاع الزوج أن يقبض على العاشقين بالجرم المشهود فإن له الحق (بعد الاتهامات الواجبة والبراهين) أن يقتل الزوجة وعشيقها، أو أن يقطع أنف زوجته ويخصي العاشق، وكان ينبغي معاملة كلا الطرفين معاملة متماثلة، إذ إن ترك الزوجة دون عقاب كان يعني إطلاق سراح العاشق أيضاً.

ويعتبر الزوج في خطر إذا اتخذت زوجته عاشقاً لأننا قد وجدنا إشارة إلى امرأة قد شجعت عاشقها على قتل زوجها، وذلك لكي تستطيع الزواج من حبيبها.

ويذكر الاعتداء الجنسي على الأقارب، ويذكر السفاح، مثلاً اتصال الرجل بأخته جنسياً، أو بابنة أخيه، أو ابنته، أو كنّته، أو والدته وذلك بعد وفاة والده.

وربما لم يكن من العدل أن نعزو هذه الصفة الأخيرة للآشوريين لأن شواهدنا على هذه البشاعة قد أتت من بلاد بابل وذلك من قوانين حمورابي في أوائل الألف الثاني، ولقد اعترف بهذا العمل جريمة نكراء كانت عقوبتها حرق الأم وابنها.

وكما كان الحال في العصور والأماكن الأخرى كان بعض الناس يقعون في الحب وكانت قلوبهم تتآكل إذا رُفضوا.

ولدينا أمثلة على وقوع الكآبة الشديدة من هذه الأسباب، وفي بعض الأحيان كان الرجل والمرأة يصليان للآلهة أو يلجآن إلى رقى سحرية للحصول على حب المحبوب.

كانت بعض الطقوس السحرية مضمونة، مثلاً أن بعضها يدّعي أن الرجل إذا قام بإتمامها فإن المرأة سوف تتكلم معه عند مقابلته لها، وسوف تصبح فاقدة الإرادة فلا تستطيع المقاومة، ومن الحكمة للرجل أن يمارس الجنس معها.

فإذا حدثت الخصومات بين العاشقين كانت المرأة المحرومة تلجأ إلى رقى وتعاويذ، ولهذا كنا نجد بعض الوصفات بالنسبة للسيدة التي تصادف مثل هذه الأحوال، وتقول الوصفة:

((إنه ولوجود هذا السحر فإن المرأة سوف لا تنام وحيدة، بل إنها سوف تكون محبوبة)).

ولكن كان للرجال مشكلات أخرى في هذا السياق وبينها ظهور الشيب، والعجز الجنسي، والقذف السريع، وقد كان شيب الشعر يعالج بالسائل المستعمل للصباغ والتعاويذ.

وكان هناك سلسلة من الطقوس ومستحضرات طبية مختلفة بما فيها المراهم والمنشطات كانت متوفرة لمعالجة العجز الجنسي، ولكن وبينما هناك إشارات إلى القذف المبكر إلا أنه لم تتوفر أي علاجات لهذه القضية، ومن المعتقد أنه قد تمَّ قبول هذا الوضع بصفته شيئاً سوف يعالجه الزمن والممارسة.

التعليم

إن معرفتنا عن التعليم في بلاد ما بين النهرين القديمة متقطعة، فلقد علمنا عن تعليم الكتبة وذلك لسبب واضح وهو: إن الكتبة هم الذين كانوا يؤلفون النصوص، وكان هذا هو النوع من التعليم الذي يُهمّهم.

وحتى في هذا الصدد فإن جميع شواهدنا المفصلة تأتي من بابل في أوائل الألف الثاني إذ إن الوضع في آشور في فترة متأخرة كان مختلفاً.

تعود المعلومات المفصلة بالنسبة للتعليم في الألف الأول إلى الأسرة الملكية، ويروي آشور بانيبال في القرن السابع كيف أنه درس حكمة نابو وأتقن فن النسخ تماماً، معرفة جميع الخبراء وتعلم فن الرمي بالقوس وركوب الخيل والعربات

والإمساك بزمام الخيول وفي مكانٍ آخر يفصل لنا كيف تعلم القراءة والكتابة بقوله:

((لقد قرأت نصوصاً معقدة، كانت النُسخ السومرية غامضة والنسخ الأكادية من الصعب فهمها، ولقد بحثت في الكتابة المسمارية على الحجارة من فترة ما قبل الطوفان.)) ولكن لم يكن هذا أمراً شائعاً، فلقد كان تعلم القراءة والكتابة باللغة المسمارية محصوراً بالكتبة فحسب، وكذلك الإدرايين.

مع أنه اعتباراً من أواخر القرن الثامن كانت اللغة الآرامية تسير بخطوات سريعة في آشور مع وجود الكتابة بالحروف الأبجدية المرتبطة بها، وكانت هذه الأبجدية أسهل من المسمارية، وأصبحت واسعة الاستعمال.

وأما بالنسبة لتدريب الكتبة فقد كان هناك مدارس، إذ نجد مثلاً مجموعة تدعى (كتبة كاليزي) (وهي بلدة في شرق آشور) وهنا يشير إلى طلابهم الذين كانوا يتعلمون مهنة النسخ، ولكن ليس لدينا أي شواهد لوجود مدارس لتعليم مجالات أخرى من المعرفة.

وكان نظام الوراثة سائداً في المجتمع الآشوري وكان الابن يتعلم مهنة الأب أو تجارته وذلك بمراقبته ومساعدته حالما يستطيع المشي، وكان يتقن هذه المهن بمرور الزمن وإن من الممكن التتلمذ لدى أحد المهنيين وكان من الممكن العثور على عقود التلمذة بحيث تكون الواجبات ملقاة على الطرفين.

الملك والبلاط

"أنا الدولة" كانت هذه الكلمة وبكل معنى الكلمة من الممكن أن توضع ضمن أقوال أي ملك آشوري جديد، فقد كانت كل مظاهر الحياة الدولية والسياسية والعسكرية والدينية مرتبطة بالملك وكانت سلطة الملك مطلقة نظرياً مع أنها وبصورة عملية كانت هذه السلطة محاطة خلال حدود صارمة بعمليات المحرمات (التابو) التي كانت تحيط بمركز المالك الرفيع المقام.

وإذا قارنا الأوضاع بوضع الملك الآشوري فإننا نجد أن ملوك إسرائيل ويهوذا المنحدرين من نسل داود إنما كانوا قادمين جداً ومغتصبين للسلطة، فقد كانت هناك سلسلة طويلة من الملوك تحتوي على ما يزيد عن تسعين ملكاً حفظت أسماؤهم لنا بشكل سلسلة مستمرة غير متقطعة.

وقد حكم هؤلاء في آشور قبل أكثر من ألف عام من الزمن الذي أسس فيه داود أسرته.

وكما ذكرنا سابقاً فمع أننا شأننا شأن الآشوريين أنفسهم، نعتبر الحكام الآشوريين ملوكاً، وحتى القرن الرابع عشر كان الحاكم الآشوري -باستثناء شمسي أداد الأول الذي لم يطلق على نفسه ذلك اللقب الذي نترجمه باسم الملك وبدلاً من ذلك كان يطلق على نفسه اسماً معناه (وكيل الإله آشور) مما يعكس مركزه كممثل للإله على الأرض.

ولكن الحاكم الآشوري لم يكن إلهاً بالمعنى الكامل بل كان هو ظل الإله، وقد وجدنا كتابة رسمية موجهة للملك تذكر هذا في كلمات متعددة مثلاً:

((إنه والد الملك سيدي كان صورة للإله بعل، وإن الملك سيدي هو صورة لبعل أيضاً)).

وكان الملوك أيضاً يسمون ((شمس الشعب الإلهية)).

ومن الممكن أن ندعو هؤلاء الحكام ملوكاً كهنة نظراً لأنهم وفي داخل مدينة آشور اعتبروا وارثي السلطتين الدينية والمدنية، وعندما مدَّت دولة آشور المدنية سلطانها لتصبح ما ندعوه دولة آشور المدنية عندها امتدت سلطة حاكم آشور معها فوق المدن الأخرى القديمة مثل (أرابخا وأربيل ونينوى) وأراضيهم.

ولكن وإلى النهاية وحتى بعد أن انتقلت العاصمة إلى مكان آخر حافظ ملوك آشور على علاقة وصِلَة دينية خاصَّة بمدينة آشور.

ولقد عاش الملك في بناء يدعى أكاديان (أيكالو) وهو يعني حرفياً (البيت الكبير) ولما كان هذا البناء هو مكان إقامة الملك فإن هذا الاسم يدعى

بالقصر، ولكن تستعمل نفس الكلمة للدلالة على الأبنية الإدارية وهي بعيدة عن العاصمة، وقد كان يمثل أيضاً مقر الحكومة والدولة فقد كان القصر الملكي أكبر من مقر الملك بل كان هو مركز الحكومة والدولة الرئيسي.

وبهذه الصفة فقد كان لا يتسع للمقر السكني للملك فحسب بل وما يتبعه من أماكن وضع المؤن لاستضافة ضيوف الدولة من الطباخين والخبازين وصانعي البيرة، وكذلك هيئة كبيرة من موظفي الدولة والإداريين المدنيين وضباط الجيش فضلاً عن السفراء الأجانب والأمراء القادمين من الدول الموالية والمحكومة الذين حفظوا في البلاد كرهائن ولكي يتعلموا في آشور العادات الآشورية.

وهناك أشخاص آخرون يعيشون ضمن القصر الملكي وهم الكتبة الذين يتقنون عدة لغات وفنون الكتابة، وكذلك موظفو جمع الضرائب والمترجمون والأطباء والموسيقيون ورجال الدين والسحرة وكذلك طبقات عديدة من الكهنة ورجال الدين.

وكان هناك أيضاً الخزينة الملكية بما فيها من الموظفين وكانت إعالة جميع هذه الفئات واجباً ثقيلاً تتم تلبيته من الإمدادات التي يرسلها المسؤولون في المناطق، وبعض الفترات كان هناك أسود ملحقة بالبلاط تطعم بوجبات منتظمة من الأغنام.

وفي داخل البلاط الملكي كان هناك عدة بلاطات ثانوية مثلاً بلاط والدة الملكة، أو ولي العهد مع ما يتبعها من الموظفين مع أنه في إحدى الأزمنة كان لولي العهد قصر مختص به يدعى: ((دار ولاية العهد)).

وربما كان للحاكم المحلي قصر في العاصمة منفصل عن القصر الملكي.

ولم تكن مقابلة الملك متوفرة لجميع الشعب في البلاط، وذلك لأن هذا الشخص شبه الإله معرض لعدد كبير من الممنوعات (تابو) ولم يكن مسموحاً بمقابلته إلا لموظف واحد فقط، وهو ناظر القصر الذي يحق له وحده الاتصال بالملك.

ولا يصح لولي العهد الاتصال بالملك إلا عندما تسمح المؤثرات الفلكية بذلك وتكون هذه المؤثرات الفلكية مناسبة.

ومع ذلك فقد كان هناك مناسبات يستطيع بها رجال البلاط الآخرون الاتصال بالملك مثلاً عندما يوصل أحد المراسلين للملك خبراً مفاده أن أحد رجال البلاط قد قبل هدية من شخص طالباً منه أن يكلم الملك بالنيابة عنه.

وقد كان هناك أي شخص يأتي من الخارج ويسمح له بمقابلة الملك يفعل ذلك وهو معصوب العينين، وهذا وإن إمكان الاقتراب من الملك ومقابلته عندما تكون الظروف مواتية وأن يبقى الملك منعزلاً عندما تكون الظروف غير مواتية، هذا الوضع سبب زيادة نفوذ الخبراء الذين يفسرون الظروف الفلكية.

وقد كانت هناك مناسبات يظهر فيها جميع الموظفين الكبار أمام الملك لتأدية فروض الطاعة، وكان ذلك أمراً مكلفاً بالنسبة إلى الأشخاص المعنيين بالأمر لأنه كان من المنتظر أن يقدم هؤلاء هدايا ذات قيمة، وتتضح قيمة سلم هذه الهدايا من الموظفين الكبار إلى صاحب الجلالة وذلك من قيمة الذهب التي أرسلها أحد الحكام إلى ولي العهد بما قيمته رطل من الذهب، بما يعادل حسب أسعار أوائل الثمانينات من هذا القرن (١٩٨٠م) مقدار (٣٠٠٠) جنيه إسترليني.

ولقد ذكرت الممنوعات التي كان يخضع لها الملك وذلك إما لتلبية متطلبات الطقوس الدينية أو كحماية للملك من أي حوادث تحدث في يوم من الأيام من حوادث سوء الطالع.

وكان بعضها يشمل الإهانات أو الإزعاجات وهكذا وفي مناسبات عديدة نجد أن على الملك الآشوري أن يقوم بالصيام مدة عدة أيام حتى ظهور القمر من جديد، أو أن يمتنع عن تناول الطعام المطبوخ أو أن يلبس ملابس إحدى المربيات، أو أن يبقى محصوراً في داخل القصر أو أن يلبس ثوباً أبيض لمدة عدة أيام، أو أن يجلس لمدة أسبوع في كوخ من القصب ويعامل كما أنه لو كان مريضاً.

وكانت العلائم الفلكية تستطيع توقيف جميع أعمال الدولة، مثلاً المعاهدات التي ينبغي تصديقها عن طريق أداء القسم أمام الآلهة يمكن لهذه الإجراءات أن

تتم ضمن أيام معينة، وذلك لأن أداء القسم في أيام غير مواتية ربما يسبب نتائج وخيمة.

وإن أغرب تلك الممنوعات وأطرفها ذلك الذي كان يأمر في حالات تظهر فيها علائم خطيرة أن يتنازل الملك عن السلطة مؤقتاً ويسلم العرش إلى شخص بديل، وأن يتزوج هذا البديل عروساً ويحكم مدة مائة يوم ويستعد لجميع الشرور التي كانت تهدد الملك، وهكذا ينقذ الملك الدولة من إحدى الكوارث.

وفي نهاية الأيام المائة يعدم الملك البديل وعروسه ويدفنان باحتفال كبير ويعود الملك إلى عرشه بأمان.

وكان أحد الملوك الجدد ولاسيما (اسرحدون) كانت تنتابه الكوابيس والخرافات حول سوء الطالع، وكان الخبراء في قضايا سوء الطالع يتلاعبون كالأطفال بالملك، إذ نجد الملك -مثلاً- قلقاً لأن حيواناً يدعى النمس قد جرى تحت عربته إذ إنه كان يعرف سوء الطالع الذي حدث عندما مد النمس يده بين رجليه، وهل هذا ينطبق على الوضع إذا كان هذا الرجل راكباً عربته؟ والحقيقة هذا ينطبق.

وفي حالة أخرى نرى الملك (أسرحدون) خائفاً جَزِعاً وذلك عند حدوث هَزَّة أرضية ولم يكن خائفاً من الحادث نفسه بل من الشرور التي كان يتنبّأ بها الحادث.

فقد كان أحد الكهنة يقول له:

((إن الذي صنع الهزة الأرضية قد صنع أيضاً الطقوس المضادة للحيلولة دون وقوع الشر الذي تنذر به الهزّة.))

وقد كان اسرحدون يعبر عن قلقه ومخاوفه مما جعل من الضروري مواساته ولاسيما حول الخسوف والكسوف.

وفي حالة أخرى حاول أن يكتشف من بعض الكتب ما كانت بعض نذر الشر من ولادة معينة تنذره، بينما يحاول أحد الكهنة أن لا يشجّعه على اتباع فوضى الأشخاص الهواة المتدخلين في شؤون الغير.

وقد قال الكاهن: ((إن ذلك الكتاب كان صعب الفهم جداً، ولا يستطيع أي إنسان لم يدرس هذا الكتاب دراسة مفصّلة أن يفهمه، وإن هذا الكاهن سوف يفسّر للملك شخصياً عند مقابلته.))

(وهذا شاهد عن سهولة وصول الكهنة إلى الملك).

كان مسكن الملك مفصولاً عن القسم المخصص لشؤون إدارة الدولة، وكانت مشكلة الملك الرئيسية هي إبقاء نسائه في ظروف النظام، وإن لدينا سلسلة من المراسيم تدعو إلى ذلك، وهي تعود إلى ما بين القرن الرابع عشر والحادي عشر.

ولقد كان إخلاد النساء إلى النظام عملاً مزعجاً ومحرجاً، وذلك نظراً لأنه بالإضافة إلى الزوجات والمخلصات اللواتي اتخذهن الملك بناءً على اختياره الشخصي فإن لديه عدداً كبيراً من السيدات الأُخريات القادمات إلى القصر -وهُنَّ إما كن مرسلات من بعض الأمراء الذين كانوا يطلبون التحالف معه بسبب المصاهرات، أو إنَّهُنَّ قد جُلبن كجزء من الجزية والغنائم من المدن المغلوبة على أمرها-.

فالحياة سوف تكون مزعجة وتسبب شد الأعصاب عند وجود عُصبة من النساء محصورات كلُّهُنّ معاً، وهنَّ يتنافسن على رضا رجل واحد.

وتشير المراسم إلى زوجات الملك والنساء الأخريات اللواتي كُنَّ يتقاتلن ويتلاعَنْ بعضهن مع البعض الآخر.

ولذلك تشير المراسم الخاصة بنساء البلاط إلى أن النساء كن كالعاهرات، وقد كانت مشاجراتهن مصدر تسلية لرجال القصر، ولكن إذا سمع أي شخص من هؤلاء النساء وهن يتشاجرن أو يغنين الأمر الذي كان يشبه ما يحدث في

الشرق الأدنى في هذه الأيام، فإن هذا الشخص الذي سمع معرض للضرب الشديد، أو قطع إحدى أذنيه.

وبالنسبة للنساء أنفسهن فكان من الصعب إحلال النظام بينهن، وكانت نساء القصر يملكن حق الأمر بضرب خادماتهن ثلاثين ضربة بالعصا إذا قمن باقتراف أي ذنب ولأول مرة.

وكانت هذه العقوبات تجري بشكل وحشي، يصل إلى حد قتل الفتاة ضرباً، ولكن في حال حدوث ذلك فإن السيدة نفسها تصبح عرضة للعقاب.

هناك قواعد صارمة بخصوص التقاء رجال البلاط بنساء القصر، فإذا حدث ودعت إحدى سيدات القصر أحد رجال البلاط وكانت عارية من الثياب، وإذا نظر إليها أثناء المحادثة فإن هذا الرجل كان يُضرب ضَرباً مُبَرّحاً.

وهذا يدل أن بعض نساء القصر يَصِلْن إلى حالة من الضجر إلى درجة تسلية أنفسهن بتعذيب رجال البلاط.

ولم يكن مسموحاً ولا بأي حال من الأحوال أن يقترب أحد رجال البلاط أكثر من مسافة سبع خَطوات من أي امرأة ليتكلم معها.

أما اللقاءات غير الشرعية إذا حدثت واكتشفت فإن ذلك يعني الموت لكلا الطرفين.

وإذا اضطر أحد الموظفين للدخول إلى داخل القصر كان على جميع النسوة الخروج من المنطقة إلى خارج أماكن إقامة الحريم.

وكان هناك حالة المنع الشرقي العادي بالنسبة للمرأة التي تمر بفترة العادة الشهرية، وتنص بعض المراسيم على ما يلي:

((عندما يحل وقت تقديم الأضاحي (وهو آحد المناسبات الدينية) فإن أي امرأة من التي لا يجوز الاقتراب منها، (وهذا يعني حالة المرأة في حالة العادة الشهرية) إنه لا يجوز لمثل هذه المرأة أن تدخل إلى حضرة الملك.))

والطريف أن يمنع دخول المرأة في تلك المناسبة مما يعني أن ذلك كان مسموحاً في الأيام العادية.

الفصل العاشر

الحياة المَنْزِلية

تكشف الأشياء التي يُحيط الناس بها أنفسهم مكنون مواقفهم وكأنها عبارة عن دراسة لمؤسساتهم الاجتماعية، وهكذا فإن فحص الملابس والأثاث لدى الآشوريين ربما يساعدنا على فهم أي نوع من الناس كان هؤلاء الآشوريون.

الملابس

إن هدفنا هنا أن نُرَكّز بقدر الإمكان على الشواهد التي تطبق بصورة خاصة على آشور وبصورة خاصة في الفترة المتأخرة (أي: الألف الأول).

وهناك نوعان رئيسيان من الشواهد:

أولاً: هناك نصوص تقدم لنا عدة كلمات حول اللباس بما فيها قائمة مفصلة ذات تركيب لغوي وهو نوع مؤسس على موسوعة روحيَّة، ولسوء الحظ فإن هذا لا يوصلنا إلى الهدف الذي نبغيه، وفي عدة حالات لم يكن لدينا أي فكرة عن المواد التي تعنيها هذه الكلمات أو كيف تظهر الثياب، وهذا ما نحتاج المساعدة لمعرفته من مصدر الشواهد.

الثاني: وهو يمثل الثياب الحقيقية التي يمكن أن توجد على عدة مشاهد فنية مثل المنحوتات واللوحات المجسَّمة والألواح والعاج المنقوش والأختام الأسطوانية.

هل كل إنسان يلبس ثياباً؟ إذ حسب معرفتنا اعتباراً من الألف الثالث فصاعداً فإن الناس الوحيدين الذين يسيرون أحياناً عُراة كانوا بعض الكهنة في أثناء بعض الطقوس الدينية التي تتطلب التعري.

وأحياناً كان أسرى الحرب يسيرون وهم عُراة عند تقديم واجبات الخضوع والطاعة، وهناك لوح مجسَّم يظهر بعض الناس وهم عُراة يجرُّون قارباً ثقيلاً

محمَّلاً ولكن وفي هذه الحالة من الممكن أن يكونوا قد تعرُّوا بسبب اضطرارهم للخوض داخل الماء.

إن إمكان التعرِّي لجميع السكان نلمسه من فقرة قالها الملك أسرحدون: بأنه سوف يمد العراة بالملابس، ولكن هذا كان في بابل عندما حاول الملك أسرحدون أن يرأب الصدع الذي أحدثه والده سنحاريب، وهكذا كان الحال بالنسبة لعدد كبير من السكان المفلسين ومن اللاجئين، وكان وضعاً استثنائياً.

ومن الجائز أن أسرحدون كان يبالغ في مدى البؤس الحاصل للتأكيد على كرمه، وتذكر إحدى النصوص إمكان حصول العوز والفاقة عند بعض الناس، لدرجة أنهم يرتدون الثياب المصنوعة من ورق البردى وهو الورق الذي صنع منه الورق المستعمل للكتابة قديماً.

سوف نبحث **أولاً**: في الملابس النموذجية للمرأة وكان العنصر الرئيسي هو رداء يحيط بالوركين ليغطي عورتها، ونعلم أن هذا الثوب ينبغي أن يمد بين الساقين وبعدها يربط، وذلك يعرف من أحد النصوص الذي يذكر إحدى العاهرات قد فكت رباطها ليسهل الوصول إليها، ويظهر أن هذه القطعة كانت تشبه النوع القديم من حفاضات الأطفال في الوقت الحاضر، لكنها تربط بواسطة رباط بدلاً من الدبوس، وهناك تلميحات بوجوب ارتداء المرأة كساءً حول ثدييها ولكن ليس لدينا معلومات حول هذا الموضوع، إذ نحن نقابل بعض الصور حيث تبدو بعض الخادمات وأثداؤهن عارية، ولكن ربما كان هذا بدعة فنية ولا يبرهن بالضرورة على انتشار عري الصدر بين الإماء.

مهما كان الوضع بين الفتيات الإماء فإن السيدة الآشورية لم تكن تظهر أمام الجمهور دون ارتداء الملابس الكاملة، مع أنها كانت في حالة السرِّية في بيتها خفيفة الملابس، وكان هذا هو الوضع بالنسبة لسيدات القصر في الألف الثاني المتأخر، نظراً لأن المراسيم بالنسبة للحريم الملكي في تلك الفترة تنص أن سيدة القصر ينبغي أن تحصل على إذن للحصول على ملابس تلبسها عند خروجها، ومن المحتمل أن تكون الملابس الموصوفة والتي تتمم لباس السيدة كما يجب إنما

هي الملابس التي تصوَّر بها السيدات في مجال الفن بحيث إن اللباس المنْزلي كان أبسط من تلك، وإن الصور تظهر أن السيدة التي ترى في المجتمع عادة كانت تلبس رداءً فضفاضاً ابتداء من الكتف حتى الكامل مع وجود نصف كم وهو مثبت بحزام.

وفي أسفل الرداء هناك تبدو ثلاثة أو أربعة خلاخيل على كل ساق، وإن شعرها الطويل (الذي يدعمه أحياناً شعر مستعار كما تكشف النصوص) كان مجدولاً بعدة ضفائر.

وتذكر المراسيم المختصة بالحريم الملكية أن السيدة ينبغي أن تخرج من القصر وهي مرتدية حذاء للخروج مما يدل أن السيدات داخل القصر كن يمشين حافيات الأقدام.

وكانت العاهرات يرتدين ملابس خاصة من أجل جذب الانتباه، وقد سمعنا أنهن كُنَّ يرتدين نوعاً خاصاً من المعاطف الجلدية، وكانت إحدى عاهرات المعبد متميزة بالشعر الأجعد، ولم تشجع العاهرات على ارتداء ملابس محتشمة.

وقد كانت العاهرات ممنوعات من قبل القانون من ارتداء حجاب الأمر الذي كان مفروضاً على السيدات المتزوجات عندما يخرجن من بيوتهن.

كان الشكل الأساسي لملابس الرجل التي كانت تغطي الرجل من رقبته حتى الركبتين مع أكمام قصيرة وحزام في الخصر لكن كان هناك صيغ مختلفة لهذا اللباس، فمن الطريقة التي تُعلَّق بها الثياب كان للرجل ثياب خصوصية عند الخروج مؤلفة من ثوب منفرد، ونوع من ملابس الخروج.

وفي بعض الحالات فإن الجزء تحت الحزام فيه نوع من الشرائط بالطول الكامل، وهي تظهر أنها كانت تُلف حول الجسم وتوحي أنها كانت جزءاً منفصلاً من الثوب تشبه ثوب الخروج، وكان من الممكن تعديل هذا النوع من اللباس بطرق مختلفة، ففي بعض الحالات هناك شرائط ممتدة بالمَيْل من كل كتف وتصالب عند الصدر.

وفي حالات أخرى فقد تطورت إلى نوع من الدرع المؤلف من زرَد كان يستعمله الرماة.

كان الجندي العادي والرجل العادي يرتدي رداءً يمتد حتى الركبة، ولكن الأشخاص ذوي الرُّتب العالية كالموظفين الكبار والضباط العسكريين كانوا يضيفون عباءة فوقه، وكانت هذه مسألة هيبة وذلك لأن مراسيم الحريم ذكرت أنه إذا اتُّهم أحد رجال البلاط بإهمال واجبه فإنه يعاقب بتجريده من عباءته.

وكانت العباءة مصنوعة من الصوف وأحياناً من الكتان ضمن سلسلة من الألوان التي تتدرَّج من الأزرق والأحمر والأرجواني والأبيض.

وعدا عن العباءة كان هناك رداء يلبس فوق الملابس وهو بدون أكمام، وكان يلبس فوق الرقبة وكان يشبه الكوتش (وهو المعطف الواقي من المطر) والرداء الكهنوتي.

أما ملابس الملك وأيضاً ملابس الموظفين الكبار فقد كانت معقدة بحيث إنه من الصعب تحديد ما يلبسه الملك حين نشاهد صوره في لوحة مجسمة، وعندما نرى الملك مرتدياً ملابس تلبس في المناسبات الاحتفالية فإنه يلبس عدة طبقات من الثياب مع أنه من غير الثابت إذا كان الرداء محتوياً ثوباً واحداً أم أكثر.

وإن الجزء المرئي بالنسبة لنا يمكن أن يكون شريطاً واحداً من القماش ملفوفاً حول الملك مثل الساري الهندي، وكان هذا الرداء مزيَّناً بأزهار مجوهرة وأحياناً مطرزاً برسومات دينية.

وفي الحالات التي تلزم بها سرعة الحركات كما هو الحال في حالات الحرب أو الصيد فإن الملك كان يلبس شكلاً أبسط من الملابس مؤسساً على قميص الجندي العادي، ولكن مع إضافة شيء من الوقار بجعله ممتداً حتى الكاحل وهو بالتالي يشبه القميص الليلي أو ما يدعونه في العراق اليوم بالدشداشة.

كانت المادة الأكثر استعمالاً في صنع الثياب هي الصوف، مع أن الكتان كان معروفاً من فترات مبكرة، وقد استعمل في صناعة أردية من أصنافٍ من

النوعية الأرقى، أما القطن فلم يصبح متوفراً إلى أن استقدمه سنحاريب وأدخله إلى بلاد آشور حوالي عام (٧٠٠ ق.م) وهو تاريخ بدء استخدام القطن في صناعة الألبسة.

وقد استعملت مواد أخرى أحياناً في صناعة الألبسة، وهذه تشمل الجلود وأوراق البردي.

لباس القدم -الحذاء-

وإذا حكمنا على أساس اللوحات المجسَّمة، فقد كان الآشوريون يمشون حفاة الأقدام حتى في أثناء الحروب، وكان أكثر الأنواع شيوعاً هو الصندل المكون من كعب ذي إسفين يُثبَّت بواسطة أشرطة تمد فوق أعلى القدم وحول الإصبع الكبير أي: الإبهام ولكن هناك أحذية أكثر تعقيداً.

وهناك شكل من هذه الأحذية كان حذاءً يغطي كامل القدم وكان الجزء الذي يغطي قوس القدم مصنوعاً من مادة مختلفة عن بقية الحذاء، ويظهر وكأنه مصنوعٍ من القماش المدروز في الجلد.

وقد ظهرت الجزمات غالباً ولاسيما التي كان يلبسها الصيادون أو الرجال الذين يشتركون في إحدى الحملات العسكرية، وكانت هذه مؤلفة عادة بطول الركبة أو بطة الرجل ويلبس فوق جوارب طويلة.

وهناك أيضاً مادتان مختلفتان مستعملتان فقد كانت مقدمة رجْل الجزمة مصنوعة من القماش مع أن البقيَّة كانت مصنوعة من الجلد.

وكان هناك إضافة لتقوية الحذاء عند الكعب وقد كان بعض الأجانب يلبسون نوعاً من الأحذية له خانات للأصابع ملتفة إلى الأعلى يشبه نوعاً من الأخفاف موجودة الآن في تركيا، ومن المنطقة حول كركوك وحوالي عام (١٤٠٠ ق.م) سمع عن طماقات مصنوعة من نوع من القماش، مع أنه ليس من الواضح إن كانت هذه جزءاً من الجزمات أم أنها عبارة عن قطع منفصلة بذاتها.

أما المعلومات حول أحذية النسوة فكانت أقل وَفْرَة مع أننا نجد مراجع تشير إلى أنواع خاصة من الأحذية تلبسها السيدات، ونحن نحلل صورة لملكة آشور بانيبال وهي تلبس نوعاً من الخُف الذي كان يغطي النصف الأمامي من القدم من النوع المتداول المعروف الآن باسم (الخف).

المجوهرات

لقد كان الرجال والنساء، يلبسون المجوهرات، ومع أنها لم تكن من نوع واحد، فقد سبق أن ذكرنا عن لبس النساء الخلاخيل، وهذه العادة لا تزال مستمرة بين الفلاّحات في العراق حتى الوقت الحاضر.

وفي بعض الفترات وفي منطقة ما بين النهرين كانت النسوة من أعلى الطبقات يَلْبِسْنَ زينة للصدر مكونة من معادن ثمينة، ولكن لا يبدو أن هناك شواهد على هذا في الفترة المتأخرة من عصر دولة آشور.

وكانت بعض المجوهرات الخاصّة بالنساء الآشوريات تتألف من قلائد من العقيق الأبيض معلقة في سلسلة ذهبية، وقد وجدت هذه في بعض القبور.

وكان الرجال يلبسون أيضاً مثل هذه القلائد وذلك حسبما نعلم من عقيق كتب عليه نقش مفاده أنه:

حجر الرقية خاصّة توكولتي- نينوترا.

وكان هذا هو الملك الثاني الذي كان يحمل هذا الاسم، وقد حكم هذا من عام (٨٩٠-٨٨٤ ق.م) وكان سلفه الأكبر توكولتي -نينوترا (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) قد رُسم في لوحة نافرة وهو يلبس أقراطاً في أذنيه.

وكان الرجل يلبس حجر تعويذة يتدلى من عنقه، وكانت هذه التعويذة بشكل رأس شيطان، وهي مستعملة لدرء الشر، وأحياناً كانت حجراً نقشت عليه تعويذة.

وأما الأختام الأسطوانية المؤلفة عادة من أحجار شبه كريمة، وكانت هذه تلبس بنفس الطريقة.

وكان من المعتاد بالنسبة للرجال الآشوريين ذوي المراتب العالية وأحياناً النساء أيضاً أن يلبسوا الأساور على المعاصم، وكانت الإسوارة تحمل زهوراً مستديرة بحيث تظهر بشكل ساعة اليد في العصر الحاضر. كانت الأقراط عنصراً مشتركاً بين الرجال والنساء، وكانت تحمل الهلال، وكانت مصنوعة من الذهب أو الفضة، مع وجود قلائد من أشكال مختلفة ملحومة بالقرط.

والقارئ الذي يرغب في الحصول على تفاصيل وافية عن هذه سوف يجدها موصوفة في كتاب **Hyslop** .

تأليف: **K .R. Maxwell** .

واسم الكتاب: المجوهرات الآسيوية الغربية منذ (٣٠٠٠-٦١٢ ق.م) عام (١٩٧١م) من الصفحات (٢٣٥-٢٤٦).

الشعر وأغطية الرأس

يطلق الرجال الآشوريون الذين يريدون لحاهم بشكل كثيف، وكذلك شواربهم الضخمة.

وأما الرجال الذين تشاهد صورهم بدون لحى فقد كانوا إما شباباً صغاراً، أو خصياناً.

وكان شعر اللحية طويلاً ولكن كان يعتنى به كثيراً مع ترك الأذنين مكشوفتين، ونجد اللحى وشعر الرأس متموجاً وأجعد بنهايته، وليس من المحتمل أن تكون شعور الآشوريين جميعهم مموّجة، إذ معنى ذلك أن الرجال كانوا يلجؤون إلى الحلاقين لتمويج شعورهم.

وهناك بعض الموظفين الذين كانوا يعملون في الخدمات الدينية والذين من الممكن أن نتجاوز وندعوهم كهنة، كان هؤلاء يحلقون بقعة من رؤوسهم كعلامة على طبيعة وظائفهم، وكذلك كان الأطباء.

لدينا كثير من الصور يُرى فيها الآشوريون لابسين غطاء الرأس، ولكن قسماً كبيراً من هذه الصور تمثل الآلهة، والعائلة المالكة والجنود أو الهيئات الدينية الذين كانوا يلبسون في بعض المناسبات أغطية رأس قديمة مهجورة، ربما كانت مرتبطة بمراتبهم أو أحوالهم الدينية.

وليست هذه ممثلة لطراز أغطية الرأس في ذلك الزمن مما تمثل أغطية الرأس في الوقت الحاضر، والتي يلبسها الشرطي أو لباس الرأس للكاهن الكاثوليكي، أو لباس الرأس للدون الإسباني.

وقد كانت الأشكال الوحيدة لأغطية الرأس الآشورية التي تُمَثّل لنا لكي نستنتج أنها غطاء رأس نموذجي هي عصابة الرأس.

وقد كان هناك عدة أشكال من هذه العصابة يستطيع الخبراء الفنيون تمييزها وإطلاق أسماء خاصَّة عليها.

ولكن بالنسبة للأغراض العملية فلم يكن هناك سوى عصابة الرأس التي من الممكن أن تكون مزينة أو بسيطة، أو تكون لها ترويسة أو لا تكون.

وكان الرجال والنساء يلبسون مثل هذه العصابة لكي تظل شعورهم مرتبة.

أو ربما تُثبت فوق عمامة كانت من طراز معقد ومهيب بالنسبة للملوك والموظفين الكبار.

المفروشات المنزلية

ليس من خطأ الكتبة في بلاد ما بين النهرين كون معارفنا عن التجهيزات المنزلية قليلة ومتقطعة.

فقد كانت طبقة المثقفين مولعة بإدخال الأنظمة والموديلات الجديدة إلى عالمهم.

ولذلك ودعماً لهذه الفكرة كانوا يدونون قوائم طويلة تشمل جميع الأشياء، ابتداءً من أسماء الآلهة إلى المصطلحات الخاصة بالأغنام، ولم تكن محتويات

البيوت محرومة من هذه الاعتبارات إذ إن النصوص المسمارية تقدم لنا كاتالوكات وافية تصف فيها المفروشات المنزلية.

ولسوء الحظ فقد بقيت هذه المصطلحات مجرد أسماء بالنسبة لنا، وفي بعض الأحيان كانت تضاف تفاصيل إضافية للنصوص، أو اكتشافات مواد من الحفريات وهذه تسمح لنا أن نخصص اسماً لبندٍ من بنود الأثاث المنزلي.

ولكن وحتى بالنسبة للأشياء المعروفة في بلاد ما بين النهرين القديمة فلا تستطيع الافتراض أن هذه الأشياء مستعملة في بلاد آشور.

وفيما يلي سوف نهتم بما يمكن إثباته فقط، أو ما يمكن استنتاجه بشكل معقد بالنسبة للبيوت الآشورية والقصور في الألف الثاني والأول قبل الميلاد.

إن اختلاف أصناف المفروشات التي تستعملها البشرية محددة بالحاجة إليها، إذ إن معظم الناس هم بحاجة إلى أشياء تحميهم من الرطوبة أو البرد أو صلابة الأرض أثناء النوم، وهم بحاجة إلى بعض السطوح التي يستطيعون أن يأكلوا منها طعامهم.

وإن أول المتطلبات اقتضى ضرورة استعمال الحصير والحرامات والتي تطورت فأصبحت فراشاً وكانت هذه الفراش تشمل إما فراشاً تمد على الأرض مباشرة أو طبليات مرتكزة على قوائم والتي نعرفها باسم الطاولة.

وبوجود استعمال الطبليات كان الآكلون يجلسون على الأرض وربما يضعون بعض الوسائد تحتهم طلباً للراحة.

ولكن وجود الطاولات التي كان يفضلها سكان ما بين النهرين القدماء يستلزم إضافة كراسي للأظهر أو مصطبات أو كراسي عادية وقد وجدت في بلاد آشور جميع قطع الأثاث الرئيسية مثلاً: الكراسي بلا ظهر والقاعدة والكراسي والطاولات والأسرَّة.

ولكن لا يعني هذا أن كل إنسان في آشور القديمة كان يستعمل هذه الأدوات إذ إن قطع المفروشات الشديدة التعقيد كانت محدودة بالأغنياء، أما

الرجل العادي فكان يعيش في هذه الحياة دون وجود أي مفروشات عدا بعض الحصر من القصب التي كانت تخدم شؤون الجلوس والأكل والنوم وشؤون الدفن.

الكراسي بلا ظهر -الطاولات والكراسي العادية-.

كانت الكراسي بلا ظهر مصنوعة من القصب وإطار خشبي، مع أننا نسمع عن وجود كراسي من هذا النوع أكثر تعقيداً وكانت تصنع من الخشب القاسي الممتاز، وتزين بنقوش من العاج أو الذهب وكانت هذه الكراسي تستعمل كمقاعد أو كركائز يضع عليها الإنسان قدميه.

كانت المصطبات مصنوعة بصورة شائعة من الغضار (اللبِّن) أو الغضار المشوي، مع أنها كانت تصنع أحياناً من الخشب.

وكانت تثبت عادة على طول الجدران وتظهر الشواهد الأثرية عنها وكانت تعود إلى فترات مبكرة قديمة في المعابد وبيوت السكن.

ولكن يبدو أن الشواهد عليها في بلاد آشور شحيحه وقليله وقد وجدت كلمة في بعض النصوص الآشورية الجديدة يعتبرها بعض الباحثين أنها تعني مقعداً للنوم ربما دلت على شيء مختلف تماماً.

وهناك شواهد أثرية وافرة حول الكراسي التي كانت ذات هياكل مصنوعة من مختلف أنواع الخشب، وأحياناً كانت تزين بنقوش من النحاس أو البرونز أو الفضة أو العاج المزخرف.

وكانت المقاعد تغطى بالجلد أو سعف النخل وأوراق البردى ومن الممكن أن تكون مبطنة باللباد، وكانت الكراسي تزود أحياناً بأغطية فضفاضة من الكتان، وكان من الممكن إحداث تحسينات مختلفة على الكرسي البسيط مثلاً يمكن تطويره ليصبح كرسياً ذا ذراع، ومن الممكن في حالات خاصة أن يصبح عرشاً للملك.

إذ نحن نرى سنحاريب جالساً على كرسي من هذا النوع عند حصاره لأخيين.

ومن الممكن إضافة بعض الأعمدة للكراسي يجري استخدامها كمحفات متنقلة، وهذا التطوير يقلل عن الكرسي صفته كعنصر من عناصر الأثاث المنزلي، وقد شاهدنا أن سنحاريب كان يستعمل مثل هذا الكرسي.

ليس هناك صعوبة من إيجاد أمثلة عن وجود الطاولات في بلاد آشور، فقد وجدت الطاولات ونماذج منها ضمن الحفريات هناك، ونرى هذه الطاولات متمثلة بالألواح الناضرة وكانت تصنع من الخشب بشكل عام مع أنه كان من الممكن إضافة زينات من المعادن، وكانت بعض الطاولات تصب بشكل هياكل من البرونز.

وأما في آشور فقد كان النوع السائد هو طاولة صغيرة مربَّعة قائمة على أربع قوائم مزخرفة.

وهناك شواهد على استعمال غطاء الطاولة تأتي من مقاطع يذكر واحد منها (قماش من الكتان موضوع على الطاولة المذهبة الخاصة بالإله شميش.

ومع أن هذا المثال قد أتى من بابل وليس من آشور، وقد استعملت حتى الفوطة على الطاولة مع أنها لم تكن بالشكل الذي نعرفه فقد كان أحد الخدم يحمل الفوطة ويقدمها إلى الشخص الذي يتناول العشاء ليمسح يديه عندما يغسلها بعد انتهاء الطعام.

وهناك أثر لهذا الاستعمال في الشرق الأدنى يوجد من الطريقة التي تقدم بها خادمة الكنيسة الإنجيلية العليا في بريطانيا فوطة للكاهن لكي يمسح أصابعه بها بعد الغسل من خلال القربان.

الأسرَّة

لم يمتلك الإنسان سريراً فقد كان الفقراء ينامون على حصير من القش أو القصب وحيث كان هناك أسرَّة، كانت هذه مؤلفة من إطار يدعم قاعدة مصنوعة عادة من الخشب مع أنه كان هناك إمكانات أخرى، وكانت هناك مواد بديلة تشمل الحبال أو قطع القصب.

وكانت بعض الأسرة (وليس جميعها) مزودة بجوانب خشبية تجعل السرير بشكل صندوق خشبي قليل العمق.

وكانت تدعمها قوائم مصنوعة من أشكال من الزينة وعادة تتألف من قدم منحوتة بشكل مخلب أو حافر ثور كما هو الحال بالنسبة للكراسي والطاولات، فقد كانت أسرة الملوك والآلهة مزينة بالذهب والفضة والعاج المحفور.

وكان السرير دعماً للفراش، وكانت الفرشة محشوة بالصوف أو شعر الماعز أو بسعف النخل، وكانت أغطية السرير مصنوعة من الكتان أو الصوف.

ومن الممكن أن نجد الوسائد مذكورة في الكلمات الأكادية المشكوك في أمرها، وكانت الحصير تستعمل بالتأكيد يجانب السرير.

إن ذكر الحصير المستعمل بجانب السرير يذكرنا بالمسألة المهمة وهي موضوع أغطية أرض الغرفة، ونحن نعلم أنه لا بد من وجود السَّجاد في القصور نظراً لأن هناك في الألواح المصنوعة من الحجر الكلسي منقوشة لتمثل السجاد التي يبدو أنها كانت متممة لامتداد السجاد فعلاً في المساحات ذات التعرض الأقل للاحتكاك الشديد.

الإضاءة الاصطناعية

إن إحدى وسائل الراحة التي نعدها ضرورية في وجودنا الحضاري هي تأمين شكل من أشكال الإضاءة الاصطناعية التي تنير ساعات الظلام، والحقيقة أن الإضاءة الاصطناعية هذه كانت متوفرة بالنسبة لسكان المدن التي أصبحت بلاد آشور في أزمنة ما قبل التاريخ.

وكانت المصابيح عبارة عن أوعية تحتوي على زيت بذور الكتان مع وجود فتيل مصنوع من قصب أو نبات آخر أو حتى الصوف، وكانت الأصداف مستعملة في الأزمنة القديمة كأوعية وبعد ذلك تم تقليدها بصنع أوعية من الفخار أو المعدن.

وكانت القصور تزود بالمشاعل المتوهجة عند حدوث حفلات، وكانت هذه المشاعل مصنوعة من حُزَم من القصب المغطسة بالزيت ويحملها الخدم عالياً.

أدوات التجميل والتواليت

استعمل الآشوريون مرايا من الذهب أو الفضة أو البرونز الذي كان يلمَّع حتى يتحول إلى سطح عاكس.

وكان هذا يتم عن طريقة صقل المعدن بواسطة نوع من الجلد يشبه الشاموا، وذلك لأن بعض النصوص تذكر اسم الجلد الدوسو لأجل المرآة.

يجري تمثيل الآشوريين بشعر طويل، ولكنه مذنب، وليس بعجيب أن نجد أنهم كانوا يمتلكون الأمشاط التي كانت تصنع من الخشب أو العاج وبمهارة.

وقد ذكرت الشفرات ولكن ليس لدينا تفاصيل عنها مع أننا إذا حكما بوجود ذلك المظهر النظيف والمرتب للشوارب واللحى المتمثلة بالأعمال الفنية فإن هذه الشفرات كانت عظيمة الفعالية.

استعملت النساء أدوات التجميل، للعينين والبشرة ولا شك أنه وعلى الأقل في بداية الألف الثاني كانت عملية تكحيل العيون تعتبر ذات جاذبية جنسية وهذا واضح أنه من إحدى الأساطير.

إذ يقال: إن الإلهة السومرية أينانا (كانت عشتار آلهة الحب فيما بعد) لاستعداداتها أن وضعت على عينيها مرهماً يدعى:

(أرجو أن يأتي، أرجو أن يأتي) وهكذا فهل كانت العلاقة ما بين ميكياج العين والإثارة الجنسية لا تزال مغترفاً بها في آشور في الألف الأول ق.م؟

الحقيقة أننا لا نعرف ذلك فقد كان مكياج العينين المصنوع من معجون مادة الأنتمون ويوضع على الجفن بواسطة دبوس منحوت من العاج، وأن الشواهد على استعمال أحمر الشفاه طفيفة ولكنها أكيدة.

وقد قدمت لنا هذه المعلومات قائمة فسّرت فيها المصطلحات السومرية التي تعني حرفياً: (المعجون الذهبي) والذي يفسر باللغة الأكادية بأنه الصباغ الأحمر للوجه.

أدوات المائدة

لقد احتوت الأدوات المنزلية على الملاعق والسكاكين وكانت الملاعق مصنوعة من الخشب أو المعدن، وأحياناً من العاج مع أن بعض أقدم الملاعق المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة كانت مصنوعة من القار، وهذا يعطي شعوراً بالاحترام للزمن القديم لاستعمالهم الأعواد البلاستيكية لتأمين الأدوات المنزلية.

وكان للسكاكين شفرات من البرونز أو الحديد أو من الصوّان وهذا (من مخلفات العهد النيوليتي وهو العصر الحجري الحديث) وكانت أدوات القطع المعدنية تُسَن على أداة جلخ مسطحة (بطول الإصبع تقريباً).

وقد وجد كاتب هذه السطور بعض هذه المجالخ في تل الرماح غرب الموصل ووجد أن هذه كانت من أفضل الوسائل الفعالة التي وجدها والتي تصلح لسن سكين الجيب.

وسائل التخزين

لقد كان البيت الآشوري شأنه شأن أي بيت بحاجة إلى حاويات لحفظ أواني المطبخ والمؤن، وتتدرج هذه اعتباراً من حاويات الخشب أو الجلد لحفظ المرايا والأدوات والخناجر والأحذية وتتدرج هذه حتى الصناديق الخشبية الكبيرة. لقد استُعمل نوعان من الحاويات الخشبية التي تشبه الأقفاص والصناديق لحفظ الفواكه.

وكانت هناك مادة أخرى للتخزين وهي القصب الذي إذا جُعل عازلاً للماء بواسطة القار من الممكن أن يصبح بشكل حاوية لحفظ الملابس الكتانية في حالة جفافه أو أن تكون بشكل أوعية لحفظ السوائل.

وهناك مادة متوفرة وهي العاج ولكنه نظراً لغلاء ثمنه، فقد كان استعماله مقصوراً على الأغطية المنحوتة الخاصة بصناديق الزينة.

وكانت الحاويات الخاصة بالأطعمة والسوائل تشمل الطاسات الخاصَّة أو الخشبية أو أباريق الشرب الفخارية أو المعدنية، وقد وجد في أحد القصور في نمرود (كالاخ القديمة) بعض الكاسات الفخارية الجذابة وهي مصنوعة من الفخار دقيق الصنع تعود إلى القرن السابع ق.م، وقد استعمل الزجاج أيضاً ولاسيما بصنع القوارير وكان النبيذ يخزن في جرار خاصة تتسع لعدة غالونات، وقد وجد عدد من هذه التي كانت كل واحدة قد كتب عليها حجمها وسعتها وجدت في نمرود.

تمديدات المياه

إن توفر المياه ضروري لبناء المستوطنات فلقد كانت آشور مملوءة بالمياه فكان فيها النهر العظيم وهو نهر دجلة مع تابعيه الزاب الأعلى والزاب الأدنى، بالإضافة إلى عدد كبير من الجداول الصغرى التي تغذي هذين الرافدين.

وهناك أيضاً عدد من الوديان والجدوال الصغيرة التي كان بعضها دائم الجريان طول السنة وهذه تشبه أحد الينابيع الرئيسية التي تغذي البرك طوال

السنة، تشبه أحد الينابيع المتواجدة في قرية تدعى (تل أبو مرياح) في الجزيرة إلى الغرب من الموصل.

ولقد أضاف بعض الملوك الآشوريين إلى الإمدادات المائية المتواجدة حول عواصمهم عن طريق إنشاء مشاريع هندسية لجلب المياه القادمة من الجبال.

وحيث لا يوجد إمدادات من المياه السطحية المتوافرة كان الماء يجلب عن طريق حفر الآبار.

ولقد وجدت عدة آبار آشورية ونظّفت في منطقة نمرود وقد مارس كاتب هذه السطور تجربة النزول إلى أحد هذه الآبار حتى عمق تسعين قدماً أو ما يقارب ذلك لفحص مقدرة الآشوريين في بناء المشاريع التي استعمل فيها الآجر.

وكان في كل مدماك ثالث من الآجر في مخطوطات ملكية تشهد على فخر باني البئر الملكي الذي قاوم عمله هذا ضغط التراب مدة تقارب ثلاثة آلاف عام.

ومن هذا البئر كان الماء يدفع بواسطة قدور متينة سعة الواحد نحو نصف جالون وهي مشدودة من أعناقها بحبل يشكل سلسلة طويلة ويديره جحش على قمة البئر بحيث تظل القدور في حركة دائمة وهي تغطس في البئر.

وبالنسبة لنقل الماء من مصدره كانت تستعمل دلاء، وكانت هذه مصنوعة من الخشب أحياناً، ومن النحاس أو البرونز في أحيان أخرى، وكانت العادات القديمة في الشرق الأدنى تقضي أن هذا العمل كان من واجب النساء مع أنه لا يبدو أن هناك شاهداً أو برهاناً على ذلك.

الأوزان والمقاييس

إن بيع وشراء بعض البضائع يتطلب وجود بعض وسائل الوزن، وهذا كان ضرورياً لقياس الكميات الصحيحة اللازمة لبعض العمليات التقنية الخاصة التي كانت تشمل الطبخ مثلاً.

ولهذا استعملت الموازين لمثل هذه الأغراض، وكان بعض هذه الموازين صغيراً لدرجة أن استطاعته وزن نصف شاقل (وهذه قيمته غراماً أو أكثر بقليل).

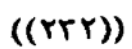
والأخرى كبيرة بشكل كاف لتزن رجلاً، ونحن نعلم هذه المعلومة من بعض التقارير التي مفادها أن أحد ملوك آشور قد وضع أحد أعدائه الأسرى على ميزان وذلك لكي يقدر وزنه بالفضّة التي ينبغي دفعها للشخص الذي أسره.

وكانت الأوزان المستعملة مصنوعة من الحجارة أو البرونز التي كانت منحوتة أو مسكوكة بشكل جميل جذاب بمثل بطة أو أسد.

وأما قياس الحجوم فقد كان أكبر مقياس هو الإيمار ويعني حرفياً: حمل الحمار، وهذا يقسم إلى عشرة (سوتو) وذلك بدوره يقسم إلى عشرة (كو) وكان حجم الكو يعادل ثلاثة باينت[1] أو أقل من ليترين، وهذا يجعل قيمة الإيمار مساوية بالضبط لخمسة (بوشل) هذا وإننا على علم بقيمة مقاييس الحجوم الآشورية بشكل دقيق وذلك نظراً لأن بعض جرار التخزين فيها علامات تدل على سعتها.

---

[1] الباينت مقياس للسوائل يساوي ١على ٨ غالون والغالون =٤،٥ ليتر.



الفصل الحادي عشر

الزراعة وتربية الحيوان والتجارة

كانت أساليب الحياة لدى الآشوريين من أول نشأتهم حتى نهايتهم مرتكزة على نوعين من الأنشطة:

وهي النشاط الزراعي (وتربية الحيوانات) ثم التجارة.

الزراعة

لقد اعترف ملوك آشور حتى أولئك الذين حازوا على شهرة حربيَّة هائلة بأهمية الزراعة في حياة الآشوريين، ويذكر أكثر من واحد منهم عن تطوير الموارد الزراعية والحيوانية قام بها أثناء حكمه وهكذا يقول تغلات بلاسر الأول (١١٥-١٠٧٧):

(لقد أتيت بالمحاريث لتعمل خلال جميع أراضي آشور، وهكذا تجمعت لدينا أكوام من الحبوب أكثر من عهد أي جد من أجدادي.

ولقد ربيت قطعاناً من الخيل، والمواشي والحمير وذلك من الغنائم التي كسبتها وبمساعدة سيدي الإله آشور من البلدان التي استوليت عليها).

وبعد أربعة قرون تقريباً مدح سرجون الثاني (٧٢٢-٧٠٥)ق.م نفسه أو ربما مدحه الآخرون لأنه:

((قد قرر أن..يستثمر الأرض المراحة، وأن يزرع البساتين وقد قرر أن يجني المحاصيل الزراعية من منحدرات الجبال الصخرية التي لم تنتج أبداً أي محصولات زراعية، وقد قرر أن يحفر أثلاماً وأخاديد في الأراضي القاحلة التي لم تعرف وجود المحاريث طيلة حكم من سبقني بحيث تجعل الناس ينشدون أناشيد الفرح.))

لقد تبينت نتائج سياسة سرجون الاجتماعية والاقتصادية، فلقد كانت هذه السياسة تبغي إنقاذ البشرية من الجوع والحاجة بحيث لا يصبح الزيت وهو

الضروري لترخية العضلات غالي الثمن داخل البلد، وبحيث تصبح بذور الكتان رخيصة الأثمان في الأسواق كالشعير.

ولقد أشرنا سابقاً أن مشاريع الري لم يكن من الممكن الاستغناء عنها في الزراعة في آشور ولكن الري حيث يكون متوفراً كان ذا فوائد معتبرة.

وقد هندَسَ عدة ملوك بناء أقنية لسقي الأراضي حول عواصمهم ومن بينهم آشور ناصر بعل في (كالخ) وسرجون في (دور شار كين) وسنحاريب في (نينوى)، وحول العواصم استطاع الملوك بناءً على وفرة المياه، القيام بتنفيذ مشاريع طموحه بشكل استثنائي.

ولقد استثمر سنحاريب بصور خاصة بعض مياه الري المتاحة لتنفيذ مشاريع زراعية واسعة حول نينوى، حيث استبنت أشجاراً غريبة ونباتات كالقطن الذي جاء به من الخارج، ولكن مثل هذه المشاريع كانت استثنائية، وعلى الرغم من الأهمية التي أظهرها سنحاريب في نقوشه للحدائق إلا أن معظم الأراضي حول نينوى كما هو الحال خلال بلاد آشور، كانت تلك الأراضي مكرسة لزراعة المحاصيل الزراعية الغذائية ونباتات العلف.

كان المحصول الرئيسي في آشور هو الشعير مع القمح وهو النِّد الثاني، وكانت الحبوب الشائعة هي القمح الفاخر والدخن وهناك إمكان وصول الرز إلى آشور من خلال بلاد فارس وذلك في الألف الأول ق.م.

وكانت الأداة الزراعية الرئيسية هي المحراث في أشكاله العديدة المختلفة.

وكان أحد أشكال المحراث هو الذي يشق التربة، والشكل الآخر كان لزرع البذور الذي كان في عملية واحدة يقطع الأثلام ويسقط البذور.

وكان كلا هذين النوعين يُجَران إما بواسطة الثيران التي كان عددها يصل إلى الثمانية أو بشكل أقل بواسطة الحمير أو نادراً بواسطة الخيول.

كان موسم الزراعة في بلاد آشور (كما هو الحال اليوم) يبدأ بالحراثة وبذر البذور في أواخر شهر تشرين الأول وتشرين الثاني استعداداً لهطول الأمطار، وفي

السنوات الجيدة تبدأ أول زخات المطر في شهر تشرين الثاني مع أن المطر الغزير إنما يحدث حوالي شهر نيسان، ولكن لا تهطل الأمطار دوماً في شهر تشرين الثاني وإذا تأخرت الأمطار طويلاً نتج عن ذلك سوء الموسم حتماً، وقد كان هذا يحدث حتماً ولقد صادفه في عام ١٨٤٧ ميلادي السيد هـ.أ لايارد.

يحدث دائماً أن يمر الموسم دون سقوط أمطار، وهكذا كان الحال في هذا العام ففي خلال الشتاء والربيع لم تهطل الأمطار، وبدا السكان وهم في حالة يأس وقنوط بسبب السماء الخالية من الغيوم وقد راقبت الأعشاب الصغيرة النامية وهي تحاول النضال للخروج من خلال الأرض الصلبة اليابسة ولكن هذه الأعشاب تحترق قبل ولادتها.

وفي بعض الأحيان قد تدنو غيمة فوق التلال المستوحشة في أربيل، وإذا ارتفعت الغيوم في السماء قادمة من الصحراء في أقاصي الغرب فإن ذلك يؤدي إلى بداية الأمل، وإذا هطلت بضعة قطرات من المطر فإن ذلك يؤدي إلى ظهور الفرح والحبور، ولكن كان يتلو ذلك خيبة الأمل، فقد مرت الغيوم وظهرت فوقها السماء الزرقاء الصافية.

وبالنسبة لآشور القديمة (كما هو الحال بالنسبة لنفس المنطقة طيلة القرن الماضي) كان انقطاع المطر يؤدي إلى كارثة ويهدد بالمجاعة، ونتيجة لذلك كانت أحوال مصير الحصاد قضية ذات أهمية خاصة لجميع الناس في خلال البلاد.

مما يجعل من الأهمية بمكان أن يبادر المسؤولون الإداريون لرفع التقارير إلى الملك ويخبرونه بالوضع الحاضر بالنسبة للأمطار والمحاصيل.

وقد لقيت الخرافات دورها بحيث ترسل إلى الملك تقارير ملكية حول الوضع الراهن بواسطة الخبراء الدينيين، وكان هناك قدر من الاطمئنان ضد سوء المحاصيل الشامل وذلك لوجود موسمين لزراعة الشعير موسم متقدم وموسم متأخر، وذلك في أرض تختلف نوعياً، وهكذا، إذا هطلت الأمطار باكراً عند أحد المزارعين وهطلت بشكل خاطئ عند مزارع آخر فإنه يصبح عندها من المؤكد أن الموسم سوف يصبح جيداً عند أحدهما.

وهناك تهديد ثانٍ رئيسي للمحاصيل الزراعية وهو أسراب الجراد، وقد كانت أخبار هذه المصيبة تصل إلى الملك في رسائل يرسلها الولاة المحليون أو يتنبأ بها الفلكيون في تقاريرهم، ولكن وجود الجراد بأعداد ضئيلة لم يكن كارثة عامة لا يمكن تجنبها، فقد كانوا يمسكون بالجراد ويأكلونها كطعام يدل على البذخ ربما كان مثل القريدس (برغوت البحر).

إن ما نعرفه عن المحاصيل الزراعية الآشورية من النصوص القديمة يمكننا الآن إتمامه نتيجة لأعمال الباحثين النباتيين المتعاونين مع علماء الآثار وذلك لفحص بقايا النباتات المتفحمة.

ويخبرنا المرحوم الأستاذ هانس هيل وهو واحد من الرواد في هذا المجال: إنه وبعد الحكم عن طريق بذور الأعشاب النامية بين بقايا الذرة فقد حملت حقول الشعير كميات من الأعشاب مثل: الشوفان والشيلم والكرسنه والحميضة.

وهو لا يذكر (بسبب عدم وجود بقايا من البذور) أن النباتات البصلية وبصورة خاصة نباتات التوليب الذي كان حتى الستينات من القرن العشرين لا يزال بكميات وافرة في حقول الذرة في بعض أجزاء شمال العراق حيث لم تكن عملية الحراثة العميقة التي تتلف هذه البذور قد وصلت إلى المنطقة.

فإذا لم تسقط محاصيل الحبوب ضحية للجفاف أو الجراد فإنها كانت تجنى ابتداء من نهاية شهر نيسان حتى أواخر حزيران وذلك باستعمال المناجل التي كانت تصنع من الألف الثالث ق.م من النحاس أو البرونز، وقد استعمل الحديد فيما بعد.

وقد كانت الذرة تقطع وتجمع بشكل حزم وترفع بواسطة المذراة وتنقل إلى أرض البيدر، وكانت هذه عادة مستوياً ناعماً من الصخر في مكان غير معرض لهبوب الرياح وذلك من أجل عملية التذرية، وكانت عملية دراسة المحصول تتم بمساعدة الثيران التي كانت تجر نورجاً وهو لوح خشبي غرزت فيه قطع من الأحجار المدببة من الصوان ويدور هذا اللوح فوق الذرة المنتشرة.

وبعد فصل حبوب الذرة عن السنابل كانت تجري عملية التذرية وذلك برمي الذرة في الهواء بواسطة رفوش خشبية وتحمل الرياح التبن الخفيف أما الحبوب الأثقل فتسقط على البيدر وأخيراً توضع الحبوب النظيفة في مخزن، وهذا يخص شخصاً معيناً أو يرسل إلى المعبد أو إلى مخازن الدولة، وحتى في تلك المرحلة هناك مشكلات واجبة الحل نظراً لأنه إذا وجدت الثيران والطيور طريقاً إلى المخازن فإنها سوف توقع الهلاك في مخازن الحبوب.

ومن الممكن أن تخصص الحبوب للاستهلاك السريع من قبل الآلهة أو البشر أو الحيوانات، وفي حالة الحيوانات فإن الحبوب تستعمل إما كاملة أو مطحونة كعلف للمواشي أو الخيول، أو تستعمل بشكل كرات من العجين لتسمين البط والإوز، أما إذا كانت تستعمل كطعام للبشر فإن الحبوب كانت إما أن تسحق للاستعمال بشكل برغل أو تطحن لعمل الطحين وتنعم للخبز وكان الشعير يستعمل لصنع البيرة.

هناك نوع من المحاصيل الزراعية التي حدد هويتها الأستاذ هيليك من بقاياها الكربونية وهو على نحو يقبل الجدل وهي بذور الكتان وهي مصدر الزيت الذي يدعى زيت الكتان وخيوط الكتان.

ولا شك أن هذا النبات كان ينمو في منطقة ما بين النهرين القديمة قبل الألف الأول ق.م، وأن النقطة المثيرة للجدل التي تظهر أنه كان هناك أيضاً نبات منتج للزيت وهو يدعى باللغة الأكادية شما شامو (والتي معناها أحلا نبات الزيت) وعندما يعلم الإنسان أن الشين الأكادية يصبح سيناً بالعربية فمن الواضح عندها أن هذه الكلمة هي أصل اسم سمسم بالعربية، ولكن هل كان السمسم نباتاً حقيقة ؟

وقد أجاب الأستاذ هيل باك على هذا السؤال بكلمة: كلا، فهو يظن أن هذه الكلمة تعني: نبات الزيت، وهو بذور الكتان الذي وجد منه كميات هائلة وليست السمسم الذي لم توجد منه أي كمية باقية.

وطبقاً لرأيه فإن السمسم لم يصل إلى منطقة ما بين النهرين من الهند إلا في الألف الأول ق.م عندما حل محل بذر الكتان واتخذ اسمه السابق.

ولكن الرأي حول التاريخ المتأخر لوصول السمسم لا مجال للشك فيه ويستمر بعض الباحثين بالقول إنه كان مستعملاً في بلاد ما بين النهرين القديمة بما فيه آشور.

وهناك بين النباتات الغذائية التي وجدت العدس والحمص والخيار ، وقد ذكرت البساتين في النصوص وأحياناً ظهرت مرسومة في الألواح النافرة ومن بين الفواكه المعروفة من مثل هذه المصادر والمتميزة بشكل نباتي من بقاياها وهي: العنب والتين والزيتون والرمان وكان التمر طعاماً شائعاً في آشور مع أن أشجار النخيل لا تنجح هناك، وكان مصدر تصديرها ووجودها أتٍ من بابل.

لدينا مصادر أخرى من المعلومات حول الأشياء التي كانت تزرع في بلاد آشور، مثلاً هناك قائمة بالمأكولات التي استهلكت في المأدبة التي أقيمت عند تدشين العاصمة التي بناها آشور ناصر بعل الثاني (٨٨٣- ٨٥٩)ق.م وهي كالاخ ، وفيها تعد أعداد كبيرة من الطعام والتي كان الكثير منها من أصل نباتي، ولسوء الحظ فإن تحديد هوية الأكثرية من هذه المواد هو عمل حدسي، ولكننا نستطيع وبثقة أن نتعرف على البصل والثوم والكراث واللفت والبهارات.

وقد أنشأ بعض الملوك الآشوريين عمداً بعض الحدائق التي زرع فيها نباتات وأشجار منقولة من بلاد أخرى ولكن عرف كثير من الحالات كانت النباتات الجديدة قد أحدثت تأثيرات على الزراعة في آشور بصورة عامة.

وهناك مثل قد تطرقنا إليه سابقاً كان تقديمه ذا أهمية اقتصادية وهو القطن وبذره وكان صريحاً بذكره كواحد من النباتات التي زرعها في حديقته حول نينوى وقد سماه الأشجار التي تحمل الصوف، وكان قد صرح بوضوح بالنسبة لاستعمال هذا النبات بقوله:

لقد قطفوا الأشجار التي تحمل الصوف وغزلوها ونسجوها لتشكل بعض الألبسة.

تربية الحيوانات

كان هناك عنصر مساوٍ في أهميته للمحاصيل الزراعية وهو تربية الحيوانات، وكانت أهمية تربية الحيوانات القومية قد اعترف بها لتكون موضوع بشير الفأل الحسن التي كانت ترسل إلى الملك، وهكذا نجد تنبؤات من النوع الثاني ((عندما تحيط هالة بالقمر – ونجم القمر يقف ضمنها فإن الماشية في البلاد سوف تنتج إنتاجاً حسناً)).

أما الآخرون من الكهنة فيذكرون معاني عكسية إذ يقولون:

((عندما يقترب الكوكب زحل من مجموعة نجوم هايادس (ومعناها الحرفي فك الثور) فإن هذا يعني: إما أن الظروف المناسبة المواتية في البلاد سوف تختفي أو أن منتوجات المواشي والأغنام سوف تصبح في حالة عسيرة من عدم الازدهار)).

وكان للمواشي أهمية مزدوجة فلم تكن هذه ذات قيمة بالنسبة لكونها مصدراً من مصادر الطعام فحسب بل لكونها أيضاً تستعمل كحيوانات للنقل والجر.

فالثيران كانت تستعمل لجر المحاريث والعربات فضلاً عن عملية دراسة الحبوب ولما كانت الثيران غير لازمة الآن للتربية فإنها كانت تخصى عادة مع أن بعضها كانت تترك حرة لأن بعض الطقوس الدينية تتطلب تضحية ثور غير خصي، وكان لحم العجل من العناصر المقبولة على مائدة الطعام مع أنه ليس شائعاً سوى على موائد الأغنياء.

وقد تضمنت مائدة الملك آشور ناصر بعل مئة ثور مملح (من المحتمل أن تكون بشكل قطع كبيرة لأنه من المستحيل تمليح الثور كاملاً لحفظه من الفساد).

وهناك إحدى المظاهر المهمة بالنسبة للبقرة وهو إنتاجها للحليب ولدينا صورة مشهد حلب البقرة من فترة مبكرة (مع أنها ليست من آشور) وبالإضافة إلى استعمالها بشكلها الأصلي فإن حليب البقر يستعمل بشكل يدعى الحليب الحلو، وقد تكون هي اللبن، الياغورت وكذلك تحضير الجبنة مع أن الجبنة الوحيدة

من أصل معروف مذكور في النصوص الآشورية إنما هي من حليب الغنم، وكانت المواشي تحفظ بشكل قطعان في الحظائر وتقيم في سقيفات.

ولكن يجب أن يكون قد حدث شيء من تحسين النسل ضمن المواشي المنزلية لأن النصوص تشير إلى إدخال ثيران برية إلى الحظائر وكانت هذه الثيران ترعى مع البقرات، إذ لم تكن هذه الثيران قد أحضرت لأجل الرعي فحسب.

كانت الأغنام شائعة جداً بشكل أجناس مختلفة ونحن نعلم أسماء بعض الأجناس من النقوش، ولكننا لا نملك أي وسيلة لمعرفة خصائص هذه الأجناس مع أن أحد هذه الأجناس يحمل اسم ذات الصوف الذي يشبه الأسلاك وهذا الاسم يفسر نفسه، وهناك اسم لا يقدم لنا أي مشكلة بالنسبة للتمييز في هويته وهو الغنم ذو الذنب السمين، وهو لا يزال شائعاً في العراق في هذه الأيام وقد عرفت بعض أجناس محلية مثلاً: العموري والأكادي وغنم حانا.

والأخير سمي باسم مكان واقع في منطقة الفرات الوسطى مع أننا لسنا متأكدين فيما إذا كانت هذه الأجناس موجودة في آشور، ولكن نعلم بالتأكيد أن هناك جنساً معروفاً في آشور باسم (حابى) وهو اسم مأخوذ من مكان تواجده في الجبال الشمالية، ولقد كان هذا سبباً في تشويش جرى على بعض الباحثين في دراستهم الجغرافيا القديمة عندما افترضوا أن أي مكان ذكر فيه اسم أغنام (صبحا) لا بد أن يكون من منطقة تدعى صبحا.

لقد كانت أهمية الأغنام تكمن في لحومها وحليبها (وهو المستعمل في جميع الأشكال المذكورة بالنسبة لحليب البقر وكان يشار إليه بشكل مستمر) وكذلك لأجل أصوافها.

وحتى عام (١٤٠٠ ق.م) كانت الأغنام في بعض أجزاء آشور على الأقل تتعرض للنتف وليس للجز أي: إن الصوف كان يجري اقتلاعه أو نزعه بالتمشيط عند فترة تبديل الحيوانات لصوفها، ولكن جز الصوف المعروف الآن بأنه كان مستعملاً في وقت أبكر أصبح العمل العادي المعروف فيما بعد.

ومن الممكن إن كان ذلك مصحوباً ببعض التغييرات الجينية في الأغنام التي جعلت الصوف سهل الجز ، وقد كان موسم الجز في زمن قدوم الصيف وبالتحديد في شهر أيار.

وكانت جميع الأجناس المدجنة تستعمل لتقديم القرابين للآلهة ، ولكن الأغنام لعبت دوراً إضافياً في مجال السحر والدين، وكانت إحدى الطرق الأكثر شيوعاً للحصول على فأل حسن أن تقدم سؤالاً أو رغبة للإله وبعدها تذبح شاة ثم تفحص كبد الشاة، إذ إن أي شذوذ في كبد الشاة كان يفسرها منجم خبير بأنها هي إجابة الإله على سؤالك واستفسارك.

ولقد أصبحت هذه الأشياء أقل أهمية في آشور عند ازدياد أهمية التنجيم لنفس الغرض، كانت الماعز غالباً ما ترعى مع الأغنام ، إلا أنها كانت أقل عدداً من الأغنام وكانت تقص شعور الماعز في الوقت نفسه الذي تجز فيه أصواف الغنم.

وفي هذه الأيام أصبح شعر الماعز ذا أهمية لكونه يشكل أليافاً مهمة لصنع الخيام والسجاد ، ونظن أنه كان يستعمل هكذا في الأزمنة القديمة مع أن الشواهد المحددة غير متوفرة ولكننا نعلم علم اليقين أن شعر الماعز يستعمل لحشو الفرش.

وكان حليب الماعز يستعمل في نفس الأغراض التي كان يستعمل فيها حليب الغنم، وكان لحم الماعز صالحاً للأكل كما هو الحال اليوم في العراق.

أما جلد الماعز فهو مفيد في صنع حاويات متينة لحفظ الماء (قرب) وكانت تستخدم عندما تربط بإحكام وتنفخ في صنع الأطواف العائمة وكانت الأطواف العائمة من هذا النوع مفيدة للسباحين وقد ظهر هذا العمل في أحد الألواح الجدارية النافرة في آشور.

وما تزال تستعمل من قبل الصبيان العراقيين على نهر دجلة في الموصل في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠) وكانت مجموعات من جلود الماعز المنفوخة تستخدم للعوم في القوارب التي تسمى كيليك المستعملة للنقل فوق مياه نهر الفرات والدجلة منذ أيام الآشوريين حتى الخمسينات من القرن العشرين (١٩٥٠ ب.م).

كانت قطعان الأغنام والماعز تحت إشراف الرعاة الذين كانت واجباتهم حماية الأغنام والماعز وهي ترعى حول القرية أو في مسافات أبعد في الريف الفسيح، وكان يساعد الرعاة كلب الحراسة المتوحش، وكانت هذه الكلاب مجبرة على معالجة الهجمات التي كانت الأسود والذئاب تشنها على القطيع، ولقد بنى هؤلاء الرعاة أكواخاً لحمايتهم وتأمين راحتهم، وكانت القطعان ربما تخص أشخاصاً معينين أو تخص المعابد أو تخص الملك وكان بعضها كثير العدد.

وفي بابل كانت المعابد تمتلك قطعاناً ضخمة بحيث إن الموظفين الذين كانت حقوقهم بالرعي تتأثر بهذا الوضع، كانوا يتذمرون وهكذا نجد تقريراً أرسل إلى الملك في الوقت الذي كان الملك آشور يحكم بابل، مفاده:

((إن أهالي مدينة بورشيبا (وهي مدينة قرب بابل وفيها معبد للإله نابو) كانوا يشتكون بقولهم: إن مواشي وأغنام الإله نابو تغطي وجه الأرض.)) وكانت المعابد الآشورية تحت رقابة شديدة من جهة الملك ولم يكن من المنتظر منهم أن يسيؤوا لحقوق المواطنين.

بينما كان هناك عدد كبير من الأغنام في آشور وبشكل قطعان، إلا أن بعض الأفراد الفقراء لا يملك الواحد منهم أكثر من غنمة واحدة أو غنمتين للحصول على الحليب لصنع الجبنة وغيرها.

وهناك ذكر الأغنام على سطح المنزل وهذا ربما يشير أن صاحب المنزل يمكنه اقتناء بعض الأغنام ويضعها على سطح منزله.

وكانت قطعان الغنم والمواشي متعرضة للتناقص بسرعة تزيد عن معدل زيادتها الطبيعية وذلك لأننا نسمع عن أمراض معدية وجوائح في الحيوانات كانت تسبب نسبة كبيرة من الموت للحيوانات، وهناك أيضاً اليرقات الطفيلية التي تسببها بعض أنواع الذباب التي كانت تهاجم الأغنام والمواشي والخيول.

كان الخنزير حيواناً معروفاً في منطقة ما بين النهرين القديمة، وكان يخدم كعامل لجمع القمامة والتخلص منها في المدن، وفي الأزمنة المبكرة كان هناك قطعان من الخنازير وكانت لحومها ودهونها مواد مقبولة للأكل، ولكن هناك

منعاً دينياً وتحريماً للحم الخنزير بقي قائماً حتى اليوم في الديانة اليهودية والإسلامية.

ولكن هذا المنع في طريق التطور والزوال تدريجياً، إذ إنه وفي الفترة المتأخرة وصف الخنزير بأنه محرم من قبل جميع الآلهة ولكن لم يحدث هذا إلا بعد عام (١٤٠٠ ق.م) وهو الزمن الذي نجد فيه أن بعض أجزاء آشور كانت تستعمل شحم الخنزير.

الحمير والخيل والبغال

كان الحمار (وهو نوع يختلف في تصنيفه عن حمار الوحش الذي كان من الحيوانات المعروفة في منطقة ما بين النهرين) كان حيواناً آخر ذا أهمية اقتصادية كحيوان يصلح للحمل، وكانت قوافل الحمير في آشور في بداية الألف الثاني متوفرة للقيام بالأعمال ونقل البضائع إلى أواسط الأناضول، ولقد سميت مقاييس الحجوم باسم الحمار ففي اللغة الأكادية يدعى أكبر مقياس للحجوم إيمار أو إمار وفي العبرية كلمة حور المشابهة لها تعني حمل الحمار، وهي مشتقة من اسم هذا الحيوان وكذلك أطلق اسم الحمار على وحدة المساحة وهي نفس الكلمة التي تعني: مساحة الأرض التي من الممكن بذار كمية من الحبوب تساوي حمل حمار.

وفي الأزمنة القديمة كان الحمار حيواناً مخصصاً للركوب مع أنه قد بدأ الاستعاضة عنه بالحصان في الألف الثاني ق.م.

إلا أن ركوب الحمير كان سائداً في نظام المواصلات الملكي في الألف الأول ق.م في آشور .

فالحمير أكثر أماناً عند الركوب من الخيول ولاسيما في الأراضي الصخرية حيث إن حدوث أي زلة تعني الكارثة، وحسب معرفتنا لم يستعمل لحم الحمار للأكل ولكن لحم الحمار الميت من الممكن استعماله طعاماً للكلاب .

ولقد عرف الحصان وما يزال حيواناً ذا هيبة وكبرياء مع أنه وباعتبارات تختص بالنزاعات الدينية المحافظة لقد عد الحمار أو البغل أكثر ملاءمة منه للأغراض الدينية الاحتفالية.

ولقد أصبح الحصان ذا أهمية بالغة في بلاد آشور في الألف الأول ق.م لاسيما للأغراض العسكرية بالنسبة للعربات والخيالة.

ولقد استوردت قطعان الخيول بشكل دائم من الشمال والشمال الشرقي وذلك على شكل جزية أو بشكل غنائم حرب، وهناك مناطق شهيرة بتربية الخيول إلى الجنوب من بحيرة أورميا مباشرة في شمال غرب إيران، ولقد تنافست آشور مع جارتها مملكة أورارتو للسيادة على تلك المنطقة، وبهذه المناسبة يقول الملك سرجون الثاني باعتزاز :

"وبالنسبة للناس الذين يعيشون في تلك المنطقة في أراضي أورارتو فإنهم ليس لديهم أي مهارة في قيادة خيول الفرسان، فالمهور التي يربونها لخدمة القطع العسكرية الملكية تمسك سنوياً وتؤخذ إلى بلاد سوبي (للتدريب) حيث يرون مقدرتها فليس من المسموح أن يعتلي أحد ظهورها، وهي لا تتعلم فن الهجوم أو جر العربات أو فن التقهقر أو التدريب على الحرب".

ويشار إلى سلالتين من الخيول وهما: سلالة الكوسي وسلالة الميس وهما تتفرعان من أجزاء مختلفة من الأراضي الواقعة إلى الشمال وإلى الشرق.

وقد ذكرت عدة ألوان من الخيول أيضاً، فالخيول البيضاء مخصصة من الواضح أنها تُعد حيوانات حية صالحة للأغراض الاحتفالية أكثر منها كضحايا لتقدمة القرابين لبعض الآلهة، ووعلى الرغم من الإشارات المتعددة إلى استيراد الخيول إلا أنه من المؤكد أن الخيول كانت تربى في بلاد آشور لأنه قد ذكرت الأفراس والمهور ولم يستعمل الآشوريون خيولاً للأغراض العسكرية سوى الفحول من الخيول.

ونرى أحد الملوك الآشوريين يذكر باحتقار عن ملك من ملوك الأعداء المهزومين قد هرب راكباً فرساً.

كان تأمين الخيول للأغراض العسكرية أمراً ذا أهمية خاصة، ويشير الملك سرجون إلى إحراق مخازن التبن التي كان أحد الملوك الأعداء في شمال آشور قد أعدَّها لأجل خيوله، وعندما سار الملك سنحاريب زاحفاً إلى الخليج العربي لإتمام هجوم بحري على عيلام (إلى الجنوب الغربي من إيران) فقد حمل الحبوب والتبن بواسطة السفن وذلك لاستعمال خيوله التي سارت عن طريق البر حتى وصلت الخليج ومن ثمَّ نقلت بحراً عبر الخليج.

وكما ذكرنا تواً فقد عرف الحصان لأول مرة من مناطق في الأقطار الشمالية وقد حصل الآشوريون على خيولهم من الشمال أو الشرق، لذلك لا عجب أن يكون الآشوريون قد اكتسبوا خبرتهم بالخيول من شعوب قطنت في تلك المناطق، ولقد رأينا سابقاً واجبات الاحترام والتقدير التي قدمها سرجون لبعض الشعوب في شمال غرب إيران بهذا الخصوص.

وهناك برهان ثابت أن المنطقة الشمالية كانت مركز تربية الخيول يظهر من أحد النصوص التي ترجع إلى الألف الثاني وهي تذكر شيئاً عن تدريب خيول جر العربات، ولا شك أن هذا كان معروفاً في آشور لأن لدينا نصاً (ولكن لحق به ضرر كبير) فيه إرشادات بالنسبة لهذا الموضوع وهو لا شك مدين بما فيه من المواد إلى المصادر الحثية، ونجد فيه أن الخيول كانت تعامل بعناية عظيمة كما تعامل في هذه الأيام.

وهنا نذكر جزءاً من هذه التعليمات:

"يجب أن تنزع السروج عن الخيول... دعها تتدحرج حول نفسها... وقدم لها العلف.. وحافظ على دفئها.. وافركها جيداً".

وكان من الممكن أن تنهار الخيول ضحية للأمراض السارية كما يحدث للماشية والأغنام إذ نحن نجد ما يذكّرنا بهذه الأمور.

أما البغل: فهو ينتج كهجين عقيم عن تلقيح الحمير والخيل وهو حيوان معروف أيضاً من منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور، وهناك مثل بابلي

مضحك يعكس الحقيقة التي مفادها: إن البغل يمكنه أن يرث صفات الحمار أو الحصان ويقول المثل:

((عندما يركب الحصان المتعب ظهر حمارة، يهمس في أذن الحمارة: دعي المهر الذي سوف تحملين به أن يكون عدّاء مثلي ولا تجعليه حيوان جر وحمل مثل الحمير)).

وعلى الرغم من طموحات الحصان الفحل الأب فإن البغال في آشور كانت تستعمل للجر والحمير كانت تستخدم للركوب، البغل هو ابن الحمار من الفرس.

الطيور

كانت أسراب البط البري وكذلك الإوز تصطاد بواسطة شباك، وقد ربيت بعض الأصناف المهجنة من سلالات مختلفة لتكون مصدراً من مصادر الحصول على اللحوم وكانت تسمن بعد أكل الشعير الذي كان يقدم لها بشكل عجينة.

وكان شحم الإوز يستعمل كدواء في الطب، ففي بابل وفي الألف الأول كان هناك ساحات خاصّة لتربية البط وكانت تلحق أحياناً بالمعبد ومن المحتمل أن ذلك كان سائداً في آشور أيضاً.

كان الحمام (الذي كان يمتاز بالنظرة الشاعرية إليه في الأدب الآشوري) يربى في بلاد آشور ويؤكل وتشير قصة الطوفان البابلية التي نقلت في التوراة باسم طوفان نوح تشير هذه القصة إلى أن الحمامة قد رجعت إلى الفُلك بعد أن أطلق سراحها، وهكذا فقد كان سكان ما بين النهرين القدماء عالمين بغرائب الحمام المتعلقة بحب الوطن، ولكن ليس هناك أي ذكر لاستخدام الحمام الذي ينقل الرسائل.

التجارة

كان العامل الثاني الذي سبب ازدهار آشور هو التجارة بشكليها الداخلي والعالمي.

التجارة الداخلية:

إنه وفي علومنا الاقتصادية نأخذ بالحسبان وجود نظام مميَّز مؤسس على المال وهو يخدم كمقياس للقيمة وأيضاً كوسيلة من وسائل التبادل وبذلك يساعد الفرد وبسهولة على التصرف بما ينتجه وعلى الحصول على ما يحتاجه، وهناك بعض المرونة التي تتحقق عن طريق نظام القروض الذي تقوم به البنوك.

لم يكن الاقتصاد القائم على المال متوفراً في آشور القديمة، وعلى الرغم من الإشارة المبهمة التي تفوَّه بها الملك سنحاريب عام (٦٩٤) ق.م حول حب التماثيل البرونزية التي قال عنها إنها تشبه: "صك قطع الشيكل".

(وربما أنه كان يعني أن الحرفيين في بلاده يستطيعون التصرف بكميات كبيرة من البرونز بشكل ماهر كما لو أنهم يصكون قطعة نصف شيكل).

إلا أن النقود المعدنية لم تلعب أي دور في نظام التوزيع الآشوري فقد استعملت عملة النقود المعدنية أولاً في آسيا الصغرى في وقت لا يقل عن الوقت الذي سقطت فيه الإمبراطورية الآشورية، ومن جهة أخرى كان هناك في آشور سلف بدائي لاقتصاد المال، فقد كانت المعادن تستعمل بصورة مستمرة كوسيلة للتبادل ولم تكن هناك عملة معدنية مختومة، بل كانت المعادن تستعمل كقطع تعرف قيمتها بوزنها، وفي الأوقات الصعبة كان الذهب والفضة والقصدير والنحاس كلها تستخدم لهذا الغرض مع أن الأكثر شيوعاً من هذه المعادن في الفترة الآشورية الجديدة كان الفضة.

ولقد تجاوزت الأعمال الآشورية استعمال الفضة كوسيلة للتبادل، بل وصلت إلى مفهوم استعمال الفضة كمقياس للقيمة، وهكذا نشأت حالات حين كانت

تحدَّد الديون بكمية من الفضة ولكن هذه الديون كانت تدفع بطرق أخرى مثلاً بكمية من الشعير.

وبالاختصار فإننا لا نود إنشاء نظرية اقتصادية جديدة عندما نقول: إن هذه العملية وهذا الاقتصاد هو (اقتصاد شبه نقدي).

لم يكن الاقتصاد الذي تستعمل فيه المعادن كواسطة للتبادل، ولا بشكل من أشكال النظام المتبع بالتوزيع المتوفر في دولة آشور في الألف الأول ق.م فقد كان هناك مساحات واسعة من الأراضي تمتلكها الدولة المتمثلة بشخصية الملك، وكان هناك كثير من الناس ابتداء من الموظفين الكبار حتى الأقنان والعبيد وكان هؤلاء جميعاً يعتمدون على الدولة من أجل تأمين معيشتهم، وهذا كان يسمح بإحداث نظام مباشر للتوزيع، فقد كانت منتوجات أراضي الدولة تصل إما إلى العاصمة أو إلى المخازن في المدن الرئيسية المحلية، أما المنتوجات التي كانت تصل إلى العاصمة فقد كانت تستعمل لتلبية حاجة البلاط والمعابد وبعضها كان يخصص كإعاشة لمختلف الموظفين والعمال.

وكان القمح المخزن في المدن المحلية يوزع جزء منه حسب المقتضيات، وبعضه الآخر كان بشكل احتياطي استراتيجي لاستعمال الجيش عند القيام بحملات في المنطقة أو خارجها.

وكان هذا هو نظام التوزيع المباشر وهو يقع خارج الاقتصاد شبه النقدي، وكانت إمدادات الحبوب التابعة للدولة بشكل كلي خارج الاقتصاد شبه المالي وهي تدخل ضمن التجارة الخارجية العالمية، فنحن نسمع مثلاً عن معونات ضد المجاعة قد أرسلت من آشور إلى عيلام في أوقات الطوارئ.

أما منتوجات الأرض وهي غير المنتوجات التي تملكها الدولة بشكل مباشر معرَّضة لتكوين نظام توزيع مختلط، فقد كان كثير من الموظفين لديهم حصص من الأراضي وقد استلموها من الدولة، وكانت مثل هذه الضيع تدفع جزءاً من محاصيلها للدولة كضرائب، مع أن أراضي بعض الموظفين المُرضى عنهم كانوا يتمتعون بإعفاءات من الضرائب وكان قسم من محاصيل الضيعة ينقل عن طريق

التوزيع المباشر إلى العائلات الملتصقة بالأرض، وكان هذا يتم بالطريقة التي كان المعتمدون بشكل مباشر على الملك يحصلون بها على دخلهم، وأما الباقي، وبعد خصم بعض الالتزامات، فهو يصبح تحت تصرف مالك الضيعة، ويصدق هذا على أي فائض يخص أولئك الفلاحين من مالكي الأراضي الذين كان عددهم في تراجع ونقص مستمر.

وهذا الفائض سوف يكون متوفراً للدخول في الاقتصاد شبه المالي، ويحدث أحياناً تماس مباشر ما بين الظاهرتين المتوازيتين من الاقتصاد، وهكذا نجد عقداً يعطي الحق لشخصين لشراء الحبوب بواسطة الفضة التي حصلوا عليها، ولكن الحبوب ينبغي أن تشترى في إحدى الولايات وتسلم عن طريق النقل المائي في النهر في ولاية أخرى.

ولكن يبدو أنه باستعمال الاقتصاد شبه المالي فقد أصبح من الممكن استعمال الفائض من القمح في إحدى الولايات للتخفيض من نقصه في ولاية أخرى، وعن طريق المبادلات التجارية لهذا النوع من البضائع أصبح من الممكن التحرك من اقتصاد التوزيع المباشر إلى الاقتصاد شبه النقدي.

ومع وجود مجتمع معقد لا يسمح بإمكان التبادل بالمقايضة الحرّة على مقياس واسع وفي مجتمع غير مؤهل بشكل كاف لوجود اقتصاد معتمد على توزيع الحصص المباشر وجعله مناسباً كلياً كان من الضروري وجود نظام شبه نقدي.

فقد كان هناك في المدن أعداد متوفرة من الناس الذين لم يكونوا من طبقة الموظفين الذين يحق لهم استلام الإعاشة من الدولة، ولا هم من العمال العاملين بشكل مباشر في إنتاج وسائل التغذية، وربما يظن المرء أن هؤلاء الناس كانوا عبارة عن جماعة من صانعي الفخار والنسَّاجين أو صناع المعادن أو ناقشي الأختام ولكن وجود بعض هؤلاء في خدمة الملك لا يؤثر على وضعهم كطبقات مستقلة.

وكان هناك أيضاً رجال أحرار فقراء لم يمتلكوا أي أرض ولكنهم لم يكونوا ملتصقين بأي أرض أو ضيعة الأمر الذي يعطيهم الحق ليساهموا في جني المحاصيل.

وقد كان مثل هؤلاء الناس يعيشون كعمال في مختلف المجالات، مثلاً المساعدة في جني المحاصيل أو القيام بعمليات البناء وهلمَّ جرا، وبينما كان هؤلاء العمال يستلمون ما يدفع لهم بشكل حصص أساسية من الطعام والشراب ولكن حاجياتهم الأخرى من الممكن أن تُلبَّى بشكل دفعات من الممكن اعتبارها وسيلة تبادل.

ومما يدل أن هذا كان يجري فعلاً ما تثبته مذكرة تشير إلى دفع الفضة أو النحاس للعمال، وفيما يلي مثال حول عقد لإتمام بعض أعمال البناء، اشتغل فيه جماعة من الرجال في مشروع يتوقع أن يستغرق شهراً وقد دفع لهؤلاء وجبات يومية (إعاشة) وكمية من النحاس في آن واحد.

وفيما يلي مثال عن عقد جرى لإتمام بعض أعمال البناء، عمل به مجموعة من العمال ويُنتظر إتمام العمل في مدة شهر واحد، وقد دفعت لهم كلا الإعاشة ووزنة من الفضة.

[هنا توجد قائمة من الأسماء الشخصية]

المجموع: ستة عمال.

وزنتان من النحاس.

٦، ٣ وهومر (وهو مكيال عربي قديم) من الخبز والبيرة.

ولسوف ينجزون العمل في مدة شهر.

[هنا سطر معناه غير مفهوم]

وهم سوف يتمون الدعائم

ولسوف يركِّبون السقف

وسوف يضعون الصندوق في مكانه

وإذا صادف ولم يتمُّوا هذا العمل

فإنهم سوف يستمرون في العمل حتى النهاية

أي حتى ينهوا عملهم بعد شهر.

وإن الصندوق المذكور ربما كان الغطاء الخشبي لبرج التهوية على السطح.

وأما كميات الطعام الموجودة فهي كميات الطعام اللازمة لكل عامل في كل يوم، بواقع نحو ستة باوندات من الخبز وستة باينات من البيرة في حالة وجود ٣،٦ هومر من كل واحد من هذه الأصناف أو نصف هذه الكميات إذا كان هناك ٣،٦ هومر وهي مجموع كميات الخبز والبيرة.

ومن الواضح أن الرجال كانوا يستلمون وجبات أساسية كاملة وكذلك كميات النحاس المذكورة كالأجور التي كانوا سوف يستلمونها كمصروف للجيب لأجل تلبية حاجاتهم الأخرى.

وبالنسبة لأسعار النحاس الحالية فإن الوزنتين من النحاس المذكورتين يعادل ثمنها عشرين جنيهاً استرلينياً لكل رجل لمدة شهر واحد، ونظراً لوجود فروق شاسعة ما بين تكاليف المعيشة في منطقة ما بين النهرين القديمة وتكاليف المعيشة في المجتمع الغربي الحديث، فإن هذه التقديرات لا تمثل أرقاماً ذات معنى حقيقي لتقدير الأجور القديمة بالنسبة للقوة الشرائية.

لا نعلم بالتفصيل كيف يستطيع العامل استعمال الكمية الضئيلة من النحاس أو الفضة للحصول على بضائع وأشياء أخرى، ومع ذلك فقد كان هناك عدد كبير من التجار وبينما نرى بعضهم مهتماً بالتجارة على مقياس واسع، مثلاً الصفقات المذكورة آنفاً لجلب الحبوب من مقاطعة أخرى، لذلك نجد أن هناك دلالات عن وجود بعض من هؤلاء من الذين يعملون في تجارة على مقياس ضيق يشبه عمل أصحاب الحوانيت والعطارين، فقد كان هناك أناس بالتأكيد كانوا يبيعون المواد الصغيرة للأفراد على مقياس ضيق حيث إننا نجد ذكراً للحقيبة الجلدية التي توضع فيها الأوزان.

وهناك أيضاً نص يذكر إمكان حدوث أعمال الغش من قبل تجار المُفَرَّق ويتكلم عن نوع من الأشخاص يمسك بالميزان ويزداد في أعمال الغش بأن يبدِّل الأوزان.

وأما بالنسبة إلى وجود العطارين نجد أن رجل أعواد الثقاب ورجل الملح مذكورين (مع أن هؤلاء كانوا موجودين في بابل وليس في آشور) وكلاهما يدل على صغار التجار الذين لا ينتقلون من منْزل إلى منْزل.

ولقد عرفت آشور إجراءات منح القروض وذلك لتسهيل الأعمال التجارية وكانت المعابد والشخصيات العادية تقدم الفضة بقصد أغراض العمل.

وكانت النقود المستقرضة تعاد في الوقت المحدد بشكل بضائع وينتظر مُقرض الفضة أن يستفيد بالحصول على سعر مناسب في لحظة تسديد الديون، أو بأن يدفع له الفوائد أو كلا الأمرين.

وكان من الشائع أن تكون البضائع ذات العلاقة من الحبوب ولكن فيما يلي وصف صفقة تجارية بخصوص توريد الخمور:

٢،٥ هومر (حوالي ١٠٠ غالون) من الخمر.

وهي تخص مانو - كي - نينوى.

هي من الالتزامات التي على بارتاما،

فهو سوف يسلم الخمور في نينوى،

في شهر أيار،

وإذا لم يسلم هذه الخمور في هذا الوقت،

فسوف يدفع الفضة طبقاً للأسعار في نينوى.

اليوم الخامس والعشرون من شهر كانون الثاني.

وقد كانت الخمور تنتج في المناطق الجبلية في الشمال والشمال الغربي، وإن تسليم مئة غالون منها في نينوى في أوائل الصيف كان من الواضح أنه عملية تجارية بحتة.

وإن الرجل الذي قُدم له كميته من الفضة يأمل أن يحصل على فوائد عن طريق الشراء بسعر رخيص في الشتاء في منطقة إنتاج الخمر، وكان المُقْرِض محمياً في حالة تأخُر التسليم وذلك بأن يكون له الحق بالتعويض عن المئة غالون

من الخمر بالسعر السائد في نينوى في شهر أيار، أي في بداية شهر الحر، عندما يرتفع سعر الخمور والمشروبات الأخرى ولاسيما إذا ظهرت ظروف معاكسة في الشمال وهي التي ستجعل المؤن نادرة الوجود.

وفي بعض الأوقات وبعض الأمكنة في منطقة ما بين النهرين القديمة بُذلت محاولات لضبط الأسعار عن طريق مراسيم حكومية، ولكن لم يكن الحال هكذا في الإمبراطورية الآشورية، وإذ إن العقود التجارية كانت تؤكد دوماً، كما سوف نلاحظ من العقد التالي، أن الدفعات تكون طبقاً للأسعار في مكان ما وفي زمنٍ ما.

وهذا يظهر أن هناك اعترافاً واضحاً بالحقيقة التي مفادها أن الأسعار في آشور كان يقررها أحوال وقوى اقتصادية خاصة، وليس بالمراسيم الرسمية.

ونحن نجد أيضاً بعض الرسائل التي تذكر أن أسعار البضائع المختلفة في مناطق مختلفة كان يجري إخبار الملك عنها ولم يقررها الملك، ومن الواضح أنها أسعار يتلاعب بها السوق وليست أسعاراً تنظمها الدولة.

وهناك نقوش تظهر أن الملوك أنفسهم كانوا يعلقون على الأسعار وعلى تأثير القوى الاقتصادية المختلفة على الأسعار، وقد تكلم الملك سرجون الثاني عن سياسته الرامية إلى تحسين الزراعة في أراضيه، وكان يعلّق على نتيجة هذا تخفيض الأسعار بالنسبة للزيت وبذر الكتان وقد اقتبسنا هذا المقطع، وقد علق فيه الملك على زيادة الغنائم الحربية وتأثير ذلك على الأسعار في آشور، وبعد أن عدد الأدوات المعدنية التي جلبها بعد القيام بحملاته يقول:

((إن الأملاك المنقولة التي حصلت عليها لا تُعد ولا تُحصى من التي لم يحصل عليها أجدادي أبداً، لقد كوَّمتها في عاصمتي قلعة سرجون.))

وفي بلاد آشور يستطيع الناس دفع أثمان الأشياء بالفضة كما لو كانت نحاساً.

وبعد أن استولى آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧)ق.م على أعداد من الجمال بشكل غنائم وبعد أن وزع هذه الجمال بصورة واسعة علق على تأثير هذه الكميات الزائدة على الأسعار وهو يقول:

(في بلادي تباع الجمال في الأسواق بسعر شيكل واحد أو نصف شيكل من الفضة ثمن الجمل الواحد).

وطبقاً لأسعار الفضة في الثمانينات من القرن العشرين ب م يصبح قيمة هذا المبلغ جنيهين استرلينيين وهذا سعر رخيص بالنسبة لجمل مستعمل، ويمكننا أن نضيف أن أهمية التجارة بالنسبة للدولة كانت عاملاً معروفاً.

وذلك أن التجارة كانت مرافقة للمحاصيل الزراعية في أهميتها. أما نذر الفأل الفلكية والتي كانت منحصرة بالمسائل ذات الأهمية بالنسبة للدولة وفيما يلي مقتطفات نموذجية من مثل هذه التنجيمات الفلكية:

((عندما يظهر القمر في وقت ليس هو موعده فإن نشاطات الأعمال التجارية سوف تنقص، وعندما يظهر الكوكب مع ظهور الشمس في شهر أيلول (سبتمبر) فإن نشاطات العمل سوف تزداد وترتفع وسوف تزيد كميات الحبوب.))

وهناك أحد التنجيمات الفلكية من نفس الموضوع مع أنها في الحقيقة متعلقة بعلم الأرصاد الجوية أكثر منها بعلم التنجيم:

((وعندما تظهر ويزداد الضباب في البلاد فإن المحاصيل الزراعية سوف تزداد وسوف تصبح التجارة مستقرة.))

إن هذا حول زيادة أو نقصان أنشطة العمل تظهر اعترافاً جذرياً بدائياً بوجود الدراسات التجارية (نشاط- ركود- نشاط) وإن ربط هذه الحركات بالظواهر الفلكية يدل على أن الناس قد شعروا أن هذه الحركات ليست ذات أسس عقلانية.

التجارة الخارجية

تعود قضية التجارة العالمية أو الخارجية في جذورها إلى أزمنة ما قبل التاريخ.

ونظراً لموقعها على طول نهر دجلة معترضة الطرق الممتدة من حوض البحر الأبيض المتوسط إلى زاغروس ومن جبال طوروس إلى بابل فإن المنطقة المعروفة باسم بلاد آشور كانت مهمة دائماً.

ونظراً لوضعها الجغرافي فإن شعب آشور قد أصبح في وضع يخوله أن يكون شعباً تجارياً وسيطاً.

ولكن هناك عاملاً آخر قد شجع التجارة الخارجية أو العالمية، على الأقل التجارة الداخلية في منطقة الشرق الأدنى القديمة، وهو: عدم الاستقرار في التموين الغذائي ومن الواضح أنه إذا كانت الأمة في حالة من الاكتفاء الذاتي اقتصادياً دون اشتراكها في أي صلات تجارية مع جيرانها فإنها سوف تحصد الفشل حتماً..

وهناك في الحقيقة مناطق قليلة جداً لا تشكو ولا تفكر في سوء المحاصيل الزراعية.

وحيث تعتمد محاصيل الحبوب على الري فإن زيادة منسوب المياه في النهر أو حدوث طوفان هائل ربما أدت إلى مجاعة كما يحدث عند قدوم سنة جافة في مناطق تعتمد على هطول المطر.

ومن الممكن تدمير أي محصول زراعي واعد عن طريق الجراد والآفات الزراعية.

وإن الوقاية الوحيدة ضد مثل هذه النكبات هي الاحتياط بتخزين كمية وافرة من المحاصيل التي جنيت في المواسم المباركة أو عن طريق الحصول على الحبوب من المجتمعات التي صادفتها ظروف مواتية وبذلك يحصل عندها فائض من المحاصيل.

هذا وإن نقل الحبوب من الميسورين الذين عندهم حبوب إلى الفقراء الذين لا يلمكون حبوباً يكون إما عن طريق الحرب أوعن طريق التجارة.

هـذا وإن المجتمـع الـذي صـادفه الحـظ بجـني محاصـيل وافـرة سـوف يكـون متأثراً بجيرانه الجياع، فليس لديه في المحصلة إلا أن يلجأ لأحد أمرين إما الحـرب أو التجارة، كما أن المجتمع الجائع ليس لديه سوى أن يقاتل أو يتاجر أو يموت.

كانت التجارة والحرب أمرين مترابطين في دولة آشور من البداية إلى النهاية، ولقد عانى المزارعون الأوائل القاطنون بسهول آشور من الغارات على محاصيلهم الزراعية ومخزوناتهم من قبل شعوب قادمة من التلال المجاورة أو من الصحراء.

وعندما أصبح هؤلاء دولة منتظمة فقد استعملوا هم بأنفسهم التجارة أحياناً والحروب أحياناً أخرى للحصول على البضائع التي كانوا يرغبونها من أجزاء أخرى واقعة في الشرق الأدنى.

وكانت أقدم مظاهر التجارة الخارجية الآشورية المعروفة بتفاصيلها هـي التجارة ما بين مدينة آشور وكاروكيا (الجزء الشرقي الأوسط من تركيا) وذلك في بداية الألف الثاني ق.م ولقد ناقشنا هـذه القضية في الفصل الثاني من هـذا الكتاب.

ولقد عرفنا شيئاً عن دور آشور في التجارة الخارجية في الألف الثاني ق.م ولقد ناقشنا أعلاه المفاوضات التي جَرَت بين الملك آشور أباليت (١٢٦٥-١٣٣٠) ق.م ونظيره المصري لإنشاء علاقات تجارية بشكل تبادل الهدايا، ولقد تمت التجارة لمسافات طويلة عن طريق القوافل.

وهنا كانت أهم المشكلات هـي الأمن وهـي عامل أسهم في إيجاد الصلات بين التجارة الخارجية والأنشطة العسكرية.

وفي المراسلات التي جرت ما بين آشور أباليت والملك المصري، لقد شكا الأخير من تأخر رسله، ولقد أخبر آشور أباليت الملك المصري أن هـذا التأخير نتج عن القبائل الرحل المتواجدين في منطقة منتصف الفرات، وأنه قد اتخذ الخطوات لمعالجة أمور هذه العصابات.

وفي نفس الفترة اشتكى أحد ملوك بابل إلى نظيره المصري عن عدم توفر الأمن في فلسطين، وكانت تلك المنطقة ضمن السيطرة المصرية الاسمية.

وقد جاء في الرسالة:

(إن كنعان بلد خاضع لك وملوكها خدم لك ولكني نُهِبْتُ في أرضك.

ألق القبض على الأشخاص ذوي العلاقة وإلا إنهم سوف يعودون ويقضون على قوافلي وحتى على رسلك).

وفي أمكنة أخرى كنَّا نسمع باستمرار أخبار قتل أو خطف التجار مؤكداً الحاجة لتدخل الدولة لتأكيد الأمن بالنسبة لازدهار التجارة.

وعلى العموم فقد كانت سيطرة الدولة على التجارة الخارجية شديدة وصارمة في أواخر الألف الثالث ق.م.

وهكذا تقدم لنا أحد النصوص العائدة لأحد الملوك الحثيين والتي يعود تاريخها إلى ما بعد عام (١٣٠٠ق.م) الشروط التي يسمح بموجبها للتُّجار من الأناضول بالاتجار داخل أوغاريت، وكانت هذه المدينة خاضعة تقع في شمال سورية، وكانت هناك شكاوى واضحة محلية تشير إلى أن التجار كانوا يحاولون اكتساب حقوق منافية لمنفعة أهل البلاد والأهلين، ولذلك فقد أصدر العاهل المحلي مرسوماً يلتزم فيه التجار بالنشاط داخل أوغاريت أثناء الصيف فحسب، وليس أثناء الشتاء.

وأنه لا يجوز السماح لهم لكسب حقوق الإقامة أو شراء البيوت والأراضي.

هناك وفي أواخر نفس القرن نجد أن القصدير قد استورد من الأناضول عن طريق تاجر خاص، ولكن ليس لدينا أي معلومات حول الشروط التي بموجبها كان هذا التاجر وعملاؤه يتحركون في الخارج.

عندما نلقي نظرة على التجارة الآشورية في الألف الأول ق.م نصادف صعوبة من الصعوبات وهي: هل كان هناك أي شيء في المجال الدولي يمكن أن ينطبق عليه مصطلح التجارة بالشكل الصحيح.

ولا مجال للشك أن كميات لا بأس بها من البضائع قد وصلت إلى آشور من الخارج ولكن النسبة الطاغية لما نريد أن نسأل عنها أتت من الغنائم الحربية أو الجزية.

ومن الممكن أن نذكر أن هذه كانت شكلاً من أشكال التجارة تدفع تكاليفها بعض الصادرات بشكل مواصلات جيدة وأمن في الطريق، والتحرُّر من الهجمات الخارجية، ومع أن هذا النوع من التصريحات من التحمل لغيظ أعداء الإمبراطورية إلا أن هذه هي الطريقة التي يفكرَ بها الحكام الخاضعون حول هذا الموضوع.

ولدينا مثال واضح حول هذا الأمر في التوراة عند ذكر العلاقات ما بين (أحاز) ملك يهوذا وتغلات بلاسر الثالث ولقد هدد أحاز ملك يهوذا التحالف ما بين إسرائيل رسورية، وهكذا التجأ إلى تغلات بلاسر بقوله:

تعال وأنقذني من سطوة ملك سورية أو من سطوة ملك إسرائيل اللذين يهاجمانني (٢ملوك ١٦: ٧) ولقد فصل تغلات بيلاسر هذا فأرسل أحاز هدية إلى ملك آشور ومن الواضح وبالنسبة لهذه القضية الجزئية التي دفعها أحاز كانت مقابل الخدمات التي استلمها.

وهناك ملك آخر في أقاصي شمال سورية ترك نقشاً يذكر فيه كم قدم هو ووالده من ولائهم للملك نغلات بلاسر الثالث، ذلك الولاء الذي اشتمل على وضع الجزية، وبعد ذلك يذكر الفوائد الاقتصادية لبلاده من هذا الولاء.

وسواء كان علينا أن نعتبر أداء الجزية جزءاً من التجارة الخارجية أم لا نعتبره، إلا أنه كان نوعاً من التجارة الخارجية ليس فيه مجال للجدل، واستمر في الإمبراطورية الآشورية، ولقد عثرنا على رسالة تثبت هذا من أحد الموظفين في صور، فلقد كان الناس هناك يمارسون عادة قطع الأشجار في غابات لبنان ويجلبون الخشب إلى المدينة حيث كان الآشوريون يتقاضون ضريبة عالية، وبعد نشوء بعض الاضطرابات حول الضريبة قام المسؤول الآشوري بفرض حظر على بيع الخشب إلى مصر بقصد أن يبيع أهالي صور الخشب إلى آشور.

وهكذا فقد اتضح الرابط التجاري نظراً لأن الموظف الآشوري قد هدد بأن لا يسمح لأهالي صور بقطع الأشجار إذا أحدثت اضطرابات أخرى حول الضريبة.

وقد كان هذا التهديد سخيفاً لو كان الآشوريون قد استلموا الخشب كجزية دون أن يدفعوا الثمن، ومع أنه وفي تلك الظروف فقد منعت السلطات الآشورية أهالي صور من المتاجرة بالخشب مع مصر، إلا أن سرجون الثاني صرَّح بأنه يشجع التجارة ما بين المصريين والآشوريين.

وفي مكان آخر نجد سجلاً يذكر شيئاً عن تسليم الرصاص الذي كان يجلب من منطقة تسمى الآن: كردستان، وليس هناك من دلالة تشير بأن هذا كان جزية.

وهناك وثيقة تشير إلى نقل نحو (٧٣٠) حصاناً قد جلبها التجار.

وهذه شهادة على وجود تجارة خارجية حقيقية نظراً لأن الأهمية الرئيسية للخيول في آشور كانت لأغراض عسكرية، وأن الخيول وبهذا العدد إنما قد أرسلت للاستعمال الحكومي.

وكان التجار يعملون وكلاء للدولة ولكن كون التجَّار مشمولين بهذا الأمر إنما يدل أن هذه كانت تجارة حقيقة وليست تسليم الجزية.

إن ذكر بعض البضائع التي كان أصلها من خارج المنطقة الخاضعة لآشور ما هو إلا شهادة دامغة لإثبات وجود التجارة الخارجية حتى ولو وصلت إلى آشور بشكل جزية.

وبهذا تكون قد تركت البلاد التي أنتجت فيها عن طريق آلية التبادل التجاري، وإن إحدى هذه البضائع هي ناب الفيل العاجي الذي نجده قادماً إلى بلاد آشور من نهاية القرن الثامن ق.م وذلك بعد أن انقرضت الفيلة من سورية، وقبل أن سيطرت آشور على مصر وهي البلد الوحيد الذي كان من الممكن أن يكون هذا العاج قد أتى منه.

وكذلك كان الوضع بالنسبة للازورد الذي كان يستعمل لتزيين المعابد والقصور وقد كان مصدر اللازورد أفغانستان إلى الشرق من إيران التي لم تصل إليها السيطرة الآشورية.

وفي نهاية القرن الثامن ق.م بدأ الآشوريون بلعب دور رئيسي شرقي زاغروس ومن ذلك الوقت بدؤوا بالحصول عليه عن طريق الجزية من القبائل في غرب إيران الذين حصلوا عليه عن طريق التجارة مع أقاصي الشرق.

والحقيقة أننا نجد ذكراً لبعض اللازورد الذي أتى كجزية من القبائل الإيرانية ولكن ليس بذلك الانتظام الذي يجعله المصدر الرئيسي للازورد الذاهب إلى آشور، أو أن البقية كان من الممكن أن تصل إلى آشور عن طريق التجارة غير الموثقة.

بالطبع كانت القوافل التجارية لا تزال في حركة دائمة عالمياً خلال الإمبراطورية الآشورية الجديدة وأيام عزها مع موافقة الملك الآشوري، وذلك لأن الملك سرجون كان يشير دوماً إلى الأعمال التي عليه أن ينجزها ضد رجال القبائل الآرامية الذين استمروا في الإغارة على القوافل التي كانت تخص مواطنين بابليين.

ومع ذلك فإن المؤشرات التي ذكرناها قبل قليل ووجود بعض المؤشرات الأخرى المماثلة حول التجارة الخارجية بالنسبة للإمبراطورية الآشورية الجديدة يظل توثيق هذه المؤشرات صعباً ونادراً.

وهناك طريقتان يمكن تفسير هذا الأمر بواسطتهما:

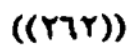
الأولى: هي أن آشور لم تتملك سوى تجارة خارجية ضئيلة وهي التي كانت بشكل استلام الجزية فيما لو اعتبرناها شكلاً من أشكال التجارة، ولكن من الممكن أيضاً أن تكون التجارة الخارجية بالحقيقة واسطة ولكن كانت تعمل بآلية ثم لم تترك أي سجلات.

ونحن نعلم أن اللغة الآرامية بشكلها الأبجدي المكتوب كانت أبسط بكثير من اللغة المسمارية الأكادية، وكانت اللغة الآرامية قد ازداد استعمالها في آخر

قرن وربع من حكم الإمبراطورية الآشورية وكانت هذه اللغة تكتب ولكن ليس مثل المسمارية التي كانت تكتب في ألواح من القرميد وغير قابلة للتلف، إلا أن الآرامية كانت تكتب بالحبر وعلى قطع من الخزف أو أوراق البردى أو الدفوف.

إن قطع الخزف تمتلك القدرة على البقاء، ولقد وجدت بضعة أمثلة من الوثائق الآرامية (ولكن ليس لهذه علاقة بالتجارة الداخلية أو الخارجية أو العالمية).

ولكن بالنسبة للمناخ فمن الصعب بقاء أوراق البردي المكتوبة عبر آلاف السنين بحيث إن أي تجارة خارجية مسجلة على هذه المواد لا يمكن أن تترك أي أثر.



الفصل الثاني عشر

السيطرة على البيئة

الآشوريون والموارد الطبيعية

لقد كان العنوان المقرر لهذا الفصل هو: العلم والتكنولوجيا، لكننا أهملنا هذا العنوان لكونه مضللاً.

إذ إنه مع أن الآشوريين قد عرضوا بعض الحقائق التي من الممكن أن تندرج تحت عنوان عام وهو: المعرفة العلمية، وقد استعملوا عمليات ربما نعتبرها ضمن حقل التكنولوجيا.

إلا أنهم افتقروا إلى تنظيم معرفتهم، ذلك التقييم الذي ربما برَّرَ استعمال كلمة عُلوم، ومع أن الاصطلاح المعروف باسم التكنولوجيا من الممكن تبرير استعماله حينذاك، إلا أنه يبدو وكأن فيه شيئاً من المبالغة عندما يطبق على مهارة كصناعة القرميد.

ومن الممكن أن نتلاعب بالكلمات ونقول: إنه ما دام أن العلم من حيث الاشتقاق اللغوي يعني: المعرفة، وما دام أن الآشوريين كان لديهم معرفة، لذلك فنستطيع القول: إنه كان لديهم علوم.

ولكن كما هو معروف اليوم فإن كلمة العلوم لا تعني المعرفة فحسب، بل تعني مجموعة منتظمة من المعارف تتوسع دائماً عن طريق البحوث التجريبية التي ربما تؤكد، وربما ترفض الفرضيات.

ولهذا نعتبر ضمن هذا المفهوم أنه لم يكن هناك أي علوم في آشور أو في أي مكان في منطقة ما بين النهرين القديمة، ما عدا الزمن الذي حدث فيه تحول من الألف الرابع إلى الثالث قبل الميلاد.

ففي تلك الفترة المبكرة عندما كان العقل السومري المتوقد يبتكر الأسس المادية والمعنوية بالنسبة لجميع المجتمع القديم في منطقة ما بين النهرين.

فقد حدثت هناك تغييرات سريعة كانت تدل على ذلك الاستعداد للدخول في حقل التجارب مع المواد والأفكار التي تعد أساساً للعلوم.

ولكن منجزات السومريين الأولى كانت طاغية واكتسبت شهرة مهيبة عظيمة بحيث أصبحت المعرفة السومرية وبسرعة كشيء ثابت ونهائي.

وبعد الألف الثالث ومع وجود بعض الاستثناءات أصبح كل ما يجري عمله في أي مظهر من مظاهر الحياة محترماً إذا شعر الناس أنه متناغم ومتوافق مع ما أنجز في الماضي.

ولكن البيئة ليست ثابتة، مثلاً من الممكن أن تتلاشى بعض الغابات التي كانت مصدر الحصول على الخشب، أو من الممكن أن تهجر إحدى المستوطنات نظراً لملوحة التربة هناك خلال إنجاز عمليات الري خلال مدة طويلة.

وقد أصبح هذا النهج من التطور في بعض درجات التغيّر حتمياً بمرور الزمن.

ولكن وبالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة فإنه عندما حدثت مثل هذه التغييرات كانت تحاط بالتعليمات التي توجب أن يظل الجديد متناغماً مع القديم.

هذا وإنه من وجهة النظر النموذجية لمنطقة ما بين النهرين القديمة فإن المعرفة كانت شيئاً مستقراً ونهائياً، وذلك لأن الآلهة هي التي قدمته في البداية.

فلم تكن المعرفة شيئاً نامياً بشكل عفوي من الممكن تطويره وتحسينه عن طريق روح التساؤل.

لقد صرح بوجهة النظر هذه (بيروسوس) وهذا أحد الكهنة البابليين في القرن الثالث ق.م والذي وصل إلينا بعض كتاباته باللغة اليونانية:

(وقد قصد بهذه الكتابات تفسير طرق الحياة عند البابليين لمعاصرية (اليونانيين) ويصف بيروسوس كيف أن (أوانيس) وهو مخلوق إلهي يظهر بشكل رجل يشبه السمكة وقد ظهر من البحر في الأزمنة الغابرة وقدَّم لشعب منطقة ما

بين النهرين جميع المعارف، فقد قدم لهم بعض أحوال نفاذ البصيرة والحروف وفي جميع فروع العلوم والفنون من جميع الأنواع، وقد علمهم كيف يبنون المدن ويؤسسون المعابد ويبتدعون القوانين ويقيسون الأرض...

ومن ذلك الوقت لم يستطع أحد أن يضيف شيئاً ذا قيمة لتحسين تعليماته.

وفي الألف الثاني ق.م بذل الكتبة البابليون محاولات ضخمة لتنظيم معارفهم (ولكن ليس لتوسيعها) فقد جمعوا وفحصوا جميع النصوص التي تعود إلى جميع المواضيع المتوفرة، ووضعوا نسخاً متفقاً عليها لبعض النصوص، مثلاً الأساطير والتعاويذ والأناشيد والصلوات والتنبؤات الفلكية والوصفات الطبية والملاحظات الفلكية والمواد اللغوية، وكانت المواد اللغوية تشير إلى شيء مثل الموجودات من الأثاث المنزلي والكتالوكات تخص قوائم الغنائم وقوائم بأسماء الآلهة والنباتات والمعادن والأشجار والمهن والأشكال المختصة بقواعد اللغة والنجوم.

إن إنجاز الأشياء المتفق عليها كما يقول المهتمون بالدراسات الآشورية والأشكال القانونية لسلسلة النصوص كانت تعتبر كافية في حد ذاتها ولم يستطع الكتبة أن يتجاوزا قوائم النباتات الحيوانية أو المعادن ليصلوا إلى دراسات منظمة لبدايات علوم النبات والحيوان والجيولوجيا (علم طبقات الأرض) وقد كانت كميات النصوص التي نشأت في بابل في الألف الثاني ق.م وكانت من جذور سورية تابعة للألف الثالث ق.م.

ولقد وجدت بعض هذه النصوص في آشور والكمية الموجودة الآن في نينوى في مكتبات مختلف الملوك الآشوريين وخصوصاً آشور بانيبال قد جمعوها، ولذلك فأن أي شيء يمكن قوله عن العلوم الآشورية المؤسسة على مثل هذه النصوص الأدبية إنما تعود لما كانت آشور قد نقلته واستعارته مباشرة وبشكل مقصود من بابل، ومع ذلك هناك بعض العوامل التي تظهر الثقافة الآشورية التي عرفناها إما من اللقيات أو التصاريح التي وجدت في النقوش ذات الأصول الآشورية ليس البابلية والتي من الممكن أن نعزوها لآشور نفسها.

ولكن علينا القول ومع أننا لا نقترح أن نسمح للآشوريين بنيل قصب السبق في معرفة العلوم المنظمة عندما يكون علينا الحذر عند استعمال الاصطلاح (تكنولوجيا) نقول:

إنه كان هناك حالة عظيمة في آشور عندما عرفوا أنه من الممكن التوسع في المعرفة، ومن الممكن تحسين عملياتها وإبداعاتها التي قبلت على علاتها ولم تلبس لباس الحكمة الإلهية القديمة.

تمتاز شعوب المنطقة الجنوبية من أراضي ما بين النهرين بوجود إحدى المفارقات وهي: إنهم استمروا بالقيام بجميع منجزاتهم العظيمة في بيئة كانت فقيرة في كل شيء من الموارد الطبيعية كالحجارة والخشب الجيد، والمعادن الخام، فالآشوريون في شمال منطقة ما بين النهرين قد حالفهم الحظ في موقعهم فقد كانت الأحجار بمتناول أيديهم، وكانت أمامهم التلال الحجرية (وهذه تحتوي الحجارة الكلسية أو الرخام) التي كانت على مرأى النظر بالنسبة لكل من عواصمهم المتعاقبة.

ولقد حصلوا على الحجارة عن طريق المقالع المفتوحة، إذ تركت إحدى هذه المقالع في عملياتها ندوباً واضحة في وجوه الصخور قرب (السكن-موصل) إلى الشمال الغربي من نينوى وكانت الأحجار مادة خام لا تصلح لبناء المعابد والقصور فحسب، بل أيضاً لبناء أبنية أخرى أيضاً.

وهكذا كانت الأحجار تقلع بشكل قطع عظيمة بمساحة خمسة أقدام طولاً بعرض قدمين ونصف وذلك في أوائل القرن التاسع ق.م، وقد استعملت هذه الأحجار في بناء سور لأحد المرافئ.

وهناك قطع كبيرة يصل وزن الواحدة منها إلى عشرين طناً كانت تنحت لتمثل سوراً أو سداً هائلاً.

وإن الإمدادت من الحجارة هي إحدى النقاط التي يعرف منها معالم التجديد الواسعة نظراً لأنه وفي أثناء حكم سنحاريب (٧٠٤-٦٨١)ق.م أرسلت عدة فرق منها *المسَّاحين للتفتيش عن مصادر جديدة لأندر* وأجمل أنواع الحجارة.

أما الخشب الجيد وهو مادة نباتية أخرى مهمة بالنسبة إلى منطقة ما بين النهرين القديمة، وقد كان من السهل الحصول عليه لدى الآشوريين، ففي الأزمنة القديمة التي كانت التلال القريبة من العواصم تحمل أشجاراً عظيمة (وقد بقي منها البعض التي حمتها بعض الظروف المواتية) وحالما نفدت تلك الأشجار كانت السيطرة الآشورية قد امتدت بحيث أصبحت الغابات فوق جبال زاغروس وطوروس متوفرة وفي متناول اليد.

وكانت الشعوب المهزومة معتادة على قطع تلك الأشجار وتصديرها إلى آشور، وهنا نجد أيضاً أن سنحاريب قد قام بتجديد آخر، فقد أرسل هذا الملك المساجين إلى الجبال بقصد التفتيش الدقيق عن مصادر جديدة للأخشاب الكبيرة الضخمة.

ولكن وعلى الرغم من استعمال الأحجار والخشب بقيت المادة الشائعة في البناء هي اللبن والطين، وقد كان اللبن يستعمل بشكل قرميد مجفف بالشمس، ولكن كان القرميد يتعرض للشوي أو الطلي بألوان متعددة بالنسبة لأعمال الزينة والقصور أو المعابد وكانت هذه الألوان تتراوح ما بين الأسود والأحمر والأزرق أو الفضي.

وفي بعض أبنية المعابد والقصور استخدمت مواد عازلة للرطوبة وكذلك البيتومين وقد وجد أن قطع الحجارة الكلسية التي شكلت غرضاً في كالاخ في القرن التاسع ق.م قد ثبتت بالبيتون ، ويشير سنحاريب بعد حوالي قرنين إلى نفس الممارسات.

وقد استعملت هذه المادة أيضاً عند سد الشقوق في القوارب وكان البيتومين متوفراً من حفر خاصة موجودة في آشور نفسها وهناك مثلاً حفرة من هذا النوع (والحقيقة أنها عبارة عن تسرب من حافة حقل نفطي) على بعد قليل من وسط نمرود.

وكانت هذه المادة تستعمل بشكلين إما كبيتومين خام قد أخرج تواً من الحفرة، أو بيتومين جاف وهو مادة لزجة ناتجة عن مزج القار مع الحجر الكلسي المطحون وهذا الشكل يستعمل بنجاح في بناء الأرصفة.

وكان هناك إحدى المواد الخام غير موجودة في جميع منطقة ما بين النهرين وآشور وحتى بابل وهي الخامات المعدنية ، وبجانب الذهب والفضة (وهذان كانا لينين فلا يستعملان إلا في أغراض الزينة وهما أيضاً نادران فلا يستخدمان بشكل واسع) فالمعادن المعروفة في العالم القديم كانت الرصاص وكان هذا ليناً أيضاً فلا يستعمل في معظم الأغراض مع أنه مفيد في ضخ الحاويات للماء أو الأنابيب.

وكذلك الحديد والنحاس والقصدير وكان المعدنان الآخران يخلطان لتكوين البرونز، لقد استعمل النحاس وخليطه البرونز في الشرق الأدنى ابتداء من الألف الرابع ق.م مع أن الحديد عرف في أواخر الألف الثاني ق.م.

وتوجد خامات النحاس والحديد التي كانت معروفة لدى الأقدمين في جبال طوروس وزاغروس وفي جبال الأناضول وفي هذه المناطق وحواليها بدأ إنتاج المعادن وتطور.

ولازلنا نجهل كيف أصبح منتجو المعادن في طوروس والأناضول قادرين على العمل في إنتاج البرونز الذي يتطلب إيجاد خليطة من القصدير.

وحتى الألف الثاني ق.م لم يعرف صانعو البرونز في الأناضول عن وجود القصدير وخاماته في منطقة طوروس والأناضول وكان عليهم لذلك استيراده من بلاد آشور والأناضول ولذلك استوردوا القصدير من إيران التي كانت تعرف كمصدر من مصادر القصدير منذ الأزمنة القديمة.

وفي هذا الوضع كان الآشوريون ابتداء من بداية الألف الثاني ق.م (وحتى قبل ذلك) قد اشتغلوا في تجارة المعدن ولكن هذا العمل لم يؤهلهم ليصبحوا رواداً في علم تقنية المعادن والتي ظلوا فيها إلى النهاية أقل شأناً بالنسبة للشعوب الجبلية إلى الشمال منهم، وقد كان الآشوريون مضطرين لاستيراد معادنهم من الخارج وكلما كان لديهم أي إمكانيات كانوا يستوردون المعادن بشكل نقي مصفى أكثر منه بشكل خامات تفتقر إلى الصهر.

ولكن كان للآشوريين إلمام بتعدين الخامات ولاسيما خارج أراضي آشور بالذات، حيث لا توجد خامات ومنذ أيام اسرحدون (٦٨٠ – ٦٦٩) ق.م الذي صرح

أن مصدر الذهب الذي استعمله هو العالم السفلي فقد كانت خامات المعادن تعاد معاملتها لهذا الغرض.

وخلال الألف الثاني كان النحاس والبرونز، وبشكل عملي، هما المعدنان الوحيدان المتوفران في آشور، وكانا يخدمان في جميع المجالات ابتداء من الأسلحة والأدوات حتى أحذية الخيول، ولقد كان الحديد الناتج من أصول زيزكية معروفاً في منطقة ما بين النهرين ابتداء من الألف الثالث ق.م ولم يستعمل حتى القرن الثاني ق.م وذلك بصهره من خاماته.

وكان مركز هذه التطورات آسيا الصغرى، وحتى هناك فقد بقي الحديد منتوجاً نادر الوجود حتى أواخر الألف الثاني ق.م، وكان استعمال الحديد الرئيسي صنع الأسلحة، وهناك إمكانية محاولة ملك الحديد أن يمارس سيطرته على تصديره، وإن وجهة النظر هذه مؤسسة على رسالة أرسلت من قبل حاكم حثي يعود زمنه إلى منتصف القرن الحادي عشر.

وقد أرسلت هذه الرسالة إلى ملك آخر من الممكن أن يكون شلمناصر الأول ملك آشور وقد اعتذر الحاكم الحثي بسبب تأخره في تقديم الحديد الذي طلبه الملك الآشوري، كان عذره من الأعذار المألوفة في دوائر التصدير وهو صعوبات الإنتاج ولكن هل كان عذره صادقاً أم كان يخفي محاولة فرض الحظر التجاري؟

ولقد وجدت قديماً محاولات لفرض السيطرة الاستراتيجية والتي أشهرها القصة التوراتية التي تذكر كيف أن الفلسطينين في القرن الحادي عشر ق.م رفضوا أن يتعاونوا مع الإسرائيلين في الصناعة التقنية للمعادن وذلك لئلا يصنع الإسرائيليون لأنفسهم سيوفاً ورماحاً.

ولكن سواء كان التأخير في انتشار إنتاج الحديد راجعاً لمحاولة الحيثين الاحتفاظ بالاحتكار بالنسبة لهذا المعدن، أو إلى صعوبات إنتاجية فعلاً، إلا إن هذا المعدن قد بدا متوفراً لدى الملوك الآشوريين ولكن بكميات صغيرة في القرن الثالث عشر ق.م عندما نسمع عن ذكر خنجر حديدي .

وفي القرن الثاني عشر ق.م يرد ذكر حداد في البلاط الملكي قد منح خاروفين بناء على أمر أحد الملوك وهذا يدل على أنه ليس الحديد فحسب بل أيضاً معرفة العمل بالحديد قد انتقل من آسيا الصغرى إلى آشور.

ومن الممكن أن يكون ذلك الحداد وابنه هو الذي صنع رؤوس النبال التي استعملها تغلات بيلاسر الأول (١١٥-١٠٧) ق.م بعد جيل من الزمان وتباهى باستعمالها ضد الثيران الوحشية، ولكن لم يكن حتى أوائل القرن التاسع أن أصبح الحديد متوفر الوجود بشكل كاف لتزويد عدد كبير من العساكر بالخناجر الكافية.

وابتداء من نفس القرن فصاعداً استعمل الحديد لصنع الدروع المصفحة (التي لم يكن الجنود يلبسونها فحسب بل كانت الخيول الحربية أيضاً) وكذلك الخوذ والفؤوس لتنظيف الطرق أمام الجيش.

ولا ينبغي لنا أن نظن أنه حالما أصبح الحديد متوفراً فقد حل محل النحاس والبرونز بصورة أوتوماتيكية في جميع الاستعمالات حين يمكن دخوله، ولكن لم يكن الأمر كذلك، إذ إن هناك عاملاً آخر هو أنه ليس من السهل التحكم بنوعية الحديد، فالحديد الرديء قد يكون أقل فعالية من البرونز الجيد والنحاس الجيد.

وهكذا ومع أن الفؤوس الحديدية كانت تستعمل في شق الطرق في عهد آشور ناصر بعل (٨٨٣-٨٥٨) ق.م إلا أن ابنه شلمناصر الثالث في نفس القرن وسرجون الثاني في أواخر القرن الثامن كلاهما يشيران إلى استعمال البرونز والنحاس في شق الطرق أثناء الحملات العسكرية.

ولكن بحلول القرن الثامن أصبح الحديد متوفراً لصنع أصناف متعددة من الأدوات وأواني المطبخ، وفي قوائم الغنائم تذكر مواقد التدفئة في الشتاء والمصابيح المصنوعة من الحديد بينما هناك أصناف حقيقية قد وجدت مثل السلاسل والمعاول والأزاميل والمناشير والسكاكين وشفرات المحاريث والمطارق كلها كانت مصنوعة من الحديد.

وقد وجد في الحفريات مخزن واسع يحتوي على أدوات من الحديد والغنائم التي جلبها سرجون الثاني ويبلغ وزنها حوالي (١٦٠ طن) من الحديد، وقد وجدت في خورسباد وهي موقع عاصمة سرجون (دور شاروكين) ولقد حصل تحليل بعض الأشياء التي وجدت في خورسباد ولم تكن النتائج متناسقة.

فقد وجد أن معولاً وقدوماً مصنوعان من الحديد اللين، بينما كان هناك قضيب حديدي وعلى الرغم من أنه لم يكن متجانساً في تركيبه إلا أنه قد احتوى في بعض أجزائه ما يكفي من الكربون لجعله قاسياً كالفولاذ، ولم يظهر أن الخبير الذي قام بهذه التحاليل كان متأثراً بالمهارة التقنية للحدادين القدماء (الذين ربما لم يكونوا آشوريين نظراً لأن الأشياء كانت من الغنائم) فلم يكن الخبير متأثراً في مجال التحكم بنوعية المعدن أثناء تدرجه من الحديد اللين حتى الفولاذ القاسي الذي يحتوي كميات كبيرة من الكربون.

ويبدو أن حدادي البرونز الذين كانت لديهم تقاليد طويلة الأمد ومشكلات أقل هؤلاء كان يبدو أنهم كانوا أفضل في أعمالهم.

واعتباراً من بدء الحفريات في آشور في منتصف القرن التاسع عشر ب.م فقد لوحظ أن الآشوريين أو أولئك الذين صنعوا لهم البرونز قد تعرفوا على الخصائص المختلفة للبرونز وخلائطه وتركيبها.

وبينما كانت الطاسات والصحون والأقراط مصنوعة من نوع من البرونز المؤلف من جزء واحد من القصدير بنسبة واحد إلى ستة، فلقد كان الآشوريون ماهرين في صنع البرونز فلقد استطاعوا صنع أنابيب ذات أقطار صغيرة جداً تصلح أن تدخل في قضيب الرجل أثناء إجراء المعالجة الطبية له.

ولكن هناك بعض معاصري الآشوريين الذين كانوا أشد مهارة منهم في صنع البرونز ففي شمال آشور وفي الجبال التي أصبحت أرمينيا فيما بعد كانت هناك مملكة (أورارتو) ولقد كشفت الحفريات على كثير من أعمال البرونز هناك، ووجد أن كلاً من الصفات الفنية والتقنية عندهم أفضل من الأعمال الآشورية ولا بد أن الآشوريين كانوا موافقين على هذا الحكم، وذلك لأنه عندما سنحت

الفرصة كما كان الحال عندما استولى الملك سرجون الثاني على أورارتو في حملة عام (٧١٤ ق.م) عندها أخذ الجيش الآشوري كميات هائلة من البرونز الأورارتي كغنائم، ولم يكن البرونز بشكل معدن بل بشكل أشياء مصنعة.

وقد أحصى سرجون الأشياء المأخوذة من الحديد والفضة فضلاً عن البرونز وكانت أعدادها تصل إلى مئات الألوف التي كان منها الخناجر البرونزية التي كان مقدارها (٣٠٥٠٠٠) ولكن لم نستطع ترجمة أسماء كثير من الأشياء المأخوذة.

وكان سرجون يساهم في الشعور بهذه العقوبة عندما اشتمل في قائمته (١٢٠) مادة برونزية من صنع بلدهم ولم يكن من السهل كتابة أسماء هذه المواد.

التكنولوجيا الكيميائية

لا يعرف إلا القليل عن التكنولوجيا في المنطقة ما بين النهرين القديمة وتنحصر معلوماتنا بما نستطيع استنتاجه من بقايا التجهيزات التي وجدت في الحفريات، ومن صيغة نصوص تعالج مثل هذه الأمر وتلميحات متناثرة في أمكنة أخرى.

ولسنا بحاجة إلى الإشارة أن تحضير الطعام في منطقة ما بين النهرين كما هو الحال والأماكن الأخرى كان يشمل بعض المظاهر المأخوذة من التقنيات الكيماوية باستعمال مواد كيماوية إضافية (كما هو الحال عند حفظ اللحم بواسطة التخليل) (عمل المخللات).

وبعض العمليات الميكروسكوبيه مثل: استعمال الأنزيمات والبكتريا والفطور في صناعة البيرة والنبيذ واللبن الرائب والجبنة.

وعدا عن تحضير الطعام فإن العمليات الكيماوية الرئيسية المعروفة في منطقة ما بين النهرين القديمة بما فيها آشور كانت صنع الزجاج والعطور والصباغ ودباغة الجلود وتحضير القلويات والصابون، وعمليات التعدين التي تشمل الصهر في الأفران، وربما التقطير.

والحقيقة أنه ليس لدينا نصوص واضحة مرتبطة مباشرة بآشور سوى صناعة الزجاج وتحضير العطور.

إن الافتراض أن شعب منطقة ما بين النهرين كانوا قادرين على استخدام التقطير مؤسسة على الاستنتاج من وجود بعض الفخار والأواني الفخارية ذات حافة غريبة مزدوجة وكانت ثنيتها الداخلية مثقوبة وأحياناً لا تكون مثقوبة ، وعند رؤية غطاء في الأعلى ونار مشتعلة في الأسفل مع وجود شكل وعاء دون وجود ثقوب للتصريف في الأعلى من الممكن أن تستخدم كجهاز للتقطير.

بينما نجد أن الشكل المجهز بثقوب للتصريف في الشفة العليا من الممكن أن يكون جهازاً للتكثيف يشبه جهاز راووق القهوة.

مع أن هذا التفسير يبدو ممكناً إلا أنه ليس لدينا أي شهادة إيجابية أن أوانٍ من هذا النوع قد استعملت فعلاً كأدوات للتقطير أو أدوات للتكثيف.

هذا وإن الحصول على النار هو مظهر من مظاهر التقنية الكيماوية القديمة التي لا نزال نجهلها ، ومنذ الألف الأول هناك إشارات عديدة قدل على استعمال الكبريت وإنتاج اللهب فهناك مثلاً تعليمات في عدد من الطقوس تقول:

((إنك سوف تضيء مشعلاً من نار تنتج من الكبريت)).

ولكن ليس هناك من دلالة على كيفية إشعال الكبريت.

وفي الألف الثاني وجد في آشور عدسات محدبة الجانبين مصنوعة من بلورات منحرفة ومن الممكن استعمال هذه لتركيز أشعة الشمس بحيث تنتج احتراق ما تحتها ، ومع ذلك فليس هناك من شواهد أبداً أن هذه العدسات قد استعملت بهذا الشكل.

إن أوسع مجموعة معروفة من النصوص المسمارية المختصة بالتقنيات الكيميائية تتكون من بضعة دزينات من النصوص تشرح صنع الزجاج الملون، ومعظم هذه النصوص مأخوذة من مكتبة آشور بانيبال في نينوى.

وينبغي أن نشير إلى أن هذه النصوص تمتلك تاريخاً أدبياً طويلاً خلفها وفي الشكل النهائي الذي تتخذه ربما تعكس إجراءات حدثت قبل بضعة قرون في بابل وليس في آشور.

ومع ذلك فإن صنع الزجاج كان يتم بالتأكيد في آشور في الألف الأول، الأمر الذي نعلمه من وجود أوانٍ زجاجية حقيقية وأشياء أخرى مثل بعض الخرز من الزجاج كلها وجدت في المواقع الآشورية.

لقد وضعت التعليمات التقنية في إطار سحري ديني مع وجود الخشوع الغيبي المعتاد وكان على التقني أن يكشف (ربما عن طريق التنبؤات الفلكية وجود شهر مناسب أو يوم مناسب) وعندئذ بوسعه أن يبني أتوناً له وبعدها كان عليه أن ينصب بعض التماثيل التي تدعى كولو وتعني هذه الكلمة ((الطفل المولود ميتاً)).

وهكذا فإن هذه التماثيل تشير إلى أرواح الأطفال الذين ولدوا ميتين، وكان من الواجب تقديم طقوس الإراقة وهي سكب سائل على الأرض تكريماً للإله.

وكذلك ينبغي أن تقدم الضحايا لهذه التماثيل ويمنع اقتراب أي شخص غير طاهر طقوسياً من هذه المشاهد، ومن الواضح أن هذه التحضيرات السحرية كانت تعكس شعور صانعي الزجاج بأن إلمامهم التقني بعملهم غير كاف لضمان النجاح.

وبعدها تتبع التعليمات التقنية وكانت هذه تشمل وزن العناصر المكونة وطحنها ثم مزجها، وبعد ذلك وضعها في أتون تحت شروط خاصة حتى تذوب الكتلة ويصبح متجانساً مع تكرار العمليات عند الضرورة.

وبعد ذلك كان الناتج يبرد ويطحن ويمزج مع المواد الأخرى (لبلوغ اللون المطلوب) ثم يعاد تسخينه.

هذا وإن أحد تلك النصوص يقول:

((إنه في المرحلة الأخيرة ينبغي أن يترك باب الأتون مفتوحاً حتى يتوهج الزجاج المنصهر ويصبح لونه أحمر وعندها يقفل باب الأتون.)) ومن الواضح أن تقنيي

منطقة ما بين النهرين كانوا يعلمون أن هناك نتائج مختلفة وقد تولدت عن طريق الأكسدة والاختزال.

لقد أشرنا إلى نصوص تتعلق بصناعة العطور وأن جميع هذه النصوص عدا نص واحد قد أتت من مدينة آشور في القرن الثاني عشر، وكانت العملية التي يصفونها بالتخمر والنقع والغلي برفق للنباتات العطرية في الماء لعدة أيام وبعد ذلك يضاف الزيت لامتصاص المادة العطرية وثم تستخلص العطور من طبقة الزيت الرقيقة جداً.

هذا وقد جرت محاولات لتفسير بعض المصطلحات التقنية المشكوك في أمرها في النصوص وذلك بالإشارة إلى عملية التقطير ولكن هذا أصبح أمراً مشكوكاً فيه أيضاً.

تخطيط المدن

كانت المحاولات المقصودة للسيطرة على البيئة التي تمثلت ببناء المدن ما هي إلا مظهر آخر من مظاهر تحكم الإنسان المتزايد في الطبيعة.

ولكن وفي الوقت نفسه فإن شكل المدن القديمة من الممكن أن يعكس تشكيل الطبيعة للإنسان.

وذلك لأن أصولها نابعة من الجغرافية، هذا وإن مواقع المدن القديمة وإلى حد كبير مخططات مساحة الأرض والمواد المستعملة إنما تقررت عن طريق مظاهر طبيعية، أي: عند وجود نهر أو تلة أو أرض خصبة، أو مواد قريبة من الحجارة، أو الأخشاب المستعملة في البناء.

وضمن هذه المقاييس تمت المدن الأصلية كمجموعات متشابكة من الجيران، مثلاً منطقة المعبد أو سوق النحاسين، أو سوق بائعي الفخار، أو بيوت السكن التي تبنى دون تخطيط معقول.

ولكن فيما بعد عندما وجدت السلطات المحلية التي تستطيع تجاوز الاعتبارات الجزئية طبقاً لمصالح الدولة ككل، عندها أصبح من الممكن إيجاد

شيء من تخطيط المدن التي أصبحت ضرورة من الضروريات، إذا اقتضت المصالح الوطنية إعادة بناء مدينة.

ومع ذلك وحتى في مثل هذه الحالات هناك تغييرات لما يمكن عمله، وقد كان أوضح هذه التقيدات المظاهر الدينيّة المحافظة التي كانت تطلب أنه حيث كان هناك معبد عندها يجب بناء معبد شبيه له بالضبط على ذلك الموقع.

ولكن وضمن هذه القيود تمّ بناء عدد من الأماكن وتمّ إحداث تخطيط جديد وذلك في الألف الأول قبل الميلاد في عواصم منطقة ما بين النهرين القديمة وبابل ونينوى.

وقد كان مجال الترميم التام واضحاً في بابل نظراً لأن هذه المدينة قد نُهبت وهدمت إلى الأرض من قبل سنحاريب ولكن تفصيل ذلك الترميم إنما يعود للتاريخ البابلي وليس للآشوري.

هذا وتهمنا جداً نينوى وهي آخر عاصمة آشورية وسّعها ورممها إلى حد لا بأس به سنحاريب.

كانت إحدى أبحاث بعض المؤرخين القدماء هي ما يخص الأوائل، وعلى هذا الأساس يمكن أن ندعو سنحاريب أول مخطط للمدن.

وكان سنحاريب مخططاً نموذجياً وقد أوضح الخصائص المهمة جيّدها وما هو سيئ فيها.

وكان لديه رغبة صادقة لعمل ما هو الأفضل لدولته ومدينته وشعبه، وكان معتقداً بأنه يعلم ما هو الخير بالنسبة لهؤلاء، ولم يكن يتورع عن إبداء الحقائق بشكل تبدو فيه مناسبة لأغراضه.

تظهر هذه الحقيقة وبداية سرد سنحاريب للأعمال التي قام بها في نينوى، ومع أنها كانت مدينة ذات أهمية متزايدة منذ الألف الثالث قبل الميلاد.

وقد كشفت العاصمة القديمة آشور بالنسبة لأهميتها الاقتصادية والتجارية قبل ظهور سنحاريب إذ إنها لم تصبح عاصمة لآشور المتوحدة قبل سنحاريب.

ورغم ذلك فإن سنحاريب يصف نينوى بأنها المكان (حيث منذ الأزمنة القديمة مارس الملوك الذين أتوا قبلي من أجدادي شؤون الملك قبلي، ووجَّهوا رعايا الإله انليل).

والحقيقة أنه ليس من كذب في هذه التصريحات فقد حكم أسلاف سنحاريب نينوى كما يقول التصريح، ولكنهم لم يحكموا نينوى كما تفيد العبارة التي ذكرها وهي أنّهم وجّهوا رعايا الإله انليل.

وربما كان هناك بعض الصراعات السياسية التي وقعت وراء هذا الادعاء وهو مسألة نقل العاصمة، إذ إنه مع وجود إمبراطورية متحدة شمالاً وشرقاً وغرباً كانت مدينة آشور في أقصى الجنوب، وهذا موقع غير مناسب بصفة استراتيجية كموقع مدينة الشمال.

ولكن كان هناك عامل ثانٍ إذ إنه نظراً لأن آشور كانت مدينة ومركزاً محترماً دينياً فقد اكتسب سكانها واحتفظوا بامتيازات، مثلاً الإعفاء من الضرائب والسخرة (وهي واجبات الخدمة الإجبارية).

وقد شعر عدة ملوك بالقيود الناتجة عن ذلك، فقد بنى توكولتي نينوترا الأول لنفسه مدينة عبر نهر دجلة.

وأنشأ آشور- ناصر- بعل عاصمة جديدة كليّاً في (كالخ) وقد بنى هذه المدينة فوق مدينة سابقة صغيرة.

وخسر شلمناصر الخامس عرشه بسبب خصوماته مع مدينة آشور، في حين أن سرجون الثاني وهو والد سنحاريب قد اضطر للتنازل عن جميع مطالبه من شعب آشور لكي يحصل على تأييدهم في مطالبته بالعرش، مع أنه ولكي ينجو من قبضتهم بنى لنفسه قاعدة ملكية جديدة إلى الشمال الشرقي من نينوى في المرتفع الذي أطلق عليه اسم دور شاروكين (وهي مرتفع خورسباد اليوم).

لقد زاد سنحاريب من قيمة نفسه عندما كتب تصريحاته في سبيل إعادة بناء نينوى، ولكن لم يكن هناك من شيء غريب عندما يصف أحد الملوك الآشوريين عمليات بناء عاصمته الجديدة.

فقد تخلصت النقوش الآشورية الملكية من ذكر أحوال البناء وأصبحت تذكر الملك نفسه وألقابه، وأضافت ملاحظات مختصرة عن بعض الحوادث الجارية في الدولة وذلك لكي يتم تثبيت التاريخ، وبعد ذلك كان بعض أعماله التي تدل على التفوق عند بناء ما بنى.

وقد قدَّم الملوك الآشوريون نقوشهم الملكية بتوسيع أخبار أي حادث جديد في الدولة، وجعله قصة مفصلة تصف الحملات الملكية.

ولكن أخبار البناء كانت دائماً في القسم الأخير من النص، ولو كان هذا النص غالباً ما يشير إلى إصلاحات صغرى في معبد أو أي بناء عام.

وهذا يعني أن شكلاً تقليدياً كان بمتناول اليد عندما يريد سنحاريب أن يصف ما صنعه لنينوى، وقد حصل على كل الفائدة من هذا العمل.

والرواية الآتية التي تبين ما كان يدعيه وما فعله، وهي تجدد عدداً من الروايات المختلفة عن عمله في المدينة وهي تمثّل الروايات جميعها حول منجزات سنحاريب في هذا العدد، وليست روايات متسلسلة متكررة حول النظام الذي قال عنه: إنه أتمَّ به ذلك العمل.

وينبغي أن نذكر فوراً أن هناك كثيراً من الأشياء التي لم يخبرنا عنها سنحاريب التي يَسُرنا أن نعرفها، إذ إننا نود أن نعرف كيف يعين الناس العاديين، وكيف بنيت بيوتهم وكيف تجمّعت وكيف يتصرفون في أمور السوق والطعام والمعابد ولكننا نستطيع أن نكتشف ذلك من الحفريات، فقد كان كل اهتمام سنحاريب في مثل هذه الأمور هو أن قرر بأن لا يجوز أن تكون البيوت الخاصة محيطة بالطريق الملكي.

وكان اهتمام سنحاريب الرئيسي منحصراً في بيته وهو القصر الملكي، ولقد كان هناك قصر ملكي في نينوى دوما ولكن الآن وبعد أن أصبحت نينوى العاصمة الإمبراطورية أصبح ذلك القصر صغيراً، ولم يكن يغطي نصف فدان أو ما يقارب ذلك، ولذلك قرر سنحاريب أن يبني قصراً مناسباً وأن يبني عاصمة مناسبة أيضاً.

ولم يكن هناك نقص في الموارد وقد قدمت حروبه عدداً من العبيد للعمل، فأرسل عدداً من الخبراء الجيولوجيين إلى الجبال للتفتيش عن أحجار شبه كريمة وأحجار تصلح للبناء، ولقد أمن سنحاريب ووضع تحت تصرفه كميات من الخشب الجيد المجلوب من الجبال الممتدة من جبال لبنان وأمانوس في الغرب حتى جبال زاغروس شرقاً.

وكان هناك مادة ثمينة للبناء وهي أشجار القصب الهائلة (التي يبلغ طول الواحدة منها ٢٥ قدماً) من المستنقعات الواسعة في جنوب العراق والتي يقال عنها: إنه قد سحبها وأوصلها إلى آشور ولم يفسِّر كيف جرَّت هذه الأشجار ولكن تصريحه من الممكن أن يعني أنها قد ربطت ونقلت عبر النهر في قوارب.

كانت الأيدي العاملة تأتي من جميع أنحاء الإمبراطورية: من مستنقعات في جنوب بابل ومن شمال غرب إيران ومن آسية الصغرى من سواحل فلسطين، وقد أَسْهَمَت هذه المجموعات المختلطة المؤلفة من جماعات عرقية وثقافية مختلفة، في توحيد مناطق الشرق الأدنى تدريجياً ولم تذكر الأعداد التي كانت تستخدم للعمل في نينوى، ولكن كان هناك مئات الألوف من العمال تحت تصرف سنحاريب.

وتقع نينوى حيث يتصل أحد الروافد المدعو خوسر بنهر دجلة، وكان يجري إلى جانب القصر القديم فرع من خوسر يعرف باسم تيبلتو وفي أوقات الفيضان، لم يسبب تآكل الأرضية التي وقف عليها القصر فحسب، بل وصل النهر إلى داخل المدينة وأتلف مدينة ذات قدسية تدعى الجيجونو.

ونبشت القبور القديمة التي احتوت عليها تلك المدينة، وقد عالج سنحاريب المشكلة بأن حوّل مجرى ذلك النهر، وملأ مجراه القديم بقطع كبيرة من الحجر الكلسي المجلوبة من الجبال، وثبتها بالبيتومين، وفوق هذه وجدت كميات من القصب كانت متراكمة تهدد البيوت بالخطر، ولقد أمّنت الحماية ضد الطوفان، وذلك ببناء سور مدعوم بقطع من الحجر الكلسي.

وفوق كل ذلك بنيت شرفة علوها (١٧٠) مدماكاً من القرميد (وقد ذكر سنحاريب في مكان آخر أن عدد الميداميك (١٨٠ أو ١٩٠) فوق القاعدة، وكان القصر الجديد في هذا المكان.

وفي عدة نواحٍ كان القصر الجديد بناءً نموذجياً في نوعه ويتألف من عدة غرف متوضعة حول سلسلة من الباحات، وكانت بعض الغرف عبارة عن أماكن مخصصة للسكن أو مكاتب إدارية وهناك غرف طويلة تؤلف المقر الحكومي، ونحن لا نعرف هذه الأمور من أي أوصاف ذكرها سنحاريب بل من الحفريات الحديثة، وكان هناك تجديدات معمارية ذكر سنحاريب أنها تستحق الذكر، وكانت هذه تنحصر في وضع رواق ذي أعمدة على واجهة القصر وهو نسخة عن أسلوب البناء السوري وهذه كانت تدل على رغبة سنحاريب في تبني الأفكار الجديدة.

وكان المظهر الآخر من مظاهر القصر الذي اعتبره سنحاريب شيئاً يستحق التسجيل بالتفصيل وهو حجم القصر فقد كان حجم القصر يزيد على فدانين ونصف من الأرض وكذلك زينة القصر.

وكانت المادة الرئيسية التي تضفي العظمة على البناء هي أخشاب الزينة العطرة، ويقول الملك: إن الآلهة قد أظهرت له الأمكنة التي كانت أشجار الأرز الضخمة تنمو في الجبال وأنه قد أمر بجلب أشجار الأرز وأشجار أخرى من الغابات الضخمة في جبال زاغروس وأمانوس.

واستعملت هذه الأشجار في تحضير العارضات والأعمدة والأبواب ومن الغرابة بمكان أن سنحاريب قد خسر جمال الغابات بسبب سعيه للزخرفة، وقد أخبرنا أنه وضع أبواباً مزدوجة من الأخشاب العطرة وبعدها كساها بالفضة والنحاس.

وكان هذا يعني أنه إما قد دهنها بألوان فاتحة أو أنه طلاها بمعدن لامع ويُعتبر التفسير الأخير أنه الجواب الأكثر احتمالاً، نظراً لأنه وفي السطور التالية يقول الملك:

إنه قد ثبَّت مسامير من الفضة والنحاس حول الحجيرات المذكورة، وقد استعمل العاج المحفور من أجل الزينة، أما الجدران الخارجية فقد زُيِّنت بالقرميد المطلي الملون فوق كورنيش وإفريز مائل.

وكما ذكرنا سابقاً فإن سنحاريب قد أرسل كشافين إلى الخارج للتفتيش عن مصادر جديدة للمعادن، وذلك لأنه يخبرنا أن الرخام الشفاف الذي كان نادراً في أيام أسلافه وأنه مكلف جداً، وقد اكتشف في أحد الجبال بحيث إنه يستطيع أن يصنع تماثيل منحوته منه.

ووجدت مصادر جديدة من الحجارة الأخرى بما فيها كمية واسعة من الحجر الكلسي الذي نحتت منها تماثيل الثيران الهائلة، وقد كانت هذه الحجارة تنقل فوق نهر دجلة إلى نينوى على أطواف في موسم الفيضان.

وكانت تماثيل هائلة تصنع من البرونز بواسطة عملية جديدة وهي السبك المتجوف التي اخترعها سنحاريب نفسه، وقد زُوِّد القصر بمياه الشرب من آبار مجهزة ببكرات مثبته على عارضة مع وجود سطول ترتفع من البئر وهي مثبَّتة بسلسلة طويلة من البرونز.

أما التدفئة والتهوية فهي مظاهر تختص بتقنية البناء التي لم يتنازل سنحاريب بإخبارنا عنها ولكن الحفريات الفعلية في قصره والقصور الأخرى تمدنا بما يساعد على ملء هذه الثغرة، إذ ربما يكون الطقس بارداً بشكل لاذع في نينوى في فصل الشتاء، ولا بد أن سنحاريب كان لديه طريقته الخاصة للبقاء بشكل مريح.

فقد كشفت الحفريات هناك وفي قصور أخرى عن إنشاءات بشكل سكك حجرية متوازية موضوعة في أرض القصر وتشبه خطوط القطارات، فقد اقترح أن هذه الخطوط كانت منقل فحم فيه حجرات من نار على دواليب يمكن أن تتحرك في الغرفة إلى حيث كان الدفء مطلوباً.

إن استعمال منقل النار المتحرك في القصر يتطلب شكلاً من أشكال التهوية وذلك في حالة رغبة السكان التخلص من أول أكسيد الكربون السام ونتائجه الضارَّة، ولكن لم يستطع علماء الآثار تقديم أي قرينة تثبت ذلك نظراً لأن أي ترتيبات من هذا النوع تتطلب أن تكون متوضعة في الجزء العلوي من الجدران التي لا شك أنها اختفت.

ومع ذلك فإن النصوص تذكر وجود شيء في أحد القصور وهو يدعى بابها النسيم الذي يظن أنه نوع من نافذة للتهوية من الممكن فتحها وإغلاقها.

وبالنسبة للشخص الآشوري كانت النظافة تقترب من العبادة، وكانت هناك عدة مناسبات كان من الواجب القيام بالاغتسال لأغراض طقوسية دينية وهي مختلفة تماماً عن قضايا المحافظة على الصحَّة والراحة الشخصية، وكانت هذه الحالة تتطبق على الملك، إذ كان هناك في قاعة العرش باب يؤدي إلى غرفة الاستحمام، وهذه كانت مظهراً شائعاً في القصور، وبشكل نموذجي كان للحمام أرض مصنوعة من القرميد المشوي لا يتسرَّب منها الماء لوجود البيتون، وهذا كان يحمي الأجزاء السفلى من الجدران وفي منطقة منخفضة من أرض الحمام هناك ثقب أو ثقبان لتصريف الماء وفيها سدادات حجرية.

ولا يوجد في قصر سنحاريب أي مكان يمكن أن ندعوه مرحاضاً مع أن هناك بعض الثقوب للتصريف من الممكن أن يركب فوقها مقعد، مع أن المقعد غير ضروري إذا كان الآشوريون يقرفصون عند التغوط، وذلك كما لا يزال العراقيون يفعلون ما لم يكونوا قد تأثروا بالعادات الأوربية.

وبالإضافة إلى بناء القصر فقد رمَّم سنحاريب ووسع بناية ثانية كبيرة من الممكن أن نصفها بأنها ثكنة عسكرية مع أنها لم تحتوِ على عساكر بل على

خيول تعمل لمصلحة الجيش والمركبات الحربية (العربات والشاحنات) والتجهيزات الميدانية بشكل عام، وفي البناء هناك ساحة استعراض كبيرة تستعمل لتدريب الخيّالة وتمرين خيول جر العربات فضلاً عن الحيوانات الأخرى المستخدمة عند القيام بالحملات العسكرية مثل البغال والجمال.

لقد اعتنى بمدخل القصر ووسّع الشوارع لإنشاء طريق ملكيَّة عرضها نحو تسعون قدماً تؤلف طريقاً مرتفعاً مصنوعاً من ألواح الحجر الكلسي ومزيناً بمسلات على جانبه، وقد كتب إنذاراً على جانب الطريق يذكر أنه إذا عمد أي إنسان إلى إعادة بناء بيته وجعل أسس هذا البناء داخلة في الطريق الملكي فسوف يعاقب بوضعه فوق الخازوق على سطح منزله.

ولم ينسَ سنحاريب أن يزوِّد قصره بمنظر ملائم ولذلك فقد أنشأ ما دعاه بالمنتزه العظيم وكان هذا المنتزه يشبه جبال أمانوس، فقد كان فيه جميع أنواع النباتات العطرة وأشجار الفاكهة التي تنمو في الجبال وفي أرض كلدان، وكذلك الأشجار التي تحمل الصوف أي: القطن، وليس من السهل زرع مثل هذه الأشجار في منطقة نينوى حيث درجة الحرارة مرتفعة ولا يهطل المطر ابتداء من شهر أيار حتى تشرين الأول.

ولم يكن من الممكن جلب الماء من نهر دجلة في زمن سنحاريب لأن مياه النهر كانت منخفضة جداً بالنسبة للأرض حول نينوى، وقد تغلب سنحاريب على هذه الصعوبة وذلك بحفر نظام من الأقنية لجلب الماء إلى حديقته من الجبال والينابيع على بعد نحو ثلاثين ميلاً من ثلاث جهات على الأقل، وكان الجزء من هذا النظام الذي وصلت إلينا معلومات عنه من نقوش سنحاريب والذي كان أهم جزء من هذا النظام على العموم بحيث كانت المياه الجبلية تجر بواسطة الأقنية والقنوات إلى نهر خوسر وهو رافد من روافد دجلة، حيث بنيت السدود والقناطر وذلك لضبط منسوب المياه حالما يقترب خوسر من نينوى.

وما تزال أجزاء كثيرة من هذا المشروع الهندسي الهائل ظاهرة حتى الآن ويمكن رؤية آثار الفن الآشوري في إقامة السدود على أجزاء من نهر خوسر عند

انخفاض منسوب المياه في النهر، كذلك نرى في أحد الأمكنة حيث ينبغي عبور أحد الوديان أنه قد بني نوع من الأقنية طولها حوالي (٣٠٠) باردة وهي مؤلفة من حوالي مليوني قطعة حجرية ضخمة تزن القطعة حوالي ربع طن وكانت مرصوفة على أساس من الجص الخشنة، وكانت قمة القناة تبلغ أربعة وعشرين باردة طولاً وتتدرج بشكل يضمن تدفقاً منتظماً للمياة وفيها دعامات لتقوية جانبيها.

رُبّما يتساءل المرء فيما إذا كان المشروع الطموح ذا فائدة اقتصادية وذلك من وجهة نظر نمو الاقتصاد الزراعي في جوار نينوى، ومن المحتمل أن الأمر ليس كذلك ولم يكن هذا هو هدف التجربة الواضح اقتصادياً، فإن ما كان سنحاريب يحاول عمله -وهذا يُعدُّ من حسناته- كان تحسين نمط الحياة بالنسبة له ولشعب نينوى وذلك عن طريق بناء مدينة يبهج الإنسان أن يعيش فيها.

وهكذا فإن المياه الآتية من نظام القنوات، وبعد أن تستثمر في سقي الحديقة لا بد أن يسمح لها أن تجري بشكل عشوائي لتصل إلى نهر دجلة للاستفادة منها، كتغذية المنطقة التي كانت -لولا ذلك- ستصبح مستنقعاً، وبتغذيتها للمنطقة سوف تشجع إكثار النباتات والحيوانات حيث أجمات القصب والطيور المائية المغردة والخنازير البرية، ولقد شجع أهالي نينوى على القيام بواجباتهم في جعل المدينة مناسبة ومستثمرة، فقد قسمت الأراضي في أعالي الجداول إلى قطع تبلغ مساحة القطعة فداناً واحداً أو ما يقارب ذلك ووهب سنحاريب هذه الأراضي أهالي نينوى لكي يزرعوا فيها الحدائق.

لقد زادت مساحة المدينة كثيراً، فقد كانت مساحتها سابقاً تبلغ ١٨٠ فداناً والآن بنى سنحاريب سوراً يحيط بالمدينة التي أصبحت مساحتها ألف فدان ويقال: إن السور كان سمكه حوالي أربعين قطعة من القرميد وعلوه حوالي ١٨٠ مدماكاً، وهذا يعني أن سمك السور أربعون قدماً وعلوه خمسة وأربعون قدماً وكان هناك ١٥ بوابة في السور وبعد هذا السور الداخلي كان هناك سور ضخم هو السور الخارجي.

وإلى شمال وجنوب المدينة كانت هناك حدائق أخرى ومن المحتمل أن الأراضي المحروثة التابعة للمدينة كانت منتشرة إلى مسافة تبلغ خمسة أميال وحتى عشرة فيما وراء المدينة.

البيوت الخاصة

لا نعرف إلا القليل عن البيوت الخاصة في آشور كما نعرف عن القصور ولا بُدَّ أن يكون هذا الأمر محتوماً، إذ إن الملوك الآشوريين يقدمون لنا معلومات وافرة عن قصورهم في نقوشهم ولكن لم يكن لهؤلاء الملوك أي مصلحة أو اهتمام بوصف البيوت الخاصة.

وفوق ذلك فإن بقايا القصور التي كانت تبنى على تلال ظاهرة في المواقع الأثرية، هذه القصور كان من الممكن تمييزها بشكل أفضل من تمييز البيوت الخاصة، وكذلك علينا أن نعترف أن القصور من المحتمل أن تحتوي مواد أو أشياء يمكن حفظها في المتاحف، وهكذا كان الوضع حتى الأزمنة الحديثة، نجد أن علماء الآثار في آشور، إذا جاز لهم الاختيار فإنهم يختارون الحفر والتنقيب في قصر أكثر من اختيارهم الحفر في بيت عادي.

وأخيراً نظراً لأن القصور تحتوي على أجزاء لا بأس بها من الحجارة، بينما نجد أن البيوت الخاصة مبنية من الفخار والقرميد حتى أنه ولو كان بالاستطاعة الكشف عن بقايا البيوت الخاصة فإن هناك مشكلات خطيرة تظهر إذ ليس من السهل العثور على معلومات ذات قيمة بالنسبة لشكل البيت.

ومع ذلك فإن لدينا بعض المعلومات الواردة من النصوص حول البيوت الخاصة، وهذه تأتي على العموم من الوثائق التي تشير إلى بيع أحد البيوت مثلاً، وهذه الوثائق التي طالما تعطي جرداً عن محتويات البيت.

وهناك نص من هذه النصوص يسجل بيع بيت مبني ومعه عارضاته وأبوابه مع ما في الباحة والحمام، ومبنى الخدم في البناية الرئيسية، وكذلك الطابق العلوي، وغرفة المؤن والسقيفة والمقبرة.

وهناك نص آخر يعود إلى الألف الأول يصف بيتاً في نينوى، وهو بيت مبني مع عوارضه وأبوابه، وغرفة الطعام وغرفة النوم، وحمّام وغرفة غورسو (لا يعرف معنى هذه الكلمة) وغرفة مؤن وطابق علوي، فيه أربعة أبواب.

وبالإضافة إلى ما تذكره مثل هذه النصوص فإننا نعلم شيئاً عن البيوت الخاصة ومحتوياتها بالهياكل الفعلية التي تم العثور عليها عن طريق الحفريات في كلتا العاصمتين آشور وكالاخ، وفي بلدة ريفية وهي شيباكيا (اسمها اليوم تلة تيب غاورا) وهي على بعد نحو (١٢ ميلاً) من نينوى.

لقد أظهرت الحفريات في كالاخ مجمعاً مؤلفاً من ستة بيوت متلاحقة إزاء سور المدينة، وكانت الجدران من اللبن الطيني مغطاة بطبقة من الطين، كما أن اللبن المرصوص كان مستعملاً في معظم البيوت وأرضياتها، مع أن بعض الممرات والباحات كانت مبلطة بالقرميد المشوي أو بالجص.

وكان أكبر هذه البيوت يحتوي على اثنتي عشرة غرفة أرضية، وكان يشغل نحو ثلاثة آلاف متر مربع (حسب الرقم الذي ذكره عامل الحفريات) وهذا الرقم غير دقيق، بل ربما كان (٢٥٠متراً مربعاً) أو أقل من ذلك، أو ١ من ١٦ من الفدان، ومع ذلك فإن هذا البيت تبلغ مساحته ضعف مساحة أي بيت حديث، يحتوي على أربع غرف للنوم، وكان بعض جدران المنزل التي تقسم الغرف سميكاً، ووجود الأدراج يدل على أن البيت كان فيه طابق علوي.

ولكي تتم الشروط الفعلية اللازمة لجلب الراحة في المنزل ينبغي أن نلاحظ أن جزءاً من المساحة كانت تؤلف بعض الباحات.

وكان مدخل الدار يبدأ من باحة خارجية، وهناك باحة داخلية مبلطة، وفيها غرف للمؤن في جانب من الباحة، وغرفة الاستقبال في الجانب الآخر.

وفي خلف غرف المؤن كان هناك قبو الدفن العائلي نظراً لأن موتى الآشوريين كانوا يدفنون تحت أرضية بيوتهم، وقد وجدت غرفة صغيرة تحتوي فرناً مخروطي الشكل لصنع الخبز وهو مصنوع من الفخار.

وكان هناك غرفة كبيرة نوعاً ما وجد فيها الهيكل العظمي لكلب الحراسة في المنزل.

وفي غرف أخرى وجدت مجموعة أخرى من أواني جمع الطعام وكاسات وجرار كانت تحتوي على آثار من القمح والشعير والدخن وبذور الكتان والزيت وفأس من الحديد وهناك أدلة أخرى على أسلوب المعيشة المنزلية في بيوت الآشوريين ومنها ملعقة مصنوعة من العظم.

ولم يجد الأثريون أي أشياء مصنوعة من معادن ثمينة ولكن صادف أن كان البيت قد سرقت منه أدواته وأحرق ولا بد أنه قد سرقت منه معادن ثمينة لو وجدت.

وكان في بعض البيوت الخاصة الآشورية مراحيض مع مصارف وهي بمثابة أقنية مصنوعة من القرميد ومع أنه وفي الألف الثاني ق.م أصبح هناك أنظمة للصرف الصحي مصنوعة من أنابيب من الفخار.

وكانت الأبواب الداخلية للبيوت تعلق على ركائز تدور داخل فجوات موجودة ضمن قطع من القرميد المشوي.

وكانت في بعض الأحيان تجويفات تدل على أنها كانت خزائن داخل الأرض وكان هناك مخابئ تحت أرض الغرفة تحفظ فيها الأشياء الثمينة.

قوة الحيوانات والمواصلات البرية

هناك مرحلة أخرى مهمة تمثل سيطرة الإنسان على الطبيعة وهي استخدامه لقوة الحيوانات ويبدو أن هذه العملية قد بدأت في منطقة ما بين النهرين في زمن متأخر عن بداية الألف الرابع حين ظهرت الثيران وهي تجر المزالج.

ولقد اخترع الدولاب في هذه المنطقة وبذلك تحولت المزلجة إلى عربة أو مركبة ولقد شكل هذا التطور جزءاً من نظام المواصلات في آشور وبقيت العربات (التي قد تحسنت بشكل تقني وذلك باستعمال الدواليب ذات الأسياخ بدلاً من الدواليب الخشبية).

هذا وقد ظلت هذه العربات تُجر بواسطة الثيران وعلى مقياس بواسطة البغال حتى نهاية الإمبراطورية.

وابتداء من زمن الإمبراطورية الآشورية الوسطى بدأ استعمال العربات الحربيّة السريعة الحركة والتي كانت تجرُّها الخيول.

ولقد استعمل الملوك الآشوريون الجدد شكلاً جديداً محسناً من العربات الخفيفة (ذات الدولابين) وكانت هذه العربات مزودة بمظلة اتقاء لحرارة الشمس.

ثم حدث استخدام الحديد مع الثيران مما شكل مرحلة جديدة لسيطرة الإنسان على بيئته وهو جر المحراث، ثم حدث استعمال ثالث لقوة الثيران في دراسة الحبوب التي كان الحيوان يجرُّ نوعاً من النوارج المرصَّعة بأحجار صغيرة من الصوان ويتمدد هذا النورج على رؤوس كيزان الذرة المنتشرة على أرض البيدر.

وكانت هناك قوة أخرى حيوانية وهي قوة الحمار ثم قوة الحصان والبغل الهجين وإلى حد محدود الجمل.

وإن الحمار هو الذي خدم كحيوان يحمل الأشياء بحيث كانت قافلة من الحمير تستطيع نقل كميات كبيرة من البضائع لمسافات طويلة في أرض صعبة التضاريس بحيث يتحدد مدى نشاط هذه الحيوانات بإمكانية توفر المياه.

ومن الواضح أنه كان بالإمكان استخدام الحمير للركوب، ولكن ركوب الحمار أقل راحة من ركوب البغل، هذا وإن الحمار بطيء في سيره إذا قورن مع الحصان.

ولكن بحلول الألف الأول ق.م لم يعد الحمار مقبولاً بشكل عام، فهذا منجم الملك وهو موظف من الدرجة الثالثة يطلب من الملك:

(آتوني بحمار أركبه لكي ترتاح قدماي).

أما تدجين الحصان ومن ثم تقديمه ووصوله إلى منطقة ما بين النهرين في نهاية الألف الثالث ق.م فقد كان له وقع كبير على حياة البشر.

وبعد أن استعمل الحصان لجر العربات الحربية أولاً من قِبَل الآشوريين فقد وفر الحصان منبراً ومنصة لإطلاق السهام الأمر الذي سوف يضمن النصر في المعركة إذا كانت التضاريس الأرضية ملائمة.

وعندما استعمل الحصان كسلاح للفرسان كما كان الحال بالنسبة للآشوريين في الألف الأول ق.م فقد وفرت قدرة الحصان على إتقان المناورة وإن سرعة الحصان أعطت أفضليَّة تكتيكية في المعركة مما أسهم إسهاماً كبيراً في نجاح الجيوش الآشورية في الشرق الأوسط ولكن لم يستعمل حصان الركوب في الحرب فحسب، إذ إنه قد وفر الاتصالات السريعة وقد عملت هذه النقطة في إحراز الآشوريين قصب السبق.

وحالما توسعت الإمبراطورية الآشورية اعتباراً من القرن الثامن ق.م، أصبح من الضروري لكي تستطيع هذه الإمبراطورية ضبط وحكم وإدارة نظام هذه السلطة الضخمة تأمين المواصلات المنظمة والمستمرة ما بين حكام المناطق النائية والعاصمة.

وهكذا فقد جعل الآشوريون الحصان طرفاً في هذا النظام، ونشأت شبكات من طرق ومراحل البريد عبر الإمبراطورية مع محطات لتبديل الخيول (أما في المناطق التي يصعب فيها استعمال الحصان فكانت البغال أو الحمير هي المستخدمة) وعلى طول الدروب كان الخيالة يستطيعون وهم يركبون الخيول أن ينتقلوا بسرعة بحيث إنه باستثناء مصر فقط وهي التي تقتضي عبور صحراء سيناء عند الاتصال بها، لم يكن هناك أي جزء من أجزاء الإمبراطورية عاجزاً عن إرسال رسالة إلى العاصمة وأن يستلم الجواب خلال أسبوع من الزمن.

لقد تطلَّب هذا الوضع صيانة الطرق العامة، وليس لدينا أي شاهد على وجود طريق معبَّدة خارج العواصم ولكن كان هناك وبالتأكيد طرق رئيسية كانت مصانة واعترف بها كطرق عامة.

ومنذ بداية القرن الثالث عشر يُخْبرنا الملك (توكولتي نينوترا الأول) عن الحوادث التي جرت في أوائل حكمه عام (١٢٤٤ ق.م) فيقول:

إنه قد قام بحملة في منطقة طور عابدين الجبلية (وتقع في ديار بكر في شرقي تركيا): (لقد شققت طريقي في جبالهم واستعملت الفؤوس النُّحاسية ووسَّعت ممراتهم التي كانت غير سالكة).

وفي حوالي عام (١١٠٠ق.م) نرى الملك تغلات بلاسر الأول يخبرنا أنه مع وجود تلك التضاريس الطبيعيَّة الصعبة:

((لقد شققت الجبال المزعجة والطريق الصعبة بالفؤوس النحاسية فأصبحت الطرق صالحة لمرور عرباتي الحربية وجنودي)).

ويخبرنا الملوك الذين تلوه عن أعمال مشابهة بالنسبة للطرق.

ومع وجود مثل هذه العناية بخطوط الموصلات في الجبال فإنه من المؤكد أنها كانت على اتصال بالطرق الرئيسية في السهول التي كانت في الحقيقة مصانة، ومع أن تلك الطرق لم تكن معبَّدة إلا أنها كانت محدَّدة بشكل جيد ودائم بحيث يمكن اعتبارها حدوداً للحقول التي ذكرت في وثائق بيع الأراضي، وأحياناً وفي مثل هذه الأحوال كانت الطريق تعطى تسمية خصوصية أو يشار إليها ببساطة بكونها (الطريق العام الملكي) أو بشكل أوضح الطريق العام الملكي الموصل إلى المكان الفلاني.

أو الطريق الذي يسير من .. وإلى.. مع ذكر أسماء البلدات في نهاية كل قسم من الطريق.

ولا شك أن هذه كانت تعتبر طرقاً عامة دائمة ومعترف بها تصونها الدولة لتأمين نظام فعَّال من المواصلات.

وفي أزمنة الحروب كانت العربات الملكية هي التي تستعمل الطرق.

أما في أوقات السلم فإن هذه الطرق كانت تؤمِّن إمكانيَّة تحميل العربات أحمالاً لمسافات طويلة يصعب على قوافل الحمير أن تقوم بها.

وأما بالنسبة للعربات الفعلية ففي الحقيقة أن التكنولوجيا المحلية لم تكن لتواكب مثيلاتها في البلدان الأخرى.

وذكر الملك آشور بانيبال وبصورة خاصة أنه ولأجل تنفيذ المشاريع البنائية الخاصة به، كان القرميد يجلب من جميع أنحاء بلاده في عربات عيلامية التي كان قد كسبها كغنائم وهذا يدل أن هذه العربات إما أنها كانت أكبر وأقوى (أو كليهما) من العربات الآشورية والوطنية.

أما الأحمال الثقيلة جداً التي لا تستطيع العربات حملها مثل التماثيل الحجرية الهائلة التي يزن الواحد منها حوالي عشرين طناً فقد كانت تُجر على عجلات بمساعدة أعمدة طويلة تستخدم كرافعات وهذا ما نراه ظاهراً في لوحة جدارية نافرة.

المواصلات المائية

كانت مدن آشور وكالاخ ونينوى وهي العواصم الثلاث الأكثر أهمية في آشور كل هذه المدن كانت واقعة على طول نهر دجلة، الذي يشكل واسطة مهمة للنقل من منطقة إلى أخرى في الأجزاء المركزية من المملكة الآشورية.

وهناك شاهد على استثمار هذا المصدر المائي قد قدمه وجود جدار لرصيف ميناء ضخم قد اكتشف في كالاخ.

وهو قريب من بعض الأبنية الملكية، ولقد توبعتْ آثار هذا الجدار مسافة ٢٤٠ يارده، فلقد يُبنى من قطع حجرية ضخمة ترتفع نحو ثلاثة وثلاثين قدماً فوق الأرض.

وكانت تهبط بمقدار واحد وعشرين قدماً إلى عمق النهر ولقد بنى سنحاريب ميناءً مماثلاً في نينوى وذلك كما يظهر من اسم واحد من الخمس عشرة بوابه لمدينته الذي كان يسمى بوابه الميناء.

ويصف سنحاريب أيضاً كيف كان النهر مستعملاً كطريق نقل نهري لجلب الحمولات الثقيلة جداً، وهي في هذه الحالة تماثيل ضخمة من الحجر الكلسي وكانت هذه الموانئ مصدراً من مصادر الدخل الإجمالي الوطني نظراً لأننا نعلم أن استخدام الميناء كان يقتضي دفع رسوم لقاء ذلك..

ولقد استخدمت عدة أنواع مختلفة وعديدة من المراكب على أنها من آشور وإن أكثرها بدائية كانت طوفاً كبيراً يدعى الكالاكو، وهي كلمة لا تزال موجودة في التسمية العربية في الوقت الحاضر لتعني نفس المعنى وهو كيليك، وإن أطوافاً من هذا النوع لا تزال ترى على نهر دجلة حتى عام (١٩٥٠ب. م) وبعد ذلك بطل استعمالها لأنها غير ملائمة.

وقد وصف هـ.أ. لايارد لهذه الأطواف وطريقة صنعها قال: إنه قد استعمل مثل هذه الأطواف في الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ ب.م) وتستعمل جلود الأغنام والماعز الكبيرة، وقد كانت هذه الجلود تُنزع وتسلخ بحذر حيث لا تسبب أي شقوق في الجلد وبعدها تجفف وتعالج.

ويتم نفخ الجلود بواسطة الرِّئتين والفم من خلال ثقب يقفل فيما بعد بواسطة خيط.

وبعدها يصنع هيكل مؤلف من أشجار الجَوْز وأغصان الشجر والقصب وتكون بشكل الطوف المقصود بناؤه.

وبعدها يتمُّ ربط الجلود المنفوخة عن طريق أغصان شجر الصفصاف وغيرها من الأغصان وتربط كل هذه المجموعات معاً بإحكام وبعدها يحرك الطوف إلى الماء.

ويجب الانتباه إلى أن الجلود المنفوخة ينبغي أن تكون أفواهها إلى الأعلى بحيث يمكن فتحها بسهولة في حالة انفجار أحدها أو تفريغه بحيث يتطلب أن يُملأ، عندها يمكن للناقل بالطوف أن يفتحها بسهولة، وفوق الهيكل الخشبي يتم وضع بالات البضائع والأشياء الخاصة بالتجار والمسافرين.

وكان الكيليك يحكم تركيبه حيث من الممكن أن يكون بالحجم الذي تتطلبه البضاعة وكانت وظيفة رجل الطوف أن يوصل الطوف إلى التيار الرئيسي في النهر وأن يتجنب أي عقبات تصادفه في الطريق.

وبناء على ذلك فإن الطوف ينبغي أن يسير بسرعة تيار النهر أي دجلة إذ لا مجال لاتخاذ مجرى الطوف بشكل معاكس لتيار النهر.

وفي حالة كون الطوف قد وصل إلى هدفه كان الطوف يفكك عند وصوله إلى المكان المقصود وكانت تباع المواد التي ينقلها فوراً.

هنالك نوع آخر من الأطواف المائية التي لا تزال موجودة على أنهار العراق خلال العقدين الماضيين هو قارب دائري ذو قعر مسطح، وإن اسمه الحديث باللغة العربية هو: (جوفا أو كافا) هذا هو الاسم الأكادي (كوبا) وهو يعني: السلّة وهذا الاسم يمثل المضمون فهو عبارة عن سلّة كبيرة جداً مصنوعة من القصب القاسي وهي ضد الماء لوجود البيتومين فيها.

ومع أنها ثابتة ومتّزنة إلا أنها ليست مناسبة لأن تدفع في مجرى تيار النهر لمسافة وهكذا فهي مفيدة للمواصلات المحلية بما فيها عمليات عبور النهر في الوقت الذي لا تصلح به لعبور المسافات الطويلة.

أما النوع الثالث من القوارب فهو الشكل التقليدي المعروف مع وجود مقدمه ومؤخره أما بالنسبة لقضية دفعه فليس هناك من برهان أو إثبات على وجود الشراع إذ إن جميع صور القوارب العائدة لآشور تُظهر أن هذه القوراب كانت تُحرَّك بالتجديف أو تحريك القدمين في الماء.

وبالنسبة للنقل المائي كما هو الحال بالنسبة للأشياء الأخرى فقد عرف الآشوريون أن هناك أُمماً أخرى قد أصبح لديها مقدرة تقنيَّة أعلى من مقدرتها ولذلك فعندما قرر سنحاريب القيام بحملة بحرية ضد عيلام عبر الخليج الفارسي فقد كلّف بعض بناة السفن من شمال سورية لبناء أسطوله في نينوى وقد وثق بالبحارة الفنيقيين وسلمهم سفنه للإبحار جنوباً، وكانت هذه السفن من نفس نوع السفن الحربية الفينيقية التي ظهرت في لوحة آشورية نافرة والتي كانت ذات ١٧ مجذافاً على كل جانب.

وخلال الألف الثاني ق.م كان نهر دجلة مملوءاً بالقوارب التي تحمل البضائع متجهة إلى العاصمة آشور بحيث كانت تحدث بعض الاصطدامات.

وكان هذا يمثّل مشكلة ينبغي على قوانين دولة آشور في القرن الثاني قبل الميلاد حلّها بإصدار قوانين حول قضايا المسؤولية إذا تسببت مثل هذه الحوادث في غرق إحدى السفن.

كانت القوارب لا تجول في الأنهار الرئيسية فحسب، بل في القنوات ومن المعتقد أنها كانت تجلب المنتوجات إلى العاصمة من الولايات البعيدة وليس لدينا أي رواية أو قصة عن أحد الحكام في القرن الرابع ق.م وهو يحاول توسيع إحدى الأقنية بحيث تستوعب قوارب ذات طول يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً (تقريباً أربعين قدماً).

وهذا القياس يقدم لنا فكرةً عن قيام أصحاب القوارب المستعملة بالإشارة إلى طول القارب وليس عَرْضه.

وعدا عن وظائف القوارب في حمل البضائع على طول القنوات في الأنهار فإن القوارب كانت تعمل كصلة وصل في نظام المواصلات البريّة.

وذلك بطريقتين:

أولاً: كانت هذه القوارب تستخدم لعبور الأنهار حيث كانت قوارب العبور الرسمية قد احتفظت بها تحت إشراف الحكام.

ثانياً: كانت هذه القوارب تستخدم كجسور وكان هذا يحدث بضم عدد من القوارب بعضها مع بعض عبر النهر، ولا يزال هذا النظام مستعملاً في بغداد حتى عام ١٩٥٧ ب.م.

أما في آشور القديمة فكانت كلا هاتين الطريقتين ذات أهمية وطنية بالنسبة للقضايا التي سوف ترفع تقارير عنها إلى الملك.

الفصل الثالث عشر

عالم ما وراء الطبيعة

تستمد الغالبية من سكان الغرب أولى انطباعاتها حول الأمور الدينية في منطقة الشرق الأدنى من التوراة.

ولذلك ينبغي علينا أن نَنْتَبه إلى أن كل ما قيل عن هذا الموضوع من التوراة فيه الكثير من التحامُل.

فالأنبياء الإسرائيليون مع ما لديهم من صفات الخوف من الله إلا أنهم كانوا قادرين -عن قصد- على التضليل مع شيءٍ من حسن النيّة.

فالقضية التي نشير إليها هي الصورة التي تتمثل وجهة النظر في منطقة ما بين النهرين حول آلهتهم، تلك الصورة التي نحصل عليها من أقوال ما يدعى أشعيا الثاني (نبي-وهو المسؤول عن السفر ٤٠-٥٥ من كتاب أشعيا):

أولئك الذين يصرفون الذهب من أكياس دراهمهم، ويزنون الفضة في الميزان.

فهم يستأجرون أحد صانعي الذهب ويبدلون الفضة إلى ذهب

وبعدها يخرُّون على الأرض وينهمكون في شؤون العبادة

وهم يحملون آثامهم فوق أكتافهم وينقلونها

ويضعونها في أمكنتها حيث تبقى هناك

وليس من الممكن أن تتحرك من مكانها.

(أشعيا ٤٦:٦-٧)

وهنا نجد التباسين حول الدين في منطقة ما بين النهرين:

الأول: وهو أن هؤلاء السكان فكَّروا بالإله ليس إلا صورة فحسب.

والثاني: هو أن المتعبِّدين صوَّروا تلك الآلهة بالصورة التي تحلو لهم وتروق لأخيلتهم.

ولكن الحقيقة أن كلتا الفكرتين خاطئتان.

لقد كان هناك صور للآلهة وهذا أمر صحيح وقد اعترف بهذه الصور بأنَّها مجرَّد صُوَر وليست هي الحقيقة الإلهية المطلقة.

حقاً إن باستطاعة الناس الوصول إلى الآلهة من خلال صورهم، ولكن ما يدعى يَهْوَه عند الإسرائيلين من الممكن الوصول إليه من خلال تابوت العهد، ولم تعد الصورة الإلهية بالنسبة لأحد أفراد منطقة ما بين النهرين هي جوهر إلَهِهِ أكثر مما كان تابوت العهد الجوهر بالنسبة إلى يَهْوَه، أو القلب الذي يقدسه (الشخص الكاثوليكي بالنسبة للمسيح) وكانت الصورة الإلهية بالنسبة للبابليين القدماء أو الآشوريين ما هي إلا النقطة التي من الممكن الاتصال بالإله عن طريقها، فهي النقطة التي ينكشف من خلالها الحضور الإلهي ولكنها لم تكن لتمثل الكمال الإلهي بذاته، وقد كان اللاهوتيون القدامى صريحين حول هذه الأمور.

إذ يقول أحد النصوص:

((إن مردوخ هو الإله الأعظم في بابل)) مع أنه كان من الآلهة المعبودة في آشور، يقول النص:

(العالم السفلي هو الحوض الذي تغتسل فيه، وأعالي السماوات هي الطاسة التي توضع فيها المنجدة التي تستعملها) وهكذا فإن الإله الذي يمتلك مثل هذه الأهمية الفلكية ليس من الممكن أن ينحصر داخل تمثال، وفوق ذلك فإنه بغضٍ النظر عن مطابقة الآلهة العظيمة بصورها إلا أن هذه الآلهة كانت تحظى بالاحترام والتبجيل ليس لكونها صوراً فحسب ولكن لكونها رموزاً.

هكذا نرى أحد المتعبدين في إحدى النصوص راكعاً أمام مذبح وضع فوقه سيف.

ونرى في إحدى الوثائق القضائية التي تعود إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد ما يشير إلى أن أحدهم قد قام بأداء القسم أمام خنجر الإله آشور.

تعدُّد الآلهة

هنالك مظهر في ديانة ما بين النهرين من الممكن أن يتعرّض للسخريّة من قبل أنبياء الإسرائيليين وهو تعدد الآلهة.

فقد عددت النقوش التي تذكر ملوك الآشوريين عدداً من الآلهة، مثلاً آشور السيد العظيم والد الآلهة، وآنوما نليل، وايا-اوسن-وشمش، وآرات، ومردوخ، ونابو، ونيرجال، وعشتار، والسبعة هم الآلهة العظماء والذين يقفون إلى جانب الملك.

ولكن لم تكن مثل هذه القوائم تحتوي سوى كمية ضئيلة من مجمّع الآلهة الكامل الذي اعترف به اللاهوتيون القدماء.

وإن ما ذكره أرميا عن يهوذا لم يكن سوى نوع من التهكُّم بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين وذلك عندما يقول:

((إن عدد آلهتكم يبلغ بقدر عدد خدمكم)).

ففي منطقة ما بين النهرين نجد أن كل مدينة كان لها آلهتها الخاصة بها، ولكن بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك عدة مظاهر سواء كانت في الحياة الماديّة أو في المجتمعات البشرية، كل واحد منها كان له ما يحميه من القوى الإلهية.

فقد كان هناك على سبيل المثال آلهة لصنع الخمر وآلهة للبناء.

وهكذا يجد الباحث الحديث الذي يذهب إلى منطقة ما بين النهرين القديمة أنهم يعددون آلوفاً من الآلهة في المجمَّع الإلهي ولكن لم تكن هذه القائمة الضخمة انعكاساً للمعتقدات الدينية العامة ولا انعكاساً لمعتقدات آي فرد من الأفراد، بل كانت من بنات أفكار الباحثين القدماء الذين حاولوا تجميع عدد من مجموعات الآلهة في محاولة منهم أن ينظموها ضمن نوع ما من أساليب التنظيم، وفيما عدا الدوائر المختصة بالعلماء الباحثين لم يعتبر أي إنسان لا في بابل ولا في آشور أن العالم يسير ضمن هذا المجتمع الضخم المنظم الرسمي من الآلهة.

ولا شك أن الإنسان الآشوري العادي كان يرى نفسه محاطاً بأصناف متعددة من القوى الخارقة للطبيعة.

ولكن لم تكن هذه العودة للقوى الخارقة هي الهيكل الرسمي المكرَّس للباحثين، ومع أن الشخص العادي يعلم أن هناك هيكلاً مكرَّساً إلا أنه كان قد تعرف على التفاصيل بشكل ليس بأفضل من تعرف الشخص المسيحي العادي على القوانين الكنسية المختصة بالقديسيين.

ولكن الآلهة التي كان الشخص الآشوري العادي مهتمًّاً بها كانت قليلة العدد.

وكان أولها: هو الإله القومي آشور الذي لا يمكن لأحد أن ينساه نظراً لعلاقته الوثيقة بما يفعله الملك وكان مكرَّماً ومقدساً في كل المناسبات الرسمية.

ولكن ربما لم يكن الشخص الآشوري العادي عالماً أن آشور امتص عدة مظاهر من الإله السومري انليل (عضو الثالوث الإلهي) ومن مردوخ إله بابل.

وإلى جانب آشور كانت هناك الإلهة عشتار التي لم تكن بعيدة عن الاعتبار نظراً لعلاقتها بالأنشطة الجنسية من جهة ومن جهة أخرى لارتباطها بالحرب.

وقد أظهرت عشتار نفسها في عدة أشكال، مثلاً، عشتار نينوى وعشتار إربيل وعشتار بيت عنجوري على سبيل المثال، وقد ظَنَّ بعض الآشوريين أن هؤلاء كانوا آلهة متميِّزين، ولهم الحق في ذلك نظراً لأن أشغال عشتار المختلفة ربما تكون قد تطورت وذلك بسبب إضعاف صِفَة الآلهة عشتار لبعض الآلهة المحلية المعروفة.

وبعد ذلك كان هنالك بعض الآلهة، المختصة بالظواهر الطبيعية مثل إلهة الشمس شاماش (وكان هذا هو إله العدالة) وإله القمر (سين) وإله الطقس (أداد).

وكل من هذه الآلهة كان مرتبطاً بالحياة اليومية فلا يجوز تجاهلها، وكان إله الحكمة (إيا) يحتل المقام الأول بالنسبة للوعي الديني مع أنه لم يكن مرتبطاً بالحكمة بقدر ارتباطه وأهميته بالنسبة للعمليَّات السحرية والعبادات المائية.

وكان (نيرجال) إله العالم السفلي والموت يهتم بشكل رهيب بأمور السحر بينما كان نينوترا أحد آلهة الحرب والصيد يحتل مركزاً مرموقاً في حياة الآشوريين.

وفي تلك الفترات الزمنيّة التي كانت النصوص الاجتماعيَّة تهتم بالعلاقات البابلية أصبح الإلهان البابليان مردوخ ونابو يمتلكان أهمية خاصة في آشور.

لكن عدا عن هؤلاء، لا نحيل لأي واحد من ألوف الآلهة في المجتمع الإلهي الرسمي له ذكر في بعض الحالات في النصوص الآشورية.

هناك شواهد قليلة تدل على أن أفراداً قلائل من المجتمع الإلهي قد دخل في الضمير الشعبي.

ومع ذلك فإن الفكرة الأخيرة هي بحاجة إلى إبداء بعض التحفظات: إذ إن عدداً قليلاً من أسماء الآلهة الأخرى موجودة كعناصر متغلغلة في الأسماء الشخصية.

وربما كان هذا دلالة على وجود ظاهرة عبادة هذه الآلهة وانتشارها الواسع مع أنه ليس لدينا أي شواهد أخرى.

أما مجتمع الآلهة الأخرى فلم يهتم بحاجات العبادة بقدر اهتمامها بالتعبير عن حالة الإجبار التي شعر بها المثقفون من ذوي العقول النيِّرة في بابل القديمة في آشور وذلك لتنظيم جميع مظاهر الحياة.

وطبقاً لهذه الفرضيِّة فقد عمد اللاهوتيون إلى ترتيب جميع الآلهة من مختلف الأحوال وضمها إلى مجتمع ديني منتظم، يمتلك علاقات متداخلة محددة مع حق الأفضليِّة.

ولكن كانت التقاليد المحلية ذات قوة عظيمة بحيث كان الشخص الآشوري العادي أصبح في وضع حرج أجبره على استحسان تلك التفسيرات الموجودة في المجتمع الديني الرسمي كما هو الحال بالنسبة للرجل المسيحي العادي الذي يتوجب عليه أن يحدد العلاقة ما بين الإله الأب والإله الابن والروح القدس.

وكانت حالة الأفضلية فيما بين الآلهة الآشورية وقضية علاقاتها المتبادلة، لقد بقيت هذه القضايا وبشكل واضح مشكلة من المشكلات حتى زمن نهاية الإمبراطورية تقريباً.

وهكذا نجد الملك سنحاريب مجبراً على أن يؤسس (بمشيئة الآلهة) الترتيب المناسب لأفضلية عدد من الآلهة التي تشترك في الاحتفالات الدينية، وهناك نص آخر يعكس نواحي الشك فيما إذا كانت الآلهة (شيروا) هذه زوجة الإله آشور الذي كانت زوجته فعلاً تعرف باسم (نبذيل) وهذا هو أصلاً اسم زوجة الإله السومري (أنليل) أو أخته.

إن الآلهة العظيمة التي ذكرت بصفتها مهتمة بحياة دولة آشور (وبابل) ككل من الممكن في الوقت نفسه اعتبار أن لديها صلات خاصة ببعض المدن.

وهكذا فإن الإله نيرجال الذي كان بصفته إله العالم السفلي كان مسيطراً على أهوال الموت، فقد كان بالاشتراك مع زوجته (لاس) يوصف في بابل بأنه كان يعيش في مدينة (كومتها).

وأما في آشور فهو يوصف بأنه كان يعيش في تاربيو (وهي ممر على النهر شمال نينوى).

وأما آشور الإله القومي الآشوري فقد كان طبعاً مرتبطاً بالمدينة التي تحمل اسمه.

وكما لاحظنا سابقاً فقد كانت عشتار في أشكالها المختلفة ذات ارتباطات مختلفة مع نينوى وإربيل.

وأما (سن) إله القمر فقد كان يمتلك بيتاً في (آور) وأما في آشور العظمى فقد كان مرتبطاً بمعبده المتواجد في حرّان.

وفي الأصل فقد اعتبر الإله ككائنات ذات أشكال إنسانية ولكن خلف هذه المعتقدات كانت هناك معتقدات أقدم عهداً ما تزال تؤلف بعض آثار الصور والنصوص.

وهكذا فقد كان آشور ناصر بعل الثاني يحمل منجلاً بشكل رأس طير كان يمثل الإله نينوترا، وهو إله الحرب والعبيد عند الآشوريين، وهناك خرافة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وهي من سومر ولكنها كانت لا تزال شعبيةً في آشور في الألف الأول ق.م وقد أخبرت هذه كيف أن هذا الإله قد تغلّب على كائن إلهي بشكل طائر يدعى (آنذو) وسَلَبَه قوّته، وكانت هذه إحدى الطرق (طبقاً لبعض الإجراءات الشائعة ضمن القصص الخرافية) التي تعكس كون الشكل القديم لنينوترا كان ذلك الكائن الإلهي بشكل طائر.

وبالمقابل فإننا نرى الإله آشور يوصف بكونه جالساً على أسد، هذه الفكرة من الممكن أن توحي أنه وفي مرحلة أقدم عهداً كان من المظنون أن القوى الخارقة التي كان يحملها هذا الإله كانت تتشكل بشكل أسد.

مبدأ التوحيد البدائي

حتى مع وجود مجمّع الآلهة ذي الاستعمال العادي، هناك ميل للانتقاص من شأنه ولقد تأثر هذا الميل بالتطورات السياسية فضلاً عن التخمينات الدينية.

ففي دولة آشور عد المواطن نفسه موجوداً في مجتمع كانت فيه جميع السلطات التي كان يخضع لها المواطن، إنما تمثل في نهاية المطاف مصدراً واحداً من مصادر السلطة وهو الملك.

وقياساً على ذلك من المعقول القول: إنه وبالنسبة للعالم الإلهي فإن جميع الآلهة في نهاية المطاف ما هي إلا تمثيل لإله واحد محيط بجميع القوى الإلهية، وإننا نجد هذا الأمر موجوداً في عدد من النصوص –مثلاً- النص التالي الموجه للإله نينوترا:

عيناك أيها الرب هما تمثلان الإله أينليل ونينيل

وشفتاك تمثلان آنو وأنتو

وأما جبينك فهو يمثل الإله شالا وهي زوجته المحبوبة التي تفرح القلب

وأما عنقك فيشبه ويمثل الإله مردوخ

وأما رأسك فيمثل الإله حدد

الذي خلق السماء والأرض

وكقضية جانبية من الممكن أن نشير أن هذا الشعر يمثل مظهراً آخر لذلك الزَّخَم والتدفق الذي حدث داخل المجتمع الإلهي وعلى الرغم من محاولة اللاهوتيين تبني وجهة نظر واحدة متماسكة.

هنا يقول الإله حدد:

((هو الذي خلق السماء والأرض)).

ولكن لقد مُنح عدد من الآلهة الأخرى نفس اللقب، وكذلك فقد كرمت كثير من الآلهة بالقدرة على الخلق بالنسبة لعلم الأساطير.

ويذكر نص آخر:

((إن كوكب المشتري هو نجمة الإله (سن) (وهو الاسم الذي يطلق عادة على القمر) وأن الإله (سن) هو آشور)).

ثم يستمر هذا النص في القول: إن نجوماً أخرى محددة مرتبطة بآلهة أخرى هي نجوم الإله آشور.

فهل إن الاعتراف بالآلهة الأخرى كمظهر من مظاهر وجود إله واحد، إنما تمثل الاعتراف بالوحدانية؟

إن الجواب على هذا السؤال يعتمد اعتماداً عظيماً على كيفية فهمنا للوحدانية.

فالمسيحيون يعدون أنفسهم وحدانيين، ولكن هناك بعض المسلمين الذين ينكرون اعتراف المسيحيين بالوحدانية نظراً لأن المسيحيين يقبلون فكرة الأقانيم الثلاثة الأب والابن والروح القدس.

إن وجود ثلاثة أشخاص إنما يعني ثلاثة آلهة.

لكن إذا كانت الوحدانية تعني الاعتقاد بأن جميع الكيانات الإلهية هي في آخر الأمر كيان واحد، عندها يمكن اعتبار الآشوريين موحدين، وعلى العكس فإن الاعتماد على وجهة النظر القائلة:

((إنه من الممكن للإله أن يظهر بعدة أشكال مختلفة)) وإن وجهة النظر هذه منافية لمبدأ التوحيد، عندها يتضح لنا أن الآشوريين لم يكونوا موحدين.

المعابد

كان الآلهة العظماء موجودين في كل مكان، لدينا نصوص مختلفة حول الآلهة مفادها ما يلي:

يضع الإله السموات فوق رأسه كأنها عمامة، ويدوس على العالم السفلي كما يدوس على الحذاء.

ولكن وكما هو الحال لدى اليهود والمسيحيين والإسلام فإن المكان الذي يتقابل الناس فيه مع الإله هو الكنيس أو الكنيسة أو المسجد، وهكذا وبالنسبة لآشور القديمة كان المعبد هو المكان الذي يمكن فيه الالتقاء بالآلهة.

لقد كانت المعابد قديمة قدم المدن نفسها، ففي أوائل المستوطنات كان المستوطنون يؤمِّنون لأنفسهم مساكن مناسبة للآلهة مع أنها كانت صغيرة بالنسبة للإله الذي سوف يسكن فيها، وكان هذا الإله يحضر ومعه عائلته وما يلزمه تماماً كما يفعل الحاكم من بني البشر، وكانت تمثله آلهة أخرى أقل مرتبة منه ولها أماكن عبادة ومساكن ملاصقة لأبنية المعبد الرئيسية، وحالما توسعت المستوطنة لتصبح مدينة كبيرة فقد توسع المعبد معها، بحيث أصبح ابتداءً من فترات قديمة وفي بعض الحالات مؤلفاً من أبنية ذات حجوم لا بأس بها وذات ثروات وأُبَّهة.

وحينما اتسعت علاقات المدينة مع المجتمعات الأخرى انعكس هذا في علاقات إله المدينة وربما كان هناك بعض المعابد الصغيرة التي كانت تضاف لاستعمال الآلهة القادمة بناءً على العلاقات الجديدة.

ربما يتوقع المرء أن تكون عبادة الآلهة مرتبطة بالمعابد، والحقيقة أنها كانت كذلك مع أنها لم تكن محصورة بالمعابد حين كان القصر الملكي مهتماً بشؤون العبادة، هذا ولدينا عدد كبير من النصوص الواردة من المعابد البابلية، أكثر منها من المعابد الآشورية، وهكذا فنحن بالتالي نعرف معلومات أكثر عنها.

ونظراً لذلك علينا أن نتجنب ذلك الانحراف بملء الفجوات حول المعابد الآشورية من المعلومات التي نعرفها حول المعابد البابلية، لوجود فروق كبيرة بالتأكيد.

ففي بابل: كانت المعابد تمتلك بعض الضيع على مقياس واسع، مثلاً في إحدى الفترات كان معبد إيانا في المدينة الجنوبية المدعوة (إيدسن) قادراً على إدارة شؤون اقتصادية موازية وأحياناً مستقلة عن الشؤون الاقتصادية الخاصة بالدولة.

ولم يكن ينطبق هذا على آشور في الألف الأول قبل الميلاد حيث كانت الإدارة الآشورية تمسك بزمام المبادرة في جميع الشؤون الاقتصادية والحياة الإدارية في البلاد، في حين أن المعابد هناك لم تستطع امتلاك الأراضي المحيطة بهذه المعابد، وحتى في الأحوال التي كانت فيها أحد المعابد الآشورية يمتلك أرضاً مجاورة للمعبد وحتى في الحالات التي لم يكن المعبد الآشوري يمتلك أرضاً، كان مدى أملاكها غير كافٍ لتأمين الوظائف الاقتصادية المطلوبة، ولا يعني هذا أن المعبد لم يكن غنيًّاً، فالمعبد الرئيسي ذو الوظائف التعبدية والدينية التي كانت مقرَّبة من الملك يمكنه أن يجد الوسائل من وقتٍ لآخر لتقديم عطايا وهدايا لازمة لإصلاح بناء بعض المعابد.

وكانت التقدمات من المُتعبِّدين أيضاً ذات شأن، فقد ذكر أن أحد القائمين على خدمة أحد المعابد قد أخبر الملك أنه قد حصل على (١٢) ميناً من الذهب حصل عليها من التقدمات التي كان يقدمها المتعبدون وأنه قد خصص هذا الذهب

لعمل زخرفات لزوجة الإله، وتبلغ قيمة هذا الذهب (٤٠،٠٠٠) جنيه إسترليني حسب سعر الذهب عام ١٩٨٠ ب،م وهذا بالتأكيد كان من أعظم المعابد في بابل.

وهنا نعود لذكر مظاهر العبادة في المعابد الآشورية، إذ نظراً لأن المعابد كانت أولاً: هي المأوى الدنيوي للآلهة لذلك فعلينا أن نتوقع شهادة تدل على الوجود الإلهي فيها وكانت العادة أن يتمثل الإله بوجود التماثيل التي كانت مصنوعة من الخشب والحجر المرصَّع بالذهب أو تماثيل محفورة من النحاس أو المعادن الثمينة، وكان كل تمثال يقف أو ينتصب على قاعدة أو منصَّة ولكن وكما ذكرنا سابقاً لم تكن تماثيل الآلهة ذات أشكال بشرية.

وليس لدينا أي شاهد معين عن وجود أي إله آشوري بشكل حيواني ولكن من المؤكد أن يمثل الإله برمز من الرموز الإلهية، مثلاً أحد الخناجر بدلاً من تمثال.

لم تكن التماثيل في المعابد الآشورية تمثل الآلهة حصراً إذ نحن نسمع عن تمثالين كبيرين نصبا في معبد القمر في حرَّان، واحد منهما عند يمين تمثال الإله والآخر عن يساره، بالإضافة إلى تماثيل صغيرة لأمراء العائلة الملكية من الأمام، ولم يكن هذا يدل على ألوهية الملك بل كان الغرض من هذا أن يحصل الملك على بعض الفوائد السحرية لمصاحبته الدائمة لهذه التماثيل مع إله القمر.

ولقد فسَّر الكاهن الذي رتَّب هذه المجموعات بما يلي:

((نظراً لأن الإله القمر المتوج يرتفع ويغيب شهراً بعد شهر فإنه سوف يرسل إلى الملك سيدي ببشائر مشجِّعة لعمر طويل واستقرار للحكم وعظمة للسلطة)).

بيت الإله

إن الحاجات الرئيسية لبني البشر هي المأوى والطعام والملابس ولذلك فقد نشأت فرضية معقولة من وجهة نظر الإنسان في منطقة ما بين النهرين:

إن الإله إذا كان سوف يتشكل بشكل بشري، ينبغي أن يساهم في الحاجة لمثل هذه الأشياء والحاجات.

كانت أول حاجة للإله هي وجود معبد كبيت له، وكانت الأمثلة الأولى للمعابد في بلاد آشور في الألف الثالث ق.م ذات أبعاد متواضعة، ولكنها أصبحت فاخرة فيما بعد، بحيث كانت مضارعة للقصور الملكية.

إلا أن المعبد كان يختلف من ناحية واحدة عن القصر فقد كان يحتوي على برج ذي درجات (وكان هذا البرج مربعاً في آشور) (الزاقورات) وهو يحتوي على سبع درجات، وهناك صورة موجودة على ختم أسطواني يقدم لنا فكرة عن شكله، وهناك عدة زاقورات في آشور تلك الموجودة في نمرود وهي عبارة عن تلة مرفوعة من صنع الإنسان مع أنها لا تُظهر بوضوح شكلها المدرَّج.

أما بالنسبة للزاقورات المعروفة في آشور فكانت حجومها الأصلية تتدرج من ثمانين قدماً مكعباً حتى ما يزيد عن (٢٠٠) قدماً مكعباً (أي: من ٢٤متراً مكعباً إلى ٦٢ متراً مكعباً) وكان في ورسبال بقايا زاقورة تحتوي على أربع درجات مع وجود درج منحدر عرضه ستة أقدام مصنوع من الآجر المشوي وهو محمي من الخارج بمتراس دائري.

وأما الأوجه العمودية للدرجات الأربع فقد كانت مطلية بالجص ومدهونة باللون الأبيض والأسود والأحمر والأزرق بالتوالي، وكانت هذه تدل على رموز دينية لم نفهمها ومن الممكن أن يكون هناك ثلاث درجات ولكن ليس هناك من دليل على ذلك.

لقد جرت نقاشات عديدة حول القصد من بناء هذه الزخارف، فمن المؤكد أنها لم تكن مراصد فلكية (كما يقترح البعض) ولم تكن تخدم كقبور مثل الأهرامات ربما كان بناء الزاقورات مما له علاقة بالفكرة الشائعة في منطقة الشرق الأدنى القديم وهي:

إن الآلهة كانت تعيش في الجبال بحيث كانت الزاقورة بديلاً عن الجبل في سهول منطقة ما بين النهرين.

ولكن هناك مجالاً للشك فيما إذا كان الآشوريون أو البابليون من الألف الأول ق.م يملكون معرفة أكثر منّا حول الأفكار التي تكمن وراء هذه الظاهرة المعمارية في الألف الثالث.

لم يكن من الضروري تأمين معبد للإله بل تأمين الكساء اللازم والطعام اللازم وكانت الملابس الطقوسية للتماثيل العائدة للآلهة جزءاً هاماً من مظاهر العبادة في جميع الأزمنة في منطقة ما بين النهرين القديمة وكان هذا ينطبق أيضاً على آشور كما على بابل.

وفي الفنون الآشورية كان هناك تمثيلات وصور لبعض المواكب التي تظهر فيها ملابس الآلهة ولكن ليس هناك من نصوص تظهر كيف ومتى كانت تلبس هذه الملابس.

ولكن لدينا قوائم فعلية للأردية الإلهية والمجوهرات في بابل وهناك يبدو أن الملابس الاحتفالية التي تخص الآلهة كانت تستعمل في مواكب خاصة أو أعياد وليس في كل يوم، ونحن نعلم أن الآلهة كانت تقدم لها الأطعمة في المعابد الآشورية يومياً لأننا لاحظنا أن تقديم الطعام في معبد نينوى والوجبات الصباحية والمسائية للآلهة في نينوى قد ذكرت.

وللمرة الثانية نجد أن المعلومات متوفرة بالنسبة إلى بابل التي نجد فيها نصوصاً تقدم التفاصيل التي لا تخص القضايا الاحتفالية لخدمة الآلهة فحسب بل حتى قوائم مواد الطعام، فقد كانت الآلهة تزوَّد بوجبتين غذائيتين رئيسيتين ووجبتين خفيفتين يومياً وكان الطعام يشتمل على البيرة والحليب وخبز الشعير وخبز القمح ثنائي البذرة ولحم الغنم ولحم البقر ولحم البط والدواجن الأخرى وبيض النعام وبعض البط والتمر والتين.

ومن العجيب أنه على الرغم من الكميات الكبيرة من الأطعمة التي كانت تقدم للآلهة إلا أنه لم يرد ذكر قضية التغوط، إذ يبدو أن هذا كان من وظائف البشر التي كان يستغني عنها الآلهة، نظراً لأن علم الأساطير يظل صامتاً تجاه

هذه القضايا، ومع أن الآلهة كانت تشترك في معظم الأنشطة البشرية الأخرى كالأكل والشرب وأعمال الحب والجنس وسوء المزاج والعبوس والبكاء والنوم.

وفضلاً عن الواجبات التي تحتم العناية بصور الآلهة إلا أنه كان هناك عدد كبير من المراسم بعضها يجري شهرياً وبعضها في المناسبات في أيام خاصة من السنة، وفي أيام تنصيب الملك الجديد وفي أي وقت كان من الواجب حضور المعبد لأداء بعض الفروض والطقوس، وذلك لتجنب شرور سوء الطالع وكانت بعض هذه الاحتفالات تشمل صورة الإله وتمثاله الذي يُلبَّس بعناية ويخرج من المعبد للاشتراك في الاحتفالات ثم الرجوع. في بعض الحالات كنا نعلم عن الاحتفالات من تلميحات عابرة في النصوص مع ندرة التفاصيل أو عدم وجودها، ومن الممكن مثلاً أن نجد سطراً واحداً في نص يشير إلى الوقت الذي يضحي به الملك بأحد الخراف أمام النجوم والذي نستنتج منه أن شيئاً ما ذا أهمية وطنية تشمل الملك سوف يحدث ليلاً ربما في باحة المعبد أو في المعبد أو على سطح القصر ولكن لا نعلم فحوى الحادث.

وكانت بعض الطقوس معقدة جداً وهي تشمل وجود عدد كبير من الآلهة، وهكذا نجد أحد الطقوس يذكر خمسة عشر إلهاً أنهم واقفون إلى يسار الإله آشور وخمسة عشر إلى يمينه من الواضح أن هذا كان إحدى الاحتفالات الرائعة، ولا نعلم ما كانت تفعله هذه الآلهة في هذا الاحتفال ولكن يبدو أن هذا كان اجتماعاً سرِّياً وخلوة للآلهة، لأنهم كانوا مزودين بالطعام المؤلف من الخضروات في هذه المناسبة وكذلك بذور الكتان والمكسرات والقنب والرمان والتين والخبز والنبيذ والبيرة.

كانت معظم الطقوس في المعبد مؤلفة من صيغ معدلة لعناصر مختلفة كميراث الآلهة والتضحية بالحيوانات وتقدمة الطعام والشراب وتلاوة التعاويذ والصلوات وإنشاد الأناشيد واحتفالات الاغتسال، وموسيقى الطبول (وعلى مستوى أقل) تمثيل درامي لحوادث خرافية وكانت عناصر هذه الأخيرة تحتوي على قتال طقوسي وسباق أو الذهاب إلى الفراش لممارسة الجنس، وهذا الطقس يدعوه

الباحثون الحديثون، وهم خجلون، بالزواج المقدس، وكانت الطقوس مصحوبة بالموسيقى وبخاصة قرع الطبول الذي كان شائعاً جداً بالنسبة لمختلف الآلهة.

وتُعدِّد إحدى القوائم ثلاثة عشر من هذه الاحتفالات الدينية الإلهية في آشور التي كانت تحدث ما بين أشهر أيلول ونيسان، وتذكر إحدى النصوص القديمة أن الغرض من قرع الطبول كان دعوة الآلهة.

هناك واحد من الأعياد التي نسمع عنها الشيء الكثير هو ما يدعى (أكيتو) مع أن هذا يترجم باسم عيد رأس السنة، ولكننا لا نعلم ما معنى هذا الاسم أصلاً، ونحن نستعمل الترجمة نظراً لأنه وفي بابل هذا هو ما حدث، فقد كان هذا العيد يتم في الشهر الأول من السنة وهو نيسان.

وفي بابل كان هذا العيد يبدأ بتلاوة جميع أحداث أسطورة الخلق، وكذلك تمثيل الصراع الطقوسي ما بين إله المدينة والوحش البدائي المدعو تيامات (وهو عبارة عن تنين بشكل امرأة).

وأما الزواج المقدس فقد كانت هذه الاحتفالات تتم لتأمين راحة المدينة في السنة القادمة وتتويج الملك الجديد، ولكن لا يجوز شرعاً الافتراض أن علينا أن نرى في الاحتفالات في آشور نسخة طبق الأصل عن الاحتفالات في بابل.

ففي بابل ليس من الضروري أن يحتفل (بالأكيتو) في بداية العام وفي شهر نيسان، بل نجد ذكر مثل هذه الاحتفالات مثلاً في شهر آب وأيلول في مكان قرب إيربيل وفي آذار في مكان لم يحدَّد، ولقد حدثت الاحتفالات في شهر آذار خلال الألف الثاني ق.م.

ومع ذلك فإننا نجد أن هناك احتفال (الأكيتو) في شهر نيسان في مدينة آشور مع وجود دلالات قوية أن كثيراً مما حدث كان موازياً للاحتفال الذي حدث في بابل، وهذا لا يمثل العادات الآشورية القديمة فحسب بل يمثل نفوذ بابل الأخير.

وفي اليوم الثاني غادر الإله آشور مَعْبده بعد أن تناول فطوراً من اللحم، وركب عربة تجرها الخيول البيضاء على رأس موكب من الآلهة متجهاً إلى بناية تدعى

بيت أكيتو، وكان هذا معبداً قد بناه سنحاريب خارج المدينة، ولقد اعتبر سنحاريب الأرض الواسعة هي خير مكان لبناء بيت أكيتو، نظراً لأنه من الواضح أنه عند بنائه هذا المعبد كان يشير بوضوح أن عادة إقامة العيد المختص بوليمة آشور ملك الآلهة قد تطور، وأصبح داخل المدينة بدلاً من إقامته في الهواء الطلق.

ولكن هذا يخدم للبرهنة أنه رغم آراء سنحاريب القوية فقد كان هناك تقليد آشوري بديل في هذا المجال وإن تأكيد سنحاريب على ما هو حق وصحيح لربما كان متأثراً بتجربة البابليين.

ولم يخبرنا أحد ماذا فعل آشور عندما وصل إلى بيت أكيتو، ولكننا نستطيع مع ذلك أن نستنتج أنه عدا عن ترؤسه للوليمة التي ذكرها سنحاريب فقد استأنف ذلك الصراع الكوني ضد الوحش تيامات، وأن السبب الذي يجعلنا نفكر بهذا الشكل هو أن سنحاريب يصف بيت أكيتو بأنها مزخرفة بتمثال آشور الذي كان ذاهباً لخوض معركة ضد (تيامات) حالما يرفع قوسه وهو راكب في عربته وعلى خصره سلاح الطوفان.

ولكن هنا أيضاً يعجب الإنسان إلى أي حد قد وصلت هذه التفاصيل إلى آشور القديمة وإلى أي حد قد اقتبست آشور هذه التفاصيل من بابل.

لقد كان الدين الآشوري هو دين الدولة وكانت الدولة تعتمد على الملك لذلك لا عجب أن تتركز طقوس المعبد على الملك أيضاً، وقد ظل هذا الوضع صحيحاً حتى بالنسبة إلى المعابد المتوضعة في مدن بعيدة عن العاصمة حيث لا يستطيع الملك أن يحضر بنفسه جميع الاحتفالات، وفي هذه الحالة كان رداء الملك الطقوسي يرسل إلى المعبد ليقوم بالدور الذي كان الملك سوف يقوم به.

وكان من العادة أن يحضر آخرون من أفراد العائلة المالكة وفيهم نساء، الطقوس في المعبد وهكذا نجد أن أخت الملك أو ابنته قد دعيت للاحتفال وذلك لكي تستدعي بالاسم زوجة الإله آشور الأعلى حالما يقدم لها شيء من اللحم المطبوخ.

كهنة المعبد ورجال الدين الآخرون

كان المعبد الرئيسي في مدينة رئيسية ربما ينقصها وجود الممتلكات والضيع التي كانت تتمتع بها أي مدينة مماثلة في بابل، وكان هذا المعبد لا يزال مؤسسة معقدة تتطلب وجود موظفين ورجال دين أيضاً.

وبالنسبة للمعبد في العاصمة القديمة آشور فقد تركزت السلطة بموظف لم يكن ذا شخصية دينية وهو يدعى: الأباراكو (أي: مدير الأعمال) في بيت الإله آشور.

وفي بعض المعابد الآشورية كان المدير الرئيسي يعرف باسم الرجل المسؤول عن البيت بينما كان يدعى في معابد أخرى شانغو وهو الموظف الكهنوتي الأول، وهكذا فقد ترجم لقبه بكلمة كاهن ومن الممكن أن يحمل هذا الرجل لقبين وهما: (الرجل المسؤول عن البيت) ولقب: شانغو وكان استعمال أحد هذين اللقبين يدل على أي من هاتين الوظيفتين كانت أعلى مقاماً في ذلك الوقت.

وعادة كان هناك نائب للشانغو نظراً لأن شانغو معبد عظيم كان رجلاً ذا أهمية كبرى وغالباً ما كان ذا اتصال مباشر مع الملك شخصياً أو في المناسبات الاحتفالية أو عن طريق المراسلة حول الحوادث التي تجري في المدينة أو الدولة.

وكان من الممكن أن يكون هذا ذا ثروة هائلة وأن يمتلك الضياع الكبيرة بالإضافة إلى الأجور التي كان يتقاضاها كحصَّة من مدخول المعبد.

ولقد كان الملك هو الذي يعين هؤلاء الموظفين مع أن اختيار الملك في مثل هذه الحالات كانت محاطة بعاملين:

الأول: وهو قبول مبدأ التوارث، وهكذا إن تقريراً قد أرسل إلى الملك فحواه أن الرجل المسؤول عن البيت في أحد المعابد قد توفي، وكان يقترح على الملك أن يعين بدلاً عن المتوفى إما ولده، أو ابن أخيه وابن عمه الذي سبق أن أُقيل بعد أن كان نائباً للشانغو، إذ إن التعيينات في ذلك المعبد كانت منحصرة في دائرة ضيِّقة.

أما العامل الآخر من القيود على حرية الملك في الاختيار فهي: أن اختيار الملك ينبغي أن ينال موافقة الآلهة واحتفال ديني وهكذا فقد أصبح الكهنة المحترفون مسيطرين على الإجراءات اللازمة للحصول على القرار والتأييد الإلهي، ومن الواضح أن هذا التأييد كان يوفر لهم الفرصة للاعتراض والنقض بالنسبة إلى أي تعينات لا يوافقون عليها.

الشانغو

كان للشانغو مساعد وهو نائبه عند الضرورة وهو الذي يعتني بالشؤون المالية للمعبد فقد كان مسؤولاً عن استلام التقدمات وإدارة شؤون المعبد المالية.

وكان مسؤولاً عن أملاك المعبد بصورة عامة (ما عدا حالة المعبد الرئيسي في آشور حيث كان هناك مدير للأعمال (أباراكو) (معيناً لهذا الغرض)، هذا وإن حماية أملاك المعبد لا تخلو من مشاكل إذ إن الاختلاسات التي يقوم بها بعض أفراد موظفي المعبد لم تكن نادرة، وفي بعض المناسبات نجد بعض الموظفين الإداريين يقدمون شكاوى إلى الملك أن أحد الموظفين المحليين قد نهب أموال المعبد.

وكان الشانغو ونائبه هما المسؤولين عن طقوس المعبد، وطالما لعبا دوراً رائداً في هذا المعبد مع أن شخصيات وفية أخرى مشكوك فيها.

هذا وكان ملك آشور نفسه الذي كان الرئيس الأسمي لطقوس الدولة يحمل لقب شانغو بين ألقابه الكثيرة.

كان هناك عدة طبقات كهنوتية عدا عن الشانغو مرتبطة بالمعبد، وآخرون كانوا غير مرتبطين ويتوقف كون مثل هؤلاء الموظفين أصحاب صفة كهنة أو غير كهنة على وجهة النظر الموضوعية بالنسبة لمعنى كلمة كاهن.

وكلمة كاهن تستعمل أحياناً متصلة باصطلاح وصفي (لمهامه) ولكن على الرغم من هذا فإن وجهة النظر المعتمدة هنا هي أن هؤلاء الموظفين الدينيّين (مع استثناءات ممكنة) لم يكونوا كهنة كما كان الحال بالنسبة للشانغو الذي

كان على اتصال وثيق بالإله لكونه مسؤولاً عن تسيير الطقوس في بيته وهو المعبد.

والحقيقة فإن التميز بين الكاهن وغير الكاهن لم يكن من اختصاص الثقافة الآشورية، إذ كان هناك تمييز واضح بين الأشخاص الذين كانوا أعضاء في هيئة الموظفين في المعبد والذين لم يكونوا كذلك وكان الاسم الذي يطلق على العضو في هيئة موظفي المعبد (أريب بيه) ومعناه الحرفي: (الشخص الذي يدخل البيت).

إن مثل هؤلاء الموظفين كانوا مسؤولين بانتظام عن تسيير شؤون المعبد، بينما لم يكن الأشخاص الآخرون مسؤولين عن هذا الأمر.

وهذا الاصطلاح ربما شمل الصناع فضلاً عن الموظفين الدينين وأحياناً بعض الموظفين الملكيين، وكان لمثل هؤلاء حق المساهمة وأخذ حصة من التقديمات التي كان يستلمها المعبد.

الكالو

إن الطبقة الثانية من طبقات الموظفين الدِّينيين الذين عُدوا موظفين رسميين في طاقم المعبد كانوا يعرفون باسم: الكالو، وترجمتها: (كاهن الابتهالات) مع أن هذا الكاهن كان يقوم بأنشطة أخرى عدا عن الأنشطة الكهنوتيَّة، وما عدا الدور الرئيسي والاحتفالات الكبرى التي كان يقوم بها الشانغو أو نائبه، وإن أكثرية الطقوس في المعبد كان يقوم بها الكهنة الذين يُسمُّون بالكالو وبمساعدتهم.

ونحن نجد هؤلاء يقومون بتأدية أعمال كمثل نصب الطبول في فناء المعبد عند إقامة طقوس خاصة بمناسبة خسوف القمر، أو يؤدون طقوساً دينية ليليَّة ذات علاقة بالمعجزات وعلم النجوم، وبمساعدة الأشيبو (سوف يذكر فيما بعد) كان الكالو يقيم طقوس تطهير المعبد التي تشمل عمليات التنظيف الطقوسية ونشر البخور، أو سكب الخمر على جسد الأضحية وهو ما يدعي بالإراقة.

ولقد وجدنا أن سنحاريب قد أرسل أحد هؤلاء الكالو ومعه أحد الأشيبو لإنجاز الطقوس الضرورية عند شق إحدى الأقنية.

ولكن الوظيفة الرئيسية للكالو كانت الإنشاد وهو ترجمة اسمه التقليدي، فلقد كان الإله يسكن في بيته الأرضي وهو المعبد، وكان من الضروري الحفاظ عليه في مزاج جيد، وإبقاء أساليب التواصل مفتوحة وذلك للمساعدة على إبقاء شفقة ورحمة الإله للبشر حين وقت اللزوم.

وكان هذا هو عمل ووظيفة الكالو الذي كان يقوم بتراتيله وإنشاداته الطقوسية الموجهة إلى الإله والتي كانت تتخذ شكل الصلوات أو الابتهالات بصورة نموذجية، وكذلك الصلوات والأغاني الدينية التي ندعوها بالمزامير وترافقه بعض الآلات الموسيقية كالطبل أو القيثارة.

أما الموسيقيون من الطبقة الدنيا فكانوا يساعدون في أداء الأناشيد الفعلية، واللعب تحت إرشاداته، ومن الممكن أن يكون الكالو رجلاً ذا أهمية وثروة، إذ نظراً لأنه كان يقرأ وينشد طقوساً صعبة فإنه كان ينتمي إلى طبقة المتعلمين وهم أقليّة.

ونجد بعض هؤلاء الكالو يعملون كتبةً وفي بابل (ولسنا متأكدين أن هذا ينطبّق على آشور) كان الكالو المثقف المتعلم يجمع ما بين عدة وظائف إذ يمكن أن يكون (كالو) و(شانغو) في معبد آخر، ولكن ليس من الضروري أن يكون الكالو من طبقة اجتماعيةٍ راقية.

ونحن نجد قضية كالو قد أعتق من العبودية إكراماً للإله بعل، وليس من الواضح إن كان هذا الكالو عبداً في الأصل أو سيداً، ولكن من الواضح أنه كان تحت سحابة اجتماعية تجعله مشبوهاً.

موسيقيو المعبد والبلاط

لقد لعبت الموسيقى دوراً مهماً في الطقوس في كل من الهيكل والدولة، وبالإضافة إلى ذلك في التراتيل التي كان يقدمها الكالو، وكان هناك طبقة من الناس قد كرّسو أنفسهم للموسيقى، وكانوا يقدمون موسيقى الصوت والعزف على الآلات الموسيقية، وكان الشخص من هذا النوع يدعى (نارو) والمؤنث نارتو، وكان الموسيقيون يذكرون إلى جانب الكالو في الطقوس في المعابد ولكن مراتبهم الاجتماعية كانت أدنى من هؤلاء.

وكانت مسؤولية ترتيب التراتيل تقع على الكالو، وكانت واجبات النارو أن ينشدوا الأناشيد بشكل جيد وأن يعزفوا على الآلات الموسيقية، وقد كان الموسيقيون سواء كانوا ذكوراً أم إناثاً يذكرون بأعداد كبيرة بما يختص بشؤون القصور، إذ إن الملوك الآشوريين كانوا حريصين على جمعهم.

ولدى الاستيلاء على بلاد أخرى كان الآشوريون يجلبون أحياناً مجموعات من مثل هؤلاء الناس باعتبارهم جزءاً من الغنائم، وكان الموسيقيون يرافقون الملك الآشوري أثناء غزواته.

الأشيبو

كان الدين الآشوري معقداً جداً فهو يحتوي على مزيج مختلط من المواقف من أصول مختلفة كانت تعمل على مستويات مختلفة.

إذ لم تكن المعابد ولا العبادات المؤسسة على الإيمان بآلهة تتخذ أشكال البشر، هي كل الديانة الآشورية.

وفي هذا المجال كان الاعتقاد السائد هو وجود آلهة ذات مواقف إنسانية بشرية مع قوى خارقة لقوة البشر، وكان لهذه الآلهة اهتمام بالبشر الذين يستطيعون الاقتراب من هذه الآلهة.

وإن هـذه الكائنـات الإلهيـة إذا تم الوصـول إليهـا بـشكل لائـق ومناسـب مـن الممكن إقناعها بأن تستعمل قواها لفائدة الأشخاص الذين يعبدونها.

هـذا وإن القـرّاء إذا كـانوا قـد نـشأوا ضـمن تربيـة وتقاليـد مـسيحية أو يهودية ربما فكـر هؤلاء أن هذه الأقوال بديهيـة، والحقيقـة أنـه لم تـكن جميـع المعتقدات الدينيـة الآشـورية معتقـدات متدينـة فقـد كـان هنـاك معتقـدات بالنـسبة لمـا وراء الطبيعة ذات أصول مختلفة وممارسـات مختلفة وتعود هـذه المعتقدات إلى أزمنـة مـا قبـل التـاريخ قبـل أن يكـون هنـاك أبـداً أي دولـة آشـورية، أو أي ملـك آشـوري، وفي بعـض الحـالات حتـى قبـل أن تتـشكل فكـرة الآلهـة ذوي الـشكل البـشري وهـذه اشتملت هـذه الأوضـاع مـا نـدعوه في الاصطلاحات الحديثة بالسحر أكثـر منـه في الدين.

وإن كثيراً مما حدث في هـذا الـسياق كـان منحصراً بالنضال ضـد التـأثيرات الشريرة، وهو الـذي كـان يبـدو أحيانـاً هلاميـاً، وأحيانـاً يُشخَّص بكونـه شـكلاً من أشكال الشياطين، ولكن في آشور لم يكن هناك تمييز قاطع ما بين الـسحر والـدين، ونتيجـة لذلك وجـد بعـض رجـال الـدين الـذين كـان نـشاطهم مُنَصَّباً علـى مجال السحر وليس مجال الدين كما نفهمه ولهم مركز ضمن الطقوس في المعابد والاحتفالات الدينية.

وكـان أشهر وأنشط العاملين من الكهان في هذا المجال هم الخبراء بالتعاويذ السحرية، وهم المعروفون باسم الأشيبو (أو مـاش ميشو) التي تترجم باسـم طاردي الأرواح الشريرة، مع أن كلمة الـسـاحر أو طبيـب الـسـاحرات ربمـا تبـدو أكثـر دقـة وأكثر إفصاحاً عن وظيفة هؤلاء في المجتمع الآشوري.

وكان من المعـروف أن الأشيبو كـان لديـه قـوى سـحرية هائلـة لدرجـة أنـه وفي النصوص الدينية كانت قد وصفت بعض الآلهـة بأنهـا أشيبو الآلهـة وهـذا يعني: إن قوة الأشيبو كانت عظيمـة جداً بحيـث إنهـا تفوقت حتـى علـى القـوى الإلهيـة، ممـا دعا الآلهة أنفسها لتظهر السرور بامتلاكها، وهـكذا يصبح الأشـيبو متمتعـاً بهيبـة واحترام.

لم يكن الأشيبو بموجب طبيعة وظائفهم عبارة عن موظفين في المعابد مع أنه كان بعض هؤلاء يعينون في ملاك موظفي المعبد لإنجاز وظائفهم المختصة بهم كما يجب، مثلاً: عند إنشاء التعاويذ، أو عند محاولتهم طرد الأرواح الشريرة والشياطين من حضرة الملك.

وكان معظم هؤلاء يعملون خارج المعبد، وكان بعضهم يعمل في خدمة الملك، وكان بعضهم في ملاك موظفي القصر.

ونرى واحداً منهم يعمل كموظف عبادات يعمل في الاحتفالات الدينية عند افتتاح قنال شقه سنحاريب.

وكان آشوريون آخرون يرسلون التقارير المنتظمة إلى الملك حول قضايا تخص أحوال الملك وأحوال عائلته، وأحوال الدولة.

ويذكرون بعض الطقوس اللازمة للتأمين ضد الأخطار، وكان الملك يحترم آراء هؤلاء خصوصاً عندما يصاب الملك بالخوف المريع بحيث يبالغ في الأشياء، وإن لدينا رسالة من أحد الأشيبو إلى الملك يذكر أشياء مشابهة لهذه، ولم نعرف ما سبق هذه الأخبار ولكن هاك ما يقوله الأشيبو:

((لماذا لم تأت مائدة الطعام ولليوم الثاني إلى حضرة الملك لسيدي؟ الذي هو في الظلام طيلة اليوم، وذلك لأن إله الشمس وهو ملك الآلهة بات في الظلام اليوم بطوله، والليل بطوله، ومدّة ثانية لمدة يومين.

ولكن الملك وهو سيد البلاد ما هو إلا صورة للإله الشمس، ولكن ينبغي أن يظل في الظلام مدة نصف يوم فحسب)).

يبدو أن شيئاً ما قد حدث للشمس، وربما كان كسوفاً شمسياً، وكانت متطلبات هذا الكسوف تستوجب البقاء في الظلمة.

ويقترح بعض الباحثين أن هذا الفعل يعني: النواح والندب (مع أنه هنا ليس المعنى العادي) أن يبقى في الظلمة لمدة يومين.

فقد كان الملك يلاحظ ويتقيد بهذا الطلب الشديد الوطأة، ولكن عندما أتى الأشيبو وهو يقول:

((إنه نظراً لأن الملك نفسُه عبارة عن إظهار بشري للإله شمس فإن فترة بقائه في الظلام (أو في حالة من حالات الندب والضجيج) وسوف تتحدد بنصف يوم)).

ولكن لماذا عرض الأشيبو هذا الاقتراح بعد أن كان من الواضح أن الملك قد قضى في الظلام مدة تزيد على نصف يوم؟

ولكن أقوال الأشيبو: إن بمقدور الملك أن يتخلص من الذنب بقضائه نصف يوم في الظلام هو قول خادع.

فإذا كانت هناك قاعدة تقضي بقضاء يومين من الكفارة ضد ذنب أو حادث خاص من سوء الطالع، عندها كان من الواجب أن يكون الملك وهو الذي يمثل دولة آشور هو الذي عليه أن يقوم بهذا العمل.

وقد وجِد مكان غير مقروء في رسالة أشيبو، ولكن وحيث أمكن فهمه فإن هذه الرسالة تعطي انطباعاً يبرِّر السبب الذي جعل الأشيبو يلتمس عذراً للملك في كسر الصيام.

وأما بقية الرسالة (وفيها بعض المقاطع غير مفهومة) فهي كما يلي:

إن تناول الطعام الطيب وشرب الخمر سوف تعافي الملك من مرضه، وينبغي الأخذ بهذه النصيحة، فإذا كان الامتناع عن الطعام والشراب سوف يقلق ذهن الملك، ويجلب له المرض، والرجاء أن يصغي الملك لما يقوله خادمه حول هذه القضية:

((والحقيقة أن فرض الصيام والانغلاق بالنسبة للملك قد كان سبباً في زيادة قلقه.)) وقد اضطر الأشيبو أن يجد طريقة يحدد ويقلل فيها الأضرار التي سوف تصيب الذات الملكية دون المساس بسلطة وقوة المطالب الطقوسية السابقة.

لم يكن الملك وحسب ولكن الأعضاء الآخرين من العائلة المالكة، وربما أيضاً الموظفين الكبار في الدولة، كل هؤلاء كان من الممكن أن يكون لديهم (أشيبو) في ملاك موظفيهم الدائمين.

وهكذا نسمع عن وجود أشيبو رئيس في بيت ولي العهد وهذا ما يدل أن لدى ولي العهد مجموعة من الأشيبو تحت تصرُّفه إذا هددته بعض الشرور، وقد كان كثير من الأشيبو يحصلون على ما يؤمن معيشتهم من الأجور التي يتقاضونها لمساعدة الناس العاديين للتغلب على الأمراض، أو التغلب على سلسلة من الخصوم من النوع الذي ندعوه الحظ السيئ، وفيما يلي نص موضح للطريقة التي كان الأشيبو يتصرف بها وهو كما يلي:

لأجل استبدال رجل بشيء يخص أيديش كيغال (آلهة العالم السفلي) عند غياب الشمس ينبغي على الرجل المريض أن يصطحب معه أنثى من الماعز الصغيرة في السن والتي لم تلقح لتستلقي بجانبه، وفي نهاية الليل سوف تستيقظ عند الفجر ثم ينبغي أن تنبطح وتغير وجهك إلى الجانب الآخر من الفراش، ثم ينبغي على الرجل المريض أن يضع أنثى الماعز بين ساقيه (وفي الحالة) التي تتعلق برجل وامرأة يكون معنى هذا الجماع الجنسي مع امرأة.

وأما حالة أنثى الماعز يمكننا أن نعطي الرجل مع ما بلغت حالة مرضه فائدة الشك، ونقبل الفكرة التي مفادها أنه قد اتخذ موقف الاتصال الجنسي غير الفعَّال ولكنه كاف لخداع القوى الشريرة.

وبعدها تجعل الرجل المريض وأنثى الماعز يضطجعان على الأرض وبعدها تلمس عنق الرجل المريض بخنجر مصنوع من خشب الطرفاء (وهي شجرة نحيلة الأغصان) (وكانت الطرفاء تعد ذات خشب سحري) وبعدها تقطع عنق أنثى الماعز بخنجر مصنوع من النحاس.

ثم تغسل أحشاء أنثى الماعز التي ذبحتها بالماء ثم تدهن بالزيت ثم تملأ أحشاؤها بالتوابل، ثم تلبس بعض الملابس وتلبس أقدامها بأحذية ثم تكحل

عينيها بالكحل، ثم تصب الزيت الحلو على رأسها، ثم تنزع عمامة الرجل المريض وتضعها على رأس أنثى الماعز، وأن تعاملها باحترام كأنها رجل ميت.

ثم ينهض الرجل المريض ويخرج من الباب وعندها يبدأ الأشيبو بتلاوة بعض التعاويذ ثلاث مرات وهي: (ذلك الرجل هو الذي مسَّته لمسة الإله) ثلاث مرات.

وبعدها يطلق الأشيبو صرخات من البكاء على المريض قائلاً: (ذهب يواجه مصيره ثم يبدأ بالنواح والبكاء على المريض).

وبعدها تقدم تقدمة الجنازة إلى الإله إيديش-كيغال ثلاث مرات.

ثم تضع صحنين من البرغل الساخن أمامه.

وبعدها تقوم بمدح وتكريم (الميت) ثم تصب الماء والبيرة والذرة المسلوقة والعسل والزبدة والزيت.

وبعدها تقدم تقدمة الجنازة لأرواح أفراد عائلتك وكذلك لأنثى الماعز وبعدها تردد بعض التراتيل أمام الإله إيديش كيغال وهي: إن الشي (غالو هو اسم مرادف لأشيبو) هو أخوه.

وينبغي معاملة أنثى الماعز باحترام كما لو كانت لا تزال على قيد الحياة، ثم تدفنها.

إن كلمات التوجيهات الطقوسية تبدو وكأنها تشير إلى أن هناك اثنين قد اشتركا في القيام بالطقوس:

أولهما: الأشيبو المذكور بلقبه شخص آخر يخاطب بكلمة أنت، ومن المحتمل أن يكون هذا الشخص هو (بارو) الكاهن الذي كان يهتم بالمرض دائماً.

ومن جهة أخرى: فإن النصوص من هذا النوع لها تاريخ طويل على طريق التطور، وإن تغيير الكلام من أنت إلى هو ربما كان نتيجة إضافات تدريجية.

وهكذا فمن الممكن أن تكون كل التعليمات متوجهة إلى الأشيبو، وليس هناك من مجال للشك أن العمليات المذكورة في الطقوس المنقولة ما هي إلا شؤون

صحية تختص بالسحر، فالرجل المريض متطابق ومتماثل مع أنثى الماعز الصغيرة مع اختفاء صفة الحتمية على أنثى الماعز.

ويفترض أن يكون لحياة أنثى الماعز الصغيرة تأثير عن طريق الحقيقة المجرَّدة وهي وجودها.

ولكن لم تذكر قضية الدين بمعنى التقرب إلى الآلهة للحصول على تدخلها الرحيم في مصير حياة الإنسان.

ومع أنه لم يرد اسم إيديش كيغال آلهة العالم السفلي، ولكن ليس هناك أي أقل الدلالات بوجود أي تقرب لها كآلهة تمتلك بعض العلاقات مع البشر، ومن الممكن الاقتراب منها سواء بقصد الاسترخاء أو التضرع.

هذا وإن تقديم اسم الآلهة إيديش كيغال لا يبدو أكثر من علاقة طفيفة باتجاه الإيمان بالآلهة ذات التَّوجه البشري المستعمل كاصطلاح مضاف لقوى الشر التي لا يمكن تسميتها أو معرفة وجودها، وقوى الموت التي كانوا يودون خداعها عند القيام بأداء الطقوس.

فنحن نعرف فعلاً المناسبة التي أُتِمَّ فيها الطقس المشار إليه، فقد كان هناك الطقس بالنيابة عن ولي العهد الذي كان مصاباً بالحمى، وهذا المرض قد عزى الأشيبو حصوله لاقتراف بعض الذنوب (ربما كان الذنب خرق الطقوس الدينية) بالنسبة للملك نفسه.

وهناك مثال آخر عند وقوع النشاط السحري الذي يقوم به الأشيبو وهو يتلخص بالمقتطفات التالية من رسالة أرسلها الأشيبو الرئيس إلى الملك:

بشأن طقوس الابتهال التي تسمى: ((حقاً أنت الشرير)) التي أرسل إلى سيدي الملك رسالة بشأنها فهذه الطقوس تتم من أجل طرد الشيطان الشرير (آلو) وطرد المرض الطارئ وهو مرض السقوط (وهو يعرف على العموم باسم مرض الصرع).

إذا كان حصل للمريض شيء ما فإن الأشيبو سوف ينهض ويعلق فأرة وغصناً من شوكة الجمل على باب عتبة البيت، ولسوف يرتدي الأشيبو ملابس حمراء،

ويضع قناعاً أحمر، ولسوف يحمل غراباً بيده اليمنى، وصقراً بيده اليسرى، وبعدها ينشد نشيد الابتهال: ((حقّاً أنت شريرٌ)).

وبعد الانتهاء فإن الأشيبو يصاحبه أشيبو آخر يقومان بدورة حول فراش المريض وإلى جانبيهما مبخرة ومشكل، وبعدها سوف ينشد نشيد الابتهال: ((أيها الشيطان هولتوبو اغرب عن أنظارنا)) حتى يصل إلى الباب، وبعدها توضع تعويذة على الباب.

وينبغي أن يكرر هذا الابتهال صباحاً ومساءً حتى يُطرد الشيطان، والواضح من النصوص النموذجية التي ذكرت أن اسم الطبيب الساحر هو أكثر ملاءمة للأشيبو من اسم الكاهن، ذلك لأن ألبسته فضلاً عن الطقوس قد خدمت للإقناع، فإن قدرته على طرد الآثار السيئة ما هي إلا خرافة من الخرافات.

إذ إن الثوب المستعمل عند أداء أنشطته الرسمية كان ثوباً أحمر، وهذا وبالنسبة إلى عدة ثقافات هو الذي يخدم قضية طرد الشياطين والعفاريت.

وبالنسبة لبعض المراسيم فقد أعطي النخس الغريبة المستهجنة، وذلك لوجود القناع الذي لَبِسَهُ.

وتذكر النصوص الخرافية أنواعاً مختلفة من المخلوقات الهجينة النغلة مثلاً: الرجل السمكة، ورجال العفاريت ذات الصفات السحرية، ونرى على بعض الأنصاب الآشورية رجالاً يلبسون أقنعة تجعلهم يظهرون وكأنهم رجال سمك، أو رجال أسود، وما شابه ذلك.

وتختص هذه التمثيلات بالطقوس السحرية وكان الرجال الذين يرتدون الأقنعة ليسوا أكثر من أشيبو وكهنة وهم يمارسون أعمالهم.

العرّافون- البارو

لقد عمد الإنسان في معظم المجتمعات لإيجاد وسائل تمكّنه من معرفة ما سيحدث في المستقبل.

ولم يكن أهالي ما بين النهرين شواذاً عن هذه القاعدة، ولقد اخترع كثير من تقنيات العرافة للتنبؤ عن ما سوف يحدث، وتعود بعض هذه إلى الألف الثالث ق.م في منطقة سومر، وربما كانت أصولها حتى أقدم من أزمنة ما قبل التاريخ، وقد ازدهرت هذه المظاهر في آشور في الألف الأول ق .م.

وتظهر أهمية هذه الوسائل لمعرفة المستقبل والثقافة الآشورية عن طريق ما نراه من محتويات المكتبات التي أسسها ملوك آشوريون مختلفون، وعلى الأخص آشور بانيبال والتي بناها في نينوى.

ولقد اكتشفت هذه المكتبات في القرن الماضي، ووجد أنها تحتوي حوالي (١٢٠٠) من الأعمال الأدبية القديمة المختلفة، ومنها حوالي ثلاثمائة مختصَّة بالعرافة والتنجيم.

ومن وجهة نظر شعب ما بين النهرين القديم كان شكل العرافة من أعلى المستويات مرتبطاً ببعض الكهان المعروفين باسم (بارو)، مع أنه وفي حوالي نهاية الإمبراطورية الآشورية الجديدة تخلّت العرافة عن وضعها المرموق وتركته للتنجيم.

وقد كان البارو ومنذ أقدم الأزمنة مترافقاً مع تقنيات مختلفة ولكن مرافقته كانت تجري بشكل أساسي عن طريق فحص الأعضاء الداخلية المهمة في الحيوانات المذبوحة والمضحَّى بها.

وكانت تفاصيل هذه الإجراءات تختلف من فترة زمنية إلى فترة زمنية أخرى، ومن مكان إلى مكان، ولكن وبصورة أساسيَّة إن ما كان يحدث في دولة آشور في الألف الأول قبل الميلاد كان كما يلي:

يُكتب سؤال على لوح من الغضار، ويوضع هذا اللوح أمام الإله، وبعد ذلك كانت تُذبح غنمة وتفحص أعضاؤها الداخلية، وبعدها يَصل تقرير الإله وتفسيره

على افتراض أن الإله قد وضع جوابه على الأعضاء الداخلية للحيوان بشكل صور وأشكال خاصة، مثلاً الحجوم والألوان والبقع وغيرها من المظاهر الشاذة.

وكان للعرافين مفاتيح بشكل نماذج من الغضار للأعضاء الداخلية (ولاسيما الكبد) وهي تدل على المظاهر الموجبة، والمظاهر السالبة.

وقد كانت المظاهر الموجبة والسالبة بدقةٍ، ويكون الجواب الذي وضعه الإله مختلفاً حسب غلبة الموجب والسالب.

لدينا النصوص الفعلية لبعض الأسئلة التي كان الملوك الآشوريون يطلبون الإجابة عليها من خلال تقنيات (البارو) وفيما يلي جزء من هذه الأسئلة:

آه- يا شمش، أيها السيد العظيم، أجبني بتأكيد حازم عن المسألة التي أسأل عنها.

أجبني بتأكيد حازم

وابتداءً من هذا اليوم وهو الثالث من شهر الإرحتى

الحادي عشر من شهر آب من هذا العام

خلال هذه الأيام المائة والليالي المائة وهي أنضرها

المعنية بقضية الاستئصال.

هل سيقوم جنود السيمريين أو الميديين أو المانيين أو أي عدو آخر مهما كان بمحاولة القتال أو التآمر ضدي؟

وكان الكهنة البارو يحضرون مشهد العرافة عن طريق عدة تحضيرات ذات طبيعة سحرية، مثلاً: مضغ خشب الأرز، أو حرق البخور، وعمل التعاويذ وهمسها في أذن الحيوان المضحّى به.

ومن الواضح أنه وتحت سطح إجراءات تبدو أنها تطلب النجدة من إله ذي شكل بشري، وتطلب الجواب، هناك شيء أكثر بدائيةً ولكنه ليس ذا طبيعة إلهية، وهو الاعتقاد بقوى غير مشخصة وخارقة ولكن يمكن السيطرة عليها بواسطة أساليب سحرية.

وشأنه شأن الكالو والأشيبو كان البارو بحاجة لاستعمال النصوص المسمارية خلال أنشطته المهنية، ولذلك أصبح ينتمي إلى تلك الأقلية المثقفة مع جميع الفوائد التي تجعله قادراً على الاقتراب من الدولة، ومن إدارة المعابد.

والحقيقة أن البارو كان منتمياً إلى الشريحة العليا من المجتمع، ونحن نعلم مثلاً عن جماعة من (البارو) كانوا أبناء (الشانجو) وهناك نص مسماري يذكر: إنه ليس بإمكان أحد أن يصبح (بارو) ما لم يكن خالياً من العيوب الجسدية، وأن يكون من أصل حُرٍّ.

ولم يكن من الضروري أن يكون البارو موظفاً في المعبد أو موظفاً في الدولة، مع أن طبيعة عمله كانت تقتضي أن يخدم المعبد، أو يخدم الملك.

وبالنسبة للمناسبات المهمة كان أفراد البارو يعملون بشكل مجموعات، ويشير كثير من الملوك الآشوريين إلى عدد من عرّافي البارو مشتركين في عمليات الاستئصال وكانوا موزعين بشكل فرق.

لدينا مجموعة لا بأس بها من الرسائل أرسلت إلى الملك الآشوري من قبل رجل كان يدعى البارو الرئيسي، وقد خدم هذا في هيئة الموظفين الملكية مع المسؤولية لتنظيم أحوال زملائه من البارو الآخرين، وقد منحت له قطعة من الأرض كأجر من قبل الملك.

وكان البارو الرئيسي المذكور يعمل في مكتب متواجد في القصر الملكي، ولكن لم يسمح لكل بارو يعمل في خدمة الملك أن ينجز أعماله في خدمة القصر أو المعبد، مثلاً: كان هناك بعضهم يخدم في الجيش الملكي، وكان مستعداً لإنجاز بعض الطقوس، وإعطاء القرارات عن طريق العرافة عندما يطلب منه ذلك.

وكان بعض (البارو) يَضَعُون خدماتهم تحت تصرف أناس عاديين، وكانوا يخدمون أغراضاً خاصة كاكتشاف احتمالات الأمراض، وعندها كان البارو يتعاون مع الأشيبو.

فئات العرافين الأخرى

لقد اعتبرنا البارو أولاً: بأنه يمثل أعلى طبقة من طبقات العرافين، ولكن كان هناك قياسات أخرى متعددة، مثلاً: هناك قائمة من المحترفين تذكر فئتين تدعيان: شا إيكو، وماهو، فضلاً عن الأشيبو البارو.

لا نعرف إلا القليل من المعرفة التفصيلية عن الشا إيكو وذلك من أخبار آشور في الألف الأول، وربما كان ذلك نظراً لأنه هو أو هي (لأن المرأة تستطيع القيام بهذه الخدمة) قد أصبح منحصراً بالشريحة الدنيا من المجتمع، بحيث إنها لم تذكر في النصوص المسمارية الباقية التي تعكس وبصورة رئيسية مصالح الشريحة العليا المثقفة.

وفي مستهل الفترة الآشورية المتأخرة كان (الشا إيكو) وبصورة خاصة الإناث من هذه الشريحة متخصصين بتفسير الأحلام، واستحضار الأرواح بحيث وبسبب حاجتنا إلى شواهد أكثر تفصيلاً ربما افترضنا أن هناك مشتركاً ما بين الشاإيلو وساحرة (ايندور المذكورة في التوراة).

ولكن معرفتنا بالماكو تفوق معرفتنا بالشاإيكو، وبموجب علم اشتقاق الألفاظ فإن هذه الكلمة تعني: الشخص المصاب بجنون مؤقت.

وإن الشخص الموصوف بهذا الوصف هو الشخص الذي يقع في حالة من الانجذاب بحيث يعطي بعض الرسائل القادمة من الله.

وهناك عينات من الذكور والإناث المصابين بهذا المرض وهم يكونون هيئة موظفين في المعبد أو أشخاصاً عاديين.

وهناك أوصاف أخرى متعددة استُعْمِلَت في بلاد آشور للدلالة على أشخاص من هذا النوع، وكانت رسائلهم النبوية على نسق أولئك المذكورين في العهد القديم والذين وصفت نبوءاتهم بأنها نبوءات أنبياء كاذبين (كما ذكر في سفر الملوك في التوراة) وكانت هذه النبوءات تمثل الموافقة على أعمال الملك وتشجيعه.

ولقد كان ملوك آشور يقدرون تلك النبوءات ويأخذونها على محمل الجد، بحيث إنه في إحدى المعاهدات مع أحد الأمراء التابعين عمد الملك اسرحدون على ربط الأمير التابع بتعهد أن لا يخفي أي كلمة يلفظها أي شخص يعرفه.

وكان باستطاعة (الماكو) الاشتراك في حفلات المعابد، ومن المظنون أن ذلك الاشتراك يتم بشكل يكون فيه هذا الشخص أحد الدراويش.

وكان هناك نوع آخر من العرافين الذين نشطوا في الألف الأول قبل الميلاد في آشور، مثلاً نسمع باسم ملاحظ الطيور، وهو شخصية رسمية يخدم الملك بأن يقدم تقاريراً للملك تحتوي على تنبؤات فلكية مأخوذة من حركات الطيور.

وتحتوي إحدى الوثائق الآشورية قائمة من الأسماء من الممكن تلخيصها بما يلي:

١٧- أشيبو

٥- باروس

٩- أطباء

٦- كالوس

والآن لا نعد هارتيبي كلمة آشورية وطنية، فهي كلمة مصرية تدل على مفسِّري الأحلام، والكلمات الثلاث التي وجدت كانت كلها مصرية، وليست آشورية.

ولهذا فمن الواضح أن الملوك الآشوريين قد جلبوا بعض مفسِّري الأحلام من مصر لإضافة هؤلاء إلى ما عندهم من جماعة المتنبئين بالمستقبل.

علم التنجيم

كانت أكبر الوسائل البارزة للتنبؤ بالنسبة للدولة وأغراضها في حوالي نهاية الإمبراطورية الجديدة هي علم التنجيم، وكان هناك عدد كبير من الخبراء في هذا العلم من الذين كانوا يقدمون تقارير بانتظام إلى الملك حيث يذكرون ملاحظاتهم لأوضاع القمر والكواكب والنذر التي يلاحظونها.

وينبغي أن نشير إلى أن علم التنجيم في آشور كان مختلفاً عمّا نفهمه من هذا الاسم في هذه الأيام وإذ إن ما يذكر من هراء عن علم التنجيم في هذه الأيام إنما يُفترض فيه إخبار عن مصير الأفراد من خلال شعوذة مؤسسة على مراكز الأجرام السماوية في الزمن الذي ولد فيه هؤلاء الأفراد.

ولكن علم التنجيم الآشوري ومع أنه خال من الشعوذات إلا أنه لا يلتزم إلا بأخبار شؤون الدولة وليس الأفراد (عدا العائلة المالكة ضمن الوضع الذي تتجسد فيه الدولة في الملك).

ولقد أتت التنبؤات من تطبيق التفسيرات التقليدية على الحوادث الجارية والسموات مثلاً: حوادث الخسوف والكسوف، والحلقات حول القمر، أو أوضاع الكواكب، ويأتي ضمن هذه المقولة الرعد والهزات الأرضية، ومن الممكن فهم طبيعة علم التنجيم الآشوري بالنظر إلى بضعة أمثلة وكلها بشكل تقارير موجهة إلى الملك.

عندما يُرى القمر في اليوم الثالث عشر فإمًا سيكون هناك صقيع أو أن يسمع صوت العدو.

وعندما يعيد ملاحقة القمر يظهر هذا عالياً في السماء فإن العدو سوف يستولي على البلاد بالقوة.

وعندما يصبح القمر مرئياً في وقت أبكر من ميعاده فسوف تظهر الاضطرابات في هذا الشهر.

وهنا نورد تفاصيل أوفى:

في هذه الليلة أحاطت هالة بالقمر ويظهر كوكب المشتري وتكون كوكبة العقرب في داخلها، وعندما تحيط بالقمر هالة ويصبح كوكب المشتري في داخلها فإن ملك أكاد سوف يُحاصَر ويطلق عليه.

وعندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع المشتري داخل هذه الهالة فسوف تحدث جائحة تسبب موت قطعان المواشي والحيوانات البريَّة.

هذا وإن نجمة الإله مردوخ عند رؤيتها لأول مرة هي:

S U L-PA.E وعندما يشرق مدة ساعة مزدوجة يكون في حالة:

S AG. M E-NIG وعندما يتوضع في منتصف السماء فهو نيبيرو .

وعندما تحيط هالة القمر ويتوضع العقرب في داخلها فإن الكاهنات سوف يتَّصلن اتصالاً جنسياً مع الرجال، أو أن الأسود كما تقدم شرحه سوف تخرِّب وتقفل الطرق في البلاد.

وتأتي التنبؤات الفلكية من السلسلة التالية:

عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري (SUL.PA.E) داخلها، فإن ملك الأراضي الغربية سوف يمارس القوة ويخرب بلاد عدوه، وهي نذير شؤم.

إن ما ذكر أعلاه يتطلب بعض التفاسير، فالظاهرة الأساسية التي لوحظت واضحة قد كانت هناك حلقة حول القمر تتضمن أجراماً سماوية مضيئة، ويظهر أن المنجم قد فتش عن معاني تلك العلائم في السلسلة (أي: في كتاب النصوص) الذي يرجع إليه في النهاية، وشأنها شأن النصوص المسمارية القديمة فقد سميت هذه السلسلة باسم السطر الأول.

وهو يفسر المسألة وهي: إنه ومن وجهة نظر علم التنجيم فإن الكوكب نفسه وهو المشتري تطلق عليه عدة أسماء طبقاً لعلوِّه في الأبراج، وهو يفوق ذلك بإعطاء تفاسير مناسبة لوضعين مختلفين.

وقد عمد الباحثون الأولون الذين ألفوا كتب النصوص إلى وضع بعض المعوقات، وذلك بتقديم تفاسير اختيارية بالنسبة لكوكبة السرطان، وهكذا

اصبح مجال الاختيار والتبؤات عير المواتية مما يجعل المنجم يستنتج ان الظاهرة التي رآها إنما تعني شيئاً سيِّئاً بالنسبة للدولة.

وكان هناك بعض التقارير الأكثر إيجازاً وأكثر وضوحاً، مثلاً: عندما تحيط بالقمر هالة ويتوضع قلب الأسد **Regulus** في داخلها فإن النساء سوف تلد في تلك السنة مواليد من الذكور.

ففي هذه الحالة والحالة التي كانت قبلها فإن الظاهرة المذكورة هي ما شاهده المنجم، وقد أطلق الاسم فوراً وذلك بقصد الاقتصاد بالكلمات.

وأخيراً إننا سوف نقتبس جزءاً صغيراً مأخوذاً من تقرير طويل مختص بالتنجيم وذلك من أجل التعليقات الاجتماعية التي يحتوي عليها، وهو يقول:

((عندما يصل القمر إلى الشمس ويسير جنباً إلى جنب معها، أي: إن القرن سوف يعانق القرن فسوف تتحسن أحوال البلاد السلوكية، فالابن سوف يصدق مع والده)).

وهنا من الممكن أن نفترض أن الوضع في ذلك الوقت كان عكس ذلك.

تحتوي بعض التقارير التنجيمية معلومات عن الطقس ربما كانت مؤسسة أصلاً على الملاحظة مثلاً: عندما يسمع الرعد في شهر أيار فإن القمح والخضروات سوف تسوء منتوجاتها.

أو عندما يسمع الرعد في شهر شباط فسوف تمر على البلاد نقمة الجراد.

((وعندما نسمع صوت الرعد في شهر شباط فسوف ينزل البرد)).

وفي هذا التقرير الأخير فإن المنجم يقتبس تنبُّؤين فلكيين مختلفين قد وجدهما في مجموعة النصوص، خاصة والتي تعود إلى شهر شباط، وإن الإشارة إلى نزول البرد في شهر شباط ما هو إلا نتيجة الملاحظة، فالرعد في شهر شباط غالباً ما يتبعه نزول البَرَد.

ومن المحتمل أن يكون هذا التنبؤ غير صحيح نظراً لوجود علاقة عرضيَّة فإن توارد العواصف الرعدية مع درجات الحرارة في شهر شباط يؤيد في العراق سقوط ترسبات بشكل برد.

أما التنبؤ حول جائحة الجراد ربما أتت من ملاحظة بعض الأشخاص أنه وفي بعض المناسبات فإن الرعد في شهر شباط كان يتبعه هجوم جائحة الجراد، وفي هذا المجال ليس هناك من علاقة عرضية بين الحادثتين.

وقد نشأ التنبؤ على أساس الجملة اللاتينية التي فحواها: ((إن هذا يتبع ذاك، لذلك فإن هذا قد كان نتيجة عن ذاك)).

ومع ذلك فإن معظم التنبؤات كانت على أساس مختلف عن هذا، وهذا نوع من الرَّمزية، ويمكن للمرء أن يرى كيف يحدث ذلك من المقطع المذكور أعلاه الذي مفاده:

((عندما تحيط هالة بالقمر ويتوضع المشتري داخلها فإن الملك الأكادي سوف يُحبس)).

وكان المشتري هو كوكب الإله مردوخ، وكان مردوخ هو إله البابليين، وكانت بابل هي عاصمة المملكة البابلية المعروفة باسم: أكاد بلغة المنجمين.

وإن الكلمة الأكادية التي نترجمها بمعنى: هالة، يمكن استعمالها أيضاً بمعنى: حظيرة لحفظ الماشية، وهكذا فإن رؤية الكوكب المشتري في داخل هالة القمر يوحي بأن القوة العظمى في بابل كانت في داخل الحظيرة التي سوف تمثل الوضع إذا أصبح ملك بابل تحت الحصار.

وبشكل مشابه فإن التنبؤ الذي يشير إلى أن القمر قد وصل إلى الشمس وسار جنباً إلى جنب معها، وأن الابن سوف يصدق مع والده، إن هذه الحقيقة تقدم نوعاً من الرمزية إلى الأب والابن اللذين ينبغي أن يبقيا على وئام وسلام.

لقد سببت ظاهرة الخسوف والكسوف الذعر والخوف بالنسبة للأقوام البدائية وأحياناً لغير البدائية، وطبقاً لذلك فقد كانت ظاهرة الكسوف تدل على فألٍ سيئ.

ومع ذلك فكان من الممكن أن يخترع المنجم تفسيراً للخسوف والكسوف لكي يوفر على الملك شيئاً من القلق.

وهكذا نجد ما يلي:

((لقد حان وقت الخسوف، ولكنه لم يلاحظ في آشور إذ إن ذلك الخسوف قد تجاوز آشور تلك المدينة التي يعيش فيها الملك.

فقد كان هناك غيوم في كل مكان بحيث لم نعرف أن الخسوف قد حدث أم لم يحدث، ألا فلندع الملك يرسل الرسائل إلى آشور وإلى جميع المدن في كل مكان -إلى بابل، وإلى نيبور، وإلى العريش، وإلى بورشيبا، إذ ربما قد لوحظ خلال تلك المدن، وليسمع الملك التقارير المنتظمة.

فلقد عمد الآلهة في المدينة التي يعيش فيها الملك إلى تعتيم السماء، وهكذا لم يظهر الخسوف، وهكذا فإن الملك سيدي من الممكن بالتأكيد أن يتحقق من أن هذا الخسوف لم يكن ضد سيدي الملك، أو ضد أراضيه وهكذا فليظل الملك سعيداً.))

وهكذا يقرر المنجم أنه سواء حدث الخسوف أم لم يحدث فإن الدلالة مناسبة بالنسبة للملك.

(ومن الممكن أن نلاحظ أيضاً أنه من الغرابة في الزمن الذي نحن بصدده كان المنجمون يعرفون معلومات كافية حول حركة القمر بحيث استطاعوا التنبؤ بالخسوف القمري الذي يحدث عادة كل ستة أشهر، ومع ذلك وبسبب الأفكار المحافظة الخرافية كانت لا تزال تعد ظاهرة الخسوف دلالة على الفأل السيئ).

وكان هناك مظهران لهذه التقارير التنجيمية:

أحدهما: أن يقدم للملك إنذاراً وتحذيراً من الحوادث القادمة وهي ذات أهميَّة بالنسبة للدولة.

أما الثاني: فهو لإعطاء الفرصة لإتمام شعائر الطقوس وذلك لتجنّب أي حوادث سيِّئة قد أنذرت بها هذه التقارير، ولقد اعتنى جماعة الموظفين الأشيبوس بهذا المظهر الثاني.

ربما يلاحظ القارئ أنه مع أننا لا نزال نعالج القضايا الدينية في هذا الفصل من فصول الكتاب إلا أنه قد مضت صفحات وصفحات دون ذكر أي شيء عن الآلهة.

وهذا مكان مناسب لإيضاح الانعكاس الذي كانت الآلهة تشغله في الموقف الآشوري تجاه الحياة.

ولقد بدأنا مناقشاتنا حول الديانة الآشورية بالتحدث حول طبيعة الآلهة العظام، ولكن هذه المقاربة إنما هي نوع من التنازل لطريقتنا في التفكير حول دور الدين في المجتمع.

وبالنسبة للرجل الآشوري العادي فإن الآلهة العظام لم تكن هي الجزء من العالم الذي يمثل ما وراء الطبيعة الذي كان متأثراً به إلى درجة عظمى، مع أنه عندما قَبِلَ السيطرة على ذلك العالم الذي يعيش فيه مع الآلهة العظام، فإن تماسه الشخصي السريع بتلك الكائنات الإلهية ربما أصبح ضئيلاً جداً.

ولكن لم يعنِ هذا أن الرجل الآشوري العادي سوف يهمل عالم ما وراء الطبيعة، بل لقد كان عالم ما وراء الطبيعة هو كل ما كان حوله وقد أثر في حياته بكل معنى الكلمة.

وهكذا فإذا أصابه المرض بسبب الشياطين أو ربما كان شراً من الشرور التي تهاجمه، وإذا فقد ولداً من أولاده فإن الشياطين هي السبب، وهو يرى القوى الشريرة من عالم ما وراء الطبيعة هي التي تعمل.

ولكنه لم يَرَ أي قرار من قرارات الآلهة العظام، فلم يكن هناك إيمان توكلي عميق بوجود الأهداف الإلهية التي تسمح للآشوري أن يقول عندما تصادفه مصيبة فادحة: ((إن الله قد أعطى، والله قد أخذ)) ومبارك هو اسم الرب، ولقد دخل الآلهة العظام في هذه القضية كقوى تستطيع إذا تم التضرع إليها ومناشدتها أن تحيط بالشر الناجم عن القوى الشريرة.

لقد رأى الآشوري العالم المحيط به مليئاً بالقوى التي تؤثر فيه، وهكذا نحن عندما نعد الفيضان الحاصل من النهر أو العاصفة كقوى طبيعية أو نرى الأمراض ونعتبر أن سببها فيروس في الخلايا.

إلا أن الآشوري كان يعد كل هذه الظواهر من عمل مشيئة خارجية، ويعتقد الشخص الآشوري أنه لا بُدَّ من وجود كائنات تتحكم بالفيضان والعواصف والأمراض.

وفي حالة وجود قوى عظمى تؤثر في جميع أنحاء العالم وهي تؤدي نوعاً من وظيفة واضحة ومفهومة في تخطيط ونظام الأشياء، مثلاً نظام العواصف أو حركة الشمس، فقد بدا واضحاً بالنسبة للآشوري أن المشكلات التي تنشط هذه القوى ينبغي أن تكون عقلانية، وقد أصبحت هذه المشيئات مشخصة بشكل آلهة تتصف بجميع الصفات الحسنة، والصفات السيئة للبشر ولكن على مقياس أوسع.

ولكن حدثت بعض الأشياء غير العقلانية والمستبدة فقد كان الأطفال المولودون حديثاً سرعان ما كانوا يهزلون ويموتون، أو كانت الأمهات تصاب بنوع من التفريغ ذي الرائحة الشديدة بمصاحبة الحمى والهذيان، وتنتهي بموت مؤلم.

وكان باستطاعة الآلهة العظمى القتل، ولكنها كانت تقتل وعندها غرض وهدف من هذا القتل إذ إن هذه الوفيات المتعمّدة من الأطفال والنساء وعند الولادة كانت ليست بذات معنى، ولا يمكن أن تكون إلا فعل شيطان شرير.

وقد كان هذا المجرم يتمثل باسم امرأة من الشيطانات تدعى لاماتشو التي لم يكن لها أي وظيفة في هذا العالم سوى مهاجمة تلك الضحايا العاجزة والمسالمة.

كانت لاماتشو الأكثر شهرة ولكنها لم تكن الشيطانة الوحيدة، فقد كان العالم مليئاً بمثل هذه الكائنات اللعينة، فقد كانت أي مصيبة أو إزعاج أو شذوذ ذي طبيعة عرضية تصيب الإنسان إنما كانت من عمل أحد الشياطين.

ولكن ليس من الصحيح أن نقول: إن الشياطين ما هي إلا مصائب مجسَّدة، ولكن كانت بعيدة عن أن تكون مجسَّدة تماماً، ولكن بعضها كان من الواضح أنها كانت لا جنسية أي: بدون جنس، أو بدون اسم، وبدون شكل وكانت مفتقرة لبعض الخصائص التي تثبت أنها كانت وكما تقول بعض النصوص: لم يكن معترف بها من قبل الآلهة الحكماء.

ولم تكن الشياطين عبارة عن مصائب مجسَّدة بل كانت عبارة عن إرادة سيئة عملت على تنشيط الكوارث والمصائب.

إن هذا الموقف بالنسبة إلى الحياة يُؤلف الأرضية للأنشطة السحرية للأشيبو وكان النفوذ الهائل لهذه الطبقة من السحرة لدى البلاط الملكي أو لدى الشخص الآشوري العادي كان سببه وجود الأشيبو بطقوسه التي كانت مفتاحاً لطرد الآثار المشؤومة لتلك القوى الخارقة للطبيعة، التي كانت تحيط بالشعب الآشوري سواء كان الملك أو أي رجل عادي من كل الجهات.

ولكن بتنشئة نوع من التوازن كان هناك اعتقاد مقابل بوجود الأرواح الخيِّرة التي يمكنها أن تسكن في بيت وتحميه، وأن تحمي البناية، أو ترافق وتحمي أي إنسان، ونحن نجد هناك تصريحاً يتناول قضية الرجل الذي يعمل كما يريد ((أن الآلهة سوف تقدم له (شيدو) وهو نوع من الملاك الحارس الذي يعتني به)).

أما في بابل فإن المصطلح المستعمل للدلالة على الروح الحامية هو (إيلو) أو (عشتارو) ولما كانت هذه الأسماء تدل على الإله أو الآلهة، فإنه غالباً ما يقال: إن لكل إنسان إلهاً شخصياً أو آلهته الشخصية، ولكن مع استثناء الملك فإن ما يدعى بالآلهة الشخصية أو الإلهات لم يكونوا أعضاء رسميين في مجتمع الآلهة، وبذلك تصبح كلمة ((الروح الشخصية الحامية)) هي الانعكاس الدقيق والصحيح لذلك المفهوم الكامل.

الساحرات والسحرة

لقد استخدم الأشيبو سحرة لحماية البشر من القوى فوق الطبيعة، أو الشرور التي تحيط بالإنسان، ولكن كان هناك بعض الناس الذين كانوا يستخدمون تقنيات محددة لتوجيه تلك القوى ضد الكائنات البشرية، وكانت هذه الكائنات الشريرة وهي الساحرات والسحرة الذين كان باستطاعتهم سحر الناس، وإرسال الأرواح الشريرة ضدهم وأن تفصلهم عن الأرواح الخيِّرة وتجلب لهم أي نوع من أنواع سوء الطالع أو المصائب.

ولدينا سلسلة طويلة من النصوص التي تعطي السحر المضاد ضد هذه الأعمال السحرية، ومن الغريب أن نجد أحد الباحثين الذي لم ينجح في فهم الدور الذي يتم في كل المجتمعات عن طريق الإيمان بوجود السحرة في مجتمعات عديدة، فحاول أن يعزو إيمان الآشوريين بالسحرة إلى نوع من الهوس النفسي، أو الهذيان، وعلى هذا الأساس فإنه يدعي أن النصوص التي تذكر السحر المعاكس ضد السحرة كانت من أحد الكتب التي تبحث في الطب النفسي عند البابليين.

والحقيقة أنه كان هناك بضع حالات تزعج أهالي منطقة ما بين النهرين قد فكر بها هؤلاء أنها مسببة عن السحرة ولكنها بالنسبة لنا نعتبر بأنها حالات مناسبة للطب النفسي، ولكن كان كل إنسان في منطقة ما بين النهرين يعتقد بوجود السحر، وإن عزو المصائب والكوارث والأمراض إلى السحر كان من الميزات الثقافية، وليست قضية هوس نفساني.

ولم يعد لدى البابليين أي علم مختص بالطب النفسي بالقدر الذي لم يكن لديهم أي معرفة بعلم الفيزياء النووية.

الفصل الرابع عشر

الطب عند الآشوريين

لقد وضعنا الطب عند الآشوريين في فصل خاص خارج عن الالتزام بالتصنيف الحديث.

ولقد ربط الآشوريون أنفسهم باسم الطبيب (آسو) ربطاً وثيقاً باسم الموظف الذي كان يلقب الأشيبو، والذي ترجمناه باسم الساحر أو الساحر الطبيب، وكان هذا الربط واضحاً جداً كما سوف نرى، فالموظفان كانا يعملان بشكل وثيقٍ معاً.

ولقد اقتبسنا نصاً يعدد الأطباء مع الأشيبو والكالو (وهم الكهنة الذين يعملون بالندب واليأس) وأيضاً عدة أنواع من العرافين.

ولقد كان هناك في آشور ما يدل أن الآسو كان ذا مرتبة أدنى من مرتبة الأشيبو.

وتظهر لنا إحدى الرسائل التي أرسلها أحد الأشيبو إلى الملك أن الملك قد قام باستشارة الأشيبو قبل أن يسمح لولده ولي العهد أن يشرب شراباً قد وصف له من قِبَلِ (طبيب على الأرجح) ولقد نصح الأشيبو الملك قائلاً: إن الشراب لا بأس به، ولكنه اقترح كإجراء وقائي أن يشرب أحد العبيد بعضاً من هذا الشراب قبل أن يشرب ولي العهد منه.

وهذا يظهر لنا المرتبة العالية التي وصل إليها الأشيبو بطريقتين:

أولاً: الحاجة للحصول على موافقة طبيب ساحر قبل تناول الدواء، وهذا يظهر أن خبرة الأشيبو كان لها حق الأفضلية.

ثانياً: وبينما كان هناك نوع من فقدان الثقة انعكست باستفسار الملك حول المعالجة بواسطة الأدوية، إلا أنه ليست هناك من دلالة على أن الملك كان

يسعى للحصول على رأي آخر عندما قرر الأشيبو ضرورة اتخاذ بعض الإجراءات السحرية.

ولقد قام الباحثون ببعض المحاولات لتحديد الحد الفاصل بين أنشطة (الأشيبو) وأنشطة (الأسو) ولكن دون إحراز أي نتائج حاسمة، وكان سبب ذلك عدم وجود خط فاصل واضح بينهما فقد كانت وظائفهما متداخلة، وفي بعض الظروف كانت كلتا الوظيفتين تعملان بشكل تعاوني، مثلاً: هناك رسالة آشورية مؤداها أن أحد الموظفين المسؤولين يعتذر للملك عن الحضور إلى مدينة آشور بسبب مرضه، وقد أنهى رسالته باقتراح بأخذ علاج لمرضه قائلاً: أرجو أن يعين الملك أحد أعضاء الأشيبو وأحد أعضاء الأسو ليكونا تحت تصرّفي، ودعهما يمارسان وظائفهما معاً.

مفهوم الآشوريون للمرض

لقد اعتبر شعب ما بين النهرين القدماء (كل من بابل وآشور) أن المرض حاصل من أحوال ترجع إلى ما وراء الطبيعة، ولدينا كثير من التصريحات حول هذا الموضوع، كانت الفوائد الفعلية أمراً مشكوكاً به، مع أن الاسم كان يقدم دلالات واضحة لضرورة التفكير على أسس خطوط سحرية، فقد كانت تلاحظ وبعد ذلك كان المرض يُنسب إلى تدخل معين مما وراء الطبيعة، وهكذا فسوف نستشهد ببعض الأمثلة العرضية ولكنها نموذجية.

إذا شكا المريض باستمرار قائلاً: يا رأسي يا رأسي فإن هذا من فعل الإله (فلان الفلاني).

إذا شعر المريض بدوار في الرأس وكانت بطتا رجليه باردتين فإن هذا من فعل الإله (فلان الفلاني).

إذا استمر رأسه في الوجع وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإلهة عشتار.

إذا كان صدغه يؤلمه ويستمر بالصراخ: ((يا بطني، يا بطني)) فإن هذا من فعل إحدى الأرواح، وهناك إمكانات أخرى أن يكون ذلك من فعل الآلهة عشتار،

وهو سوف يموت، وأما إذا كان من فعل الأرواح فسوف يبقى حياً مدة قصيرة ثم يموت.

إذا تغير كلامه وظلت الحمى تهاجمه فإن هذا من فعل الإلهة نينوترا.

إذا سال الدم من قضيبه فإن هذا من فعل الإله شمش.

والتّنبّؤ هو إلى أرض لا عودة بعدها وهي العالم السفلي.

إذا التهب قضيبه وخصيتاه فإن يدي الإلهة ديلبات قد أدركته في الفراش (أي: إن الإلهة ديلبات قد سببت له المرض).

إن الأمثلة المقتبسة مأخوذة من نص مسلسل ليس موجهاً للطبيب أسو فحسب بل إلى الطبيبة الساحرة أشيبو، وهو يحمل عنواناً من السطر الأول بهذا الشكل:

((عندما تذهب الأشيبو إلى بيت رجل مريض)) ويستمر النّص في الأسلوب الموصوف في ذكر أعراض ممكنة، وهناك بعض النصوص المماثلة تتعلق بوظيفة الأسو مع إدراج قائمة بالأعراض، يتبعها وصفة تحدد العلاج (وهو عبارة عن مواد طبية مع ذكر كيفية الاستعمال) وذلك بدلاً من ذكر الأسباب الراجعة إلى قضايا تتعلق بما وراء الطبيعة.

وهذا الاختلاف ربما يوحي بأن هناك تعارضاً تاماً بين وجهة نظر الأشيبو بالنسبة للمرض (وهي نظرة خرافية) وبين وجهة نظر الأسو (وهي نظرة عقلانية) ولكن ليست القضية بهذه البساطة، فإن كلا من الطبيبة الساحرة والطبيب قد اتفقا أن للأمراض بعض الأعراض الجسمانية التي من الممكن معالجتها وشفاؤها أحياناً عن طريق الإجراءات الطبية وباستعمال المواد الطبية.

ولكن وفي الوقت نفسه نجد أن (الآسو) بالإضافة إلى الأشيبو قد اتّفقا أن هناك عنصراً شيطانياً يعود إلى ما وراء الطبيعة قد سبب المرض وهو يتطلب المعالجة بأساليب سحرية، ولاشك أننا لا نستطيع ربط الفرق بين هاتين المهنتين بالقول بشكل ارتجالي أن الأشيبو كان يعمل ويتعاطى السحر والتعويذات، وأن

الأسو يلجأ إلى العقاقير والضمادات التي يغلب استعمالها من قبل الطبيب ولكنه من المحتمل أيضاً أن يستعمل التعاويذ إلى جانب الأساليب العقلانية في العلاج.

وهكذا نجد أحياناً أن الآسو يصف سدادة تحشى في الأنف لوقف النزيف كعلاج لنزيف الأنف ولكنه في الوقت نفسه ينصح بتلاوة بعض الابتهالات.

وإذا كان المريض يعاني من انتفاخ في البطن فإن الآسو يجعله يشرب دواءً معيناً كي يرتاح، ولكنه يقرن ذلك بتلاوة تعويذة.

وعندما يعالج الآسو أحد الملوك فإنه يصف له بعض الضمادات التي تُشدّ بطريقة خاصة، ولكنه وفي نفس الوقت يقدم حجاباً يعلقه الملك حول عنقه.

قد كتب أحد كبار الأطباء (راب آسي) إلى الملك يصف له فاعلية بعض العقاقير التي يستعملها ويقول: إن العقاقير التي أرسلتها إلى الملك نوعان يختلف الواحد عن الآخر .... وربما قال سيدي الملك: ما فائدة هذه العقاقير؟

والجواب: ((إنها مفيدة في طرد السحر، وهي مفيدة للمرأة حين الولادة)).

ومن الواضح أنهم كانوا يعتقدون أن المواد الطبية تستطيع العمل ضد القوى الشريرة فيما وراء الطبيعة، والحقيقة أنه كان هناك ادعاءات محددة تذكر أن عقاقير (الآسو) يمكن استعمالها ضد التأثيرات الشيطانية التي فشلت أساليب الأشيبو في القضاء عليها، وهكذا يقال: إذا ظل نشاط الأرواح مستمراً وشديداً بحيث لم يعد بمقدور (الأشيبو) أن يزيلها، ولذلك لكي تزيله فإن عليك (أي: على الآسو) أن تحصل على ثمانية عقاقير وتمزجها معاً...

لم يكن هناك أي خلاف في عقول القدماء بين المعرفة بأن إحدى المواد تستطيع تخفيف مفعول بعض الأعراض، وبين الاعتقاد بالأسباب الراجعة إلى ما وراء الطبيعة لهذه الأعراض، مثلاً: كان من المعتقد أن هناك بعض أعراض الحمى التي سببها سيطرة الشياطين، وكان من المعروف أن معالجة هذه الأعراض بتعاطي مادة معينة كانت تسبب ارتياح المريض، وهناك من الممكن التوفيق ما

بين وجهتي النظر هاتين بالقول إن العقار كان مفيداً في طرد ذلك الشيطان المسؤول عن هذا العمل.

إن استخدام الآسو لبعض الأدوية لا يمكن اعتباره شهادة على وجود موقف عقلاني بالنسبة للأمراض إذ إن لدينا أسباباً وافرة للاستنتاج أن فاعلية المواد الطبية كانت تعتبر مدينة للسحر (أي: العمل ضد الشياطين التي سببت تلك الأعراض) أكثر منها للمعالجة الطبية، وهذا الأمر يثبت دون أي شك عندما نجد المواد الطبية موضوعة في حاوية ومعلقة حول عنق المريض...عندها ليس هناك دلالة أوضح من هذه أنه وعلى الأقل في بعض الحالات كانوا يعتبرون أن الدواء يعمل من خلال وسائل سحرية.

إن طبيعة الأدوية نفسها تؤدي إلى استنتاج مماثل، إذ ربما يتبادر إلى الذهن أن بعض المواد المستعملة سوف تخفف بعض الأعراض إذا لم تحدث الشفاء التام من المرض، ويدخل في هذه المقولة الزيوت، النبيذ، الملح وحجر الشب، وبعض النباتات وثمارها، ومع ذلك فقد استعملت بعض الأدوية التي كان مفعولها مشكوكاً في أمره وأن أسماءها توحي بإشارات واضحة إلى تفكير يعتمد على السحر.

فهناك مثلاً: شيء يدعى العضو التناسلي للحمارة وهذه كانت صَدَفَةً بَحْرِيَّةً قد اتخذ ذلك الاسم من حجمها وشكلها، بالمناسبة كان هذا العضو التناسلي يستعمل لمعالجة اضطرابات قضيب الرجل، إما بطحنها ونفخها داخل القضيب من خلال أنبوب، أو توضع في البيرة وتُشْرب.

وبالنسبة للغرض المذكور فإن هذه الأعمال ربما لم تكن لها أي فائدة عملية، ولكن يمكن للمرء أن يرى كيف أن السحر كان يمتلك السيطرة على التفكير بحيث يُعتقد أن صَدفة ذات شكل معين سوف تؤثر على قضيب الرجل.

يمكن للمرء أن يتوقع أن اختصاص الآسو في استعمال الأدوية سوف يؤدي لولادة علم الصيدلة، ولكن الجو الذهني السائد لم يترك سوى إمكانية ضئيلة للتجارب والتقدم في ذلك الاتجاه، وحتى لو لم نعتبر تلك العناصر السحرية التي كانت تتدخل في نشاطات (الآسو) فلم تكن المهارة أو المعرفة التي توصل إليها

الطبيب بصفة شخصية، والتي كان يُظن أنها تسبب الشفاء، والتي لدينا نصوص من الوصفات الطبية التي استعملها (الأسو) بل إن قيمتها الرئيسية كان من المظنون أنها نتيجة عن سلطتها الإلهية القديمة.

وهذا واضح من التذييل (أي: خلاصة التفاصيل التي ألحقها آشور بانيبال ببعض النصوص الطبية، والتي أضافها إلى مكتبته في القرن السابع.

وتصف إحدى هذه التذييلات النصوص بأنها وصفات للشفاء لجميع أنحاء الجسم من الرأس حتى أصابع القدم وهي مجموعة موجودة خارج مجال المجموعات الأخرى وتحتوي على العلوم التجريبية وما يخص وظائف الآلهة الأطباء وهما نينوترا وجولا.

ويضيف آشور بانيبال: ((لقد أودعت هذه النصوص داخل قصري كمرجعية ولأجل الرجوع إليها ومطالعتها وقراءتها بشكل مستمر)) هذا يوحي ومن وجهة نظر آشور بانيبال بأن الحكمة الإلهية الموجودة في النصوص نفسها هي الأداة الفعالة وهذا متوافق ومتناغم مع الموقف القديم، فقد وضعت النصوص الطبية (شأنها شأن جميع النصوص في مكتبة آشور بانيبال) وقد أعيدت كتابتها ونسخت في الألف الثاني ق.م بشكل مستقل عن الأعمال الطبية المعاصرة، وكانت للنصوص هذه سلطة وهيبة التقاليد القديمة التي كانت تقاوم أي محاولة للتجربة أو التجديد.

الطبيب في الممارسة

نتجه الآن لذكر ما نعرفه عن الأنشطة الفعلية والإجراءات التي كان يقوم بها الطبيب، وتدل النصوص أن الأسو عندما يفحص الشخص المريض (وهذا ينطبق على الأشيبو) كان يبدأ رأساً بملاحظة الأعراض، فقد كان يلاحظ مثلاً أي أعضاء الجسم كانت ساخنة أو باردة، ويلاحظ لون الجلد ولون البول، وإذا كان هناك دم في البول، والألم، أو الشكل أو عدم انتظام الحركة وحالة الأوردة الدموية وإفرازات القيح فضلاً عن حالة المريض العقلية، وبعد ذلك يتوجه

إلى معالجة المريض التي تشمل إما إعطاء الأدوية أو الضمادات أو كليهما، وكان استعمال الضماد من المظاهر المميزة للمعالجة التي كان يقوم بها (الأسو).

ولم تكن هذه الطرق تمثل الاستقامة في العمل كما يبدو، نظراً لأن الأفكار السحرية والدينية كانت تتداخل في الأمور، فلم تكن القروح والجروح هي التي تعالج بالضمادات فحسب بل كانت الضمادات تستعمل في حالة بعض الأمراض التي كانت تعزى إلى أصول ما فوق الطبيعة، مثلاً: (يد الروح) وفي مثل هذه المعالجات كانت الضمادات تثبت بعض الأدوية فوق أجزاء الجسم ونظراً لعدم وجود أي أنسجة في الجسم تلزمها المعالجة فإن الغرض من استعمال الضمادات كان لطرد المرض من الجسم بطريقة سحرية، وذلك بالتماس المباشر للأدوية المستخدمة ضد الشيطان الذي سبَّب المرض.

ويظهر العنصر السحري الديني أيضاً عن طريق الابتهالات التي كانت توصف أحياناً لتستخدم مع الضمادات، وكان هناك أيضاً طرق صحيحة وطرق خاطئة في استعمال الضمادات، ونعود في هذه الحالة إلى الرجوع إلى الأفكار السحرية الدينية وليس للاعتبارات العملية.

وقد روي عن أحد الموظفين الذي وَبَّخَهُ الملك لأنه سمح عندما أصابه المرض أثناء إحدى حملاته الحربية في أراضي العدو باستعمال تقنيات أجنبية في استعمال الضمادات تلك الاستعمالات التي لم تكن مناسبة في بلاد آشور ويضيف الكاتب:

((دعونا نحافظ على المعايير التي وهبتنا إياها الآلهة، ووهبتها للملك سيدي)).

ومعنى هذا أن الطريقة الآشورية في استعمال الضمادات كانت مباركة من قبل الآلهة، وأن التجارب بطرق بديلة سوف تعتبر عملاً غير شرعي.

لقد أشرنا حتى الآن إلى أنشطة الطبيب بما تختص بالأمراض، وكان عمل الطبيب يمتد إلى مجالات أبعد وهي الجراحة مع أنها كانت في مستوى بدائي تماماً، وتشير مجموعة قوانين حمورابي (التي هي بابلية وليست آشورية) بشكل

متكرر إلى الأسو في عمله الجراحي موضحة أنه من الممكن أن يحدث جراحة في الجسم (ربما يشير إلى استعمال المبضع) أو معالجة العظام المكسورة.

وتشير القوانين الآشورية حوالي نهاية الألف الثاني إلى أن واحداً من (الآسو) قد عالج خِصْيَة رجل أصيبت في الحرب دون التأكد من نجاح تلك العملية نظراً لأن القوانين تشترط معرفة ما سيحدث للشخص الذي اقترف حادثة الإصابة، ومعرفة فيما إذا كانت الخصية الأخرى سوف تصاب بضرر.

ونحن نعلم أنه وفي نفس الفترة في آشور كان هناك أطباء ملحقون بالبلاط الملكي الذين كانت واجباتهم تقتضي بالتأكد أن الذكور من الموظفين في القصر قد حصل إخصاؤهم بالشكل الصحيح وهذا لازم للسماح لهم بالاقتراب من السيدات، ونحن نفترض ولكن ليس عن طريق تواتر الأخبار أن عمليات الإخصاء الضرورية كانت تتم على أيدي الأطباء.

المواد الطبيّة

كانت المواد التي استخدمها الطبيب من أصول مختلفة فقد استخدمت كثير من الأعشاب والخلاصات النباتية التي كانت من أكثر الأدوية شيوعاً، بحيث إن كلمة الأعشاب أصبح يطلق عليها اسم دواء.

وقد قدم الباحث (**R.C.Thomp**، ٥٧) في قاموسه عن علم النبات الآشوري عام (١٩٤٩) بمحاولة بطولية لذكر أسماء جميع النباتات المذكورة مع مقارنة الأسماء المستعملة في اللغات الشرقية المتأخرة بعد أن أخذ بالحسبان معرفة أي من النباتات يمتلك التأثير المطلوب على الأعراض المذكورة.

ولكن لا يزال هناك مجال للشك حول التماثل والمطابقة.

إن المشكلات التي نواجهها عند بحث المطابقة أننا نلاحظ آن هناك ذكراً لنبات اسمه (لسان الكلب) وكان هذا النبات يستعمل لمعالجة السعال واليرقان،

ولكن ليس لدينا أي وسيلة لمعرفة فيما إذا كان هذا الاسم هو نفس اسم النبات المدعو (لسان الكلب) والمستعمل في إنكلترا، وهناك بعض النباتات كانت تستعمل لمعالجة جميع الأمراض ويحمل أحد هذه النباتات اسم ((صالح لمعالجة ألف مرض)) كان بالحقيقة دواء مُسَهِّلاً.

وقد كتب في الوصفة المخصصة للاستعمال ما يلي:

ينبغي على المريض أن يشرب هذا الدواء مع البيرة وبعدها سوف يتسبب ذلك في حركة أمعائه، وهناك مواد دوائية أخرى ذات أصل حيواني فالدم هو مثل واضح، فالمخلوقات مثل السحالي والعقارب كانت أقل المخلوقات مناسبة لتكون أدوية، ولكنها كانت مشمولة، وقد استعملت بعض المعادن مثل الملح ومادة الشب، وكان الطبيب يحفظ هذه الأدوية في صندوق أو حقيبة جلدية، وعندما يحين زمن استعمالها كانت تحضر عن طريق عدة عمليات مثل الطحن، أو الغلي وبعد ذلك توضع مع مادة مناسبة مثل البيرة إذا كان الدواء سوف يستعمل عن طريق الابتلاع، أو إضافة الزيت أو الشحم إذا كان الدواء سوف يستعمل كمرهم.

وقد استعملت طريقة غسل الجزء المصاب من الجسم بواسطة غسول كشكل آخر من أشكال العلاج، وكان من الممكن إدخاله إلى الجسم بواسطة التحاميل والحقن الشرجية، وكانت هناك إمكانية ثانية وهي أن ينفخ الطبيب المواد الدوائية الضرورية في إحدى فتحات الجسم.

وهكذا نجد بعض الوصفات التي كان الطبيب ينفخ الدواء المطلوب بواسطة نوع من القصب حيث يدخل الدواء إلى أنف المريض أو أذنه أو بواسطة أنبوب من البرونز أو الرصاص حيث يدخل إلى قضيب الرجل.

وكانت فاعلية المواد الطبية تختلف تبعاً لطبيعة الدواء اختلافاً معتبراً، مع أنه ليس من الممكن أن نقول أقوالاً مسهبة حول هذه القضية، نظراً لأن كثيراً من المواد المذكورة في النصوص القديمة لم نعرف أسماءها أو هويتها بشكل أكيد دون أي مجال للشك، فقد كان الكبريت الممزوج مع زيت شجر الأرز مستعملاً

لعلاج حكة الرأس وكان هذا الدواء فعالاً جداً تبعاً للحكة، وهناك أدوية أخرى مثل تقديم الحليب الذي وضعت فيه سحلية وغليت فيه، ويقدم هذا الحليب للمريض ليشربه وقد بدا بأنه نوع من العلاج بالسحر أكثر منه علاجاً عقلانياً.

وهناك حالة موازية لهذه الحالة في وصفة إنكليزية شعبية لا تزال مستعملة لعلاج السعال الديكي وهو مؤلف من البزاق المغلي بالحليب، وكان المرضى دوماً يشكون بفاعلية الأدوية، وهكذا نجد أن الملك يصر أن يجرِّب الدواء الذي وصف لولي العهد ليشربه، أن يجرّب هذا الدواء أولاً بتقديمه لأحد العبيد ليشربه.

دعوة الطبيب إلى المنْزِل

لدينا نص أدبي يخبرنا شيئاً عن الطريقة التي كان الطبيب يتصرف بها ضمن مهنته، وهذه ليست مذكورة في النصوص الطبية، وهناك قصة تعود إلى الألف الثاني ق.م (وهي لم تقع في آشور بل في بلاد بابل) واسم هذه القصة (الرجل الفقير في نيبور).

وقد كان هذا الرجل الفقير قد وقع عليه الظلم، ولذلك فقد قرر أن ينتقم من الظالم، ولقد خدعه المحافظ لذلك فقد قرر أن يضربه ثلاث ضربات، وقد عمد إلى القيام ببعض الحيل، والحيلة المناسبة لنا كانت عندما تخفّى وأظهر أنه طبيب وذلك بعد الحصول على أذن لدخول بيت المحافظ فقد قص شعر رأسه مما يدل أن الأطباء كانوا حليقي الرأس، وبعدها سار ومعه جرَّة ماء ومجمرة مملوءة بالفحم المحترق، وهذا ربما كان من الأدوات اللازمة للأطباء في ذلك الزمن للمساعدة في تركيب الأدوية، ولقد قدم هذا الرجل الفقير نفسه للبواب وقال: إنه (أسو) ماهر وقد سمح له بالدخول لفحص جروح المحافظ التي أصيب بعد أن ضرب مرتين، وبعدها أنجز الطبيب فحصاً كاملاً جعل المحافظ يثق بخبرته التامة، بعدها أخذ الرجل الفقير المحافظ لوحده معه بحجة أن المعالجة سوف تكون فعَّالة في الظلام، ولهذا دخلا إلى غرفة مظلمة وهنا أطفأ الرجل الفقير الضوء الصادر عن المجمرة وذلك بصب الماء فوقها، ومرة ثانية قام بضرب مبرح للمحافظ، والنقطة التي نهتم

بها في هذا الجزء من القصة هي أنه كيف كان من المقبول إجابة طلب الطبيب بإجراء المعالجة في الظلام، وهذا يؤكد مرة ثانية العنصر السحري الديني في المعالجة الطبية في ذلك الزمن.

الفصل الخامس عشر

الفن الآشوري

إن من الصعب غالباً تجنُّب فرض نظام أفكارنا على الشعوب القديمة عندما نبادر إلى دراسة هذه الشعوب، وليس هذا الخطر بأقل شأناً عندما نتحدث عن الفن الآشوري، خصوصاً عندما نميل إلى أن نحيط علماً بكل شيء جميل وذي فائدة.

وحتى لو نظرنا من منطلق وجهة نظرنا نرى أن هناك تقسيمات مقبولة بين الفنون الجميلة (مثل الرسم والنحت) والفنون المفيدة والتطبيقية (مثل فن العمارة) حتى إنه ولو اتبعنا المعايير الحديثة نجد أننا مجبرون أن نفرض بعض القيود في التصنيف.

وقد ذكرنا هذا التعليق نظراً لأن هناك بعض الكتب الممتازة التي عالجت موضوع منطقة ما بين النهرين والفن هناك ولم تترك شيئاً في مجال تعليقاتها إلا وذكرته ابتداء من خطط وتخطيط المعابد والقصور مروراً بالمفروشات، والمجوهرات والأختام الأسطوانية إلى المنحوتات والرسوم الجدارية واللوحات المجسمة.

إذن ليس هناك من سبب يجعلنا نظن أن الشعوب القديمة قد وضعت كل هذه الأشياء ضمن تصنيف واحد وهو الفن، والحقيقة أنه لم يظهر هنا أن كلمة أكاديمية ترمز إلى الفن، وتشمل كل هذه الأجناس الفنية، ومن جهة أخرى ينبغي علينا أن نقبل أنه من الواجب استثناء المخططات المعمارية الأرضية، أما البقية فهناك تبرير لمؤرخي الفنون الذين يدرسون الكثير من أنواع المواد كلها معاً طالما أن نفس الموضوع يتكرر بالنسبة لمواد مختلفة، مثلاً، الختم الأسطواني واللوحة المجسمة.

لقد قامت عدة سلطات موثوقة بوضع مؤلفات ممتازة حول الفن في منطقة ما بين النهرين مع تخصيص فصول منفصلة حول الفن الآشوري ولاسيما H.fronkfortفرانكفورت في كتابه الفن والمعمار في الشرق القديم (١٩٥٦) وكذلك مورتجار A. Moortgar في كتابه الفن في منطقة ما بين النهرين القديمة (١٩٦٩) ولم يتصدَّ أي عالم للادعاء بمعرفته وخبرته في تاريخ الفن.

وهكذا فإننا سنحاول في هذا الفصل أن نقدم صورة وافية عن بعض الأنواع الرئيسية من المواد التي يمكننا إدراجها ضمن الفن الآشوري (من خلال تصنيفاتها الحديثة).

الألواح المجسَّمة

إن أكثر المواد المؤثرة والجديرة بالمعرفة في الفن الآشوري هي الألواح المجسمة الموجودة على جدران القصور في نمرود، وفي كالاخ وكويونجيك (نينوى) وخورساباد (دورشاروكين) وإن أفضل النماذج موجودة في المتحف البريطاني.

ولقد بدأ صنع هذه الألواح المجسمة في زمن آشور ناصر بعل (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) وقد كانت هذه تمثل أصلاً جمعاً ما بين شكلين من أشكال الفن القديم، وأحدهما: الأفريز الذي تُنقش عليه زخرفات واطئة من نوع الأعمدة المربعة الحجرية التي ندعوها المسلة، وكان أقدم هؤلاء عبارة عن منظر منفرد يظهر بعض الأعداء المقهورين، وهم واقفون أمام الملك وتظهر رموز الآلهة الآشورية في الأعلى، وفي مسلة أخرى تعود إلى أواخر ذلك القرن نرى أن هذا المنظر المنفصل قد امتد ليشكل بداية عهد اللوحة النافرة القصصية.

أما النوع الآخر الذي كان من أسلاف الألواح الجدارية المجسمة في الألف الأول ق.م في بلاد آشور فقد كان الرسوم الجدارية، فقد كانت الأجزاء السفلى من الجدران في قصر آشور ناصر بعل في كالاخ مغطاة بألواح من الرخام الشفاف التي نقشت عليها رسوم مجسمة، ونحن نعلم أنها نقشت بعد تثبيت الألواح نظراً لأن بعضها قد ترك فراغاً، وتظهر هذه الرسوم المجسمة الصلة الواضحة مع

رسومات جدارية أقدم، إذ هناك أحد الثقات البارزين في معرفة الفن في منطقة ما بين النهرين قد ترك لنا وصفاً لهذه النقوش النافرة القديمة على الرخام الشفاف، وهي تنتمي إلى الرسوم الجدارية في قصر آشور ناصر بعل وقد تجسدت في حجر، ولقد تأكدت هذه الصلة بالحقيقة التي مفادها أنه وكما تُثبت الآثار الباقية من الألوان فإن آثاراً من الدهان قد بقيت في المجسمات، وهناك إمكانية كون الأجزاء العليا من الجدران التي هدمت كانت مزينة برسومات جدارية تتمم النقوش النافرة على الرخام الشفاف.

وكانت الرسوم النافرة في قصر آشور ناصر بعل تؤلف نوعين مختلفين من حيث المواضيع، وأحد هذين النوعين يظهر مشاهد طقوسية احتفالية أسطورية متركزة حول الملك، وأما الأخرى فكانت تظهر مشاهد من العيد أو الحرب.

إن المناظر الطقوسية تظهر لأول وهلة تشكيلات ساكنة متوازية مع ملامح الأشخاص وهناك مثال نموذجي مصور في إحدى اللوحات ففي الوسط هناك شيء غريب ومتناسق وغير طبيعي يمثل شجرة مورقة مألوفة، وعلى كل جانب من الشجرة يتوضع نفس الشخصين المواجهين للشجرة وهما يفترقان في إظهار الذراعين، وإن أحد الزوجين قد نظر إليه من الجانب الأيمن والآخر من الجانب الأيسر وفوق الشجرة هناك رمز يتكون من جناحي وذنب صقر يرفرف بجناحيه ليتوسطه قرص عليه الجزء العلوي لكائن يدل لباس الرآس على إله.

وأما المشهد الطقوسي فهو سر مقدس، فالمعلومات الإنجليكانية (وهي الكنيسة الإنجليزية) تعرف السر المقدس أنه إشارة خارجية مرئية لنعمة روحية سامية، وإن هذا بالضبط هو ما تدل عليه هذه النقوش النافرة، فهي تخبر المشاهد أن الملك آشور قد امتلأ بالقوة الإلهية، وأما الشجرة في وسط المشهد فهي الشجرة المقدسة، وهي رمز ديني قديم في منطقة ما بين النهرين بالنسبة للفنون، وهي موجودة في منطقة سومر ابتداء من بداية الألف الثالث قبل الميلاد وهي تمثل الحياة والخصوبة وهي حلقة الوصل ما بين الأشياء الحية، والقوة الحيوية الظاهرة في

النباتات، وإن صلتها بالآلهة والقداسة يُرمز إليها بشكل الصقر المجنح فوقها- بذنبه وجناحيه المنتشرين.

وهذا رمز معقد، ويقول علماء آثار آشور الذين تفضل عقولهم المرئية أن تكون معطياتهم مصنَّفة تصنيفاً جيداً ونظيفاً، وقد ناقش هؤلاء فيما إذا كان هذا الرمز يمثل الإله القومي لآشور، أو إله الشمس الذي يدل عليه وجود القرص.

والحقيقة أن الرمز ربما كان يمثل كليهما وأكثر، ففي أوائل العهد السومري كانت الأجنحة المنتشرة والذنب الخاصة بالصقر تصحبها قوة إلهية تدعى الأمدوجود (الرياح العاتية) التي شملت طائراً هائلاً إلهياً يدعى (أنزو) (ويلاحظ أن كلمة إله قد حذفت عن قصد في هذا المكان) وهذه الرياح العاتية هي التي سرقت من الإله الأعظم (أنليل) الشارة التي أعطته سلطته وقوته.

وأما أنزو فقد تغلب عليه أحد أولاد (أنليل) وهو الإله نينوترا الذي استلم قوى أنزو، وكانت هذه طريقة خرافية للتعبير أن نينوترا كان التمثيل المجسم للقوى التي كانت في مرحلة مبكرة من التطور الديني، وهكذا أصبح نينوترا الذي تبلْوَر في النهاية كإله العيد والحرب حائزاً على جميع القوى الطبيعية وعلى العواطف والحياة الحيوانية.

وهكذا فإن الأمور المفهومة ضمناً في النقوش النافرة التي تمثل الصقر وأجنحته لست فقط الإله آشور وقرص الشمس بل أيضاً قوى الطبيعة التي يمثلها (نينوترا).

والآن نعود إلى الشخصين المرسومين في اللوحة بشكل بشرى، إذ إن الشخص الأقرب إلى الشجرة المقدسة هو في الحقيقة الملك آشور ناصر بعل نفسه، وفي كلتا صورتيه نجده رافعاً يده اليمنى بثلاثة أصابع مثنيّة وأما السبابة فكانت تؤشر والإبهام بارز تحت السبابة، وهذه علامة يظهر الملك فيها احترامه للإله، وهذه إشارة تقليدية تمثل احترامه للآلهة، وإن الأوضاع النسبية للقرص المجنح والشجرة المقدسة وصورتي الملك تصل الملك بشكل حميم بكلا الرمزين الدينيين الذين يوحدانه مع قوى الخصب في الحياة النباتية والحياة الحيوانية.

وإن مظهر السر المقدس يؤكده المخلوقان المجنحان الموصوفان ككائنات إلهية لوجود القرون الثلاثية على رؤوسهم ويقف الواحد منها خلف كل صورة من صور الملك، ويحمل كل واحد منهم سطلاً وكوزاً (وهذا رمز آخر للخصوبة) وكانا يرشان الملك وهذا المشهد يعبر عن رفع الملك إلى مرتبة الألوهية حين يسيطر على جميع القوى الطبيعية، بحيث يجعل هذه القوى مستعدة لجلب الخصب والازدهار إلى البلاد التي يحكمها وهذه التصاريح تدل على الاطمئنان والخير لآشور.

وأما الألواح النافرة التابعة لآشور ناصر بعل من النمط الآخر فهي على مستوى مختلف فليس فيها شيء من الخرافة، وليست ساكنة فهي تصور الحركة والعمل وتظهر أنشطة الجيش الآشوري ونشاط الملك الآشوري، ونرى فيها مناظر الحصار ومناظر المعارك ونرى الأسرى أمام الملك، ونرى الملك مشغولاً بقوة بصيد الأسود.

ولكن كل هذه الروايات مع أنها مختلفة في تأثيرها السريع، إلا أنها تضيف التأكيد بأن آشور سوف تظل دائماً منتصرة ومزدهرة ما دامت تحت قيادة الملك بجلالة قدره.

ولقد استمر خلفاء آشور ناصر بعل في إقامة الألواح النافرة مع إجراء بعض التحسينات في أسلوب العمل وظل هذا حتى نهاية الإمبراطورية الآشورية، ولكن شكلاً آخر من أشكال الفن كان هذا الملك قد قدمه قد فُقِد بعد تولي ابنه الحكم، وهذا الشكل مشغول على البرونز ويعرف بشكل تقني باسم ريبوسي، وإن هذه التقنيات المستخدمة في (الريبوسي) هو عمل صورة على صفحة من المعدن بواسطة طرقها من الخلف.

وفي الأمثلة الآشورية فإن النتيجة هي شرائط من البرونز تبرز عليها مشاهد مماثلة لتلك الموجودة في اللوحات المجسمة من النمط الروائي.

ولقد وجدت أمثلة من زمن الملك آشور ناصر بعل نفسه وابنه شلمناصر الثالث في موقع صغير اسمه (بالاوار) حيث كان هذان الملكان يملكان مقراً دفيناً على بعد اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة (كالاخ) وقد ثبتت صفائح

البرونز على الأبواب الخشبية الكبيرة التي تفسح المجال للوصول إلى معبد، ولم تكتشف صور آشور ناصر بعل حتى عام (١٩٥٦) ولم يكن قد أصابها التلف، بل قد أصبح من المتعذر الحصول عليها من بغداد.

وأما مقر الملك شلمناصر الثالث فقد اكتشف عام (١٨٧٧) وهو ظاهر بشكل حسن في المتحف البريطاني، وكانت الأشرطة البرونزية المتواجدة على بوابات قصر سلمناصر نحو ثمانية أقدام طولاً وأحد عشر إنشاً في علوها و ١من ١٦ إنش في ثخانتها، وكان كل شريط مقسماً إلى لائحتين كل لائحة علوها خمسة إنشات.

وعلى هذه اللوحات أنتج حرفيو الملك سلمناصر سلسلة مرموقة من المناظر الروائية وكانت مصحوبة بنقوش قصيرة منحوتة فوق الصور وهي تصف الحوادث، وإن خبراء الفنون يميلون إلى التقزز لدى رؤيتهم هذا العمل، إذ يقول أحدهم: ((هناك مجال قليل في هذه الكتلة من التفاصيل)) بينما يعلن آخر بأنها عبارة عن مجرَّد نثر واقعي، ولكنهم جميعاً مفعمون بالاهتمام ويعتبرون أن هذه الآثار جديرة بالفحص.

ونرى على هذه اللوحات خيولاً يستحثها سواسها على جر العربات فوق جبال منحدرة، وكانت أعناق الخيول مربوطة بالنير وهنا نرى عملية جر الغنائم من البلاد المقهورة والمدن المغلوبة، وتسليم عدد لا نهاية له من الماعز والخيول والماشية وجملين ذوي سنامين وكان هذا المنظر مرعباً حيث ترى فيه أيدي الأسرى وقد قطعت وكذلك أقدامهم. ويرى الملك نفسه بجلالة قدره واقفاً تحت مظلة احتفالية مع حرس الشرف في الخلف وهم يستلمون الجزية، ويرى بعد ذلك الملك جالساً على عرشه فوق أكمة وهو يوجه عمليات الحصار التي كان يقوم بها جماعة من الرماة رابضين خلف المنجنيقات الهدامة.

وهناك سلسلة من المشاهد يظهر فيها الملك وهو يقوم بحملة على منطقة واقعة عند منابع دجلة، وهي واقعة في عمق بلاد الأناضول في أقصى الشمال، ولكي يحدد أقصى حدود لمملكته فقد أقام احتفالات ذبحت فيها الأضاحي ووضع لها

تمثال محفور على وجه الصخور، وقد سميت كل هذه المشاهد على تلك الشرائح البرونزية التي تعلو بمقدار خمسة إنشات لكل شريحة.

ويشكو خبراء الفنون من أشكال هذه النقوش، ولكن ومن وجهة نظر سلمناصر فإن موضوع اللوحة وهو ما كان يهمه، ومن جهة أخرى ومن خلال أنواع الريبوزي فإن كل ما صنع عبارة عن رواية ألفت لتمجيد مآثر وأعمال الملك الآشوري، ولتسجيل إنجازات الدولة الآشورية التي أخضعت جميع الشعوب لسلطانها وذلك حسب مشيئة الإله آشور.

ومع أن أعمال الريبوزي لم تعد تظهر بعد حكم الملك سلمناصر الثالث، ولكن الرسوم الجدارية استمرت وربما كان لطبيعتها الهشة بالنسبة لتلك اللوحات المجسمة المصنوعة من الحجر كانت هذه سبباً لوجود كميات كبيرة منها أكثر مما نعرفه من أمثلة أخرى، وفي جميع العينات الباقية فقد كانت الألوان المستخدمة هي الأزرق والأحمر والأبيض والأسود.

وابتداءً من منتصف القرن الثامن (مع وجود نقاش بين الباحثين حول التاريخ المضبوط والحكم المضبوط) كان هناك أمثله على رسوم جدارية مأخوذة من قطر آشوري في تل بارسيب الواقع على نهر الفرات في سورية، وقد كانت الجدران جميعها مغطاة بصور مناظر تمجد الملك وهي تظهر أرتالاً من الموظفين والأعداء المهزومين، وهم واقفون أمام الملك الجالس على عرشه في هيئة رائعة.

ولكن هناك أيضاً أمثلة عن تكوينات تهتم بالمجال الطقوسي وما وراء الطبيعة إذا قورنت بتلك التي وجدت في عهد آشور ناصر بعل والتي ناقشناها سابقاً، ابتداء من نهاية القرن الثامن وصلت إلينا نماذج عن الرسوم الجدارية الآشورية مأخوذة من قاعة العرش للملك سرجون الثاني في قصره الذي بناه حديثاً وعاصمته الجديدة (دور شاروكين).

وهذا هو أيضاً مشهد من المجال الطقوسي في ما وراء الطبيعة، وعلى طول الجدار هناك شرائط من أفاريز ذات طبيعة تزيينية، وقد بنيت بشكل متناظر من مجموعة من الموضوعات الدينية، وفوق هذه الأفاريز يعلو اللوح الرئيسي الذي

تحيط به أفريزات مرتفعة نحو القوس وفي داخل هذا اللوح هناك صورة الملك سرجون ومعه أحد الخدم واقف خلفه وهو واقف منتصباً أمام الإله وكانت يده متوقفة بشكل الإشارة التي تدل على الاحترام والتي وصفناها آنفاً.

ولكن تركيب الصور يظهر أن سرجون وليس الإله كان في الوسط، وأن جميع الزخارف الجدارية تلفت النظر إلى عظمة الملك سرجون ومرة أخرى نجد أن الصورة لها وظيفة فهي تعبر عن قوة وجبروت ملك آشور التي تقترب من جبروت وقدرة الإله.

وهنا يجدر بنا أن نعود إلى الألواح النافرة التي تظهر التطور والتحسينات التي حدثت في القرن الثامن والتي وصلت إلى أوجها تحت حكم آشور بانيبال (٦٦٨-٦٢٧ ق.م) في القرن السابع قبل الميلاد.

ونلاحظ أن الألواح النافرة في زمن آشور كانت متناثرة وضئيلة بل كانت معدومة كلياً، وبذلك ظلت الحادثة وقد صوِّرت في فراغ ولم يرتبط بأي خلفية من نوع خاص.

ولكن لقد تغير كل ذلك بحلول القرن الثامن، فقد أصبحت المناظر تستعمل بشكل أوسع بحيث تعطي الحوادث انطباعاً يوحي أنها قد حدثت في مكان حقيقي، وكذلك فقد حدثت حالة من الحرية في استعمال الفراغ على الألواح الحجرية، وفي الماضي كان النقش النافر يعامل كشيء كامل في نفسه ولكن الآن أصبحت المناظر تنتقل من لوح إلى آخر وهي تعزز وتؤكد معنى الحركة ولقد توصلت الفراغات العمودية إلى شكل الاستعمال بشكل خبر.

وعلينا أن نقول: إنه حتى في النقوش النافرة الروائية الخاصة بالملك آشور ناصر بعل لم تكن القضية أن يوضع جميع الأشخاص على الخط الأساسي، ومع ذلك فقد كان الخط الأساسي النقطة المرجعية بالنسبة لجميع الصور، ولكن وفي بعض النقوش النافرة كانت الصور موزعة خلال ميدان العمل بأكمله بشكل مستقل عن الخط الرئيسي، وهناك مثال جيد بصورة خاصة وهو تصوير آشور بانيبال لحادث قهره للعيلاميين الذي يصور المعركة في العراء المفتوح وصور

المطارِدين والمطارَدين والمنتصرين والمهزومين وجثث الموتى والمشوهين المبعثرة فوق وجه النقش البارز إنما حققت انطباعاً حياً عن المعركة بل المجزرة التي حصلت في ميدان القتال.

هناك بعض النقوش البارزة المؤثرة وهي تمثل مشاهد الصيد في زمن آشور بانيبال، ومع أن الخبراء الفنيين يمكنهم معرفة الاستعمال المتكرر للموضوعات نفسها مما يظهر أن المنحوتات لم تكن عفوية بل كانت تستعمل موضوعات مقبولة، ولكن ما يؤثر في المشاهد العادية هو الدرجة المجددة للواقعية بحيث يشعر الإنسان بالعطف عند رؤية الحيوان من الحمر الوحشية وهي تفر وتنظر إلى الخلف لترى فلوها الذي كانت تلحقه الكلاب وتمسكه وكذلك يظهر الحزن عندما يرى المشاهد أسداً يموت والسهام مغروزة في جسده.

تظهر بعض لوحات النقش البارز بعض الفروق في المقاييس وفي عناصر التكوين التي تمثل الأشياء الأشد قرباً والأشد بعداً، وهذا ما سبب حصول نقاشات عديدة حول إمكان أو عدم إمكان الآشوريين محاولة تمثيل المنظور في رسومهم. وحول إمكان الإنسان بالتكلم بصدق عن النقوش النافرة عن المقدمات والخلفيات بالنسبة للنقوش النافرة، ولكن يظهر أنه لم يكن هناك أي اتفاق بين الخبراء حول هذا الموضوع.

إن الرواية أو القصة المشاهدة في النقوش النافرة ليست فوتوغرافية إذ إن قصد النقوش النافرة غالباً وصف وضع متطور يغطي فترة زمنية، إذ هناك بعض النقوش النافرة تظهر فيها نفس المجموعات من الجنود تظهر بشكل متكرر في مواقف مختلفة مظهرةً تطور الحدث، ويظهر خير مثال بسيط لهذا المبدأ من مبادئ التركيب في مشهد صيد الأسد وهناك يظهر الأسد وقد أطلق سراحة من قفصه، ولكنه يثار عندما يصيبه سهم في كتفه وعندها يجري ويهجم على الملك ليتلقى من الأخير ضربة الرحمة الصادرة عن رمح.

وهنـاك في الـنقش النـافر يبـدو أن هنـاك ثلاثـة أسـود تظهـر في ثلاثـة مواقـف متتالية تماماً كما لو كانت قد صَوَّرَتها آلة تصوير في ثلاثة مواقف والنتيجة طالما أدرك المشاهد هذا العُرف وهو تعزيز وتقوية الشعور بالحركة.

النحت الفراغي

كـان هنـاك أيـضاً نحـت آشـوري فراغـي يتمثـل بالتماثيـل الحجريـة بحجـم الإنسان، ولكـن الكتـب الـتي تهـتم بـالفنون في منطقـة مـا بـين النهـرين لا تعير إلا وقتاً قليلاً واهتماماً قليلاً بهذا الأمر، وبالمقارنة مع النقش النـافر يبـدو النحـت مـادة فظة ممجوجة، إذا إن الأعمـال الرئيـسية مـا هـي إلا تمثـيلات للآلهـة والملوك وتقـف الصور بشكل جامد في حالة استعداد، والوضـع الوحيـد لتفاصيل الجسم تنحـصر في بعض الثنيات في الثوب تغطي سـائر الجسم، ومـع ذلـك فـإن أفـضل العينـات مثـل تمثال آشور ناصر بعل لا يخلو من الوقار والجلالة.

وهناك بضعة تماثيل صغيرة آشورية في المنطقة مصنوعة من مواد ليست حجرية (برونـز أو كهرمـان) ولكـن خبـراء الفنـون لا يظهـرون سـوى حمـاس حـذر بالنـسبة للمواد المستعملة، ومهارات الصنع وتستحق تعليقات أوفى بالنسبة لهذا العنوان.

وهناك تماثيل الأسود الهائلة المجنَّحة والثيران الـتي كانـت تخـدم كحـرس في مـداخل القـصر وتظهـر قوتهـا الخارقـة في أجنحتهـا والقـرون الثلاثيـة علـى رؤوسـها وهـي مـن علامـات الألوهيـة، ويظهـر الانطبـاع كـاملاً بالإحـساس بـالقوة وهـو المطلوب، وإذا أوردنا الكلام بشكل دقيق فإن هذه ليست هـي الأمثلة الدقيقـة عن فنون النحت في المنطقة نظراً لأنها لم تنتزع مـن كتـل حجريـة قـد نحتـت منهـا، ولما كانت متوضعة بشكل أزواج قريبة من جانبي البوابة فإنها لم تكـن قـد خصصت لتشاهد من جهتين فحسب وهما الجهة الأمامية والجهة الجانبية.

وبالنتيجة لقد أصبحت لها مناظر توحي أنها قد دعمت بخمس أرجل أربـع منهـا مرئية من الجانب واثنتان من الأمام وكانـت الرجل الخارجيـة الأماميـة محسوبة في كلا المنظرين.

العاج المنحوت

وهناك نوع آخر متمثل في الألف الأول ق.م في آشور وهو العاج المنحوت، ونفهم من هذا الاصطلاح شرائط مسطحة من العاج إما محززة أو منحوتة بشكل نقش نافر قليل العمق من الممكن تطبيقه في تقنيات أخرى ربما توجد، ولقد وجدت كتل كبيرة من العاج في عدة مواقع، ولا تزال كميات لا بأس بها من هذه المادة لم تلمس، مع أنها لكونها من آشور إلا أننا لا نستطيع أن نطلق عليها جميعها اسم الفن الآشوري، فلقد كان الملوك الآشوريون يستفيدون استفادة كاملة من المصادر البشرية في إمبراطوريتهم، وكانوا يستخدمون الحرفيين المهرة بشكل لا يقل عن العمال غير المهرة.

ومن الواضح أن نسبة لا بأس بها من العاج المنحوت في آشور كانت من أصول آشورية فينيقية، وهي تحتوي على عناصر ليست آشورية ويحمل عدد لا بأس به منها سمات مصرية في أهلها وذلك نتيجة للصلات الوثيقة الثقافية التي كانت سائدة عن طريق البحر في الأزمنة القديمة ما بين مصر وبيبلوس على الساحل الفنيقي (أي اللبناني).

ومع أن المواد العاجية قد وردت من عدة مواقع آشورية، إلا أن أكثرها وأشدها تأثيراً قد أتت من نمرود، ومن أشهر المواد التي وجدت في نمرود هي قناع مقعر أبعاده لا تزيد عن ستة إنشات طولاً، وخمسة عرضاً ويمثل وجه امرأة في نقش نافر طبيعي.

وهو منحوت في قطعة واحدة من العاج وهناك علامات من وقع الأزاميل في خلف القناع تظهر أنه كان سيوضع بحيث تظهر مقدمته فقط، وربما كان ذلك موجوداً على قطعة من المفروشات أو على حائط.

وليس من المحتمل أن يكون هذا القناع جزءاً من تمثال، وهناك لُقية من نفس النوع (مع أنها صلبة في خلفيتها بدلاً من أن تكون مقعرة) وهي أكبر من القناع (وأبعادها تبلغ سبعة إنشات ونصف طولاً مع خمسة إنشات عرضاً) ولكنها لم

تكن متقنة الصنع مما دعا بعض خبراء الفنون أن يستنتجوا أنها كانت أقدم من تلك أصلاً.

وهي بالتأكيد أقل جاذبية من وجهة جمالية بالنسبة للذوق الحديث، وإن علم دراسة الآثار والطبقات الأثرية لا يقدم لنا أي مساعدة بالنسبة لتواريخها النسبية نظراً لأن كليهما قد وجدا في نفس البئر الذي رميتا فيه بعد تجريدهما من جميع الزينات الذهبية التي كان من المحتمل أن يحملاها وذلك عند نهب مدينة كالاخ.

ومن نفس البئر اكتشفت أيضاً قطعة من العاج منحوته بشكل كلي بشكل دائري لتشكل رأس أسد يزأر، وكان قطرها الكبير يبلغ نحو ثلاثة إنشات مع بعض التفاصيل الواقعية.

وقد وجد في البئر أيضاً قطعتان من العاج مرموقتان وهما زوج من اللوحات العاجية منحوتةً بشكل نقوش نافرة وهما متشابهتان كأنهما مصنوعتان بحيث تكاد إحداهما تكرر الأخرى، ويظهر فيها أسد حامل رجلاً زنجياً يطرحه على الأرض من رقبته.

وهناك بعض الزخرفات النباتية التي تشكل خلفية للأشكال الرئيسية مغطاة بالأوراق الذهبية مع صورة الأزهار تتكون على التوالي من العقيق الأحمر واللازورد الأزرق وهناك نقش بارز من العاج وهو جذاب بالنسبة للذوق القديم.

وكانت مجموعة تمثل بقرة ترضع عجلها.

وكانت المنحوتات العاجية متقنة الصنع في وصفها وتصويرها للحيوانات، وهناك بعض المنحوتات العاجية التي تشمل مجموعة من الأجانب وقد جلبوا الجزية المؤلفة من الحيوانات، مثلاً أحد الأشخاص النوبيين يحمل قرناً على كتفه ووعلاً إلى جانبه وجلد فهد فوق ذراعه الأيمن.

وهناك عدد كبير من العاجيَّات المنقوشة بشكل نافر وبعض الأشكال الفراغية من التي تستحق الوصف أو الرسم لو سمح المجال بذلك، وكان هناك أيضاً تقنيات فنية مختلفة، مثلاً: نحت شرائط عاجية بشكل نقش نافر غير عميق

على كلا الجانبين أو أشكال وتماثيل (كارياتايديّة) وهي تمثال امرأة تقوم مقام عمود في مبنى.

وكذلك ألواح من الأعمال المفتوحة (وهو عمل يُرَى من خلفيته ويترك أشكال الأشخاص واقفة بحرّية في إطارها) وكذلك التقنيات الضخمة (تتألف من نقوش نافرة عليها مواضع منقوشة).

ولكن الكتلة الكبيرة من العاج المنحوت تتألف من ألواح صغيرة ليست منقوشة نقشاً نافراً بل كانت المشاهد محزّزة، وكانت هذه تؤلف بصورة عامة جزءاً من الزخارف في المفروشات مع أنها متواجدة بشكل مُستقِل بشكل أشياء من الأمشاط، والملاعق أو غيرها، وعلى وجه التقريب أي: رسم أو مشهد موجود على النقوش البارزة أو الرسومات الجدارية من الممكن أن يَظهر في هذه الاحتفالات مثل الحيوانات (سواء كانت طبيعية أو خرافية أو رموزيّة) وكذلك مناظر الحرب أو مناظر الصيد أو الاحتفالات الدينية أو النماذج الهندسيّة أو المناظر الطبيعيّة.

الأختام الأسطوانية

لا ينبغي علينا مغادرة بحث الفنون الآشورية دون ذكر الأختام الأسطوانية، وكانت الأختام مصنوعة من نوع الحجارة متسلسلة من الحجر الكلسي العادي حتى اللازورد الثمين.

وأما طولها فكانت تتدرج من أقل من إنش حتى حجم الإبهام، وهي تحمل تصميمات منقوشة مصحوبة أحياناً باسم ولقب حاملها.

ولقد استعملت هذه الأختام ابتداء من أقدم عهود السومريين وكانت تُدَحرج على قطعة كبيرة من الفخار وتطبع على أربطة البضائع وذلك لضبط البضاعة منعاً للسَّرقة.

أو أن يطبع على الوثائق الرسمية كتأكيد على إعطاء الثقة بالفريق المتعاقد أو الشهود، وفي الأزمنة المتأخرة كان للختم ثقب محفور بشكل طولاني بحيث يمكن أن يُربط بخيط ويلبس.

وتقع أهمية الأختام الأسطوانيّة في التصميمات التي تحملها، وتكون هذه أحياناً ذات أهمية وجاذبيّة جماليّة ولكن بالنسبة لمؤرخي الفنون فإن الشيء المهم هو وثاقة البواعث والأساليب ومطابقتها مع تطور الفنون الآشوريّة.

لدينا بعض المعلومات عن هذه مستقاة من الأختام الفعليّة التي اكتشفَتْ في الحفريات (أحياناً تحفر بشكل غير قانوني من قبل الأهالي في البلد نظراً إلى أنها سهلة الحمل وغالية الثمن) وأيضاً من طباعة الأختام على ألواح من الغضار.

هناك عدد كبير من طبقات الأختام تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (على العموم القرن الرابع عشر ق.م) وهي مطبوعة على ألواح من الغضار من آشور بالإضافة إلى عدد كبير من الأختام الفعليّة.

وكان القرن الرابع عشر زمناً بدأت فيه آشور تتخلص من تابعتيها لميتاني وعندما كانت بابل في الجنوب لا تزالِ محتفظة ببعض سمات عظمتها الماضية، وتحتوي الأختام الآشورية في العصر المتوسط أمثلة تُظهر نفوذ البواعث والأساليب المتَّبعة في هذه المناطق.

ولكن الأساليب الآشورية الخاصة كانت تتطور أيضاً، وكانت موضوعاتها مرتبطة بالعناصر التي وجدت في أوج ازدهار الفنون الآشورية المتأخرة لاسيما بالنسبة للنقوش النافرة المذكورة آنفاً.

وما بين هذه الموضوعات نجد أزواجاً من الحيوانات المجنحة المتناظرة، وكان الواحد منها غالباً ما يواجه الآخر على كل جانب من جوانب الشجرة المقدسة.

وكذلك القرص المجنَّح أو أحد الأبطال في المعركة أو مناظر الصيد بواسطة العربات وتظهر بعض هذه المناظر أنها من المجال الخرافي وهي توحي بأنّه كانت

الأعمال المشابهة في النقوش النافرة المتأخرة لها أحوالها في إضفاء صفة العلمانية على ما كان يُعرف مثلاً بالموضوعات الخرافية.

ولكن ومع تلك المناظر التي كانت تبدو خرافيَّة، فإن الأختام الآشوريّة في الأزمنة المتوسطة كانت تشتمل على أمثلة من مناظر الحيوانات ذات الخلفيات الطبيعيّة مثلاً: الماعز الذي يرتع بجانب شجرة أو الغزلان الواقفة بجانب الأشجار.

وإن هذا الاهتمام الذي أبداه صانعو الأختام بالحيوانات البريّة والمناظر الأرضية من الممكن اعتباره جَدَّ تلك المناظر الحيّة التي وجدت فيما بعد في الألواح التي تحمل نقوشاً نافرة.

إن الأختام الأسطوانية التي تطورت وتحسنت من البدايات الآشورية المتوسطة، تشمل مناظر طقوسيّة وبصورة خاصة عدداً من المنوعات المختلفة للشجرة المقدسة التي وُجدت أيضاً في النقوش النافرة ولكن وفوق كل شيء كانت مناظر الصيد ومناظر القتال حيث تظهر الآثار النافرة من المناظر الخرافية (مثلاً الحيوانات المجنحة والتنينات هذه المناظر تظهر أحوال هذه الطقوس في فنون منطقة ما بين النهرين القديمة).

ولكن وبنفس الوقت كانت تحتوي على حيوية تشير إلى الطريق التي تؤدي إلى اللوحات المجسمة والنقوش النافرة التي تصوِّر الحيوانات في عهد آشور بانيبال.

الفصل السادس عشر

الجيش الآشوري

إنه وفي أثناء القرن الأخير أو ما يقارب القرن الأخير من عمر الإمبراطورية الآشورية كان هناك عدد قليل من الناس لم يتأثروا بتلك الإمبراطورية بصفة أو بأخرى وكانت النواحي التي تأثرت فيها الحياة اليّومية (سواء تأثيراً حسنا أم سيئاً) إنما هي القضايا الاقتصادية والإداريّة.

ولكن النقطة التي دخل الإنسان منها إلى حالة التماس المباشر مع دولة آشور بانيبال كانت غالباً هي الجيش الآشوري، وهذه هي أيضاً النقطة التي استطاع القارئ الغربي الحديث (إذا كان قد تعرَّف على التوراة) أن يواجه الآشوريين لأول مرَّة نظراً لأن السفر الثاني من كتاب الملوك (أشعيا) ٣٦-٣٧ يكرس سفرين (الـ ١٨والـ ١٩) لقضية حصار أورشليم وهناك نُتف من أسفار أخرى تكرِّس لهجوم الآشوريين على مملكة إسرائيل الشمالية.

استطاعت آشور تجييش الجيوش التي كان يبلغ تعدادها مئات الألوف من الرجال، ولكن أنشطة الآشوريين العسكرية لم تكُنْ متمثلة بالحملات الحربية على ذلك المقياس.

وقد تمت بعض العمليات العسكرية عن طريق قوى صغيرة أو عن طريق الحاميات التي كانت تسيطر على النقاط المفتاحيّة وكان تعداد هؤلاء الجنود بضعة دزينات فحسب.

ولكن ومهما كان حجم هذه القوى فقد كان استخدامها الفعال يعتمد على عاملين أساسيين وهما التنظيم والانضباط.

لم يكن جيش آشور العظيم عبارة عن قطيع من الفلاحين المتعطشين لسفك الدماء تدعمها قوة من الفرسان الرهيبين الذين لا همّ لديهم سوى الغنائم، ولكن في الحقيقة كان الجيش منظمة معقدة تضم وحدات متخصصة من عدة أنواع،

وكان نواتها هي الجيش المرابط وكان هذا الجيش مكلّفاً بعدّة مهام وواجبات على أسس دائمة.

أولاً: كان توفير الأمن الشخصي للملك الأمر الذي استدعى وجود الحرس الخاص الدائم.

وأيضاً: كان هناك الحاميات الدائمة المتواجدة في نقاط مفتاحية مختلفة في الإمبراطورية وهذه تستلزم تزويد هذه الحاميات بالرجال والعتاد بشكل دائم وعلى أسس من الأمد الطويل.

وهكذا فإنه لن يستطيع أحد سوى الرجال المحترفين أن يؤمنوا هذه الواجبات، ولهذا فقد كان بعض هذه الحاميات مسؤولاً بشكل مباشر أمام الملك وليس أمام الولاة المحليين، وقد بدا هذا واضحاً من التقارير التي كانت ترسل إلى الملك من قبل قواد هذه الوحدات.

إن إحدى هذه الوحدات من الجيش المرابط والتي نسمع عنها الشيء الكثير، كانت مجموعة من الجنود من أصول قبلية تدعى (الإينتو) ومن ناحية عرقية لم يكن هؤلاء من الآشوريين، بل كانوا مجموعة من الجنود من أصول قبلية آراميّة من جنوب آشور وهم قريبون من مدينة آشور.

ولقد كان هناك في يوم من الأيام مزعجون للسلطات الآشورية ولكن لقد تمّ إخضاعهم تماماً.

وعندما نسمع عنهم في المراسلات الملكية ابتداء من أواخر القرن الثامن فصاعداً نجد أنهم قد أصبحوا وحدةً متميّزةً يمكن الاعتماد عليها في أداء واجبات خاصة، ونجد مثلاً أنهم قد جُلبوا لإعادة النظام في منطقة لبنان عندما تمرّد أهل صيدا بسبب الضرائب وقتلوا أحد مُفتشي الضرائب.

هذا وإن قضية (الإينتو) تظهر أن الجيش الآشوري لم يكن مقتصراً على الآشوريين فقط، إذ وكما ذكرنا سابقاً لم يكن لدى الآشوريين أي تمييز عنصري وقد أدخلوا الشعوب التابعة لهم في جيوشهم واعتبروهم على قدم المساواة مع الآشوريين الأصليين، وكانت كل مجموعة عرقية تحتفظ بشخصيتها وهويّتها

بالنسبة لأغراض القتال وكانوا يؤلفون فوجاً أو وحدة صغرى ويحتفظون بأنواع أسلحتهم وأشكال ملابسهم المستعملة في مناطقهم الأصلية.

وهكذا نجد في لوحات النقوش النافرة صوراً لمجموعات من رماة السهام ورماة المقاليع والسيافين وفرق المشاة الخفيفة وفرق المشاه الثقيلة الذين يتميّزون بأحذيتهم الثقيلة وملابسهم وأغطية رؤوسهم فضلاً عن أسلحتهم، ولكن هؤلاء المحاربين كانوا بحاجة إلى الدعم التقني وتخبرنا الأفاريز والنصوص بوجود وحدات تقنية متخصصة.

وكان هناك عربات حربية تستخدم في ميدان المعركة مرافقة للجيش، وعربات لِنقل المعدات اللازمة التي كانت تشمل الطعام والخيام وقطع خاصة من المعدات مثل آلات الحصار والمنجنيقات، عندما تُصبح الطرق صعبة بالنسبة لمرور عربات النقل والعربات الحربيَّة وعندها تصبح الطرق مقفلة.

وكان فتح الطرق من وظيفة جنود الاستطلاع المجهزين بالفؤوس البرونزية والنحاسية، وفي بعض الأحيان كان الجيش يصادف نهراً لا يمكن الخوض فيه وعبوره وكان هذا يقتضي إنشاء أطواف أو جسور كانت تضعها جنود الاستطلاع، وكانت الأطواف من نوع الكيليك.

أما الجسور فكانت جسوراً من القوارب أي: الجسور المتشكلة من قوارب مصفوفة عبر مجرى النهر وتوضع فوقها الألواح الخشبية التي من الممكن أن تصبح ممرات للعربات الحربية.

وبعدها وعندما يصل الجيش الآشوري إلى إحدى المدن المراد حصارها عندها يستعان بجنود الاستطلاع مرة ثانية لوضع المنجانيق والسلالم وأعمال حفر الخنادق.

وكان هناك عدد من الموظفين قلّة وهم الكتبة الذين يسجلون الغنائم وتفاصيل الحملة الأخرى.

وكان هناك فئتان من الكتبة الفئة التي تكتب بالخط المسماري على ألواح من الغضار، والفئة التي تستخدم الحروف الأبجدية الآرامية التي تكتب على الرقوق أو على أوراق (البابيروس) المستوردة من مصر، وكان هناك أيضاً المترجمون ورجال المخابرات.

وكان لدى الآشوريين أيضاً ما يمكن أن نسميهم بشكل فضفاض ومهلهل دائرة القساوسة، وكان هؤلاء مهتمين بالشؤون الدينية ولم يكن لديهم أي علاقة بالاعتناء بالجنود وأرواحهم.

والملاك المذكور من الموظفين كان ملاكاً دينياً وكانوا يرافقون الجيش، وبالمناسبة فلم يكونوا منْشغلين بتضحية القرابين فحسب بل أيضاً في تفسير وعمل التنبؤات الفلكية عند الضرورة.

ويبدو أنه وبسبب تعاملهم مع التنبؤات الفلكية فقد لعبَ بعضهم دوراً مهماً في الحفاظ على الأخلاق العامّة.

ونحن نعلم عن كثير من الأزمات التي ساهم المتنبئون في الجيش في إعطائها قالباً من الفأل الحسنْ ساهم في تقوية معنويات المحاربين في الأوقات الصعبة، وهكذا عندما اغْتيل سنحاريب عمد ابنه أسرحدون للتحرّك ضد جيش قاتلي الملك وقد تُليَتْ رساله من الآلهة تؤيد أسرحدون مما ساعد على تقوية قلوب جيشه وزرع الخوف عند قاتلي الملك.

ويروي آشور بانيبال أيضاً فألاً حسناً تلقاه من أحد المتنبئين في زمن قيامه بحمله ضد أخيه المتمرد وهو ملك بابل.

وقد كتب على قاعدة تمثال إله القمر مايلي: (بالنسبة إلى أولئك الذين يتآمرون ضد آشور بانيبال ويوزعون العداوات إنني أدعو عليهم بالموت البغيض، ومن خلال الخناجر الحديدية اللامعة وبالحرائق الملتهبة ومن خلال المجاعة والطاعون سوف أنهي حياتهم.)

وفي مناسبة أخرى واجه الجيش نهراً قد أحدث طوفاناً فأصابه الذعر، وفي الحال استلم المتبؤون والموظفون الدينيون تواصلاً إلهياً سبب لهم الطمأنينة.

(رأى الجنود نهر (أديدي) وهو هائج لذلك فقد خافوا العبور ولكن الإلهة عشتار التي كانت تعيش في إربيل أرسلت مَنَاماً إلى جنودي في الليل وقد أخبرتهم (إنني وبنفسي سوف أمشي أمام آشور بانيبال ذلك الملك الذي خلقته بيدي) وهكذا فقد تطمنت جنودي من جراء ذلك المنام وعبروا النهر بسلام.)

ويظن أنه كان بين الموظفين الذين مع الجيش من الذين يقومون بطقوس الجنائز بالنسبة للذين ماتوا في الخدمة العملية، مع أنه ليس هناك من شاهد متوفر ومن الممكن أنه كان هناك خطر أو منع الإشارة إلى عدد الأموات الآشوريين في الحرب.

والحقيقة أنه عندما تعلن قائمة الإصابات في نقش رسمي فإن أعداد الموتى المصرَّح بها تكون صغيرة بشكل لا يُصدَّق.

مقدمات النزعة العسكرية الآشورية

لم تكن آشور دولة مهيَّأة للحرب دوماً، ففي بداية الألف الثاني كانت الأهمية العظمى للدولة مؤسسة على الجيش وكانت مدينة آشور مركزاً تجارياً لها مستعمرات تجاريّة في المناطق الأخرى بعضها يصل إلى أواسط الأناضول، والحقيقة أن العنصر التجاري مع أنه قد طغت عليه النزعة العسكرية لم يختف نهائياً كعنصر مرموق في حياة الآشوريين.

ففي زمن انهيار الإمبراطورية الآشورية وانطفائها في نهاية القرن السابع ق.م وقد انتقد هذا أحد أنبياء بني إسرائيل بقوله: (لقد ازداد عدد تجّاركم أكثر من عدد النجوم في السماء (ناحوم ٣:١٦).

ومع ذلك فقد انخفضت أهمية التجارة في القرن السابع في آشور بسبب الحروب، وهكذا كانت الحوليات الآشورية تتكلم في شؤون الحرب ولم تتكلم

في شؤون التجارة ولقد بدأ التغير بعد تسلط الميتانيين على آشور في القرن الخامس عشر.

وقد اضطُرَّ الآشوريون أن يحاربوا لاستعادة استقلالهم وبعد استعادة الاستقلال لم يعد لديهم حدود طبيعية يسهل الدفاع عنها وفي الوقت نفسه يُحافظ على أمن الأراضي المزروعة بالذرة والملأى بالمراعي التي شكلت نواة المملكة الآشورية، وهكذا ظنوا أنهم قادرون على حماية أنفسهم من خطر تكرار الاحتلال والتبعيّة السابقة وذلك عن طريق التوسّع إلى المناطق التي من الممكن أن تأتي التهديدات منها.

وهكذا فقد تغلبت آشور على التهديدات الآتية من ميتاني وذلك باحتلال ميتاني نفسها، وما بقي منها.

ولكن بعد أن أصبحت ميتاني على الحياد كان هناك في طور عابدين جبال في الشمال الغربي وفي الشمال والشمال الشرقي شعب شرس جبلي مستعد دوماً لغزو السهول الآشورية، ولإيقافهم عند حدّهم اتخَذَت آشور زمام المبادرة وذلك بالقيام بغارات وحملات خلال الشرائط المحاذية للجبال، ولكن ذلك لم يكن يضمن سوى سلام هش من الممكن أن يزول لمجرد انسحاب الجيش الآشوري من تلك المنطقة.

وهذا أوجبَ بذل محاولات تضمن الأمن في تلك المناطق مما يجعلها بلاداً عملية تجارياً أو بفرض الإدارة الآشورية المباشرة، ولكن حتى لو أجبرت منطقة معينة على التهادن مع آشور إلا أنه كان وراء ملك المنطقة التهديد القديم للأمن الذي سوف يعود للظهور، الأمر الذي جعل آشور مستنفرة دوماً طلباً للاستقرار.

ولقد كان هذا العامل في التوسع تعززه وتدعمه الاعتبارات الاقتصادية فقد كانت الجبال مصدراً من مصادر الخشب اللازم لبناء المدن الجديدة، ومن الممكن تجنيد المجتمعات القاطنة في وديان الجبال لجلب هذا الخشب، وقد كانت تلك المجموعات من شعوب الوديان تنتج المعادن وتربّي الخيول، وكلا هذين الصنفين كانا غنيمة بارزة يتوق الآشوريون للحصول عليها.

وهكذا أصبحت الفوائد الاقتصادية وطلب الأمن عاملين أثَّرا على نمو حركات التوسع الآشورية بعد القرن الخامس عشر ق.م، ولقد اقترح أنه كان هناك عامل أيديولوجي، فقد كانت إرادة الإله آشور أن يوسع الملك أملاكه، فالأوصاف التي أضيفت إلى اسم آشور ظهر أنها مظهر من هذه المظاهر، فهو الذي يستطيع أن يهزم جميع العصاة، والذي يبعثر الأشرار، وإن الذي يعمل ضده هو الذي لا يحترم كلمته، وإنه الواحد الذي لا يستطيع الشر أن يهرب من شبكته.

وكل هذه الجمل كانت تأتي في سياق الإساءة إلى الإله آشور إذا عارض ذلك الجبروت العسكري الذي تتمتع به آشور، وهناك أحد الباحثين المتميزين يذهب إلى حد القول عن التوسع الآشوري الإمبراطوري بأنه نوع من اللاهوت الديني الذي يبرِّر الحرب الحقيقية، وهذا الرأي مؤسس على الادِّعاء بأن الإله آشور سوف يحكم جميع البشرية.

يظهر أن الأيديولوجية اللاهوتية سوف تحاول أن تضع التوسع الإمبراطوري الآشوري في مستوى أعلى كلياً من تلك الفوائد السياسية والاقتصادية المجرَّدة، ولكن لا يمكننا فصل الأيديولوجية عن الاعتبارات العملية فليس هناك من شاهد أنه في بداية الألف الثاني ق.م قد قام الإله آشور بالإدعاء بحكمه للعالم بأجمع، إذ إن هذه الفكرة إنما تنبع من فكرة التوسع الآشوري.

ويبدو أن اللاهوت لم يحض على اتباع سياسة توسعيّة بل لقد حاول أن يعكس ويعطي تعبيراً دينياً لتلك السياسة أثناء تطورها.

وهكذا فإن النظام اللاهوتي بالنسبة للحرب المقدسة لم يكن القوة الدافعة المستقلة بنفسها بل نوع من التفسيرات بمصطلحات الخرافة لما كان يحدث فعلاً تحت دوافع القوى الاقتصادية والسياسية، ولكن وبما أنها قد حدثت فقد خدمت لتدعم وتحافظ على الزخم الإمبراطوري الآشوري، وهو يُمثِّل كشيء لا يعتبر مجرد جواب بشري على الظروف السريعة فحسب بل يعتبر نشاطاً قد تقرر على مستوى إلهي.

وغالباً ما يشير الملوك الآشوريين لمهمَّتهم الإلهية، وهكذا نجد أن تغلات بيلاسر حوالي ١١٠ ق.م يخاطب الآلهة ويتكلم عن نفسه بضمير الغائب ويقول:

((لقد وهبتموه قوته المصيرية لامتلاك السلطة وقررتم أن ذريته العالية المقام بين الكهنة سوف تظل إلى الأبد واقفة في المعبد)) (أي: المعبد الإلهي القومي آشور).

وبعد أكثر من أربعمائة عام يدعي أسرحدون: ((بأن الآلهة قد فوضتني بالعمل ضد أي بلاد قد أذنبت ضد الإله آشور)).

وأضاف قائلاً: ((لقد خوَّلني آشور أبو الآلهة إجلاء سكان وإعادة توطين سكان آخرين لكي تصبح حدود أراضي آشور أوسع)).

وأما الملك سرجون فيضرب مثلاً في حولياته على الاعتقاد بأن لآشور مهمَّة دينية بأن يحكم، وفي معظم الحالات فهو لا يقدم قصة حملاته بالقول والتصريح عن كل الأمكنة التي ذهب إليها بل كان يُفضل أن يعطي تبريراته لهذه الحملة هكذا:

((في السنة الخامسة بحكمي لقد أذنب (بيسيري) ملك كركميش بحق عهده للآلهة العظام واستمر في إرسال الرسائل إلى (ميتا) ملك بلاد موسكي التي تضمر العداء لآشور لذلك رفعت يديْ إلى سيدي الإله آشور عندها وقع بيسيري هو وعائلته أسرى بين يدي)).

أو مرة ثانية نراه يتكلم عن الإجراء الذي اتخذه ضد الكلداني (أبال - إيدينا) وهو الملك المُغْتَصِب للسلطة في بابل وهو يظهر أن عمله كان متناسقاً مع إرادة الآلهة وهو يقول:

((ولمدة اثني عشر عاماً لقد مارس الحكم والسيطرة على بابل مدينة الإله وذلك بعكس إرادة الآلهة، هذا وإن مردوخ السيد الأعظم الذي كره الأعمال الشريرة لهذا الكلداني... وقضى أن ينزع منه صولجانه الملكي وعرشه، كل ذلك كان مرسوماً بين شفتيه، ولقد ناداني أنا سرجون الملك المتواضع ورفع رأسي

عالياً، ولكي يبعد الكلداني وهو العدو اللدود والشرير فقد عظّم شأن أسلحتي)).

الحرب النفسية

وبالانسجام مع إحساس الآشوريين بمهمتهم الإلهيَّة فقد عمد هؤلاء إلى فرض الوعي بهذه المهمة على الشعوب الأخرى ولكي يحافظوا على الاستقرار عبر منطقة الشرق الأدنى ذلك الاستقرار المؤسس على أحقية السلطة الآشورية، فقد كان من الضروري إقناع الشعوب الأخرى بأنه من العبث مقاومة آشور.

وكان من الواجب القيام بهذا عن طريق إظهار القوة الشاملة لآشور من جهة ومن جهة أخرى عن طريق الدعاية، ولم تكن هاتان الوسيلتان منفصلتين أو غير متصلتين، هذا وإن إظهار قوة آشور بما فيه معاقبة أولئك الذين أذنبوا بالنسبة إلى آشور وأهانوها، لم تكن موجهة ضد أولئك الذين عانوا بشكل مباشر فحسب بل أيضاً ضد الذين سمعوا بتلك الإهانات عن بُعد.

وهناك مراجع متكررة في الحوليات الآشورية تشير إلى الملك الذي صبَّ جام غضبه على الأعداء ما يمكن أن نترجمه بأنه سوف يسبب الخوف الرهيب، ولقد استعملت عدة كلمات أكادية للدلالة على هذا ولكنها جميعاً تمتلك نوعاً من الفارق الدقيق فهي تشير إلى نوع من الفزع المملوء بالخوف الذي يأتي من مقابلة شيء على المستوى الإلهي.

وهكذا فإن الملك الآشوري عند تنفيذ بعض الأعمال التي تشمل أحياناً الأعمال الفظيعة الشنيعة التي توقع الذعر في الأعداء هذا الملك كان يفكّر بنفسه أنه كان يدخل مخافة الله في أولئك الذين من الممكن أن يفكروا بمعارضة آشور، وهذا يمثل استعمال الآشوريين بشكل واعٍ للإرهاب ليس لأسباب سارية بل لأجل الحرب النفسية.

وهنا يشير سنحاريب فعلاً إلى الحقيقة التي مفادها أنه قد أزعج نفسه بإجراء تظاهرة تحديديّة ضد عيلام، ولكن الموت المفاجئ لملك عيلام بعد أقل من ثلاثة

أشهر قد نُصِّب على العرش أخاه الأصغر الذي لم يكن يملك من الذكاء والفطنة ليستنتج الاستنتاج المناسب ويستخلص العبرة المناسبة فيما يتعلق بعظمة آشور، ومن وجهة نظر سنحاريب فإنه من غير المناسب وليس من المتوقع أن تتدخل عيلام في شؤون بابل (وهي التي تدخل تحت النفوذ الآشوري) وذلك بعد إظهار آشور لقوتها.

ولقد تأكد من موقف سنحاريب لتلك الحقيقة التي مفادها أن افتقار الملك العيلامي الشاب إلى الذكاء والفطنة أشير إليه ثلاث مرات من خلال عدد من النصوص.

تظهر نتائج السياسة الآشورية الطبيعيّة المنتظرة في تلك الحادثة التي عمد فيها الملك آشور بانيبال إلى تخريب منطقة من الأراضي المانية (في شمال غربي إيران) وصب جام غضبه عليها، ونتيجة لذلك فقد اغتيل الحاكم المناوئ لآشور على أيدي رعيته واستلم الحكم الوسين ابنه الموالي لآشور.

ويذكر الملك سرجون بصراحة أن انتصاراته كان لها مظهر من مظاهر الدعاية.

وبعد قهره لقوى مملكة (أورارتو) وحلفائها بعد حملته الرئيسية عام (٧١٤ ق.م) يقول: (إن بقيّة الناس الذين فروا حفاظاً على حياتهم، قد أطلقتُ سراحهم ولكي يمجدوا النصر الذي أحرزه سيدي الإله آشور.

ولقد مات بعض هؤلاء التعساء المساكين نتيجة لتصرفاتهم في الجبال ولكن ناضل الآخرون للرجوع إلى بيوتهم حيث إن روايتهم المرعبة حول القوة التدميريّة الضارية لآشور وللجيش الآشوري أصابت المستمعين بالبكم.

ويقول سرجون: (لقد كان قوادهم من الرجال الذين كانوا يفهمون معاني المعارك والذين هربوا أمام أسلحتي وصلوا إليهم وهم مفعمون بسُمّ الموت ورووا لهم عن عظمة آشور بحيث إنهم أصبحوا وكأنهم رجال موتى.)

ومن الممكن رؤية نفس مبدأ الحرب النفسية الذي قُصد به تخفيف الحاجة إلى العمل الفعلي من الممكن رؤيتها في التوراة عند حصار أورشليم، فقد أصر

القائد الآشوري على الإعلان باللغة العبرية وذلك ليفهمه كل الناس وكل المواطنين وبعد ذلك أكد بهذه المناسبة أن ليس هناك من بلد قادر على مقاومة قوة آشور بنجاح.

وقد قال: (هل استطاع أحد الآلهة عند الأمم أن يخلص بلاده من سطوة ملك آشور؟)

لقد أظهر المظهر النفسي للحروب الآشورية عن طريق الأسلوب الذي استعمل في تصوير النقوش النافرة لمشاهد الحروب، ففي قصر آشور ناصر بعل في كالاخ كانت مشاهد الحرب هي السائدة والنقوش النافرة ولكن في القاعة التي كانت تستخدم كغرفة اجتماع المستمعين فقط.

وإنه لاستنتاج معقول أن نذكر أن سيادة المشاهد الحربية إنما كانت للتأثير على رؤية ووعي الزوّار من الحكام والسفراء لعظمة آشور وقوّتها العسكرية، أما في الغرف الأخرى في القصر فقد كانت مخصصة للموضوعات الدينيّة أو الاحتفالية.

وقد كان بعض الفظاعات التي اقترفها الآشوريون مظهراً من مظاهر الدعاية، فلم تكن مجرد أعمال عقاب ولا مجرد سيادة، إذ هناك مثال مناسب لهذه الفكرة ما وقع لسرجون الثاني ففي الجانب الآخر من جبال زاغروس على السفح المقابل لآشور في شمال غرب إيران وإلى الجنوب من بحيرة أورما كان هناك شعب (المانيان) الذين كانوا في وضع غير مريح لوقوعهم في منطقة عازلة ما بين دولة آشور ومنافستها الشمالية الرئيسية وهي مملكة أورارتو في أرمينيا.

وفي عام (٧١٦ ق.م) كان ملك المانيان موالياً لآشور، ومع ذلك فقد أقنع ملك أورارتو اثنين من الحكام المانيين بأن يقوما بالعصيان ضد الملك الموالي لآشور ثم قتلاه، وعندها بدأ سرجون بالعمل وهو يقول:

((لقد رفعت يدي لآشور ورجوته أن ينتقم من المانيين ويرجع أراضيهم إلى حدود بلاد آشور، ولهذا فقد استجاب لي الإله وأمسك بأحد الحكام المتمردين وسلخ جلده، ثم عرضه أمام المانيين)).

ولم يكن هذا مجرد عقاب وحشي، فقد كانت الدعاية تقتضي تأكيد حماية الأنشطة الموجهة ضد الحكم الآشوري والتمرد ضد الملك الموالي للآشوريين بشكل لا مجال للشك فيه، ولذا فهم بعض المانيين هذا الدرس.

هذا وقد افتتح (أولوسونو) شقيق الملك المقتول ووريثه الذي كان قد عقد تحالفاً مع مملكة أورارتو بعد أن لمس الحماقة التي اقترفها.

ونرى سرجون يقول: ((لقد تجمع أولوسونو الماني مع جميع رجال بلاده معاً وأمسك بقدمي لذلك فقد أشفقت عليه وقد غفرت لأولوسونو ذنبه وأرجعته إلى عرشه واستلمت الجزية منه)).

ومن الواضح أن سرجون لم يكن مهتماً بإنزال عقوبة ضد أي شخص قد عارض آشور في أي وقت من الأوقات، فالجيش الآشوري كان أداة من أدوات الدولة وكانت القضية توجب الرضا إذا تمَّ إرجاع أي حاكم معارٍ إلى الحظيرة، وأن يصبح تابعاً ومواليًا بمجرَّد إظهار القوة.

وحيث كان المعارضون المهزومون يتعرضون للمعاملة القاسية كما كان الحال بالنسبة للحاكم المتمرد المذكور أعلاه، لم يكن هذا قضية تعذيب انتقامي بل كان موجهاً لإقامة مثال وإعطاء إنذار بإظهار ما حدث لأولئك الذين قاوموا آشور مقاومة نشطة.

وهناك مثال مناسب لشرح هذا المبدأ يقدمه لنا تصريح لآشور بانيبال، فهو يذكر في إحدى رسائله بمناسبة عصيان بابل أن جد سنحاريب قد قدم وزنة من الفضة مكافأة على قتل الزعيم المتمرد، وقد قال إنه نفسه كان سيعطي هذا المال ذهباً مكافأة لجلب أي زعيم متمرد ضده سواء كان حياً أو ميتاً، وإن الحقيقة التي مفادها أن العرض كان لمجرد تسليم المتآمر ولو كان ميتاً، إنما يُظهر بوضوح أن غرض الملك هو إعلان مصير أي شخص متمرد وليس الابتهاج الساري بإيقاع التعذيب على المتمرد، هذا هو غرض الملك.

الجيش أثناء الحملات العسكرية

وطبقاً لما ذكره الملك سرجون فقد كان هناك موسم للحملات العسكرية وهو يصف هذا الموسم بكونه شهر الإله الأعظم والأقوى (نينوترا) ابن الإله أنليل أقوى الآلهة الذي سجله ربّ الحكمة (نينشيكو) في أحد الألواح أنه هو المسؤول عن جميع الجيوش والمعسكرات بكاملها والشهر المشار إليه هو شهر تموز، وهذا أظهر حسن التدبير لدى رب الحكمة نظراً لأن الحملة سوف تتوجه إلى الجبال حيث ترتفع درجة الحرارة في سهول منطقة ما بين النهرين إلى درجة 120 فهرنهايت، وقد كانت هذه الفترة مناسبة لجميع الجيوش والإمدادات الوطنية لأن عمليات الحصاد تكون قد انتهت في نهاية شهر أيار أو بداية حزيران مما يقدم فرصة مناسبة للإسهام في الخدمة العسكرية من قِبل الفلاحين.

ولقد كان تشكيل موسم للحملات عملاً من ابتداع الملك سرجون ولكنه لم يحافظ على مواعيده بانتظام نظراً لأن إحدى حملاته قد بدأت في شهر أيار مع أن ذلك قد حصل بشكل إجباري نظراً لحصول عصيان كان لابد من معالجته، ولكن وبالتأكيد وفي خلال القرن التاسع ق.م نجد أن الحملات كانت تبدأ في أي شهر من أشهر نيسان أو أيار أو حزيران أو تشرين الأول أو تشرين الثاني مع أن الملك المحارب آشور ناصر بعل العظيم كان يفضّل شهر أيار أو حزيران وكانت الحملات في فصل الشتاء غير مرغوب فيها وغير عادية.

وإن أحد العوامل المسببة لهذا المنع هو أن الأنشطة الزراعية في آشور كانت تبدأ في شهر تشرين الأول وتشرين الثاني بحيث كانت تحدث مشكلات خطيرة إذا كانت جموع المطالبين بالخدمة العسكرية من الفلاحين كانت لا تزال تخدم في الجيش في ذلك الوقت.

أما العمليات العسكرية التي كان من الممكن للجيش النظامي القيام بها لوحده فلم تتأثر بوجود هذا الاعتبار، ولكن العامل الثاني كان الطقس الذي كان يتحكم في العمليات العسكرية في الجبال في فصل الشتاء.

ومع ذلك فإننا نسمع من النقوش الملكية التي تتحدث عن الحملات أن هذه كانت مستمرة في شهر كانون الثاني وشباط، مع أن تلك التعليقات التي تتحدث عن الطقس المعاكس كانت تذكر أن هذه التواريخ تعتبر من الأمور الشاذة.

القواعد العسكرية والتحذيرات اللوجستيَّة

يحتاج الجيش المرابط إلى قواعد دائمة، التي كانت تُؤَمَّن في العواصم المتتالية والتي نسمع عن وجود مجمّع يدعى (إيكال مشارتي) وهو يعني حرفياً قصر المكان الذي يتجمع فيه الجيش (أي: الثكنات).

وكانت هذه الثكنات عبارة عن أبنية ذات باحات واسعة تستخدم لعدة أغراض، ولكن مع تزايد واجبات الدولة العسكرية أصبحت هذه الثكنات صغيرة فلا تستطيع تلبية الأغراض المنوطة بها.

وقد تحدث عدة ملوك بصراحة عن هذا الأمر إذ يخبرنا أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩) أن (الإيكال مشارتي) في نينوى الذي أقامه الملوك الذين سبقوني وهم أجدادي وذلك لاستيعاب ترتيبات المعسكر وللعناية بالخيول والبغال والعربات ومعدات القتال والغنائم التي تُسْتخلص من العدو...

ذلك المكان قد أصبح صغيراً جداً فلا يتسع لتدريب الخيول وتمارين العربات.

وتشير بعض النصوص الأخرى أن الأسلحة والتمرينات العسكرية كانت تخزن في (الإيكال مشارتي) بحيث أصبحت هذه تؤلف ترسانة أكثر من كونها ثكنة، وكان فيها هيئة من الكتبة وهم يؤلفون دائرة قسم الأدوات.

كانت الثكنات الدائمة في العاصمة تؤدي أعمالاً أخرى عدا خدمتها كقاعدة للحملات العسكرية، إذ إن وجود قوات ضاربة مستعدة لتقوية الملك ضد التهديدات أو العصيان ماعدا في حالة حدوث انقلاب يُعِدُّه قائد الجيش بذاته.

وربما كان هناك علاقة مباشرة بين الحقائق التي مفادها أن الملك شلمناصر الثالث) هو الذي أسس (الإيكال مشارتي) في كالاخ وأنه في حوالي نهاية حكمه

حدث عصيان كبير اشتركت فيه كل المدن الرئيسية ما عدا كالاخ، إلا أنه وببقاء كالاخ تحت سيطرته التامة فقد انتصر هو ووريثه الشرعي.

لم تكن العواصم المتعاقبة على طول نهر دجلة هي التي خدمت كقواعد للعمليات العسكرية إذ إننا نسمع مثلاً عن وجود جيوش آشورية عاملة ابتداء من (أربيل) إلى مدينة تدعى : (كاليزي) إلى الجنوب الغربي من أربيل وعلى بعد نحو ثلاثين ميلاً إلى الشرق من كالاخ.

ولقد بنيت قواعد في الأراضي المستولى عليها خارج آشور وكانت غالباً عبارة عن معاقل قديمة للسكان الوطنيين وقد حطمت هذه المعاقل واستخدمت لهذا الهدف، ولكن أطلق عليها أسماء آشورية مثلاً في سجل حملاته ضد أوراثوا عام (٧١٤) يتحدث عن وجود قلعة حصينة استولى عليها في شمال غرب إيران ذات موقع استراتيجي بحيث تشرف على مقاطعتين وهو يقول:

(لقد عملت على تقوية ودعم هذه التحصينات في ذلك المعقل وجلبت لها الذرة والزيت والمعدات الحربية).

وعندما يبدأ الجيش بالزحف خارج قواعده وفي داخل الأراضي الآشورية عندها تصبح مسؤولية الحاكم تأمين المؤن المتوفرة وبالتالي ففي أراضي الممالك التابعة فإن هذا العمل يصبح واجب الحاكم المحلي.

وعند العمل خارج الأرض التابعة للدولة الآشورية فإن الجيش مسؤول عن تغذية نفسه من المؤن التي أخذت كغنائم، وربما كان هذا الاعتبار هو الذي أملى عليهم اختيار الطريق داخل أراضي العدو دون الحصول على المواد الغذائية، وكانت الذرة والتبن تحمل من قبل الجيش وكانت متوفرة كوجبات للجنود والخيول.

وكانت إحدى الفوائد السريعة للاستيلاء على إحدى المدن هو فتح باب أهراء الحبوب بحيث يستطيع الجنود أن يأكلوا حتى الشبع دون تحديد للوجبات، وكان هناك مشكلة المياه التي كانت تظهر في المناطق المأهولة بالسكان فإذا نفذت المياه كما كان يحصل في مناطق كثيرة من الشرق الأدنى فإن هذا كان

يؤثر على انضباط الجيش، ويذكر سرجون حالة قريبة من التمرد بسبب الإرهاق وقلة المياه.

ولقد صادف أسرحدون مشكلات بالنسبة للمياه أثناء غزو مصر ولم يستطع أن يسير بجيشه بأمان خلال صحراء سيناء إلا بعد أن عمدت بعض القبائل العربية إلى نجدته وذلك بجلب الماء لعساكره في قِرَبْ موضوعة على الجمال.

الجيش أثناء تنقله

عندما كانت تقتضي الضرورة كان باستطاعة الآشوريين أن يقدموا إلى الميدان القتال عدداً من الجنود يزيد على مائة ألف جندي، ويذكر سلمناصر الثالث أنه قد يعبر الفرات باتجاه الغرب وهو يقود جيشاً تعداده ١٢٠٠٠٠ جندي، عام ٨٤٥ ق.م وهناك إشارات أخرى تتفق مع هذا الرقم، ومن وجهة عددية كان الجزء الأعظم من الجيش الآشوري العظيم يتألف من مجموعات جمعت بمعرفة الحكام المحليين.

ونجد ذكراً لعدد من العساكر جميعها تحت قيادة أحد الحكام تقدر بـ(١٥٠٠) جندي من الفرسان و(٢٠٠٠٠) من الرماة، ولما كان هناك حوالي عشرين ولاية يستطيع هؤلاء جمع مئات الألوف من الجنود فإن هذا الرقم يصبح صحيحاً وممكناً.

وهذا يتفق مع الإصابات التي تلحق بالعدو في معركة واحدة، مثلاً المعركة التي خاضها سنحاريب في عيلام في هالولي عام ٦٩١ ق.م وقد ادعى سنحاريب أن خسائر العيلاميين كانت ١٥٠٠٠٠ قتيل ومن الممكن أن يكون هذا مبالغة يقصد بها الدعاية، ولكن إذا كنا سوف نصدّق فإن العدد المذكور لا يمكن أن يزيد عن الحجم الممكن للجيش العيلامي مع وجود أعداد مقابلة يمكن مقارنتها مع الجيش الآخر وهو الجيش الآشوري.

وكانت المذبحة التي تلت عندما التقت الجيوش فالمعركة قد ظهرت في مناظر على ألواح النقوش النافرة مثلاً اللوحة التي تظهر أحد الطيور الكاسرة وهو يحمل أحشاء جندي مقتول.

ليس هناك سبب يجعلنا نفكر أن جميع الجيش الضارب في آشور كان يستدعى للخدمة كل عام، فقد كانت بعض الحملات (التي ربما كانت تتم خلال شهر) تجري باستخدام قوى أقل عدداً أو ربما باستخدام الجيش المرابط فقط بخاصة عندما تحدث الحملة خلال الفصول الزراعية.

ويخبرنا أسرحدون أنه وأثناء الجزء الأخير من حملته ضد أورارتو عام ٧١٤ ق.م فقد أعاد معظم جيشه إلى آشور وقام بنفسه بمتابعة عمله فوق جبال صعبة التضاريس ولم يكن معه سوى عربة حربية وألف من الجنود الخيالة.

كان ترتيب الزحف يعتمد على اعتبارات تكتيكية مثلاً الخوف من وجود كمين أو الحاجة إلى السرعة، ولقد سُجلت أخبار عدة حملات يقول فيها الملك بصراحة إنه تحرك دون إجراء احتياطات عادية، ودون استعراض الجيش أو دون تجهيز فرق النقل التي كانت تؤلف مؤخرة الجيش، وفي زمن سرجون الثاني كان الترتيب العادي للمسيرة عند عدم وجود أي اعتبارات أخرى كما يلي:

أولاً: سارت أعلام الآلهة بمرافقة موظفين دينيين وبعدها يأتي الملك راكباً عربة يصاحبه سائقو العربات والفرسان والذين يصفهم بأنهم الفرق الحربية التي تسير على الجانبين (الحقيقة أن سرجون مات في إحدى المعارك).

وتفيد الدلائل أن هؤلاء الفرسان كانوا تحت إمرة الملك مباشرة وكانوا يؤلفون الحرس الخاص للملك، ورأس الرمح للهجوم ويأتي خلف هؤلاء القسم الرئيسي من الجيش الآشوري، وأخيراً تأتي فرق النقل التي تؤلف المؤخرة.

وتسمح لنا التفاصيل التي نحصل عليها من تحركات وحدات الجيش العسكرية أن نحسب أن الجيش كان يتقدم مسافة ثلاثين ميلاً يومياً وكان هذا سهلاً جداً بالنسبة للخيالة عدا عند مصادفتهم تضاريس أرضية صعبة ولكن هذه المسيرة كانت صعبة بالنسبة للمشاة.

وعندما يدخل الجيش ميدان المعركة كانت الوحدات النظامية التي تؤلف نواة الجيوش الآشورية تظل في حالة تأهب واستنفار دائمة للدخول في المعركة، وهذا واضح مما قاله أسرحدون حول الحوادث في الزمن الذي اغتيل فيه والده سنحاريب عام ٩٨١ ق. م.

وكان أسرحدون عندها يقود جيشاً متجهاً نحو الغرب ويخبرنا أنه عندما سمع الخبر وبعد أن تلقى نبوءة مشجعة من الآلهة...

((لم أتأخر يوماً واحداً، ولم أنتظر حتى اكتمال تعبئة جيشي، ولم أهتم بوحدات المؤخرة، ولم اهتم باستلام الخيول والمعدات وتجهيزات القتال، ولم أكوم المؤن اللازمة على الطريق، ولم أخشَ من الصقيع ولا الثلج الذي يسقط في شهر شباط ولا صعوبات الشتاء)).

وعلى العكس فقد بدأ بالحركة حالاً لملاحقة قتلة الملك وقد كان هذا ممكناً لو كان لديه بين وحدات جيشه وحدات قتالية في حالة استعداد لدخول القتال فوراً.

لم تكن حملات الآشوريين كلها حملات قتال، فلقد حصل بعض الآشوريين خصوصاً بعض الملوك على متعة كبيرة عند اشتراكهم في مثل هذه الحملات العسكرية خصوصاً عند ارتقائهم التلال والجبال تلك الأعمال المنفصلة عن الاشتراك في المعارك، فالجبال إلى الشرق وإلى الشمال من آشور تتميز بمناظر خلابة وفي الصيف يكون الطقس مبهجاً جداً.

وقد سجل بعض الملوك انطباعاتهم أثناء ذلك فقد ذهل سرجون عند رؤيته مناظر جبال زغروس ولقد اقتبسنا تعليقاته الشعرية حول هذه ولكن ابن سرجون وهو سنحاريب كان أقل شاعرية ولكنه كان يشعر بالبهجة عندما ذهب لتسلق الجبال.

وهنا نقتبس قطعة نثرية كتبها عند صعوده أحد الجبال لمطاردة بعض رجال الجبال المعادين له:

((لقد قدت المجموعة مثل ثور وحشي هائج، ومعي حراسي الخاص المُنْتَقون، وعساكر الجيش الذين لا يرحمون عند المعركة، ولقد قطعت الوديان والسهول والوهاد والمنحدرات الخطرة وأنا محمول في محفّتين ولكن انطلقت ومشيت على قدمي لمتابعة المطاردة حتى القمم العالية وكنت مثل الغزال، وعندما تَعِبَت ركبتاي جلست على صخرة في الجبل، وعَبَبْتُ الماء البارد من قربتي لكي أطفئ ظمئي)).

المواصلات

كانت سرعة الحركة طبعاً عنصراً فعالاً في الحروب الناجحة وإن كثيراً من مناطق الشرق الأوسط خارج منطقة ما بين النهرين كثيرة العقبات التي تعيق التقدم، مثلاً الجبال الوعرة، الأراضي الصخرية أو الصحراء الواسعة، بينما هناك في السهول يجري نهر الفرات ودجلة وروافدهما المتعددة، وهي عقبات تؤخر تحركات الجيش.

وكان لدى الجيش الآشوري مواصلات بالعربات ذات العجلات وليس بالعربات فحسب بل أيضاً في مركبات تجرها أحياناً البغال وأحياناً الثيران وحتى الجنود، وكانت هذه تستعمل لنقل المؤن والتجهيزات ولقد ذكرنا سابقاً استعمال المهندسين العسكريين لشق الطرق حيث تعطل التضاريس الطبيعية تقدُّم العربات والمركبات، وفي بعض الأمكنة حتى هذه الاحتياطات لم تكن عملية.

ولكن هذا لم يكن ليوقّف تقدُّم الآشوريين، فقد كان الجيش يترك العربات ذات الدواليب خلفه لكي تجمع فيما بعد، أو عندما يعلمون أن الطريق سوف يتحسّن فقد كان الجنود يدفعون العربات والمركبات بالأيدي وبذلك يتغلبون على الصعوبات.

من الممكن أن تعيق الأنهار حركات الجيش الآشوري، لكن الجيش لم يتوقف، وحيث يكون خوض النهر غير عملي وغير ممكن فقد كان الجيش

يستعمل القوارب والأطواف المتوفرة وهي التي كانت تجلب مع الجيش لهذا الغرض.

ويذكر آشور ناصر بعل عن بناء القوارب في إحدى المدن (التي كانت دون شك تحتوي على المواد المناسبة والمعدّات المناسبة) حالما يقترب من الفُرات، وفيما يلي بضعة أسطر ذكرها لوصف الحوادث:

((إنه وبواسطة القوارب التي صنعتها وهي القوارب المصنوعة من الجلود، والتي حملتها معي على طول الطريق فقد عبرت نهر الفرات عند مدينة خريدي)).

وإن القوارب المصنوعة من الجلود تشبه الأطواف التي نسميها: الكيليك، ولم تكن هذه بدعة بالنسبة لآشور ناصر بعل نظراً لأنه في نحو(١١٠٠ ق. م) قد استعمل تغلات بلاسر الأول نفس الوسائل للوصول إلى الآراميين المزعجين الذين تواجدوا عند الجانب البعيد من نهر الفرات.

وفي أوائل القرن السابع قبل الميلاد صنع الملك سنحاريب طريقةً طموحة لاستعمال القوارب وكان هذا أثناء حربه مع عيلام (جنوب غرب إيران) لقد كان هذا مشمولاً في مجرى حروبه مع عيلام، وإذا قبلنا الفكرة التي مفادها أن صانعي القوارب النهرية من الآشوريين كانوا غير أكفاء، لذلك فقد جلب بُناة للسفن من السوريين لكي يبنوا له السفن في نينوى، وهو يقول:

((إنهم سوف يستعملون أساليب صنع السفن في بلادهم)) وهو يعني: طراز السفن في منطقة البحر الأبيض المتوسط.

وبعد ذلك فقد أبحرت تلك القوارب بواسطة البحارة المتفوقين إلى أسفل منطقة نهر دجلة (إلى حيث تقع بغداد الآن) ومن هناك (نظراً لأن الجزء السفلي من دجلة غير قابل للملاحة) فقد نقلت القوارب بطريقة العمل اليدوي إلى نهر الفرات وهكذا حتى الخليج الفارسي حيث استعملت لنقل الجنود والخيول استعداداً للهجوم البحري.

لم يصاحب الملك جيشه دوماً في حملاته بل كان دوماً على علم بما يجري من العمليات، ونحن نعلم ذلك من المراسلات المتعددة التي كانت تجري والتقارير كان الضباط في ميدان المعركة يرسلونها إلى الملك يعلمونه بالنشاطات التي كان الجيش يقوم بها ككل، أو أخبار الوحدات العسكرية المختلفة.

وكان الملك بدوره يرسل التعليمات إلى القواد العسكريين تشمل في بعض الحالات تعليماته حول المفاوضات مع الدول الأجنبية في المنطقة، وقد أصبح هذا الاتصال الجيد بين العاصمة والجنود الذين فيما وراء الحدود الآشورية ممكناً وذلك بسبب وجود نظام المواصلات الفعال.

وقد اشتمل نظام المواصلات الآشوري على نظام مخابرات عسكري، وقد أتتْنا المعلومات المستفيضة حول هذا النظام من الحدود الشمالية الشرقية حيث كانت آشور تواجه مملكة (أورارتو) في أرمينيا.

ولقد زوَّدتنا الرسائل المرسلة من الضباط الآشوريين في الجبهة بكثير من المعلومات حول استخدام الجواسيس للحصول على المعلومات حول مراكز الأورارتية ونواياهم.

وهكذا نجد أن بعض الضباط يرسلون تقارير إلى الملك حول حركات الجنود الأورارتيين مع إيراد التفاصيل عن الإعداد والطرق والوجهات المقصودة.

ونجد في إحدى هذه الرسائل أن خمسة حكام أورارتيين ذكرت أسماؤهم قد جمعوا عساكرهم في مدينة معيّنة وكان من الواضح أنهم يستعدون للقيام بحملة.

وبعدها هناك إضافة لهذه الرسالة: ((وبخصوص الأمر الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة حوله يقول: ((أرسل رجال دابالو)) ولقد أرسلت رجلين، وقد رجع بعضهم وقدم لي هذه المعلومات والبعض لم يرجع بعد من أراضي العدو)).

إن هذا السياق لا يدع مجالاً للشك أن رجال دابالو كانوا كشافين أرسلوا للحصول على المعلومات، وللحصول على مثل هذه المعلومات كأسماء الحكام في أراضي العدو فإن هؤلاء العملاء ينبغي أن يكونوا قد أجروا اتصالات مع جماعات

من أهالي البلد وداخل أراضي العدو إما بالحصول على الأسرى واستجوابهم، أو عن طريق الدفع للجواسيس تلك الأمور المعروفة للجميع.

لدينا رسالة تذكر كيفية الحصول على أسرى من العدو لاستجوابهم عن أوضاع الأعداء، مع أنه وفي هذه الحالة كان بعض المتمردين البابليين يحاولون عمل ذلك لاكتشاف تمركز الجنود الآشوريين أثناء الاستجوابات الآشورية لضباط الوحدة المتمردة، واكتشفت أهدافهم وتحولت الأمور ونحن نعلم كل هذه المعلومات من تقرير الضابط الآشوري إلى آشور بانيبال.

تشير التقارير التي أرسلت إلى الملك الآشوري أن المخابرات العسكرية لم تكن مهتمة بتحركات عساكر العدو وأحوالهم فحسب، بل بالقضية التي تؤثر على معنويات العدو، وهذا له علاقة ببعض التفاصيل للرواية التوراتية حول حصار أورشليم تحت قيادة سنحاريب.

وبهذه المناسبة فإن التوراة تصف كيف أن القائد الآشوري (ربشاقي) قد قام بهجوم للتأثير على معنويات المدافعين، وأن إحدى الوخزات الكثيرة لمحاولاته كانت تحديه لاعتمادهم على مساعدة إلههم يَهْوَه.

وكانت محاولاته التي تتحدى وتهدم ثقتهم أن يَهْوَه نفسه الذي نال حزقيا مقامه العالي ومَذْبَحُه قائلاً لليهود ولأورشليم:

((إنكم سوف تعبدون أمام هذا المذبح في آورشليم)) (٢ ملوك ١٨ : ٥٢).

وهذا كان إشارة إلى بعض الإصلاحات التي قام بها الملك حزقيا بقصد إلغاء أماكن العبادة المحلية القديمة من جميع أنحاء فلسطين وتركيز العبادة في أورشليم.

ولقد ناقش بعض الباحثين في علوم التوراة قائلين: إن القائد الآشوري لم يقل ذلك لأنه لم يكن يعرف شيئاً عن هذه الإصلاحات إذا كان هناك حقاً إصلاحات، ولكن لِمَ لا؟ وبالتأكيد على الأقل أن جزءاً من خطبة (ربشاقي) ينبغي أن يكون قد أتى بشكل أو بآخر من شخص ما قد سمعها.

ولقد تحقق هذا دون أي مجال للشك عن طريق إجراء مقارنة مع رسالة بالخط المسماري مكتوبة إلى أحد ملوك آشور من قِبَلِ أحد القواد الذي كان يحاصر بابل قبل ثلاثة عقود من حصار أورشليم.

ويخبر هذا القائد في بابل الملك أنه خاطب السكان وحثهم على الاستسلام تماماً كما فعل (ربشاقي) فيما بعد في أورشليم.

إن السجل التوراتي من الواجب أن يكون تمثيلاً حقيقياً لنوع الاقتراب الذي قام به القواد الآشوريون في هذا الوقت، ولم يكن بإمكان أي كاتب عبري أن يخترع حججاً وهمية قريبة من تلك الحجج التي أطلقها القائد القديم خارج بابل.

وإذا كان قد تأكد جزء من خطبة (ربشاقي) فليس هناك من سبب معقول أن نشك في مصداقية ذلك الجزء المتعلق بإصلاحات حزقيا، أو ربما كان هناك كثير من عدم الرضا والسُخط في يهوذا بسبب إلغاء الأشكال المحلية من العبادة للإله يَهْوَه التي كانت تتمتع بالقدم والقداسة التي اكتسبوها من مخالطتهم للبطاركة وللنبي صموئيل، ولا شك أن (ربشاقي) الآشوري قد جعل كل هذه المعلومات حول السخط الديني المنتشر واستفاد منه بذكاء.

هذه الحادثة التوراتية تجلب لنا ظاهرة أخرى من مظاهر المخابرات العسكرية الآشورية فقد كانت الجيوش الآشورية تحتوي أشخاصاً يتكلمون اللغة العبرية بطلاقة، مما سبب الذعر لدى السلطات في أورشليم.

وكذلك فإن الحقيقة التي مفادها أن القواد الآشوريين لم يكن لديهم أي مشكلة بالنسبة للتواصل مع الأورارتيين أو الأسرى الآخرين، كل هذا يدل أن الجنرال الآشوري كان يقتني في هيئة موظفيه مترجمين مناسبين في منطقة عملياته، فقد كان بلاط ملك آشور يحتوي على كثير من المترجمين الذين يتقنون عدداً من اللغات وذلك كما يدل النص الذي اقتبسناه.

التكتيك العسكري

لقد استطاعت الجيوش الآشورية أن تدخل التنويع في تكتيكها طبقاً للمناسبات فقد كانوا يشتركون في حرب العصابات في الجبال، وفي معارك نظامية في الأراضي المفتوحة، وفي حصار أي مدينة.

ولدينا روايات آشورية عن كل هذه الأنواع من القتال، وكان أكثرها دموية تلك المعارك النظامية بين جيشين في ميدان مفتوح.

ويصف سنحاريب إحدى هذه المعارك عندما صدَّ جيشه الجيش العيلامي الغازي عن نهر دجلة عام (٦٩١ ق. م).

((لقد أتوا وكأنهم أسراب الجراد في الربيع، وكانوا يرغبون أن أشترك في معركة معهم، وقد كان الغبار الذي يخرج من تحت أقدامهم يغطي وجه السماء وكأنه العاصفة القادمة في طقسٍ باردٍ قاسٍ.

وقد رتبوا أنفسهم في نظام المعركة ضدي في (حالومي) على ضفة نهر دجلة، وقد قطعوا طريقي لمياه الشرب واستعدوا للمعركة.

(ولقد صلى سنحاريب إلى الآلهة لكسب المعركة ولبس درعه، وركب عربته الحربية وبادر إلى العمل).

وبأمر من آشور الإله السيد الأعظم اندفعت على العدو وكأني عاصفة، ولقد هزمتهم وأرجعتهم القهقرى، ولقد أثخنت جنود العدو بالرماح والسهام.

ولقد قطعت حناجر جيش هومان – أنداشا القائد الأعلى لجيوش ملك عيلام بالإضافة إلى نبلائه وبدأت خيولي المعتادة على القتال تنغمس في دمائهم المتفجرة وكأنها تخوض في نهر، وقد امتلأت دواليب عربتي الحربية بالدم والقاذورات.

وقد ملأت السهل بجثثهم وجثث محاربيهم كما يمتلئ بالأعشاب، وكان هناك عربات مع خيولهم قد ذُبح ركابها حالما وصلوا إلى ميدان القتال، وهكذا تحررت الخيول، وبدأت الخيول بالرجوع والتحرك في جميع الجهات إلى مسافات تبلغ ساعتين مزدوجتين (حتى عشرة أميال).

وبالنسبة لشيوخ الكلدانيين لقد ساد الذعر من هجومي عليهم وكأني شيطان، ولهذا فقد هجروا خيامهم وهربوا حفاظاً على حياتهم، وداسوا على جثث جنودهم وهم يهربون وفي لحظة ذعرهم من شدة خوفهم راحوا يبولون ويتغوطون في عرباتهم)).

ولقد ادعى سنحاريب أن انهزام الأعداء كان كاملاً بحيث خسروا ١٥٠٠٠٠ رجل، وإذا اعتبرنا أن هذا العدد فيه مبالغة كبيرة وقسمنا العدد على عشرة فإن الخسائر تظل جسيمة بالنسبة لمعركة دامت بضع ساعات.

كانت المعركة التي ذكرها سنحاريب قد اشترك فيها راكبو العربات والمشاة بشكل كثيف ويسجل والده سرجون معركة كسبها عن طريق الفرسان، وقد وقعت في جبال شمال غربي إيران، فقد تراجع (روتسا) ملك أورارتو مع حليفه الرئيس لاستدراج سرجون حتى (وذلك حسب رأي سرجون) امتدت مواصلاته إلى نقطة انخفضت فيها معنويات جنوده وأصبح من الصعب عليه السيطرة على جنوده كلهم، وعند ذلك أرسل (روتسا) رسولاً (وذلك تحدياً منه لي) طلب منه أن يقترب ويشترك في القتال.

وعندها بدأ سرجون يصلي للإله آشور ولقد كان له أسبابه، وهنا نجد أن رجل التكتيك الألماني الشهير كلاوزيفتش يشير إلى ذلك في كتابه عن الحرب كما يلي:

يا لها من أراضٍ جبلية غير مواتية بالنسبة للمعركة الفاصلة، ومن المقاومة الهائلة التي تقدمها مجموعات صغيرة من الجنود في أرضٍ جبلية يصبح الرأي العام متأثراً بأن جميع الدفاعات الجبلية قوية للغاية، إن الوصول إلى ملجأ دفاعي في بلاد جبلية عند حدوث معركة فاصلة صعب جداً، لذلك فإننا ننصح أي قائد وقع في مثل هذا المأزق أن يتجنب مثل هذه المعارك بقدر الإمكان.

وبعكس (رويا) فقد أدرك سرجون الوضع التكتيكي وقد انتهز الفرصة التي سنحت له وبغَضِّ النظر عن المشكلات بالنسبة لجنوده فقد قاد حرسه الشخصي من الخيالة، كانت هذه تحت قيادة ضابط ذكر اسمه اندفع إلى وسط

المعركة وكان موجوداً في عربة خفيفة ربما كان ذلك بسبب البروتكول وقد كسر هجوم سرجون خطط العدو واستولى على مقر القيادة ووصل إلى معسكر (روتسا) نفسه حيث عطبوا عربات (روتسا) بقذفها بالسهام وقذف الخيول بالسهام، وعندما ترك ملك أورارتو عربته الحربية وهرب ونزل عن ظهر حصان ولكن لم يكن حصاناً بل فرساً.

وهذا أثار هزء الآشوريين الذين كانوا يعتقدون أن الملك ينبغي أن يمتطي حصاناً فحلاً، وقد حدثت مذبحة عظيمة في صفوف الجيش الأورارتي وهرب الباقون بشكل فوضوي إلى الجبال.

لقد كانت الإجراءات التأديبية للجيش الآشوري في أراضي الأعداء غير منحصرة في الأعمال العسكرية فحسب، فقد كانت إحدى الأعمال التي يؤسف لها هي قطع الأشجار التي كان يشار إليها وكأنها إجراءات تأديبية.

وكذلك قطع أشجار النخيل والكروم أو غابات أو أشجار مغروسة حول الأمكنة المهجورة، وقد حدثت مناسبات ليست بالقليلة عندما خرَّب الجيش الآشوري عن عمد مناطق بكاملها، مثلاً يسَجل سرجون بأسلوب مرتب يتكرر مراراً مع بعض تغيرات طفيفة كما يلي:

لقد هَدَمْت قرية أنياشتانيا ومعها سبع عشرة قرية حولها وسويت بها الأرض، ولقد أشعلت النار في العوارض الخشبية الطويلة في سقوف منازلهم واحترقت محاصيلهم الزراعية وتبنهم، ولقد فتحت أبواب أهرائهم المكومة بالذرة، وأمرت الجنود بأكل أكواز الذرة، وقد أرسلت الحيوانات التي كانت في المعسكر إلى مراعيهم وكأنها الجراد المنتشر، وقد نزعوا العشب الذي كانت تعتمد عليه المدينة، وقد خرِّبت جميع مُروجهم.

وفي مكان آخر يصف سرجون تخريبه لنظام الأقنية الذي كان يجلب الازدهار في إحدى المناطق.

وكان هناك شكل آخر من أشكال الحروب الآشورية وهو عملية الحصار وكانت هذه العملية في غاية التنظيم.

وكان أول مستلزمات هذا العمل هو عمليات النقل الفعالة التي تلزم لجلب آلات الحصار مثلاً منجنيقات القصف المدرَّعة ذات العجلات التي ترى صورها في اللوحات المجسمة.

أما السلالم التي تتكون من قوالب من الطين والحجر مع هياكل خشبية قد كانت تبنى لتمكّن تلك الآلات من الوقوف أمام النقاط المرتفعة من الأسوار، أما جنود الهندسة العسكرية فقد كانوا يحفرون الأنفاق لهدم أقسام من الأسوار وكان جنود المشاة يتسلقون على السلالم ويتسلقون الأسوار والأماكن الضعيفة بالنسبة للأحوال الدفاعية.

وقد كان وابل من السهام وحجارة المقاليع ينهمر فوق رؤوس المدافعين من الرماة ورماة المقاليع.

وكان هناك سلاح آخر مستعمل وهو النار، وقد استعملت طريقة ربما اتُّبعت في منطقة ما بين النهرين القديمة والتي ذُكرت في مراجع من النصوص المسمارية التي تذكر نيران القصب التي تُقوّض التحصينات وذلك بكسر حجارة السور بتسليط النار عليه وتكون الحرارة شديدة جداً، ولكن ربما كانت هذه الطريقة فعَّالة بالنسبة لأسوار هزيلة وليس لدينا أي شهادة تثبت أن الآشوريين قد استعملوا هذه الطريقة من الإجراءات.

وإن ما كانوا يفعلونه هو إشعال النار في المدينة بأكملها وكانت إحدى الوسائل لفعل ذلك هو إطلاق سهام تحمل جَمراً ملتهباً وكان المدافعون يرمون المحاصرين بالنار أيضاً وقد كان البترول الخام مُستعملاً لأغراض عسكرية (لا سيما وإن هناك كثيراً من النقاط التي كان يخرج منها البترول بشكل جزئي في منطقة الشرق الأدنى) وقد استعملت هذه الطريقة في أحوال خاصة نعرِّفها من قِبل المدافعين الذين كانوا يحاولون تخريب المنجنيقات والسلالم التابعة للمحاصرين الآشوريين.

وهنا نرى أسر حدون يصف ما حدث:

(بينما أتجول بشكل المنتصر في هذه المنطقة كان هناك سلم قد نصبته ضد .. في مدينة (أوبيوم) وفي هدوء الليل صبوا البترول على ذلك السلم وأشعلوا النار فيه، وبناءً على أوامر مردوخ ملك الآلهة هبت الريح الشمالية وهي النسيم العليل التابع لسيد الآلهة وحوّلت أَلْسنة اللهب التابعة لإله النار نحو مدينة أوبيوم ولم تحرق هذه النار السلالم بل أحرقت سور المدينة وحولته إلى رماد.

وبينما كانت تجري عمليات الحصار كان الجيش الآشوري يبني معسكراً محصّناً خارج المدينة يقصد منه أن ترتاح الجنود فيه.

ونحن نرى في النقوش النافرة مشاهد تظهر الخيام المجهزة بالمفروشات ونحن نرى عملية إعداد وجبات الطعام ونرى عملية سقي الخيول بالماء وعملية سياسة الخيول وقد فُسر هذا المشهد بأنه صورة جنود خارجين للاستجمام وهم لا يرتدون ملابسهم العسكرية وهم جالسون في حفلة مع النساء اللواتي كُنَّ يَتْبَعْنَ الجيش في معسكراته، ولكن الأكثر احتمالاً هو أن هذه الجماعة كانت تتألف من بعض الأسرى وهم تحت الحراسة.

وبينما كانت عمليات الحصار تجري كانت حلقة من الحراس الآشوريين المنتشرين حول المدينة المحاصرة تحاول أن تمنع المدافعين من تلقّي المؤن. وكانت النتيجة المحتومة هي أنه إذا كانت المدينة قوية جداً بحيث لا يمكن احتلالها بالقوة إلا أنها سوف تسقط بسبب المجاعة والجوع.

وكانت إحدى الصفات المروّعة بالنسبة لقضايا الحصار هي أكل لحوم البشر الأمر الذي كانت الكتابات المسمارية تشير إليه، وكذلك في التوراة، ويصف آشور بانيبال بشكل يثير الاشمئزاز نتائج حصاره لمدينة بابل وهو يقول: لقد حل بهم الجوع وبسبب جوعهم فقد أكلوا لحوم أبنائهم وبناتهم وقد مضغوا الأحزمة الجلدية.

معاملة الأسرى

بعد أن تسقط إحدى مدن الأعداء فقد كانت قضية معاملة الأسرى تختلف بالنسبة للظروف، وهنا تبرز مسألة الفظاعات التي كانت ترتكب وهذه تتطلب شيئاً من المناقشة نظراً لأن الآشوريين قد لصقت بهم أسماء وأوصاف سيئة على هذا الصعيد، ولقد عالجنا هذه الموضوع آنفاً ولكنه عرضة لتوضيحات أكثر.

وعندما يسمع المرء ما سجَّله آشور ناصر بعل بنفسه عن قائده، فليس هناك مجال للشك أنه من الممكن اتهام الآشوريين بممارسة الفظاعات وهاهو يكتب واصفاً نتائج إحدى معاركه:

((لقد قتلت ٣٠٠٠ جندي من جنودهم المقاتلين، وقد أحرقت كثيراً من الأسرى الذين أسرتهم منهم بالنار، وأبقيت الكثير منهم أحياء وقد قطعت أيادي بعضاً منهم حتى الرسغ وقطعت أنوف آخرين وآذانهم وأصابعهم، وقد سَمَلْت عيون كثير من الجنود وقد أحرقت شبابهم وشاباتهم حتى الموت.))

وعند احتلال مدينة أخرى كتب يقول:

((لقد كُومت كومة من الجثث أمام بوابة المدينة وقد سلخت جلود النبلاء من الذين تمردوا وقد نشرت جلودهم على أعمدة، وقد سُلِخَت جلود الكثيرين من أهل البلاد ونشرت جلودهم على الأسوار.))

إن مثل هذه الأخبار لا تسبب لنا أي ارتياح ومع ذلك ينبغي أن ننظر إلى هذه المشاهد ضمن منظور الحروب القديمة.

لقد مارس معظم ملوك آشور ابتداء من آشور ناصر بعل فصاعداً سياسة توسُّعية ولكن المعاملة المتوحشة من النوع الذي رأيناه في المقتطفات السابقة لم تواجه في كل الأحوال بشكل من أشكال عدم التمييز بين المدن أو المناطق خصوصاً تلك التي انضمت إلى الفلك الآشوري حديثاً وتلك التي قامت بتمرُّدات سابقاً.

والحقيقة أنه في حالة أولئك الذين كانوا من الفئة الثانية أي: الذين أظهروا بعض التمردات هم الذين تعرَّضوا لمثل تلك العقوبات التي استعملت فيها تلك البربرية والعنف للسكان المغلوبين على أمرهم.

وإن الحالتين اللتين ذكرناهما آنفاً هما حادثتان متعلقتان بحالتي تمرد من أكبر التمردات التي جرت ضد الدولة الآشورية.

وقد اشتملت إحداهما تمرُّداً قام به المستوطنون الآشوريون الذين حاولوا الاستيلاء على قاعدة عسكرية مهمة على مدينة منخفضة لخزن المؤن.

أما الحادثة الأخرى فتعود إلى تمرد في مدينة تحكمها دولة آشور حكماً مباشراً وقد قُتل الحاكم الآشوري هناك وجلب رجل آرامي ونصِّب ملكاً، وكان هذا تابعاً للدولة الآرامية المعادية لآشور.

وفي أمكنة أخرى ذكرت في حوليات آشور ناصر بعل كان هنا رواية عن عملية عسكرية جرت بقصد الاحتلال وليس بقصد قمع التمرد ولذلك لا نجد في هذه العملية أي ذكر لأعمال القتل الفظيعة الجماعية، ولم يحدث سوى أخذ بعض الأسرى دون الإشارة إلى إعدامات أو تشويهات.

إن أي شخص قد غسل دماغه بروح الاعتقاد بأن الآشوريين كانوا ساديين دوماً ينبغي على هذا الشخص أن يلقي نظرة على ثقافتنا التي نود أن نشرحها بالاقتباس التالي الذي أخذناه من حملة **Financial Tiner** فاننا نشال تايني وذلك من برنامج مخصص للأطفال والتلفزيون في عام ١٩٧٨م والبرنامج يقول:

(لا أحد سوف يأخذ روحه سواي سوف أسلخ الجلد عن جسمه الحي وأضعه على جسمي كأنه عباءة).

إن مثل هذه الأعمال الفظيعة كالتي حدثت في آشور لم تكن مظهراً من المظاهر السائدة بل عبارة عن أعمال تأديبية معتمدة قد أمرت بها السلطات المركزية في الحكومة الآشورية المتمثلة بالملك وليس لدينا أي إثبات عن حالة

وقعت فيها أعمال فظيعة اقترفها أفراد من الجيش الآشوري كقضية تتجلى فيها السادية المجردة.

حقاً لقد كان هناك بعض المشاهد على الألواح والنقوش النافرة بدت فيها أعمال بربرية (مثلاً سلخ الجلود) بالنسبة للأسرى، ولكن هناك دلالات بأن هذه الأعمال قد ارتكبت بحق زعماء التمردات ولكن بأمر من الملك ولم تكن أعمالاً عشوائية بربرية ارتكبها أشخاص بمفردهم بشكل اعتباطي قام بها جنود عاديون.

حقاً كان هناك بعض الدلالات عن إصرار الملك على تطبيق النظام بصرامة بالنسبة لمعاملة أسرى الحرب، وهناك رسالة ملكية موجهة إلى أحد الولاة الآشوريين تتعلق بتأمين التموين لهؤلاء الأسرى ويحذر الملك هذا الموظف بقوله:

((ينبغي ألا تكون مهملاً وإلا فإنك سوف تموت)).

إن أفضل مصير عادي للأسرى عند التغلب على منطقة أو مدينة متمردة كان الترحيل أو النفي، وإن بذل العناية بهؤلاء المرحّلين هو أمر نموذجي، مع أن أساس هذه المعاملة ربما كان لأغراض عملية أكثر منها إنسانية، فقد أصبح الأسرى جزءاً من الموارد المتاحة في الإمبراطورية الآشورية، وقد كانت السلطات الآشورية ترغب أن يصل هؤلاء إلى الأماكن المقصودة وهم في صحة جيدة وأن يكونوا ذوي فائدة هناك.

ولقد اتخذت إجراءات إدارية حازمة لهذا الغرض، وقد سمعنا عن ترتيبات مفصلة لتغذية هؤلاء المهجرين في طريقهم إلى الأماكن التي يقصدونها، وقد اهتمت الدولة حتى بتأمين أحذية لهم وهم في طريق سيرهم.

وفي إحدى الحالات حصلت مساعدة على الزواج، ونحن نرى من ألواح النقوش النافرة أن بعض العربات كانت متوفرة لنقل النساء والأطفال أو ركوبهم على الحمير أو ظهور الخيول وهناك دلالات تشير إلى ترحيل العائلات وهذه الدلالات واردة في النصوص المسمارية التي تدل على أن عائلات بكاملها ومجتمعات كاملة أيضاً قد رحلت بشكل مجموعات.

لقد كان هدف الترحيل لا ينحصر في قضية التأديب بقدر ما هو وارد لمصلحة الإمبراطورية الآشورية ولمصلحة الأمن، فلقد استقر بعض المرحلين في المدن حيث شكلوا احتياطياً من اليد العاملة لتنفيذ مشاريع البناء فضلاً عن تأمين مصدر من مصادر الحرفيين المهرة، وقد ذهب آخرون إلى مناطق غير مأهولة وذلك لزيادة مساحة الأراضي الزراعية وزيادة المنتوجات الزراعية، وبالتالي إحراز الازدهار الاقتصادي.

زد على ذلك فقد وصل آخرون لإعادة إعمار بعض مناطق في الإمبراطورية كانت قد أخليت من السكان بسبب هجرات سابقة أو حالات من العصيان والتمرد، وهناك مثال توراتي معروف وهو قصة السامرة في فلسطين التي أصبحت خالية من السكان لدرجة أن سكنتها الأسود وكانت هذه الأسود مشكلة.

ويبدو أن بعض المهجَّرين تحت الحكم الآشوري كانوا يستقرون في بيوت جديدة، ويجدر بالذكر أن الإسرائيليين الذين سباهم الآشوريون ونقلوا من السامرة إلى منطقة نهر الخابور في شمال غرب منطقة ما بين النهرين وإلى شمال غرب إيران قد انسجموا في المنطقة تماماً نظراً لأننا لم نعد نسمع عنهم شيئاً، ولكن حدث العكس مع اليهود الذين سباهم نبوخذ نصر وأسكنهم في بابل فقد احتفظوا بحس الانفصال بحيث رجع قسم كبير منهم إلى أورشليم.

والحقيقة أن الفرق ربما يعود إلى أن الآشوريين كانوا يتعمدون تهجير السكان إلى أماكن مشابهة للأماكن التي كانوا فيها، فقد عمد الرجل الآشوري ربشاكاخ في خطابه على تحريض أهالي أورشليم المحاصرين على الاستسلام وأخبرهم بأنه سوف ينقلهم إلى بلاد تشبه بلادهم (٢ ملوك ١٨: ٣٢).

البواعث الآشورية: الحوافز والإنجازات

لقد ترك الآشوريون انطباعات دامغة في تاريخ العالم بحيث إنه وبعد أكثر من ألفي عام لسقوطهم واختفائهم النهائي، فإنهم استطاعوا أن يثيروا أحكاماً عاطفية موجّهة ضد نزعتهم الاستبدادية وفظاعاتهم (التي ربما كان مبالغ فيها).

كيف كان معاصروهم ينظرون إليهم؟

لقد أصدر النبي أشعياء الذي عاصر ذروة السطوة الآشورية، حكمه عليهم ولكن الإدانة التي أصدرها لم تكن بسبب وحشيتهم واستبدادهم، فهو في الحقيقة يعزو هذا ويعتبره جزءاً من المشيئة الإلهية لعقاب اليهود.

آلا يا آشور يا عصا غضبي

وعصا سخطي

لقد أرسلتك ضد أمة لا تخاف الله

وضد الشعب الذي غضبت عليه وأمرته

أن ينهب ويحصل على الغنائم

ويدوس عليهم كما يدوس على الوحل في الشوارع (أشعياء ١٠: ٥: ٦)

وبالنسبة لأشعياء فقد كان ذنب آشور مختلفاً عن مجرد الاستبداد، بل إنه التكبر وعدم الاعتراف بمصدر وينبوع القوة العظمى وهو يَهْوَه،

إن يَهْوَه سوف يعاقب ملك آشور على تكبره وتفاخره وكبريائه البغيضة لأنه يقول:

((بقوة يدي قد فعلت ذلك وبقوة حكمتي لأنني أنا مصدر الحكمة (أشعياء ١٠: ١٢: ١٣).

هذا وإن المباهاة والتكبر ما هي إلا استخلاص من عبارة عبرية وهي ثمرة عظمة القلب ((وهي تدل على اعتبار عظمة المرء ناعة من عظمة قلبه من الداخل،

وإن ما كان أشعياء يدينه هو الاعتداد بالنفس الذي كان يطغى على آشور، وهذه صفة غير مرغوب فيها في إسرائيل، وينبغي أن تكون للرب وحده.

لقد كانت الثقة بالنفس صفة من صفات ملوك آشور في الألف الأول، ومع أن هذه الثقة كانت ملاحظة بوضوح في الحوليات الملكية حيث يتباهى الملوك بحرّية بصفاتهم الشخصية، وبمنجزاتهم الوطنية لأنّها تُظهر أيضاً نواحي أخرى ولاسيما في كثير من المشاهد الحربية المرسومة على النقوش الجدارية النافرة.

ولم يكن في أي مكان تساؤل أو شك بما كان يفعله الآشوريون أو لماذا أو كيف يفعلون ذلك، ولم تكن هناك أي إشارة أو مرجع يعزو نجاح الآشوريين إلى دعم العناية الإلهية.

حَقاً إنه كان هناك شيء في القرص المجنح (الذي يمثل الإله آشور وقوى أخرى إلهية) يظهر عالياً في السماء فوق صورة الملك، ولكن ليس هناك شيء في هذا يشير بأي نقص في ثقة الملوك الآشوريين بأنفسهم وبقواهم.

والحقيقة أنه في مثل هذه المشاهد ليس هناك من دلالة أبداً على خوف الملك من الإله الذي فوقه، بل بالعكس كان الإله هو الذي يبدي الخوف من الملك، نظراً لأن جميع أعمال الإله كانت ترديداً لأعمال الملك (مثلاً تصويب القوس أو ما شابه ذلك).

لقد كان الآشوريون يعلمون أنهم كانوا على حق، وهكذا فقد اعتبروا أنه من المسلمات أن تكون القوى الإلهية العظمى دائماً داعمة ومؤيدة لمصالح الآشوريين.

هناك بعض الألواح النافرة المحتوية على مناظر طقوسية، وفي هذه المناظر يظهر الملك وكأنه قد اتصل اتصالاً مباشراً بالقوى الإلهية، ومع ذلك لم يكن هناك أي انتقاص من قيمة الملك وهو واقف أمام الإله.

مثلاً: عندما يقف آشور ناصر بعل أمام الشجرة المقدسة فإن الملك كان بعيداً جداً عن إظهار أو الاعتراف بوجود أي مسافة ما بين الآشوريين البشر وبين الإله،

بل بالعكس نرى الملك مرفوعاً إلى مستوى الإله عن طريق القوى السرية التي كان الكائنان الغيبيان يوجهانه إليها، وبالاستفادة من الشجرة المقدسة.

والحقيقة أنه وحيث نرى الملك واقفاً أمام الإله نرى أن الثقة بالنفس لا تزال موجودة، ففي الرسوم الجدارية التي تمثل الإله سرجون واقفاً أمام الإله آشور أنه الملك وليس الإله هو الواقف في الوسط، وتشير الصورة أنه ليس من واجب الملك أن يظهر الخشوع أمام الإله، بل إنه من وظيفة الإله أن يقوي ويدعم الملك.

إن نوع الموقف وهو ثقة الآشوريين المطلقة بقواهم البشرية، هذه الحالة مرتبطة بضعف سلطة الدين التقليدية المؤسسة على المواقف التي ترجع إلى الألف الثالث.

فالمواقف القديمة تقص وتقول: إن الآلهة هي التي خلقت نظام هذا العالم، وهذا كان ألزم وجود ثقل اكتسبته القوى الرجعية المحافظة، وهذا أدى إلى التأثير على أي نوع من التغيير أو التقدم.

فالآشوريون لم ينكروا تلك المعتقدات علناً، ولكن في بلاد آشور وفي الألف الأول بدأنا نلمس دلالات على نشوء وجهة نظر مختلفة أو طبخاً للأفكار القديمة كان العالم ساكناً أو بالأحرى دوري الحركة أي أنه إذا تغيرت الأشياء فإنها تتغير ضمن إطار متكرر، فالنظرة الجديدة للحياة وللعالم تتلخص أن الآلهة كان لديها مخطط في التاريخ، وأن آشور هي العامل الرئيسي في هذا المخطط.

وكان العنصر الرئيسي في هذا المخطط عاملاً دينياً سياسياً لكونه يمثل التوسع المستمر وسيطرة آشور وهي تحت الإله القومي آشور، ولكن مجرَّد الاعتقاد وإمكانية التطور داخل التاريخ كان يعني إمكانية التغيير بصورة عامة فالأشكال المنوطة بالحياة لم تعد محددة بالطرق القديمة.

وطبقاً لذلك بدأ الآشوريون يقبلون الأفكار الجديدة، وهكذا أو كما رأينا فقد بدأ الملوك الآشوريون يتبنون الأساليب المعمارية الجديدة من الخارج فقد بدؤوا يفتشون على مصادر جديدة للخشب والحجر وقد شجعوا العمليات الجديدة في صنع المعادن، وشجعوا استعمال المواد الجديدة، مثل القطن، واستخدموا الحرفيين المهرة كنحاتي العاج وبناة السفن وقد شجعوا هؤلاء على تقديم مهارات جديدة إلى

آشور تحت الحماية الملكية للفنانين للمارسة بأشكال جديدة من الفنون وذلك بالاختراع وبعدها بتطوير الألواح النافرة ووضعها أساساً للفن الروائي.

ولقد شجع الملوك الآشوريون وجلبوا الألعاب الأجنبية ونحن نعرف ذلك من ألواح اللعب العديدة التي تتميز بوجود ثقوب صغيرة وورود وذلك أثناء حكم أسرحدون (٦٨٠-٦٦٩).

وقد أتت هذه اللعبة من مصر، فقد شوهدت هناك قبل قرون من جلبها إلى آشور، وكان أسرحدون أول فاتح لمصر ومن المؤكد أنه رأى اللعبة عندما كان هناك وأحبها، وكانت الألواح التي جلبت إلى آشور من أهل مصر ومن حجارة مصرية، ويقول تغلات بلاسر الأول: إنه عندما كان في الخارج أخذ بعض الفواكه النادره التي لا توجد في بلاده وزرعها في حدائق آشور وقد جلب سنحاريب نبتة القطن.

وجلب أحد الولاة تربية النحل من بلاد أجنبية وسجل هذه الحقيقة بفخر، وكل هذه البدع تظهر أن الآشوريين كانوا راغبين في النظر حولهم بعقل متفتح وأن يتبنوا أفكاراً جديدة، وأن يقبلوا عن وعي وإرادة أنه من الممكن تمتين الإطار القديم للأفكار والأعمال التي وصلت إليهم من الألف الثالث ق.م.

إن كل الأمثلة المعطاة تعود لصنع الإبداعات التي استفادت منها آشور كثيراً، ولكن اهتمام الآشوريين بالعالم حولهم تقدم إلى أبعد من ذلك.

إذ حالما توسعت آفاقهم الجغرافية فقد توسعت آفاقهم الذهنية أيضاً، وقد اهتموا بطُرق الحياة المختلفة عند بعض الشعوب التي قابلوها.

ونجد بعض المراسلين (ربما كان بابلياً في أصله العرقي بل كان آشورياً بعكس وجهة النظر الآشورية) يخبر الملك عن بعض القبائل التي صادفها أنهم كانوا يعيشون على الخبز المصنوع من نبات (الموروتو) وبذور النفير والذرة تأكله الحمير الوحشية.

وقد علّق آشور بانيبال على إحدى القبائل الجبلية التي كانت ترسل الجزية إن الرجال هناك كانوا يقصون شعورهم كالنساء.

ولقد أعجب أسرحدون بطريقة الحياة التي يعيشها الفينيقيون الذين وصفهم بأنهم الملوك الذين يسكنون البحر وأن تحصينات أسوارهم هي البحر والأمواج هي جدرانهم الخارجية، وهم الذين يركبون السفينة وكأنها عربة وبدلاً من الخيول يستعملون المجاذيف.

ولقد رأينا من قبل الإعجاب الذي أبداه الملك أسرحدون بعملية تدريب الخيول التي كان يقوم بها بعض الشعوب في ما وراء زاغروس.

ولقد أظهر الآشوريون اهتماماً جاداً بالطبيعة أي: كلا المناظر وحياة الحيوانات البرية ولقد ذكرنا آنفاً حساسيتهم تجاه المناظر الجميلة، أما بالنسبة للحياة البرية فمع أن الملوك الآشوريين قد تلقوا قسماً كبيراً منها فقد أنشأ بعضهم حدائق الحيوان في بلادهم وفي عواصمهم وهذه ما تدعى بحدائق الصَّيد.

وفي هذا السياق كنّا قد أشرنا إلى تغلات بيلاسر الأول ويخبرنا آشور ناصر بعل في القرن التاسع ما يلي:

(لقد اصطدت الحيوانات ومسكتها وهي أحياء، ولقد جَمَعْتُ في العاصمة كالاح قطعاناً من الثيران الوحشية والفيلة والأسود والنعام وذكور وإناث القرود، والحمر الوحشية والغزلان والدببة والنمور ومن جميع أنواع الحيوانات التي تكثر في السهول والجبال، وقد عرضتها على الشعب في بلادي).

ولكن ليس هناك من إثبات أن الحيوانات كانت طليقة في حدائق الصيد أم كانت محصورة في أقفاص، وقد أشار آشور ناصر بعل أن أشبال الأسود الصغار في أقفاص، ومن المحتمل أن بقية الحيوانات كانت تعامل بهذا الشكل، ومع ذلك فإنه من المؤكد أن الملك سنحاريب الذي حكم فيما بعد قد أنشأ حديقة من حدائق الصيد حول نينوى حيث كما يروى:

((قد نمت أجمات القصب بسرعة وبنت طيور السماء أعشاشها وولدت الخنازير البريَّة والوحوش صغارها بكمية وافرة.))

وتشير اهتمامات الآشوريين بالعالم حولهم ورغبتهم بقبول الأفكار الجديدة على وجود حماس وحيوية ذهنية توازي أو ربما تغذي حماسهم العسكري وبدعهم الإدارية، وكان لكثير مما فعلوه تحت تأثير هذه البواعث نتائج مهمة في التطورات التي حدثت بعد ذلك في الشرق الأدنى، وهكذا فقد اكتشفت مصادر جديدة من الخامات والحجارة والخشب، وانتشرت التقنيات، ولقد بدأت بعض الوسائل الجديدة في الحكم ذات الأهمية القصوى بالنسبة للشرق الأدنى فيما بعد تحت حكم الآشوريين.

مثلاً: نظام الطرق الإمبراطوري بالإضافة إلى نظام بريدي سريع لتأمين المواصلات بين حكام الولايات والملك، وينبغي أن يقال: إن بقاء تلك القِيَم التي نُقِلَت إلى جميع أنحاء العالم عن طريق الحضارة السومرية هذا البقاء مدين جداً لقوة الآشوريين العسكرية.

وابتداء من زمن الآراميين والموشكي أثناء حكم تغلات بيلاسر الأول حتى زمن السيذيين في نهاية الإمبراطورية الآشورية، كان هناك وبصورة متكررة تهديدات من هجرات بربرية جديدة إلى منطقة ما بين النهرين، حيث لم يستطع الآشوريون صد هذه الشعوب ولكن حيث استطاعت فإن هذه الشعوب وبفضل ردود الفعل الآشورية فقد جلبت هذه الشعوب المهاجرة لتقترب من عادات شعوب ما بين النهرين.

ونحن نلاحظ هذا وبصورة خاصة في حالة الميديين والفرس الذين قابلناهم لأول مرَّة وهم بشكل بدوٍ رحل في القرن التاسع ق.م.

وقد برهن هؤلاء أنهم تلاميذ أكفاء لأسيادهم الآشوريين، لدرجة أنه بعد قرن من سقوط آشور ظهرت إمبراطورية فارسية حكمت منطقة ما بين النهرين وبقية أقطار من الشرق الأدنى دون إجراء أي انقطاع في النظام المذكور أعلاه.

ولكن ربما كان قد أتى إسهام الآشوريين في التاريخ العالمي كنتيجة لواحد من الأشياء الأكثر بُغْضاً وكراهية في الفكر الحديث، وهذا هو تهجير وإجلاء الشعوب المقهورة، فقد كان عدد الناس الذين تأثَّروا بعملية التهجير كبيراً وهائلاً، ولقد قُدِّر أنه في أثناء القرون الثلاثة الأخيرة من عمر الإمبراطورية الفارسية بلغ هذا التهجير حوالي أربعة أو خمسة ملايين وقد كانت النتائج طويلة الأمد لهذا التهجير مؤثرة على عملية الاختلاط العِرقي فقد كانت الاعتبارات الجغرافية من جبال وأنهار وصحاري والمضافة إلى العوامل التاريخية التي عملت على تقسيم الشرق الأدنى إلى عدة دويلات منفصلة، والتي تطورت في جو من العُزلة ويرى الإنسان مثالاً ممتازاً لهذا الذي في فلسطين حيث وجدت عدة مجمعات من الفلسطينين والإسرائيلين وشعب يهوذا والمؤابيين والعموريين وشعب صيدوم وعدة شعوب قبلية بَقِيَت متميزة لوقت طويل.

ولقد كانت سياسة الآشوريين المتمثلة في التهجير هي التي عملت على كسر هذه العزلة، وقد كان الإسرائيليون مثلاً على ذلك وعندما نقل هؤلاء إلى صيدا ومنطقة نهر الخابور عندها اختفت لديهم النُصْرَة الشخصية الوطنية وقد بقوا هناك ولكنهم اندمجوا.

وفي بعض العواصم الكبرى في الدولة الآشورية نفسها كان الآشوريون العرقيون أقلية وذلك بسبب مجيء شعوب من عروق مختلفة واستقرارهم هناك ومعاملتهم كمواطنين متساوين رغم اختلاف أسلافهم وأجدادهم،ومع استمرار عملية إعادة الإسكان المفيدة فوق كامل المنطقة خلال حوالي ثلاثة قرون فقد حدثت زيادة لا بأس فيها في الاندماج والاختلاط العرقي وإضعاف النزعة العرقية الاستثنائية (باستثناء الأماكن التي حافظت على العزلة فيها عن طريق الوسائل الدينية كما حدث مع اليهود).

ولم تكن هذه عملية سريعة ولم تظهر نتائجها حالاً ولكنها مهدت الطريق لنمو الوحدة الثقافية في المنطقة بأكملها مما أثر على التاريخ التالي لمنطقة الشرق الأوسط.

فقد تأمن وجود قاعدة للتجانس الذي مهَّد لدخول الثقافة الهلينية في الشرق الأدنى بعد عهد الإسكندر الأكبر، وكانت الهيلينية بدورها عاملاً مهماً في انتشار الديانة المسيحية بسرعة عبر المنطقة، وبعد ستمائة عام انتشار الإسلام.

الفصل السابع عشر

الكتابة والأدب الآشوري

إنه وبدون الوثائق المكتوبة تبقى معرفتنا عن آشور جزءاً ضئيلاً مما هي عليه الآن، فالبقايا الحية لأمة حضارية من فنونها وأدواتها ومفروشاتها وأساليب الدفن فيها كل هذه من الممكن أن تعرفنا بالشعوب القديمة ولكنها قاصرة عن التعريف الذي يحصل عن طريق النصوص المكتوبة.

لقد اخترعت الكتابة في جنوب منطقة ما بين النهرين في زمن قصير قبل عام ٣٠٠٠ ق.م، وكانت أقدم أشكالها المعروفة تتألف من صور مرسومة بواسطة قصبة تكتب على قطعة من الغضار الرطب المضغوط الذي كان يضغط بين كفي اليد ليتخذ شكل كعكة مسطحة.

ومع مرور الزمن أصبح شكل الغضار نظامياً كلوح من الغضار مستطيل ذي حواف مستوية أو مدوَّرة أو محدَّبة قليلاً، وكان اللوح صغيراً بحجم علبة كبريت أو بحجم كتاب من قطع الربع مع أنه كان بحجم قطعة الصابون.

وفي أوائل الألف الثالث تعرَّضت هذه الإشارات لبعض التغييرات عندما بدأ الكتبة يضغطون بواسطة قصبة تسمى (قلم السّمة) وذي مقطع مثلث بدلاً من الرسم، وقد أنتج هذا العمل إشارات مؤلّفة من خطوط وضربات مستقيمة (مسمارية) كانت في بعض الحالات تظهر أنها متماثلة مع الأصل، وفوق ذلك ولأسباب متصلة بالطريقة التي كان الكاتب يحمل بها لوح الطين والقلم فقد تحولت اتجاهات رسم العلامات إلى الخلف خلال تسعين درجة، وهكذا وضعت جميع العلامات على ظهرها وهذا أضعف صلة الوصل مع الصور الأصلية.

وفي الشكل الذي اتخذته الكتابة المسمارية أخيراً فقد كانت الكتابة تسير بشكل أفقي عبر اللوح وفي معظم الأحيان (وليس دائماً) موازية محورها الأفقي من اليسار إلى اليمين، وكانت الألواح الأصغر تنقش في عمود مستقل والألواح

الكبيرة في عمودين أو أكثر، وعندما كان الكاتب يصل إلى أسفل الوجه الأول كان يقلب اللوح حول المحور الأفقي وليس العمودي أي: إنه لم يكن يقلبه كما نقلب صفحات الكتب عندنا.

ونتيجة لذلك كانت الكتابة على أحد وجهي اللوحة تبدو مقلوبة بالنسبة للكتابة على الوجه الآخر.

كانت الكتابة الأصلية بهذا الشكل تمثّل الكلمات باللغة السومرية وربما كانت اللغة السومرية تمتلك نسبة كبيرة من الكلمات ذات المقطع الواحد فإن هذا قد سمح بإحداث تطور أصبحت به إحدى العلامات المُعينة لا تمثل معنى الكلمة فحسب بل اللفظ الخاص بها، وكانت الحال مثلاً كما لو رسمت صورة نملة **BEC** وبعدها صورة ورقة شجر **LEAF** وهكذا تستعمل هاتان الصورتان لكتابة كلمة **BEIEF** معناها اعتقاد أو ظن.

وإن قيمة هذا التطور أن أصبح بالإمكان استعمال هذا النظام في كتابة اللغات عدا عن اللغة السومرية، وابتداء من منتصف الألف الثالث استعمل هذا النظام في اللغة السامية وهي الأكادية.

وكانت اللغة الآشورية إحدى لهجات هذه اللغة واللهجة الأخرى كانت البابلية، وقد استمدت بعض الإشارات السومرية التي تدل على كلمات كاملة تستعمل في نفس الأسلوب في اللغة الأكادية مثلاً: الإشارة التي تعني ملك التي تلفظ بشكل لوجال في السومرية كانت تستعمل بنفس المعنى في الأكادية مع أنها كانت تلفظ بشكل (سادرو) ولكن أصبحت إشارات كثيرة تستعمل كمقاطع.

ونظراً لحدوث مثل هذا التطور أصبح النص الأكادي مزيجاً من العلامات التي تعني بعضها كلمات كاملة، والأخرى تعني مقاطع، وكانت نسبة وجود كل منها تختلف حسب نوع النص وحسب الفترة الزمنية.

وكانت الألواح الطينية ومع أنها كانت الوسيلة الأعم لتدوين الكتابة المسمارية إلا أنها لم تكن الوسيلة الوحيدة، فقد كان من الممكن تدوين

الكتابة المسمارية على ألواح من الغضار مصنوعة بأشكال أخرى مثلاً الأسطوانات الموشورية أو المخروطية أو حتى (بشكل مفتاح لبعض التعاويذ) نماذج من أعضاء حيوانية.

ولكن حدث تطور من نوع آخر وهو استعمال الألواح لكتابة مصنوعة من قطع خشبية مغطاة بالشمع كانت الإشارات تطبع عليها، وكان من الممكن كتابة الإشارات المسمارية عن طريق نحتها بالإزميل على حجر أو معدن، أو أن تطبع على الغضار أو أحياناً كانت الكتابة المرسومة ترسم بالألوان على سطح من السطوح، ولكن في حالات معينة كانت تعتبر مجرد إضافة إلى لوح منقوش بالطريقة العادية.

وكان الغرض الأصلي الذي جعل السومريين يخترعون الكتابة حفظ السجلات والوصولات والبضائع الموجودة في المخازن، ولكن سرعان ما تطور استعمالها إلى تطبيقات أوسع، ففي أوائل الألف الثانية كانت الوثائق البابلية المكتوبة بالخط المسماري تشمل الأساطير والقصص البطولية وأدب الحكمة (أي: النصوص التي تشبه الأمثال التوراتية) والقوانين والملاحظات الفلكية والمسائل الرياضية والسجلات التاريخية وقرارت المحاكم والجداول التاريخية (أي: تتابع السنوات التي يطلق على كل منها الاسم المشتق من الحوادث التي حدثت فيها) والتعليمات الزراعية، وعقود العمل، والوثائق الإدارية والنصوص المستعملة في العبادة والطقوس المستعملة لأغراض السحر، وسلسلة من التعاويذ والتمارين المدرسية اللازمة للكتبة المتمرنين والمعاهدات الدولية والقواميس التي يدعوها المهتمون بالتاريخ الآشوري باسم جداول المترادفات، وكذلك الدراسات في قواعد اللغة السومرية، وألوف الرسائل الموجهة لأشخاص عاديين أو إلى الملوك وحتى الآلهة.

ولقد ساهم الآشوريون في تراث السومريين، وكانت معظم أنواع النصوص التي وجدت في آشور وجميع الكتابات الأدبية كلها أخذت من بلاد بابل ولكن

كان هناك بعض الاستثناءات وكان اثنان من هذه ذات أهمية لا بأس بها بالنسبة لمعرفتنا بالتاريخ الآشوري.

المخطوطات الآشورية الملكية

كانت المخطوطات الملكية الآشورية تمثل أشهر الأشكال الأدبية التي تطورت في آشور وابتداءً من زمن السومريين في جنوب منطقة ما بين النهرين في الألف الثالث ق.م.

لقد كتب الملوك مخطوطات لها علاقة بالنذور أي: المخطوطات التي تسجل تكريس بعض الأشياء المقدمة للإله أو تصنع لأجل الآلهة، وكانت مثل هذه المخطوطات تتخذ أشكالاً مختلفة بسيطة أو معقدة، ولكن العنصر الأساسي كان تحديد شخصية الملك والتعريف به وذكر الهدايا أو الأعمال الخيرية والمناسبة التي حصل فيها الإهداء، ومع مرور الزمن حدثت تطورات قد أنتجت أخيراً الإطار النهائي الآتي:

أ- اسم الملك، ألقابه، وعلاقاته الخاصة بالآلهة.

ب- ذكر الحوادث التي تثبت النقطة الزمنية.

ج- ذكر أعمال الخير: عادة عملية بناء.

إن العنصر (ب) يقدم الوسيلة التي يستطيع فيها الملك أن يشير إلى الأشياء الأخرى التي قام بعملها لمرضاة الآلهة، ففي آشور بعد أن تطورت الفكرة التي مفادها أن الإله آشور ادّعى السيطرة على العالم أصبحت رواية حملات الملك لمرضاة الإله مناسبة لتلك النقطة.

وهكذا وابتداء من عام ٢٠٠٠ ق.م بدأ الملوك الآشوريون (وليس ملوك بابل) يطورون هذه النقطة فأصبحت تمثل وصف ما كان الملوك يفعلونه في المجال العسكري، وبعد قبول هذه الممارسة فقد فتح هذا إمكانات معتبرة لتمجيد الملك لنفسه، وقد تطور هذا ليصبح شكلاً تكلم فيه الملك بضمير المتكلم مباشرة ويذكر كل ما فعله في المجال العسكري أثناء حكمه ويصلح للتأريخ، ويمكن

ترتيب التفاصيل بعدة طرق إما عن طريق المناطق منطقة بعد منطقة أو عاماً بعد عام.

وإن ترتيب التفاصيل بعام بعد عام من الممكن أن ندعوها حوليات إنما حدثت في آشور في زمن تغلات بيلاسر الأول (١١١٥-١٠٧٧) ولقد اقترح أن هذا النوع مدين إلى الحثيين ولكن ليس هناك ما يشهد لدعم هذا الرأي عدا الحقيقة التي مفادها، أن الحثيين كانوا يملكون نصوصاً بشكل حوليات في فترات أقدم، ومع أننا نفكر أن هذه النصوص من هذا النوع هي نصوص تاريخية. إلا أنها كانت سابقاً لا تزال نقوشاً تعليمية تنتهي دوماً برواية مناسبة عن عمل خيري، من العادة أن يكون بناء معبد أو قصر.

ومع أن هذه المخطوطات كانت مثيرة ولذيذة بالنسبة لنا، إلا أن معظم هذه المخطوطات لم يقصد بها في أول الأمر أن تكون مخصصة للبشر قطعاً أو أن يراها البشر، وذلك لأن كثيراً منها قد كتبت على أسطوانات أو مخاريط ودفنت في أسس بناية يصفون عملية ترميمها بحيث لا يراها إلا الآلهة.

وقد كان من المعروف أن ليس هناك من بناية دائمة البقاء وأنه فيما بعد سوف يعمد بعض الملوك الأنقياء إلى الحفر وحتى أساسات البناية وعندها سوف يجدون المخطوطات ويقرؤونها، وكان هناك صيغة نظامية مكتوبة في نهاية كثير من المخطوطات الملكية وهي تغطي هذه المناسبة:

((في الأيام القادمة إنني أوصي أي ملك من الملوك من أبنائي وأحفادي الذين أعلن الإله آشور أنه قد نصبه ليرعى البلاد والشعب، إنني أوصيه أنه عندما يصبح هذا القصر قديماً وعلى وشك السقوط أن يعيد ترميمه، وأن ينظر إلى النقوش التي كتبت وتحمل اسمي وأوصيه أن يدهن هذه النقوش بالزيت وأن يريق الخمر عليها تكريماً، وأن يعيدها إلى مكانها، عند ذاك سوف يسمع الإله آشور صلاته)).

لم تكن جميع المخطوطات الملكية مدفونة تحت الأرض إذ إن بعضها كانت منقوشة على ألواح نافرة موضوعة فوق جدران القصور، والأخرى كانت منحوتة

على التماثيل الحجرية الملكية التي تمثل الثيران والأسود والتي كانت تحرس بوابات المدينة.

وبعضها كانت منحوتة على الأنصاب الملكية المقامة على الحدود النائية لكي تخلد ذكرى الانتصارات الآشورية التي حدثت هناك، ولم تعد بعض هذه النقوش من هذه الفئات مجرد نقوش للبناء في شكلها، بل قد تجاوزت الأطر الأصلية وأصبحت نصوصاً مختصة لتمجيد مآثر الملك، وربما تكون هذه التطورات قد حدثت كنتيجة لوجود هذه الأنصاب نفسها أو لوصف بعض أنشطة الملك نظراً لأنها كانت تعتبر من الأعمال الدينية الخيرية المقامة على شرف الآلهة تضاهي في قيمتها المعنوية بناء معبد أو ما شابه ذلك، ونحن نرى إمكانية صحة هذه التفاسير بوضوح في بعض النقوش المنحوتة على بعض التماثيل الهائلة التي تمثل الأسود والثيران التي أقامها آشور ناصر بعل.

وكان القسم الأعظم من هذه النصوص يمثل إطراءً وتمجيداً للملك عند قيامه بحملة حربية في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط، ولكن قبل أن ينتهي النص ينتقل الملك فجأة من الشؤون العسكرية إلى الإدّعاء أن الإله نينوترا ونيرجال قد أوكلاه برعاية شؤون الحيوانات، وأمراه أن يصطاد هذه الحيوانات وسرعان ما ينتقل النص لذكر مجموعة من الفيلة والثيران البرية والأسود التي قتلها الملك، ويبدو أن هذا كان تكريماً ضمنياً للآلهة بالنسبة لصيد الحيوانات البرية.

ومن الممكن أن نفترض أن الغرض من إقامة نصب منقوش وعرضه في مكان عام أن يقرأ جميع البشر هذه النقوش بصورة عامة وبإسهاب، ولكن ولو وضعنا النصب في وسط مدينة آشور المكتظّة فإن ذلك يظل مستحيلاً لأن المتعلمين الذين يستطيعون القراءة هم أقليّة صغيرة، ولكن حينما تذهب الأنصاب في الحدود الشمالية والشرقية البعيدة حيث السكان جهلة بالنسبة للغة الأكادية التي كتبت بها النقوش، ما عدا بعض الضباط في الأقليات الآشورية المبعثرة، فإن إمكانية قراءة السكان لمثل هذه النقوش تكون أقل، ولكن لو كان المقصود بهذه النقوش تذكير الشعوب المغلوبة بعظمة آشور، فإن الملك الآشوري سيكتب هذه

النقوش بلغتين أي: الأورارتية والأكادية وذلك كما فعل أحد ملوك اورارتو في إحدى المناسبات.

وبالنسبة للنقوش النافرة المتواجدة في القصور الآشورية، فلم يطلع عليها سوى عدد من موظفي القصور، وبعض الموظفين من الزوار والأجانب المرموقين.

جداول ليمو

هنالك نوع ثان من النصوص ذات بعض الأهمية التاريخية التي تطورت داخل آشور وهذه ما تدعى (جداول ليمو).

وقد كان اسم ليمو يعني: الموظف المسؤول عن إقامة المراسيم الحكومية الدينية في مدينة آشور، وقد كان الملك والموظفون الكبار في الدولة يخدمون بشكل (ليمو)، بالدور كل منهم لمدة سنة واحدة، الملك في أول سنة من سنوات حكمه، والآخرون يتبعون ترتيبات تتم بالقرعة، وفيما بعد حسب الترتيب في المكانة في السلطة.

وقد كانت هذه السنة تعرف رسمياً باسم الليمو الذي خدم فيها، وهكذا كانت جداول الليمو تشير إلى تتابع السنوات.

هناك عدة أشكال من قوائم الليمو بعضها كان يقتصر على أسماء الموظفين، بينما كانت الأخرى تذكر الاسم وبعده أسماء الولايات التي خدم فيها الموظف بالإضافة إلى نبذه قصيرة عن الحملة التي قام بها أو أي حادث آخر.

وفي ما يلي سنذكر مقتطفاً قصيراً من القائمة التي تتحدث عن السنوات التي كانت سابقة أو لاحقة لاعتلاء الملك تغلاي بيلان العرش:

بالنسبة لليمو نغرال – ناصر	والي نقيبين	نمرد في كانج
بالنسبة لليمو نابو يعل آشور	والي أرنبيما	في الثالث عشر من أيار اعتلى تغلان بيلاير العرش ، وفي تشرين ذهب إلى منطقة بين الأنهار إلى الشمال الغربي من منطقة ما بين النهرين .
بالنسبة لليمو نابو يعل آشور	والي كالخ	إلى نامري
بالنسبة لليمو تغلان بيلامر	ملك آشور	إلى أرباد انتصر على أورارتو
بالنسبة إلى ليمو نابو داني – نانى	والي تورنان	إلى أرباد

هذا ، وإن القطع المتناثرة من جداول ليمو تتداخل فيما بينها ، وهذا يساعد على إعادة ترتيب أجزائها مدة (٢٦٤) عاماً متتابعاً، ولحسن الحظ أن إحدى فقراتها تشير إلى الحادث التالي:

(في شهر سوان "حزيران" حدث كسوف الشمس).

والآن ونظراً لأننا نعلم وبشكل تقريبي السنة التي حدث فيها هذا الحادث عندها يستطيع علماء الفلك أن يحسبوا بدقة في أي سنة رؤي كسوف الشمس في آشور في شهر حزيران، ويظهر أن هذه السنة هي سنة (٧٦٣ ق.م).

هذا ، وبعد تأكيد هذه السنة يمكن تأريخ السنوات إلى (٢٦٤) في هذه السلسلة، وبذلك يصبح التاريخ الآشوري خلال هذه الفترة دقيقاً جداً.

وإن ملاحظة وتدوين الحوادث كل عام ولو كان باختصار يعطينا إطاراً تاريخياً ثميناً لتلك المرحلة التي تبلغ قرنين ونصف، ولكن ليس كلها تماماً نظراً لأنه بالنسبة لجزء من هذه الفترة فإن جداول ليمو قد حفظت أسماء الموظفين فحسب.

تقارير على التنجيم

هناك قسم ثالث من النصوص المتعلقة بآشور كان غير ذي علاقة مباشرة بالتاريخ وهذه النصوص تختص بالتقارير التنجيميَّة التي ذكرت عنها بعض الأمثلة.

ولكن علم التنجيم لم يكن معروفاً أبداً في بابل، ولكن في الألف الثالث بالتحديد عرفت في آشور فقط تقارير تنجيميّة من هذا النوع وكانت تقدم بشائر عن الفأل بالنسبة لخير ورفاهية الدولة.

المواحي

وجدت بعض النصوص التي تعود إلى الألف الأول ق.م في آشور وهي تحمل رسائل تختص بخير البلاد ولكنها تتألف من تقنيات مختلفة، فهي ليست آشورية صحيحة، نظراً لأن هناك أمثلة منها في أجزاء أخرى من الشرق الأدنى القديم وبما في ذلك التوراة ولكن بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين كانت هذه منقولة من آشور، وحتى في آشور لم تكن شائعة والنصوص التي نعنيها تختص بالمواحي التي يصدرها أشخاص ملهمين وعادة كنَّ نساء من اللواتي كن يدعين أنها رسائل موجهة إلى الملك من أحد الآلهة وفي ما يلي مثال ممّا تقوله المواحي:

(لا ينبغي أن تخاف يا أسرحدون، إنه أنا الإله الذي يتحدث إليك، وقد فتشت في أعماق قلبك مثل والدتك التي وهبتك الحياة، هناك ستون إلهاً عظيماً يقفون معي لحراستكم فالإله (سن) واقف بجانب يدك اليمنى، والإله شمش واقف

بجانب يدك اليسرى، وهناك ستون إلهاً آخرون يقفون حولك وهم يطوقون الإعصار.

لا تثق بأي إنسان بل وجه عينيك إلى جهتي انظر إلي.

أنا عشتار إلهة أربيل ولقد وهبتك عشتار الهناء.

وعندما كنت صغيراً حملتك بين يدي لا تخف بل احترمني.

الرَّسائل

إن معظم أنواع الكتابات التي وجدت في آشور كانت مأخوذة من بابل، وكان هو الحال بالنسبة لمعظم النصوص التي من الممكن اعتبارها أدباً بالمعنى الضيق، أو الأمثلة التي كانت حولها من أنماط آشورية ولكنها مأخوذة من نصوص معروفة بشكل جيد من بابل، هذا وإن أهم الأمثلة من الفئة الأخيرة وعلى الأقل بالنسبة للمعلومات التي يقدمونها لنا وهي الرسائل. إذ هناك بعض من هذه الرسائل قد أتت من الفترة الآشورية القديمة (وهي تبدأ اعتباراً من الألف الثاني) وقد وجدت بين بعض الوثائق التي أتت من كلاه وكيا.

وهناك بعض الرسائل الخاصة المرسلة من عدة مواقع تعود إلى الفترة الآشورية الوسطى (وهي نهاية الألف الثاني) وهناك مجموعات من الرسائل المرسلة من كلاه شيرجات (آشور القديمة) ومن تل حلف (جوزين القديمة) ومن نمرود (كالاخ القديمة) ومن (كويونيجيك) (نينوى القديمة) هذا وإن العدد الأكبر منها الذي يبلغ حوالي ألفين أرسلت من (كويونجيك) بالإضافة إلى حوالي مئتين من نمرود، ويرجع تاريخ المجموعتين الكبيرتين إلى القرن الثامن والقرن السابع ق.م أما الأخرى فهي أقدم قليلاً.

ومع أن هذه المجموعات تحتوي على بعض الرسائل الخاصة إلا أن الباقي كانت عبارة عن مراسلات تخص الدولة، ومعظمها كان مرسلاً إلى الملك وقليل منها مرسل منه، وبالنسبة إلى الرسائل من الفئة الأخيرة، فإن الألواح التي نملكها

ينبغي أن تكون نسخاً احتفظ بها للحفظ وذلك نظراً لأن النسخ الأصلية ينبغي أن تكون قد غادرت العاصمة وأرسلت إلى الأشخاص من المعينين في الولايات.

وقد كانت الرسائل الموجهة للملك مؤلفة من فئتين إحداهما تتألف من رسائل أرسلها خبراء الملك وتختص بالسحر والغيبيات، وقد فسر هؤلاء المتعلمون كثيراً من علائم الفأل للملك وأخبروه متى يمكنه فعل بعض الأشياء ومتى لا يمكنه ذلك، نظراً لأنه كان شديد الإيمان بالخرافات، وسوف نورد مثالاً أو مثالين يعطياننا فكرة عن محتويات تلك الرسائل:

((إلى سيدي الملك من خادمك عشتار - شم – أيديسن أرجو أن يكون سيدي بصحة جيدة وأرجو أن يباركك يا سيدي الملك الإله نابو والإله مردوخ يا سيدي.

وبخصوص معبد الإله ناشوخ الذي أرسل لي سيدي الملك رسالة بخصوصه قائلاً:

اختر يوماً يكون ذا فأل حسن واكتب لي كيف تسير أمور بنائه.

وأنا أقول إن شهر حيوان (حزيران) مناسب واليوم السابع عشر منه أيضاً مناسب، ومع ذلك فإن هذا الشهر قد انتهى وذهب وهكذا متى سوف يقدرون عملها تمام العمل؟

إن أيلول شهر جيد وهو الشهر المناسب لهذا العمل، دعهم يعملونه ودعهم يبدؤون بالعمل خلال ذلك الشهر)).

وهناك رسالة تعتبر مثالاً عن الفأل الحسن وهي تعود إلى فترة تنصيب ملك بابل، إذ عندما حذر الملك بالفأل السَّيئ أخطر للانسحاب واتخذ لقب مزارع بشكل مؤقت بينما حكم حاكم بديل بالنيابة عنه، وبعدها استقال ذلك البديل وهنا نورد النصف الأول من هذه الرسالة:

((إلى سيدي المزارع من خادمك نابو - زر - ليشر أرجو أن تكون بصحة جيدة يا سيدي، وأرجو أن يباركك الإله نابو والإله مردوخ مدى السنين الطويلة.

لقد كتبت لك جميع البشائر بعددها مهما كان سواء كانت من السماء أم من الأرض أو المواليد بشكل وحوش وقد ردَّدتها الواحدة تلو الأخرى أمام إله الشمش، لقد جعلتهم يطبخون ويأكلون الطيور المحضَّرة بالنبيذ والتي غُسلت بالماء ودهنت بالزيت، أما الملك البديل فقد اتخذ لنفسه نذر بلاد أكاد)).

وأما الفئة الثانية العريضة من الرسائل فقد كانت مرسلة من الموظفين الإداريين إلى الملك، ومعظمهم من الولاة وآمري الحاميات العسكرية، وكانت هذه الرسائل تتضمن الحديث عن آي شيء مع أنها كانت تعطي تفاصيل المخابرات العسكرية أو تفاصيل عن الأعمال العسكرية، وحركات أسرى الحرب، وجميع مجموعات الخيول لمصلحة الجيش وأمور الخصومات التي تحدث بين الموظفين.

الوثائق الاقتصادية

هناك عدة أمثلة آشورية عن مثل هذه النصوص التي كانت واسعة الانتشار وخلال منطقة ما بين النهرين في جميع الأوقات، وكانت عناوينها تحتوي محتويات فضفاضة تغطي عدة فئات متميزة، ولكن هناك مبررين اثنين لاستعمالها:

أحدهما: إن أهم ما نشر من النصوص الآشورية الجديدة من هذه الفئات قد عولج بشكل جماعي.

أما المبرر الثاني: فهو أن الألواح الاقتصادية العائدة لكثير من الفئات المختلفة كانت مخزونة لدى الآشوريين أنفسهم. واعتبرت جزءاً من قضايا شخصية خاصة، وتشمل أنواعاً من هذه النصوص التي تندرج تحت هذا العنوان العريض، مع أشياء أخرى كالآتي:

وثائق الأراضي التي منحها الملك، ووثائق بيع (الأراضي، والبيوت، والعبيد) وعقود الزواج واتفاقات التبني، وتقسيم الإرث، وعقود القروض (بيع الشعير، والفضة، والبرونز) والإيصالات عقود العمل (الحصاد، وبناء البيوت) وقرارات

المحاكم وقوائم الأجور، وفي بعض الحالات وبعض الفترات الزمنية كانت وثائق العقود تحفظ من التغيرات والتبديلات بشكل غير قانوني فقد كانت هذه الوثائق تحفظ في ظروف من الطين والغضار، وكان الظرف منقوشاً بمحتويات العقد أو خلاصة تلك العقود، وفي حالة نشوء خلافات كانت الظروف تكسر للكشف عن محتوياتها.

القوانين

كانت أول مجموعة من القوانين المدونة تعود إلى القرن الثامن عشر وإلى حمورابي ملك بابل، ولكن هناك مجموعات أخرى من بابل ولدينا أمثلة من آشور، ولقد اكتشفت مجموعتان من قوانين آشور في العصر المتوسط في مدينة آشور وكانت واحدة منهما تختص بامتلاك الأراضي والأخرى تختص بالنساء.

وبعكس قوانين حمورابي فلم تكن هذه مكتوبة بشكل قرارات اتخذها الملك بل كانت عبارة عن ملابسات حصلت مع رجال القانون (الذين كانوا يعملون ضمن إرشادات الملك) وتتضمن الممارسات القانونية التقليدية في مناطق معيَّنة.

ومن المهم أنه لم يعثر على أي آثار من هذه القوانين في مكتبة كيونيجيك الكبيرة المحتوية على نصوص تعود إلى القرن السابع ق.م، ومن الممكن أن يكون هذا ناتجاً عن المصادفة ولكن ليس هذا محتملاً نظراً لوجود كميات هائلة من محتويات المكتبة، وحتى التي كانت بشكل قطع مكسورة، وكانت الملابسات هي أنه مهما كان غرض تأليف القوانين في الفترة الآشورية المتوسطة، إلا أنها لم تكن تخدم كمجموعة كاملة مكتوبة للقوانين الوطنية التي كانت تستعمل كأساس للقرارات القانونية.

ولم تكن هذه القوانين أيضاً جزءاً نظامياً من منهاج الدراسة الذي يدرسه الكتبة، وإلا فمن الواجب أن نكون قد وجدنا أمثلة متأخِّرة عنها وهي بشكل تمارين نسخت لاستعمال الطلاب (شأنها شأن نصوص أخرى).

النصوص المقتبسة من بابل مباشرة

إن الفئات التي ذكرت حتى الآن إما أنها قد تطورت في آشور أو أنها صنعت في آشور على غرار النماذج البابلية، ولكن عدا عن هذه فإن أغلبية النصوص التي وجدت في آشور كانت مقتبسة من بابل بشكل مباشر، وإن أكثر الأمثلة التي تؤيد هذا القول هي مجموعة من النصوص التي وجدت في المكتبة الملكية في نينوى التي اكتشفت عندما كشفت الحفريات عن كويونيجيك في القرن الماضي، وقد جلبت هذه النصوص إلى المتحف البريطاني، والحقيقة أنه كان هناك أكثر من مكتبة نظراً لأن بعض التذييلات ذكرت أن النصوص قد وضعت في القصر، وفي تذييلات أخرى ذكر أن النصوص تنتمي إلى مكتبة المعبد في نابو.

ولذلك ونظراً لأنها كانت تحت سيطرة ملك واحد وأنها جميعها الآن موجودة بشكل المجموعة نفسها في المتحف البريطاني لذلك فمن المناسب أن نعالجها كوحدة منفردة، وقد رتبها العالم الألماني كارل بيزولد **Carl Bezola** بشكل خمسة مجلدات عنوانها ((فهرس الألواح المسمارية في كويونيجيك)) ومجموعاتها موجودة في المتحف البريطاني (١٨٩٨-١٨٩٩).

وهناك عدد كبير من القطع المتناثرة لم تضبط في أي بيان أو فهرس، وإن المجموع النهائي لهذا الفهرس يبلغ ٢٥٠٠٠ أو أكثر ولكن ونظراً لأن كثيراً منها كانت عبارة عن قطع مكسورة وليست ألواحاً كاملة لذلك يتناقص العدد إلى (٥٠٠٠) وفي بعض الحالات فإن ألواحاً عدة تكرر النص ذاته ولهذا فإن العدد المقدر ينحصر ما بين ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح.

ولقد وجدت مكتبات أصغر تحتوي على نصوص مسمارية في مواقع آشورية أخرى ولاسيما في مدينة آشور وكالاخ، وأيضاً في موقع سلطان تيب (حوزيرنيا القديمة) قرب حرّان في جنوب شرقي تركيا، ولقد نشرت أعداد كثيرة ثبتت أهميتها بالنسبة لمعرفتنا بالشؤون الطقوسية في آشور مع أنها تشير إلى مظاهر أخرى من الحياة الآشورية أيضاً.

ولذلك فإننا نعتبر أن القوانين الآشورية في الفترة المتوسطة قد أتت من آشور، هذا وإن المجموعة التي وجدت في كالاخ إنما تؤلف مكتبة معبد الإله نابو الذي كان يحتوي على مكتبة أيضاً نظراً لأنه كان هو إله الكتبة، ولكن هذه لم تنشر بعد، ما عدا استثناءات قليلة أما نصوص (سلطان تيب) التي نشرت في مجلدين فهي تحتوي على كثير من المادة الأدبية. لم تأتِ جميع الألواح والقطع المتناثر المسجلة في فهرس كويونيجيك في المتحف البريطاني لم تأت من مكتبة نينوى أو من نينوى نفسها على الإطلاق.

إذ لم تشمل وسائل الحفريات في القرن التاسع عشر أي تسجيلات دقيقة حول البقعة التي وجد فيها كل لوح مسماري، وبالنسبة لموقع مساحته حوالي مائة فدان ويحتوي على عدة قصور، فليس من الضروري أن نفترض أن جميع الألواح التي وجدت قد أتت من نفس البناية.

والحقيقة أننا نعلم من محتويات الألواح أن بعض تلك الألواح التي أظهرت ضمن مجموعة كيونيجيك قد أتت من أحد المواقع غير موقع كيونيجيك، ولكن هناك مثلاً عدة ألواح يرجع تاريخها إلى قرن من الزمان بعد سقوط نينوى.

ولكن حتى ضمن الأكثرية الهائلة التي أتت بالتأكيد من كيونيجيك إلا أن هناك البعض التي ظهر أنها ليست من مكتبة آشور بانيبال.

وإن معظم الرسائل الرسمية من المحتمل أن تكون ضمن بعض المحفوظات الرسمية الظاهرة من المكتبة، وإنه ومن المؤكد أن المكتبة الوطنية الملكية لا يمكن أن تكون مأوى تلك الوثائق الاقتصادية التي كانت تعالج قضايا مثل عقود بيع خاصة بالعبيد أو البيوت، وعقود تختص بالحصاد وما شابه ذلك، ولقد تعززت هذه الاستنتاجات عن اكتشاف وثائق اقتصادية مشابهة في نينوى في السبعينات من القرن العشرين (١٩٧٠م) في منطقة بعيدة عن تلك القصور.

ومع ذلك فإن معظم الألواح التي وجدت في مجموعة كيونيجيك لم تكن تنتمي إلى القصر الملكي أو المكتبات الملكية في نينوى.

إلا أننا نعلم شيئاً عن أحد هذه المكتبات وهذه المعلومات أنها كانت بفضل آشور بانيبال، مع أن النواة تعود إلى أسلافه الذين صنع بعضهم بعض المجموعات من الألواح.

وابتداءً من حوالي ١١٠٠ ق م لقد أسس تغلات بيلاسر الأول مكتبة في أحد المعابد في مدينة آشور قد عرف حوالي المائة من الألواح فيها من اللقيات التي وجدت هناك.

ولكن لا يُشك أن مجموعة آشور بانيبال في آشور هي أعظم جامع للألواح، ولقد نشرت أنشطته المختصة ليس بذكر اسمه في نسبة كثير من الألواح التي وجدت في نينوى فحسب، بل عرفت أيضاً عن طريق إحدى الرسائل التي كانت تعالج هذه القضيَّة، والرسالة هي كما يلي:

((هذا أمر ملكي إلى كودورانو: آمل أن تكون بخير، وأن تكون مسروراً في اليوم الذي يقع بصرك فيه على هذا اللوح، خذ تحت إمرتك (عدة أشخاص سماهم، والخبراء في الكتابة من بورشيبا – وهي مدينة قرب بابل) وفتش عن جميع الألواح التي سوف تجدها في البيوت، والألواح المتواجدة في (ايزيدا) وهو المعبد الرئيسي في بورشيبا والتي إلهها هو نابو.

وبعد ذلك تستمر الرسالة الملكية وتذكر بعض النصوص سلسلة من النصوص التي كان يرغب الملك في إيجادها، وهذه كانت تشمل سلسلة من المعارك بالإضافة إلى الألواح التي تنتمي إليهم مهما كان العدد.

مثلاً: النصوص الطقوسية من نوع الصلاة التي تدعى: "رفع اليد" والنصوص التي تدعى: "النقوش على الأحجار" و:"ما هو مفيد للملك".

وتستمر تفاصيل تعليمات الملك كما يلي:

((فتش عن وأرسل لي أي ألواح نادرة من الألواح المعروفة لديك وهي غير موجودة في آشور....

وينبغي أن لايستنكف أحد عن إظهار الألواح التي تطلبها، وإذا هناك أي لوح أو أي طقوس لم أذكرها في حين أنك تجد هذه الألواح مناسبة لقصري عندها احصل عليها وأرسلها لي)).

ومع أن هذا الأمر الملكي لم يحتوِ على اسم الكاتب (ولا تشير الوثائق إلى ذلك) إلا أن ذكر آشور لا يبقي مجالاً للشك أن هذه الكتابة هي كتابة الملك الآشوري، وإن مظاهر اللغة تظهر أن هذه الرسالة قد كتبت قبيل سقوط الإمبراطورية الآشورية، ولهذا فإن الملك المقصود معرفته هو آشور بانيبال.

وتظهر محتويات الرسالة السبب الذي جعله يجمع هذه الألواح، ولهذا فإن الفئات التي تقع تحتها هذه الألواح تعاويذ الفأل، والطقوس والصلوات والابتهالات وكان لهذه النصوص أهمية خاصة.

فقد كانت الحياة على الأرض مغطاة بظلال ما وراء الطبيعة التي كانت تأثيراتها تدل على عدم التنظيم مثل قضية الخط، وليس هناك من شخص يهتم بهذه الأشياء إلا الملك وهو تجسيد للدولة، ففي أي وقت ربما تحدث المصيبة، ولكن إذا تمت قراءة علاماتها كما يجب فإن إنذاراً سوف يتم إعطاؤه لإظهار الأخطار القادمة، وهكذا فسوف تُتخذ خطوات وتدابير سحرية للتخلص منه، وهكذا فقد أظهرت نصوص الفأل أن هناك خطراً يهدد الدولة وليس هناك سوى الطقوس والابتهالات والصلوات، القادرة على تقديم وسائل للتغلب على هذا الخطر.

في هذه الرسالة كان من الواضح أن آشور بانيبال قد صادر الألواح الموجودة في معبد بورشيبا وقد وجدت ألواح كان مصدرها بابل (لكونها متميزة عن النسخ المأخوذة من ألواح بابلية) في مكتبته، وكان هناك أشياء أخرى أخذها من العواصم الآشورية القديمة وهي مدينة آشور وكالاخ، ولكن العدد الأعظم من الألواح الموجودة في مكتبته (أو بشكل أدق في مكتباته) قد نسخت بشكل خاص خدمة له.

ونحن نعلم مثل هذه التفاصيل من التذييلات، فالتذليل إذا قصد به اللوح المسماري ما هو إلا تصريح مكتوب في النهاية يقدم بعض التفاصيل حول أحد الألواح، وأما تلك التي استعملها آشور بانيبال فهي واقعة ضمن ثلاثة وعشرين نموذجاً وهناك ثلاثة أمثلة كما يلي:

((آشور بانيبال الملك العظيم، الملك القوي، ملك الجميع، ابن اسرحدون ملك آشور وهو ابن سنحاريب الذي كان هو أيضاً ملك آشور، لقد كتبت هذا اللوح وأنا بصحبة خبراء في كتابة الألواح وكتابة الألواح الأصلية من بلاد آشور وسومر وأكاد (أي: بابل) فحصتها وراجعتها ثم وضعتها داخل قصري لاستعمالي الملكي الخاص، إنني أدعو على أي شخص يمحو اسمي ويكتب اسمه بدلاً من اسمي أن يمحو نابو الكاتب العالمي اسمه أيضاً)).

والمثال الثاني يمثل أطول نوع من الأنواع التي وجدت:

((أنا آشور بانيبال، ملك الجميع، ملك آشور الذي وهبني نابو وتاشميتو (زوجة نابو) الذكاء (في الأصل أذناً واعية) ووهبني عيوناً صافية لأرى فيها أثمن أخبار المعرفة، أنا الذي من بين الملوك الذين سبقوني ولم يفهم هذه الأمور غيري، لقد كتبت على الألواح حكمة نابو أو رسم العلامات المسمارية مهما كان عددها وبعدها فقد فحصتها وقارنتها وقد وضعتها في مكتبة معبد سيدي الإله نابو السيد الأعظم، تلك المكتبة التي هي في نينوى وذلك حفظاً لحياتي وحراسة روحي بحيث لن يصيبني المرض، وكذلك لتأمين وتقوية أسس عرشي: أيها الإله نابو انظر إليَّ نظرة عطف وحبور وبارك مملكتي، وخذ بيدي كلما دعوتك وأرجوك أن تبارك خطواتي وأنا سائر في بيتك ومعبدك، وعندما أضع هذه النصوص في معبدك وأمامك انظر إليها وتذكرني بعطفٍ وحنان.))

إن هذا التذييل يكشف لنا أشياء كثيرة فهو يوضح أن اهتمام آشور بانيبال بالألواح لم يكن لمجرد الحماس الأدبي بل كان فيه عنصر ديني قوي، فلم تكن النصوص أدباً بقدر ما هي نص من نصوص الكتب المقدسة، وذلك بما تعنيه تلك الكلمة من معانٍ لها علاقة بالأسس التوراتية فهي تحتوي على حكمة نابو، وهذه

النصوص القديمة كانت كلمات مقدسة أيضاً، وهذا هو السبب في ورود التأكيدات والتذييلات بوجوب فحص ومقارنة هذه النصوص بالنصوص الأصلية التي كانت تحمل الأشكال القديمة.

وحتى عندما كانت التذييلات مختصرة جداً إلا أنها كانت تشير إلى التطابق مع النص الأصلي كما هو الحال في المثال الآتي:

لقد كُتب وقُورن طبقاً

لكلمات اللوح الأصلي من كوثاه.

هذا وإن الاهتمام الذي ظهر في التذييلات التي ذكرت لتأمين مصداقية ألواح هذه المكتبة ينبغي أن تكون قد عكست نظاماً بارعاً من أنظمة ترتيب المعلومات.

دعمت وجهة النظر هذه بوجود فهارس لعناوين النصوص، ولسوء الحظ ونظراً لعجز علماء الآثار القدماء عن تسجيل الأمكنة التي وجدت فيها هذه الألواح والتفاصيل المرفقة بها إذ ليس لدينا أي معرفة من الدرجة الأولى عن كيفية خزن هذه الألواح في مكاتب نينوى.

ومع ذلك فقد ملأت الحفريات التي حصلت في نمرود هذه الثغرة، فقد أتت الرسائل الرسمية التي وجدت هناك من أرض غرفة في البناء الواقع هناك والمعروف بالقصر الشمالي الغربي، ولا تزال الحاويات التي حفظت فيها هذه الألواح ترى هناك.

وكانت هذه الحاويات بشكل صناديق يبلغ حجم الواحد منها قدماً مكعباً ونصف قدم، وهي مصنوعة من الآجر المشوي الكبير، ويبدو أنه من المحتمل أن تكون ألواح مكاتب آشور بانيبال قد خزنت بنفس الطريقة.

إن أنواع النصوص التي وجدت في مكاتب آشور بانيبال تعطينا دلالات عن وجود أدب تعليمي مدرسي ربّما كان من أصل بابلي وهو مستعمل في آشور، ولا يقدم لنا الاستعراض التالي قائمة مستفيضة بل هو يدلّ على بعض الأصناف الأساسية للنصوص.

وأما الأصناف الموصوفة من قبل في أول هذه الكتب فلم تذكر مرة ثانية ما لم يكن هناك نقطة خالية ينبغي ذكرها حول هذه الأصناف.

نصوص تعاويذ الفأل

كان أكبر فئة من فئات النصوص التي وجدت في مكتبة آشور بانيبال مختصة بالفأل، وقد قدِّر أن أكثر من ربع المجموع المقدر بـ ١٠٠٠-١٢٠٠ لوح كانت من هذا النوع.

ولقد شكلت قضية ملاحظة ومعرفة الفأل في الثقافة البابلية والآشورية جزءاً هاماً بارزاً من هذه الثقافة.

فقد كانت وسيلة يستطيع بها الملك أو أي شخص عادي أن يعرف مسبقاً أي حوادث سيئة تنتظره بحيث يستطيع القيام بالخطط اللازمة لتجنب النتائج الخطرة.

ولقد نشأ في دولة آشور في الألف الأول شكل من أشكال التغييرات وهو استعمال النصوص الأثرية، ولقد أنتجت بابل ومن وقت مبكر أنواعاً أخرى كثيرة وهي الأصناف التي ذكر أكثرها في مكتبة آشور بانيبال.

وإن قضايا الفأل يمكن ملاحظتها في عدد واسع من الحالات والظروف مثلاً: ظهور عدد كبير من النمل أو الكلاب أو المواشي أو الغنم أو الحيوانات الأخرى أو الطيور أو الأفاعي أو العقارب أو الأحلام والمنامات، أو من ظهور النار أو من الدخان أو من نماذج طفو الزيت فوق الماء، أو من الممارسة الجنسية للبشر، أو من الولادات الوحشية، وقد رتبت هذه الحالات من الفأل بشكل تتابع طويل اتخذ في المستقبل، على المدى البعيد من الزمن شكلاً رسمياً أو دينياً.

وقد عرفت مثل هذه النصوص بشكل تقني كسلاسل لكل واحدة منها اسمها الخاص ووضعها الخاص مثلاً: إذا كانت المدينة مبنيَّة على تلة إلخ..

ولكن الحقيقة أننا نحتاج لصفحات عديدة لنعطي أمثلة على كل نوع من الأنواع الرئيسية ولكن فيما يلي نوضح بعض هذه الأشكال:

إذا رأى أي رجل مناماً يظهر فيه كأنه من صانعي الأختام فإن ولده سوف يموت

وإذا رأى نفسه يقوم بعمل قصار للنسيج بواسطة النقع أو الإحماء

فإذا كان ذلك الرجل فقيراً فإن ذلك يعني: أن المصائب سوف تطارده ولن تصيبه.

إذا صب الإنسان الماء على باب داره واتخذ الماء المصبوب بشكل أفعى.

فإن هذا الرجل سوف يمارس شيئاً من الأفعال الشريرة.

وإذا رأى المرء نفسه مقطراً بالثاليل.

فإنه سوف يجد طعاماً يأكله إذا حدثت مجاعة في بلده.

نصوص تعليم الكتبة

لقد كانت هذه المرتبة الثانية لأهم مجموعة من النصوص وأصلاً كانت هذه عبارة عن مضاعفات مصاحبة للمعرفة التقنية الأساسية المطلوبة لتأهيل الكتبة في اللغة الأكادية والسومرية.

وكانت هذه تشمل قوائم من العلامات المسمارية مع تفاسير وقوائم مشابهة، وقوائم من الكلمات السومرية أو الأجنبية مع ترجمات أكادية ونصوص مكتوبة بلغتين: لغة سومرية ولغة أكادية مشابهة في أساسها لموسوعة روجيه (**rogct's Thesayus**).

الطقوس والابتهالات

تشمل هذه الرجاء المباشر من الآلهة وما ندعوه طقوساً دينية وسحرية لتقديم الحماية ضد الشر أو لإطلاق سراح شخص من تلك القوى الشريرة، وقد كانت بعض هذه النصوص مخصَّصة للطقوس الملكية الرسمية بينما تطبق الأخرى على فرد من الأفراد المهددين بالمصائب أو المصابين بها.

ولقد ذكرنا بعض المقتطفات من هذه الفئة في الفصل الثالث عشر من هذا الكتاب والنصوص التي نحن بصددها تشمل سلسة مستعملة ضد عمل السحر، وأخرى ضد الأرواح الشريرة التي كانت مخفيَّة وغير ظاهرة وباستطاعتها أن تهاجم الإنسان في أي زمن وفي أي مكان، وهناك سلسلة ثالثة تحمل اسم الحرائق وهي مأخوذة من الابتهالات والطقوس المصاحبة لهذه الظواهر.

وكانت تستعمل لعلاج أي رجل يشكو من مرض يظن أنه قد أصابه من دخول إحدى الأرواح الشريرة إلى جسده نتيجة لارتكابه إحدى الممنوعات الدينية أو المحرمات أو نظراً لاقترافه ذنباً من الذنوب، وهناك مجموعة خاصَّة تعيِّن وتحدد أسباب الإصابة وتشمل الذنوب التي نصنِّفها حسب معاييرنا الحديثة بأنها خرافات ضمن المجتمع والدين ومن الممكن أن يكون الأذى ناتجاً:

عن الممنوعات الشريرة التي تناولها في طعامه.

وعن كثير من الأعمال السيئة والذنوب التي ارتكبها.

وعن تفريقه جماعة من الناس

وعن الجماعة المرتبطة ارتباطاً وثيقاً والتي فصلها بعضها عن البعض الآخر.

وعن عدم احترامه لأحد الآلهة وإحدى الآلهات

وعن حنثه بوعد قدَّمه من قلبه وفمه ولم ينفذه.

وهناك قسم من هذه السلسلة يشير بشكل حازم إلى الآثام الاجتماعية والعرقية واعتبارها بسبب من الأسباب إصابة الإنسان بالأذى وهذا القسم يدعو إلى التخلص من:

أن فلاناً الفلاني، ابن فلان الفلاني وآلهة فلان الفلاني

وآلهته الفلانية وإن أسماء فلان الفلاني مذكورة بالضبط في النص (بعد الدعوات والابتهالات يذكر اسم الشخص الصريح)

وفلان الفلاني هو مريض ومضطرب البال

وهو الذي فرق الابن عن أبيه

والذي فرَّق الأب عن ابنه

والذي فرَّق الابنة عن أمها

والذي فرَّق الأم عن ابنتها

والذي فرَّق الكنَّة عن حماتها

والذي فرَّق الأخ عن أخيه

والذي فرَّق الصديق عن صديقه

والذي فرَّق الرفيق عن رفيقه

والذي لم يطلق سراح الأسير ولم يطلق سراح العبد

والذي لم يدع الرجل السجين وهو في السجن يرى ضوء النهار.

إن معالجة الأمور المستعملة في سلسلة سحرية تشمل طقوس التطهير مع استخدام السحر العاطفي، وإن المظهر المركزي فيه هو أن الأشيبو تناول شيئاً من البصل أو التمر أو قطعة من الصوف وثم مزَّقها إرباً إرباً وألقاها في النار في الوقت الذي يتلو بعض الابتهالات، وحالما كان البصل يقشر ويترك يحترق هكذا كان الشرف حسب الإنسان يقشر ويحترق ويتلاشى.

وهناك قسم من هذه الابتهالات كالآتي:

ابتهال: حالما يقشر هذا البصلة ويرميها في النار

ويلتهمها اللهب نهائياً

بحيث لن تزرع في حديقته

ولا تقف بإزاء خندق أو قناة للري

ولا تمتد جذورها داخل الأرض

ولا يظهر لها أغصان ولا ترى الشمس

ولا تصل إلى مائدة أحد الآلهة أو أحد الملوك

وهكذا أرجو أن يقشر المرض الذي أصاب جسمي ولحمي وأوردتي كما قشّرت هذه البصلة

وأرجو أن تلتهم النار آلامي في هذا اليوم.

الأساطير والملاحم (القصص البطولية)

هناك طبقة من النصوص البابلية والآشورية تروق للقارئ العادي في هذه الأيام، ولكن ليس هناك من سبب يدعونا أن نفترض مساهمة أهالي منطقة ما بين النهرين في هذا الإعجاب.

والحقيقة أن الأساطير والقصص البطولية كانت متخلفة بالنسبة لنصوص الفأل والأدب المدرسي في عدد الألواح الموجودة في مكاتب كيونيجيك، ويدخل في هذه الفئة نحو أربعين نصاً.

إنَّ التمييز ما بين الأساطير والملاحم أي: القصص البطولية هو أن الأساطير تعالج الأنشطة على المستوى الإلهي والديني، بينما تهتم الملاحم بأعمال الأبطال ومع أنها تحتوي على كميات كبيرة من مواضيع ما وراء الطبيعة إلا أنها لا تخرج عن المستوى الإنساني.

ولقد أنتج بحث أصول وهدف الأساطير ولا يزال ينتج كميات واسعة من التخمين الذي ليس هناك من مجال لبحثه هنا.

ولكن من الواضح أنه وبالنسبة لبابل القديمة (التي أخذ الآشوريون أساطيرهم منها) من الممكن تمييز مظهرين من مظاهر الأساطير:

أحدها: تفسير حول النظام في العالم.

والآخر: تقرير التوترات التي سوف تظهر على المستوى السياسي وحتى الشخصي.

وقد اشتملت الموضوعات الخاصة بالأسطورة على المجالات التالية:

وأصل هذا الكون والخلافات بين الآلهة وخلق الإنسان والنظام الاجتماعي.

إن أهم أسطورة وجدت في منطقة ما بين النهرين في الألف الأول كانت أسطورة الخلق التي ارتَكز عليها عيد رأس السنة في بابل.

وقد اشتمل هذا على نُتف من عدد من الأساطير الأقدم عهداً والتي تمَّ جمعها وتجويدها بقصد تمجيد مردوخ إله بابل.

ولقد قدمته الأسطورة كإله صغير ولكنه جبَّار وقد تغلب على قوى الفوضى التي كانت بشكل التتينة تيامات وجنودها، ولذلك فقد وهبت الآلهة السيادة لمردوخ في مجتمع الآلهة التي كانت حكراً على الآخرين.

وقد كانت نتيجة ذلك أن انتقل إلى بابل وهي المدينة التي كانت المجليَّة بالنسبة لكثير من المدن الأخرى التي كانت تعود في أصولها إلى زمن السومريين.

انتقلت إلى بابل المكانة والهيبة كمركز من المراكز الدينية الأشد احتراماً.

ولقد اقتبس الآشوريون تلك الأسطورة، ولكنها بدورها سبَّبت لهم مشكلة لاهوتية، فقد ادعوا أن إلهم القومي آشور احتفظ بالقوة العالمية وهذا غير منسجم مع اللاهوت البابلي الذي يَنُصُ على سيادة مردوخ، ولقد حلَّ الآشوريون هذه المشكلة بأن استبدلوا مردوخ بالإله آشور خلال تلك الأسطورة.

لقد كانت الملحمة العظمى في كل من بابل وآشور هي ملحمة جلجامش.

وهناك شاهد جيد يشير إلى أنه كان هناك شخص اسمه جلجامش وقد كان حاكماً على مدينة أوروك (أبريش) في أوائل الألف الثالث ولقد أنشئت عدة ملاحم حول هذا الرجل كتبها جماعة من الكتبة السومريين في الألف الثالث.

وفي أوائل الألف الثاني ظهر شاعر بابلي عظيم استلم هذه الملاحم السومرية وترجمها إلى اللغة الأكادية وجمعها كلها معاً بأسلوب ذكي ليشكل ملحمة واحدة عظيمة، حتى أنه تدخل في قصة الطوفان التي لم يكن لها علاقة بجلجامش، وهناك عدة مواضيع ثانوية في هذه الملحمة ولكن السمة الأساسية التي تجري وتستمر فيها هي مشكلة موت الإنسان ومحاولة الإنسان أن يساوي نفسه مع الآلهة الخالدين، فضلاً عن الفشل المحتوم لهذا الهدف عند انحدار الإنسان في هاوية الشيخوخة والموت، ومع ذلك وفي النهاية ينتصر جلجامش والإنسانية التي يمثلها جلجامش معبراً عن منجزات البشر الخلاقة.

وقد كانت هذه الملحمة معروفة خلال منطقة الشرق الأدنى القريبة، وذلك طبقاً لما كنا نعرفه من مقاطع من النصوص التي وجدت في عدة أماكن بما فيها فلسطين الواقعة خارج منطقة ما بين النهرين، ولا عجب أن تتمثل بوجود عدة نسخ منها (ولكنها ليست كاملة) في مجموعة كويونجيك.

ونحن لا نعرف ما هي الأغراض التي خدمتها ملحمة جلجامش بالنسبة لآشور، وليس هناك من سبب أن نفترض أنها قد استعملت في الطقوس، ولكن دون أي رموز درامية، ويمكن أن نخمن أن هذه الملحمة كانت تتلى أثناء الحفلات في القصور الملكية، ولكن ليس هناك من شاهد ملموس يؤيد هذا الرأي.

تشتمل نصوص كيونيجبك معظم الملاحم الأخرى المعروفة من بابل، ولكن هناك ملحمتين قد تمَّ تأليفهما في آشور ولكنهما لم تكونا تقارنان مع ملحمة جلجامش في عمقها وفي قيمتها الأدبية.

ولكن كلتيهما قد خلدتا انتصارات ملوك آشور في الفترة المتوسطة، وفي هذه الحالة نحن نتعرف على هدفهما، وقد كان هذا الهدف هو الدعاية فقد كان لهما

غرض سياسي ديني وهو إظهار حادث استيلاء آشور على بابل بأنه كان طبقاً لرغبة الآلهة.

أدب الحكمة

تمثل هذه الفئة من الأدب القديم في الشرق الأدنى المعروف لدى الشعراء الغربيين، ما كتب في التوراة عن هذا الموضوع مثلاً: سفر الأمثال، سفر أيوب، سفر الجامعه.

ولا نعلم عن أي عمل من هذا النوع كان أساسه آشور، ولكن معظم أدب الحكمة البابلي كان موجوداً في آشور، وما عدا وجود مثل عرفي مقتبس من الرسائل فليس هناك أي دلالة أن مثل هذه النصوص قد لعبت دوراً مرموقاً في الحياة الآشورية والفكر الآشوري، ولم تكن الأمثلة الرائجة في آشور لتخرج عن الدوائر الكتابية المحدودة.

ولكن هناك ثلاثة أعمال ذات أهمية جوهرية فلا يجوز إغفالها.

الأول: هو تأليف ما يدعى (ألا سوف أمدح إله الحكمة) حيث نرى المتكلم في مرتبة الأمراء المرموقة، ولكنه يجد نفسه مهجوراً من قبل الآلهة ويُطْرَد من الوظيفة والممتلكات، ويصاب بالأمراض والألم، ومع ذلك فهو يصرُّ على أنه لم يهمل واجباته تجاه الآلهة، وهكذا فإن النص مؤلف نوعاً ما من الامتحان كما هو في سفر أيوب التوراتي، وبالنسبة لمشكلة الشر فهو في مستوى أدنى بكثير.

وفي النهاية نقول: إنه من الممكن نشوء نزاع نظراً لأنه ليس بمقدور البشر أن يعرفوا إرادة الآلهة المخفيّة، إن ما هو مناسب للإنسان ربما كان ذنباً بالنسبة للآلهة. وما يبدو حقيراً أو خسيساً بالنسبة للإنسان ربما كان مناسباً بالنسبة للآلهة، ولكن من هو الذي يعرف إرادة الآلهة في السماء.

وهناك عمل آخر معروف (التبرير البابلي للاهوت البابلي) وهذا ظهر بشكل حوار جرى بين شخص متألم وصديقه، يشكو المتألم من الظلم الذي يكتنف الحياة.

ولكن الصديق يقدم أجوبة مبتذلة عن روح التدين البابلية التقليدية وعندما يشير المتألم إلى أمثلة عن أولئك الذين خدموا الآلهة دوماً ومع ذلك فإنهم يتألمون ويصادفون الصعاب، فإن الصديق يؤكد أن التقيد الكامل بالتقوى وبالتديّن ينبغي أن يكافأ بالخير والازدهار، وعندما يشير الشخص المتألم إلى وجود رجال أشرار ولكنهم ناجحون ومزدهرون، فإن الصديق يؤكد له أن هؤلاء سوف في النهاية ينالون عقاباً على أعمالهم السيئة دون شك.

وهناك تأليف آخر يدعى (حوار حول التشاؤم) وهذا يمثل حواراً بين أحد الأسياد وأحد العبيد الذين يملكهم هذا السيد.

وهنا يقترح السيد إعلان مجموعة معيَّنة للعمل، ولكن العبد يوافق بشكل باعث على الغثيان، وعند ذلك يغيِّر السيد رأيه فوراً مشيراً إلى الغباء الذي عرضه في اقتراحه الأول، وعندها يتغيَّر رأي العبد ويقدم أفكاراً تدعم وجهة نظر السيد الأخرى، وهكذا تبين أن هدف القصيدة هو الإشارة إلى أن الأنشطة البشرية هي في غاية التفاهة.

أصناف أخرى من النصوص

هناك نصوص أخرى كثيرة مأخوذ بعضها من مجموعة كيونيجيك وبعضها من مواقع آشورية أخرى ليس أهلها من آشور ولكنها لا تتناسب بسهولة مع أي فئة من الفئات الرئيسية الأخرى.

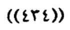
مثلاً القصة المعروفة باسم (الرجل الفقير من نيبور) وهي تتحدث عن رجل فقير قد غشَّه حاكم المدينة، فلهذا استعمل هذا الرجل الفقير وسائل ذكية للحصول على وسائل الانتقام.

وقد ذكرنا هذه الحادثة في فصل سابق وفي مناسبة أخرى، وهناك على الأقل نصَّان آشوريان يعودان إلى القرن الثامن أو أوائل القرن السابع وهما يتَّصفان بالميل نحو الدعاية السياسية ضد بابل تحت ستار ديني، كما وجد نص متعاطف مع البابليين.

ويحتوي أحد النصوص المؤثرة وهو من أصل آشوري قصيدة من الشعر حول حملة سرجون وقد اقتبسنا من تلك القصيدة بعض أبيات بشكل رسالة إلى الإله آشور وهناك رسائل من هذا النوع معروفة.

وليس لدينا سوى مثال واحد عن نصوص تشمل عقد معاهدات مع الأتباع، أو شرعة تحدد بعض الامتيازات الخاصة التي سوف تتمتع بها مدينة آشور، وهناك نص يتناول تدريب الخيول ولكن هذه القائمة لم تكتمل ولن تكتمل، وحتى القائمة الكاملة لن تكون نهائيَّة نظراً لأن هناك مئات الألوف من الألواح المسمارية التي لا تزال مجهولة ولم يقرأها أحد، وهي محفوظة في متاحف العالم.

وهناك أعداد أكبر لم تكتشف بعد ولم تَجْرِ أي حفريات بالنِسْبَة لها ولهذا فمن الممكن أن تبرز أي نصوص تقدِّم لنا أشياء جديدة كليّاً بالنسبة لمنطقة ما بين النهرين القديمة.



الفصل الثامن عشر

اكتشاف بلاد آشور من جديد

بعد أن سقطت آشور في نهاية القرن السابع ق.م حَلَّ محلها كمركز للإمبراطورية العالمية أولاً بابل وابتداء من عام (٥٣٩) إيران.

ولم تُعَمِّر بنايات آشور زمناً طويلاً بعد الدولة التي أنشأتها..

وحتى في أيام عز آشور فإن المعابد الرئيسية والقصور لم تكن لتستمر في بهائها، وإذا حكمنا عن طريق سجلات الترميم فإن أكثر أيامها كمراكز صالحة للاستعمال قلما تجاوزت ثلاثة قرون، وغالباً ما كانت أقل من ذلك.

ومع أن أبنية منطقة ما بين النهرين القديمة كانت جميلة بما فيها من الحجارة والقرميد المشوي، إلا أنه وعلى العموم كانت أبنية كثيرة تتألف من القرميد والطين وهو الوضع الذي يتأثر بهطول الأمطار، ومع أن المعدل الوسطي لهطول الأمطار في آشور منخفض نسبياً فإن مثل هذه الأمطار التي تصاحبها أحياناً العواصف الطويلة الأمد في آشور القديمة مما يسبب دخول الماء في شقوق موجودة في سقوف المنازل.

وبعد سقوط آشور ساءت الأحوال، فقد حدثت الحرائق التي ساهمت في تخريب كثير من المنازل بشكل سريع، وفي خلال قرنين لم يبق أي شيء يمكن تمييزه في العواصم الآشورية ما عدا المعالم الخارجية لأسوارها وحصونها.

وقد علمنا ذلك من الوصف الذي أطلقه كنز نيفون وهو أحد الجنود المؤرخين اليونانيين عندما حضر في عام ٤٠١ ق.م بصفته قائداً لأحد الجيوش المرتزقة التي كانت تحارب في طريق رجوعها من بلاد العجم إلى بلاد اليونان.

فقد نصب بعض المعسكرات مع رجاله في أمكنة لم تكن معروفة بالنسبة إليه، ولكننا نعرفها عندما يشير إلى أماكن مثل كالاخ ونينوى، ويبدو بأن كلا المدينتين قد أصبحتا أمثلة لما كنا نعرفه من الكلمة العربية (تل) فالتل هو مرتفع

صناعي ناتج من احتلال بشري قديم، وقد كان المستوطنون الأوائل يبنون بيوتهم ومعابدهم على أرض بكر وغالباً ما تكون على مرتفع طبيعي بسيط.

وعندما انهار وسقط هؤلاء المستوطنون الأولون وانهارت الأبنية فإن الجيل الثاني كان يسوّي الأنقاض ويعيد البناء فوق الأبنية القديمة.

وهكذا يرتفع مستوى سطح الأرض، وهذه العملية تسهم في زيادة تراكم الأتربة والأوساخ، وفي بعض الحالات كانت المعابد والقصور تبنى فوق منصّات، وكانت هذه العملية تستمر دون كلل أو ملل بحيث إنه وفي خلال قرون أو آلاف السنين كانت المستوطنة ترتفع عالياً فوق السهل الأصلي.

ونحن نعرف على سبيل المثال أن جزءاً من كويونيجيك ومنطقة القصر في نينوى ترتفع تسعين قدماً فوق الأرض البكْر.

وعندما أصبحت المستوطنة خالية من السكان بسبب الحرب والأمراض أو لأسباب أخرى عندها أصبحت هذه المناطق وبسبب العواصف الرملية التي طالما اجتاحت العراق والتي كانت تغطي خرائب الأبنية وبالتدريج عملت على إنشاء مرتفع ذي سطح أملس ومكسور.

وذلك باستثناء بقايا النراجورات والأبنية المرتفعة التي تبرز إلى الأعلى فوق المستوى المعروف، وإن مثل هذه التلال المتدرجة في أشكالها ابتداءً من أقل من فدان حتى ما يزيد على ثلاثمائة فدان بالنسبة لقلعة سرحان (آشور القديمة) وهذه الأبنية متناثرة في جميع أنحاء منطقة ما بين النهرين.

وهناك أماكن يزيد عددها على المئة ومن الممكن رؤيتها لو زار كنزنيفون منطقة كالاخ ونينوى في ظروف مواتية فإنه كان سوف يعلم شيئاً عن هوية تلك الأمكنة وتلك الخرائب من السكان الأصليين، إذا إن سقوط الإمبراطورية الآشورية لم يمسح من الوجود السكان الأصليين فقد كان هؤلاء وبشكل واضح مزارعين وفلاحين.

ونظراً لأن آشور كانت تحتوي أفضل الأراضي المختصة بزراعة القمح في الشرق الأدنى، فإن أنسال الفلاحين الآشوريين سوف يبنون قرى جديدة حسب ما تسمح به الظروف فوق المدن القديمة، ويستمرون في حياتهم الزراعية وهم يتذكرون تقاليد المدن السابقة.

وبعد سبعة أو ثمانية قرون أصبح هؤلاء مسيحيين، وقد عمد هؤلاء المسيحيون مع المجتمعات اليهودية المبعثرة بينهم إلى إحياء ذكرى مواقع أجدادهم الآشوريين، بل لقد ربطوها مع التقاليد المأخوذة من التوراة، ولقد أصبحت التوراة عاملاً قوياً في إحياء ذكرى آشور ولاسيما نينوى، فقد كانت نينوى واقعة في مركز الخرافات التوراتية، هناك قصة النبي يونان الذي حاول عبثاً أن يتخلص من واجباته الدينية بالتبشير لدى العاصمة الوثنية.

وفي جزء من خرائب مدينة نينوى كان هناك مرتفع مقدس وكان هذا معبداً آشورياً عمد المسيحيون واليهود إلى وصفه بأنه المكان الذي كان النبي يونان يبشّر فيه، ولذلك فقد بنيت كنيسة في ذلك المكان وعلى ذلك الموقع، وعندما استولى المسلمون على منطقة ما بين النهرين في القرن السادس ب.م جعلوا يونان (يونس) وأصبح محترماً عند المسلمين واليهود والمسيحيين، ولقد حل محل الكنيسة مسجد ولكنه ظل محتفظاً باسم يونان.

ولقد كتب الجغرافي المسلم "المقدسي" في القرن العاشر عندما وصف منطقة الموصل: ((هنا سامح الإله شعب النبي يونان)) أفلا تحتوي هذه المنطقة على مسجد النبي يونس في تل التوبة الذي يقال: إن سبع زيارات لهذا المسجد تعادل الحج إلى مكة، وهناك زائر آخر مسلم وصل إلى الموصل في نفس القرن وهو ابن حوقل قد تحدث عن أرض نينوى الخصبة حيث دفن النبي يونان.

روايات الرحالة

إن أحد العوامل التي ساهمت في عظمة آشور هو موقعها على الطريق الطبيعي الرئيسي على نهر دجلة، ولقد أكّد هذا العامل مرور الحجاج الكثيرين والتجار في كل قرن من القرون بخرائب آشور، وكان أول الرحالة هؤلاء الرابي اليهودي بنيامين من توديلا في إسبانيا، وقد رحل هذا إلى عدة مدن من الشرق الأدنى في القرن الحادي عشر ب.م وكان يستطلع المجتمعات اليهودية والمواقع التوراتية ويكتب ما يلي عن الموصل:

((إن الموصل تمثل آشور العظمى، ويعيش فيها حوالي سبعة آلاف يهودي، وتقع الموصل على نهر دجلة وهناك جسر يصلها بنينوى، ونينوى هذه الآن خَرِبة ولكن ضمن خرائبها هناك بعض القرى والمجتمعات ويمكن تحديد مساحة نينوى من خلال أسوارها البالغة أربعين ميلاً فارسياً، وتمتد حتى مدينة أربيل وفي بلدة آشور هناك كنيس (عوبيبيا) الذي بناه (يونان).))

وهنا ومع التحديد الدقيق لموقع نينوى نجد تقديرات مبالغاً فيها عن طول أسوار المدينة، ولقد تأثر هذا بالرغبة في التوافق مع الأقوال التوراتية التي تذكر أن نينوى كانت بلداً كبيراً للغاية على مسيرة ثلاثة أيام.

وقد وقع (بنيامين) بالخطأ عندما ذكر أن الموصل هي نفس مدينة آشور، ومع ذلك فإن التحديد الصحيح لموقع آشور إلى الجنوب معروف بشكل تقليدي وذلك كما نعلم من جغرافي عربي آخر، وهو أبو الفداء من أوائل القرن الرابع عشر ب.م وهو يقول عن الموصل:

((وفي المقابل على الضفة الشرقية تقع خرائب نينوى وإلى الجنوب من الموصل يلتقي نهر الزاب الأصغر بنهر دجلة قرب خرائب مدينة آشور)).

وفي القرن السادس عشر زار الموصل شخص اسمه (راؤولف) وهو ألماني يوصف بأنه مشهور بمهارته في معرفة المنتوجات الطبيعية وأعمال العاج، ويقول ما يلي في وصفه تلك الزيارة:

((وفي هذا المكان وفيما حوله تقع المدينة الجبارة نينوى التي كانت عاصمة آشور، ولكن ليس هناك في هذا الوقت أي آثار ظاهرة ما عدا القلعة الواقعة على التل وبعض القرى التي يقول السكان عنها بأنها كانت تابعة لها في الأزمنة القديمة)).

إن غياب الآثار البارزة ذُكر مرة ثانية في أوائل القرن السابع عشر من قبل المبعوث الإنكليزي إلى بلاط دولة فارس وهو (أنطوني شيرلي)، وهو يخبرنا أنه لم يبق هناك حجر مستقر في نينوى من الممكن أن يعطي الانطباع بوجود مدينة صغيرة، ونظراً لافتقارها إلى وجود الآثار لم يكن لدى (السير أنطوني) أي شك بالنسبة لموقع نينوى وذلك لأنه يضيف ما يلي:

((وعلى بعد ميل واحد من هناك مكان يدعى الموصل وهي شيء صغير ولكنها شاهد على عظمة الآخرين وعظمة الآلهة أكثر من إظهار أي مظهر من مظاهر العظمة نفسها)).

وكان هناك أحد المعاصرين وهو (جون كارترايت) الذي كان يستطيع أن يرى في الخرائب أكثر من رأي (السير انطوني) وهنا نراه يصف وصوله إلى الموصل ويقول:

هنا وفي هذه السهول الآشورية على ضفاف دجلة بُنيت نينوى من قِبلِ نمرود ولكن أنهاها نينوس، ويبدو آنه بمشاهدة الخرائب والأسس (التي رأيتها رأي العين) إنها كانت مبنيّة ولها أربعة جوانب، ولكن لم تكن هذه الجوانب متساوية، ولم تكن مربعة لأن الجانبين الطويلين كان كل منهما بطول مائة وخمسين فيرلونغ أي: ستون ميلاً، وأما الجانبان القصيران فيبلغ طول الواحد (٩٠) فيرلونغ أي: (٣٦) ميلاً.

لقد كان تخمين (كارترايت) مبالغاً فيه ولكنه قد حدّد بدقة أطوال أسوار نينوى، ولقد سبقهُ في ذلك الرحالة المسلم في القرن الرابع عشر وهو ابن بطوطة الذي ذكر موقع نينوى بالموصل وهو يقول:

((لا تزال آثار السور المحيط بالمدينة قائماً ومن الممكن رؤيته وتُرى مواقع البوابات التي كانت فيه بوضوح)).

وهناك رجل فرنسي هو (ج.تافنير بارون أوبوني) وهذا قد زار الموصل في النصف الثاني من القرن السابع عشر وقد زاد على تقديرات كارترايت حول أبعاد مدينة نينوى وهنا نقرأ ترجمة معاصرة لما ذكره نقرأ:

ليس هناك ما يستحق الذكر في موقع الموصل..

ولكن الآن دعونا نعبر دجلة، وهناك جسر من القوارب، لنرى منظراً حزيناً لخرائب مدينة أثارت ضجة كبيرة في العالم مع أنه لم يَعُد هناك ما يذكرنا بعظمتها الماضية.

ولقد بُنيت على الشاطئ الأيسر لنهر دجلة على الجانب الآشوري ولكنها أصبحت الآن كومة من القاذورات ممتدة على بعد حوالي فرسخ على طول النهر، وهناك عدد من السراديب والكهوف غير المسكونة ولا يمكن لأحد أن يحزر فيما إذا كانت هذه هي المسكن القديم للسكان أو فيما إذا قد بنيت أي بيوت في ذلك الموقع في الأزمنة القديمة وعلى بعد نصف فرسخ من نهر دجلة تقع تلة صغيرة تحيط بها البيوت وقد بُني مسجد هناك.

ويقول سكان المنطقة إنها هي المكان الذي دُفن فيه يونان، وبعد أن قطعنا نهر دجلة سافرنا لمدة ثلاثة أرباع الساعة من نينوى (أي: ميلين أو ما يقارب ذلك) وابتداء من ضفتي النهر حتى المكان الذي سكنا فيه في ذلك المساء ولم نرَ أي شيء سوى الخرائب المستمرة التي تجعلني أعتقد أن المكان الذي تقع فيه نينوى القديمة.

وحتى الآن تتفق التقاليد وتقارير الرحالة بشكل إجماعي وتؤكد أن الخرائب المقابلة للموصل هي نينوى القديمة.

ولكن ظهر أخيراً أحد المعارضين، ففي حوالي منتصف القرن الثامن عشر كان الرجل الفرنسي (م. أوتو) يميل إلى وجهة النظر التي مفادها: إن نينوى لم

تكن مقابل مدينة الموصل، ولكنها كانت تتمثل في بعض الخرائب الواقعة في مكان يدعى (إسكي موصل) (أي: الموصل القديمة باللغة التركيّة) وهي على بعد ثلاثين ميلاً إلى الشمال.

وقد أيد هذا الرأي بما قيل إنما هو ادعاءات باتصال أسكي موصل القديمة بيونان مع أنه كان عالماً بالتقاليد التي نقلها أبو الفداء وغيره من الجغرافيين العرب، وقد أنهى كلامه بقوله:

((إن كلاً من أبي الفداء والسكان الأصليين كانا مخطئين.)) ولكن نظراً لأنه ليس هناك من تعرُّف على التقاليد بالنسبة للموصل القديمة لذلك فمن المرجح أن هذه المشكلة كان سببها هو (أوتور) نفسه.

وعندما نتحدث عن التقاليد الخاصة بالموصل في الأزمنة القديمة فإن السكان في شمال العراق لا يزالون يفضّلون استعمال الاصطلاح الذي يعين الموصل القديمة.

وهذا وفي زمن أوتور كانت اللغة التركيَّة هي اللفظ السائد في شمال العراق، وقد كان أوتور يتكلم تلك اللغة بنفسه، فإذا كان أوتور يستعمل اللغة التركية لكي يسأل السكان المحليين عن تقاليدهم فإنه كان من الممكن إن يشير إلى الموصل في الأزمنة القديمة باسم الموصل القديمة.

إن تحديد (أوتور) لمكان نينوى كان نوعاً من الضلال والخطأ، إذ كان من الواجب أن يكون أكثر معرفة ودراية بالأمر، وذلك لأنه وفي منتصف القرن الثامن عشر كانت الموصل مشهورة بخرائبها حتى بالنسبة لأولئك الذين لم يذهبوا إلى هناك.

وقد عرفنا ذلك من شخص اسمه (بارثلميو بلاستيد) وهو مهندس ومسَّاح كان يعمل في شركة الهند الشرقية ففي عام ١٧٥٠ قد سافر إلى وطنه من بلاد الهند براً من البصرة ومع أن طريقه إلى الوطن كانت تمر ببغداد بعد الصحراء السورية إلى حلب فقد أشار ناصحاً المسافرين الآخرين أنه كان هناك بديل مناسب فقال:

(إذا كنت سوف تشعر بالتعب من فترة الانتظار في بغداد عندها يمكنك التقدم نحو الموصل، وذلك سوف يقدم لك كمية كبيرة من التغير نظراً لأن هناك كثيراً من بقايا وخرائب قديمة سوف تسبب لك شيئاً من المتعة والتسلية خصوصاً إذا كان لديك ميول من هذا النوع.

وخلال عقدين من الزمن بعد (أوتير) صرَّح المستكشف الدانيمركي (كارستين نيبون) بأن ليس لديَّ أي شك أبداً أن خرائب نينوى تقع قرب الموصل، وهو يذكر اسم قرية تدعى تونيا واقعه على تلَّة كبيرة ومسجد كان قد دفن فيه النبي يونان.

وهناك تلة أخرى في هذه المنطقة تدعى (كالونيا) أي: قلعة نينوى.

وفي التلة الأخيرة كان هناك قرية تدعى (كونتس جاغ) ويقوم بإبراز صورة عن منظر المسجد وقرية نونيا وأسوار المدينة.

تفسير المخطوطات

لم تشمل إعادة اكتشاف آشور إعادة معرفة وبيان الحفريات في مواقعها فحسب، بل أيضاً تفسير كتاباتها، إذ إنه وابتداءً من القرن السابع عشر ق. م. ظهرت تقارير عن وجود كتابات غريبة مؤلفة من إشارات إسفينية منقوشة على القرميد والحجر في مواقع قديمة مختلفة في الشرق الأدنى.

مثلاً: هناك رجل إيطالي يدعى: (بييرتود بلا فالي) قد كتب لأحد أصدقائه في عام (١٦٢٥) بعض ما قد وجده في بعض الأطلال في منطقة ما بين النهرين الجنوبية التي تدعى: (موكيجد) التي تعرف الآن باسم (أورو) القديمة، وقد كتب يقول:

((لقد وجدت على الأرض قطعاً من الرخام الأسود وهو قاسٍ وجميل، وهو منقوش بنفس الحروف المنقوشة على القرميد، وبين الأحرف الأخرى التي اكتشفها في ذلك الوقت القصير وجدت حرفين متكررين في نفس المكان، أحدهما يشبه الهرم المائل هكذا ....

والآخر: يمثل نجمة ذات ثلاثة أبعاد.))

ولكن المنطقة التي جَذَبَتْ الانتباه كانت في جنوب بلاد العجم، ففي مكان يدعى: (تخت جاشد) وهو معروف الآن بموقع : (بير سوبو ليس القديمة) إلا أن هناك بقايا ذات مظهر مؤثر لقصر رخامي وفيه عدة حجارة منقوشة.

ولقد نشر (بيترو) هذا بحثاً عن الكائنات التي وجدت هناك مع بعض المعيّنات، وقد اتّبع هذا النظام عدة أشخاص آخرين خلال القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر، وبعضهم قد نسخوا ونشروا نقوشاً طويلة.

ولقد أتى الإسهام إلهاماً من (كارستن نيبور) إذ إنه لم يقم بإعداد بعض النسخ الممتازة من النقوش في (تختي جامشيد) فحسب، بل أيضاً قد عرف أنها كانت تحتوي ثلاثة أنظمة مختلفة من الكتابات وكان أحدها أبجدياً.

ونحن نعرف الآن أن الملك الفارسي داريوس الذي بنى (بيرسوبوليس) قد كتب مخطوطاته بثلاث لغات البابلية والعيلامية والفارسية القديمة، وكان لكل لغة من هذه اللغات نظام خاص من العلامات المسمارية.

أما بالنسبة للغة الفارسية القديمة فقد استعملت الأبجدية، هذا وإن نشرنسخ نيبور في عام (١٧٧٤-١٧٧٨م) قد أثار الاهتمام فيما بين الباحثين في أوربا وقدم المادة اللازمة والحوافز لإجراء محاولات لتفسير المخطوطات، وكان الباحث الذي أحرز أعظم نجاح هو الألماني (ج. ف. جروتفند) من (جوتنجين) ولقد عرفنا مبادئ طريقته ولسوف لا نعيدها هنا.

ويكفي أن نقول: إنه وفي عام ١٨٠٢ استطاع نشر ورقة تشير إلى القيم الصحيحة بالنسبة إلى حوالي ثلث الأحرف الهجائية الفارسية المسمارية. ولكن الفضل في التفسير الكامل يعود إلى رجل إنكليزي يدعى (هنري كريسويك رولنسون) الذي سوف نقابله فيما بعد.

دعونا نرجع إلى منطقة ما بين النهرين فلقد أرسل عدد من الرحالة قطعاً من الفخار المنقوش إلى أوربة، ولكن لم تحدث أي حفريات علمية بعد ذلك، وإن أول

محاولة في هذا المجال بدأت خلال عقد من زمن (جروتفند) وأبحاثه ويحافز تلك الأبحاث جزئياً، وكان الرجل المعني هو (كلوديوس جميس ريتش) وقد ولد هذا في فرنسا من والدين إنكليزيين عام ١٧٨٥ ب.م ولقد عُيّن في عام ١٨٠٢ موظفاً في شركة الهند الشرقية نظراً للسهولة التي أبداها في تعلم اللغات الأجنبية الشرقية.

وبعد سفره بعدة سنوات في الشرق الأدنى بقصد إجادة معرفته باللغة العربية والتركية وصل إلى بومباي في أواخر عام ١٨٠٧ ب.م وقد اشترك في معيشته مع السير (جيمس ماكنتوش) المسجل العدلي في مدينة بومباي وهو فيلسوف إنكليزي متميز ورجل مثقف وفي ربيع عام ١٨٠٨ تزوج (ريتش بالابنة الكبرى للسير جيمس) ثم تعين وهو لم يبلغ الأربعة والعشرين من العمر في وظيفة مرموقة وهي المندوب السامي للحكومة البريطانية في بغداد، والتي كانت وظيفة شاغرة.

وعندما استقر في منطقة ما بين النهرين التي كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية، فقد قام بخدمات عظيمة للمصالح البريطانية التجارية والقضايا السياسية، وكذلك خدماته بالنسبة لعلم الآثار كبيرة، ويستحق حماه (أي والد زوجته) بعض الفضل بالنسبة للخدمات الأخيرة وهي علم الآثار، وذلك كما سوف نلاحظ من النصيحة التي أرسلها السير جيمس إلى ريتش:

((إنه وعلى الرغم من الأبحاث والتحريات في المناطق المجاورة (لهيلا) التي قام بها (بيرو ديلافالي) و(نيبور) و(بوشامب) إلا أن هناك الشيء الكثير الذي ينبغي عمله بخصوص آثار بابل)).

ويقول الميجور دينيل: ((إن وضع أسوار المدينة لا يزال من الممكن التحقق منها حتى اليوم نظراً لأن التضاريس والخنادق قد تركت آثاراً واضحة، هذا وإن تخطيط ووصف الموضع والآثار سوف يبرهن على وجود إحدى القطع الأثرية الغريبة التي صادف وعرضت في الأزمنة الحديثة.

ولهذا فإني أعتبر أن هذه القضية مهمة وتستحق إعطاءها اهتمامك ومواهبك، وإن موهبة الرسم عندك سوف تقدم لنا خدمات مهمة، فإذا استطعت أن تجد آثاراً مهمة فإنك تكون قد أديت خدمة عظيمة)).

وبالانسجام مع اقتراحات ونصائح حماه (أي والد زوجته) بدأ ريتش بتنفيذ أولى حفرياته العلمية (المختلفة عن الحفر لإيجاد أشياء تذكارية) وذلك في بابل وقد نشر في عام ١٨١٣ كتاباً اسمه (مذكرات حول طرائف بابل) وبعدها تبعه في عام ١٨١٨ المذكرات الثانية، وقد خلَّد الشاعر بايرون هذه البداية في تقصي علم الآثار من منطقة ما بين النهرين بقوله:

البعض من الكفار الذين لا يريدون

نظراً لأنهم لا يستطيعون أن يعثروا

على تلك البقعة في بابل بل لأنهم لا يريدون

مع أن كلوديوس ريتش المحترم قد حصل على قطع من القرميد

وكتب كتابين من مذكراته في هذا الشأن

وفي عام ١٨٢٠ ولكي يهرب من الحرارة المخيفة في بغداد قام ريتش برحلة استكشاف من خلال جبال كردستان، وبعد رجوعه عن طريق أربيل والموصل تقدم ببعض الملاحظات القيمة حول المواقع الآشورية في كل مكان قام بالتعرُّف وتسجيل الشواهد على وجود الآثار القديمة، مثلاً: ((التلة الاصطناعية العالية من الزمن القديم)) في (كاروااليس) (وهذا موقع آشوري ولم يكشف عنه بعد).

وفي أربيل تأكد أن ذلك المرتفع القديم الذي يطل على المدينة الحديثة كان يحتوي على كتل من المواد الفخارية مع أنه ربط هذا الفخار ببلاد العجم وليس بالآشوريين.

وكذلك قام ريتش بفحص شامل لأطلال نينوى وحتى ذلك الوقت وبمساعدة مساح يوناني قام بمسح المنطقة لإنتاج مخطط ثمين لموقع نينوى.

ويدعى المرتفع الجنوبي الرئيسي لنينوى يونس (الاسم العربي للنبي يونان) ويعتبره المسلمون في تلك المنطقة مقدساً بسبب المسجد الذي يعلو المنطقة، وبالنظر لاقترانه مع يونان بحيث أصبح من الصعب إجراء حف يات في تلك المنطقة حتى هذه

الأيام نظراً لقدمها وهكذا أصبح البحث عن الآثار الآشورية منحصراً في الأبنية أو ترميم البيوت، وقد استفاد ريتش من هذا الوضع وكتب يقول:

تضم قرية النبي يونس حوالي ثلاثمائة ألف بيت، وهي مبنية على المرتفع الاصطناعي القديم وهي لا تغطي مساحة كل هذا المرتفع، ولقد تأكد قدم هذه المنطقة عن طريق وجود بعض الآثار التي ظهرت عند الحفر فيها بشكل عميق عندما ظهرت قطع من القرميد وقرميد كامل، وقطع من الجبس وكلها مغطاة بالنقوش على الطريقة المسمارية.

واليوم وجدنا بعض القطع تحت أسس بعض الأبنية، وكان أحدها قطعة مكسورة من الجبس وعليها أحرف مسمارية، وجدت في مطبخ بيت ضئيل، وقد ظهر أنها جزء من جدار ممر صغير يقال: إنه يصل إلى الجبل.

ولقد حفر بعضهم في هذه المنطقة في السنة الماضية، ولكن نظراً لأن هذه الحفريات ينبغي أن تتم تحت المنازل وخوفاً من تعرض هذه المنازل للهدم فقد أقفلوا هذا المشروع، وملؤوه بالقاذورات.

وعلى بُعدٍ قليل وفي غرفة صغيرة تسكنها امرأة من سكان البلدة، وقد كانت هذه المرأة لطيفة جداً، وبكل أدب سمحت لنا بالدخول وفحص المكان في أوقات فراغنا.

وهناك وجدنا نقشاً آخر محفوراً بأحرف مسمارية كبيرة على قطعة من الجبس، وهذا النقش محيّر وهو يحتل مركزه العادي، ومن الممكن أن نجد آثاراً قديمة أخرى في هذا التل، ولكن القسم الأكبر منها كان مغطى بأبنية من البيوت الصغيرة، ولهذا فإنه لا يمكن اكتشاف أي شيء إلا عند ترميم هذه البيوت أو سقوطها وهدمها.

وفيما بعد قام ريتش بفحص كامل سطحي في أكبر هذين المرتفعين في نينوى وكيونيجيك وهو يصف هذه الأعمال بما يلي:

((إن جوانب هذا المرتفع منحدرة وقمته منبسطة، وعلوه حوالي ثلاثة وأربعين قدماً، ومحيط قاعدته (٧٩٦) قدماً، وإن قمة هذا المرتفع لا تشير إلى أنه كان أعلى مما هو عليه في الوقت الحاضر، ولكن من الواضح أنه كان هناك أبنية فوقه وهي على الأقل حول أطرافه.

ومن الممكن استخلاص الحجارة والقرميد في كل مكان من هذا المرتفع، وبينما كنا ننظر حول هذا المكان وجدنا قطعة من القرميد والفخار مغطاة بشكل كثيف بكتابة مسمارية جميلة.))

لقد تعرف ريتش طبعاً على القصص التي تتعلق بالخرائب قرب الموصل في نينوى، ولكن لم يكن لديه أي برهان حول هويتها، وقد اقتنع بالقول هذا بالنسبة للخرائب الباقية التي رآها في النبي يونس وكيونيجيك والأسوار المحيطة، ولكن سواء كانت هذه تنتمي إلى نينوى أو أي مدينة أخرى فإن هذا مسألة أخرى لم تثبت صحتها بعد، ولكن ليس هناك مجال للشك في كونها من عمرٍ واحد وصفات واحدة.

ولقد لفت ريتش النظر إلى أهمية المرتفع في قلعة شيد خان الذي نعلم الآن أنه موقع عاصمة آشور القديمة، وقد قدم صورة له تظهر أدناه:

((يظهر أن هذا المرتفع مصنوع من التراب وفي أسفله جدار متهدّم، وهو مرتفع فوق منصَّة من الخرائب، ولقد كانت هناك أكوام من القمامة مبعثرة هنا وهناك حيث يُمكن أن تُرى صفوف من الحجارة المبنية وعليها إسمنت كلسي فوق سطحها، وهناك قطع من القرميد المربع.

وقد كانت هذه الخرائب تستحق الاهتمام والفحص، وهي تشكل كتلة علوها نحو عشرين قدماً، وهي ممتدة باتجاه شمالي جنوبي على طول الضفة الغربية للنهر لمسافة ميلين تقريباً.))

وفيما بعد وفي نفس السنة رحل ريتش إلى شيراز في بلاد العجم عند انتشار وباء الكوليرا هناك، وقد هجر المدينة الأمير مع جميع عائلته وجميع النبلاء، والطبقات العليا من السكان، ومن كان قادراً من الطبقات الدنيا.

ولكن السيد ريتش رفض مغادرة المكان، واستمر في تطمين السكان بكل نبل ووفاء، وفي مساعدة المرضى الذين هم على وشك الموت، ولكن أخيراً انتقل إليه المرض وتسبب في وفاته، وكان في الخامسة والثلاثين من العمر، ولقد وصلت مجموعته عن آثار منطقة ما بين النهرين إلى المتحف البريطاني، وأصبحت من ممتلكاته.

بوتا ولايار ودولنسون آباء علم الدراسات الآشورية

لقد بدأت الحفريات الرئيسية بعد وفاة ريتش بعشرين عاماً، ولكن عمل عاملان بصورة خاصة على حدوث هذا.

وكان العامل الأول والأهم: هو حدوث نوع من الاهتمام بالآثار لدى الطبقات العليا من المجتمع، وقد بدأ هذا الاهتمام ابتداءً من أوائل القرن السادس عشر ب.م.

فقد أطلق هنري الثامن ملك بريطانيا على قسيسه الخاص لقب (مسؤول الآثار لدى الملك) ولقد زاد انتشار هذا الاهتمام أثناء القرن الثامن عشر، وفي نهاية هذا القرن انتشرت عادة جمع الآثار خلال أوربة حتى أن تشارلز ديكنز يذكر على سبيل الدعابة اللطيفة هذه الدعابة في كتابه (أوراق الكوبيك) نشر عام (١٨٣٦-١٨٣٧) حين أشار السيد بكوريك لاكتشافه على جانب الطريق حجراً يحمل نقوشاً مكتوبة هكذا:

Bilst
UM
Pshi
S.M.
ARK.

وقد كتب تشارلز ديكنز كراسة أو كتيباً يحوي على ست وتسعين صفحة بالحرف الصغير، وفيها سبع وعشرون قراءة مختلفة لتلك النقوش.

وقد كوفئ على ذلك بانتخابه عضواً فخرياً، في سبع عشرة جمعية وطنية وأجنبية لقاء اكتشافه هذا.

وكان العامل الآخر الذي ساعد على بدء الاهتمام هو عامل سياسي، لقد كانت هناك عدة بلدان أوربية مختلفة في مقدمتها إنكلترا وفرنسا مهتمة اهتماماً كبيراً بالهند.

وكانوا يفتشون عن طريق بريَّة للاتصالات بالهند، ولذلك فقد انتهزت بريطانيا وفرنسا أي مناسبة ممكن للاستيلاء على مناطق مختلفة من الشرق الأدنى والأوسط مثل مصر ومنطقة ما بين النهرين وبلاد العجم وبسط نفوذها على هذه البلدان لحماية الطريق إلى الهند، وكانت إحدى الوسائل الموصلة لهذه الغاية هي الاهتمام بعلم الآثار، وأرجو أن أقول فوراً:

بأنه لم يحدث أي اقتراح مهما كان ضئيلاً ولا أي تلميح، وإن علم الآثار في الشرق الأدنى كان بداية لهذا التدخل.

إذ إنه كان غطاءً لأعمال التجسس والتخريب، ولكن كان له نتائج شريفة سواء في كسب المعرفة حول الأحوال المحلية أو بإنشاء روبط محلية من الصداقة.

هذا وفي الأربعينات من القرن التاسع عشر ١٨٤٠ فقد كان من المحتمل بسط نفوذ البلدان الأوربية خلال المناطق ذات العلاقة في الشرق الأدنى.

وفي عام ١٨٤٢ أنشأت الحكومة الفرنسية قنصلية لها في الموصل وعيَّنت لهذه القنصلية (بول أميل بوتا) وقد كان رجلاً مرموقاً ولم يكن من العرب الذين مارسوا الخدمة القنصلية فحسب، بل إنه بعد أن درس الطب في شبابه، قام برحلة حول العالم في بعثة خاصَّة بعلم النبات، ومع أن مواقفه وميوله كانت ضد بريطانيا بشكل عنيف، ولكن هذا لم يمْنَعْهُ من إقامة صداقات حميمة مع بعض الإنكليز كأفراد، حيث قال أحدهم: إن (بورتا) قد تذمر وشكا مرَّة أو مرتين....

وأَرْغب السفير الفرنسي في القسطنطينية بذكره قصصاً مثيرة وعجيبة حول دسائسنا في بغداد.

ولقد وعدت الجمعية الآسيوية في باريس التي كانت متأثرة كمجموعة (ريتش) من الآثار الموجودة في المتحف البريطاني لقد وعدت هذه الجمعية بدعم بورتا دعماً كاملاً في أي نشاط في علم الآثار من الممكن أن يقوم به.

وهكذا بدأ بالحفريات في كيونيجيك في كانون الأول عام ١٨٤٢ ولكن نتائج حفرياته كانت ذات مردود ضئيل نظراً لأنه لم يكن يحفر في أعماق كافية.

وفي شهر آذار عام ١٨٤٩ نقل عمليات الحفر إلى خورساباد على بعد عشرة أميال إلى الشمال الغربي من الموصل، وفي خلال عشرة أيام توصَّل عماله إلى جدران من الألواح الحجرية محفور عليها مشاهد من النقوش النافرة.

وعندما وصلت أخبار هذه اللقى الحساسة إلى باريس بادرت الحكومة الفرنسية إلى وضع أموال جديّة تحت تصرف بورتا لكي يستمر في هذه الأعمال، وإن ما وجده بورتا لم يكن سوى أحد القصور التي بناها الملك سرجون الثاني في عاصمته الجديدة (دور شاروكين).

والآن ينضم إلى المشهد رجل إنكليزي آخر وهو أحد عمالقة عالم الآثار في منطقة ما بين النَّهرين وهو (هنري أوتهن لايارد) وقد ولد في باريس عام ١٨١٧ وقد رُبِّي حتى أصبح في الثانية عشرة من العمر في فلورنسة ثم تعهده أخيراً خاله وكان محامياً ناجحاً في لندن.

وفي شهر حزيران عام ١٨٣٩ وجد نفسه مقبولاً كمدَّعٍ عام في المحكمة الملكية، وبناءً على نصيحة عمه الأصغر الذي كان قد أنهى خدمته وتقاعد من منصب عالٍ في الخدمة المدنية في سيلان، لهذا قرر الذهاب إلى سيلان حيث من الممكن أن تسمح له مؤهلاته أن يصبح محامياً عاماً حيث كانت علاقاته العائلية تؤمن له النجاح.

ولقد انضم لايارد إلى شخص يدعى (إدوارد متمفور) للقيام برحلته الموعودة وكان هذا رئيسه في العمل، وقد بدأ كلاهما الرحلة في شهر تموز عام ١٨٣٩ من بروكسل براً، ولكن حماس لايارد للرحلة رافقته رغبة في التبصر والتمعن في

الأمور، إذ قبل مغادرته اتخذ خطوات لتعلم شيء عن فن الملاحة والإبحار والطرق وعادات الشعوب، وتلقى معلومات ابتدائية عن الطب والإسعافات الأولية وتعلم كتابة اللغة العربية وقليلاً من الفارسية.

وبالإضافة إلى ذلك فقد اطلع على ما أتيح له من معلومات حول منطقة ما بين النهرين وبلاد العجم ، وبعض الكتب عن الكتابة المسمارية وفي شهر تشرين الثاني كان الرجلان في حلب، وبعد مخاطرات كاد لايارد أن يفقد حياته فيها من القبائل المعادية وصلا إلى الموصل في نيسان ١٨٤٠.

وهناك نزلا ضيفين على (وليم دانيس اينسويرث) وكان هذا طبيباً كثيراً ما يسافر في طلب الآثار، وكان لديه اهتمامات بعلم الآثار وكان قد أصدر كتاباً عنوانه " أبحاث حول آشور وبابل وبلاد الكلدان " وعلى شخص اسمه (كريستيان ربام) وهو رجل مسيحي من أهل البلاد قد عمل كمساعد قنصل، ولقد قضى لايارد وقتاً طويلاً في الموصل واهتم بمرتفع كيونيجيك، وكان يقوم بالقياسات ويبحث عن قطع من الرخام والآجر التي تحمل نقوشاً مسمارية، ولقد أخذ مضيفوه هؤلاء المسافرين إلى الصحراء لرؤية مدن أخرى مهدمة.

وهنا يصف لايارد الانطباعات التي أثرت به ويقول : ((يستحق المشهد حواليها للتأمل، فالوحشة تتلو الوحشة، ويتناهى الشعور بالرهبة إلى الدهشة ولقد ولدت هذه المرتفعات الضخمة في آشور انطباعاً عميقاً في نفسي، وأنتجت أفكاراً أكثر جدية، ولكن المكان المقصود كان سيلان.

وهكذا توجه لايارد ومنفورد إلى بغداد حيث التحقا بقافلة مسافرة إلى بلاد العجم، وهناك كانت الصعوبات تنتظره، فقد منعا من السفر شرقاً في الطريق الذي اقترحاه نظراً لأن هذا الطريق يؤدي إلى أراضٍ مختلف عليها ولكن قدمت لهما بعض البدائل.

ولقد قبل منفورد ولم يقبل لايارد، ولذلك افترقا وكان لايارد يأمل أن يسير في طريقه المقترحة فسافر جنوباً إلى أصفهان، وعندما وجد أنه لا يزال تائهاً قرر أن ينعطف نحو لوريستان حيث جبال زاغروس وإن جزءاً ممّا كان يجذبه إلى

هناك هو تحديداً أطلال مدينة شوشان (سوسة) التوراتية، والمعروف أنها كانت موجودة في تلك المنطقة مع أن ذلك الموقع قد وقع عليه خلاف.

ولقد قضى بيلارد عشرة أشهر في تلك الجبال مع قبيلة بختياري وقد قسم وقته ما بين فحص الأنقاض بقصد الحصول على معلومات دقيقة حول إمكان القيام بأعمال تجارية في المنطقة، والقسم الثاني لمعالجة بعض الدسائس السياسية دعماً للقبيلة التي كانت على وشك العصيان ضد الشاه، وبعد اعتقال الخان رئيس القبيلة وضع لايارد تحت الاعتقال الصريح ١٨٤١ وبعد أن تخلى عن فكرة الذهاب إلى سيلان هرب ورجع إلى البصرة، وكانت تحت الحكم العثماني.

ولقد أرسل تقريراً عن رحلاته في لوريستان إلى حملة الجمعية الجغرافية الملكية التي نشرت خلاصته في عام ١٨٤٢، وبعد رحلاته في جنوب المنطقة ما بين البحرين وبلاد العجم المجاورة وذلك لفحص الآثار والإمكانات التجارية قرر الرجوع إلى إنكلترا.

وفي هذا الوقت كان القائم بالأعمال البريطاني الكولونيل تايلور مهماً بإعطاء السفير البريطاني في استنبول معلومات كاملة عن الخلافات الحدودية بين الإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية الفارسية تلك الخلافات التي كانت تؤثر على المصالح البريطانية، وقد كان لايارد قد قرر الرجوع إلى انكلترا عن طريق استنبول، وهكذا ونظراً لمعرفته التامة بشؤون الخلافات القبلية قرر تايلور أن يوكل به أمر الرسائل المرسلة إلى السفير كانذج مع التفاهم بأنه سوف يضع نفسه تحت تصرف السفير كانذج ليقدم معلومات إضافية إذا طلب منه ذلك.

بدأ لايارد بالرحلة تحت حماية أحد التتار (الذين كانوا مسؤولين عن المراسلات الحكومية) ولقد قضى لايارد ثلاثة أيام في الموصل ومن حسن حظه أن تعرف على القنصل الفرنسي المعين حديثاً وهو بوتا الذي عامله معاملة حسنة، وقدم له المساعدة بأن اصطحبه إلى الخرانب وكيونيجيك والنبي يونس.

وفي القسطنطينية عمل لايارد انطباعات جيدة بالنسبة لكانذج الذي كان مسروراً للاستفادة من معرفة لايارد وخبرته ولم يرغب كانذج أن يخسر خدمات

ذلك الرجل الشاب فاخترع له وظيفة ودعاه للذهاب في مهمة لكشف الحقائق في المنطقة التي تعرف بيوغوسلافيا حيث كانت الاضطرابات هناك تهدد المصالح البريطانية والمصالح الأوروبية.

وهكذا فقد خدم لايارد كسكرتير خاص للسفير، وشكل بذلك جبهة مفيدة يستطيع السفير أن يستفيد منها بممارسة نفوذه عن طريق اشتراكه في تحرير الجريدة المشهورة في حوض البحر الأبيض المتوسط وهي **Malta Times** مالطة تايمز.

وعندما أنجز بوتا لقيادته المرموقة في خورساباد في شهر آذار عام ١٨٤٣ أبدى كرماً بإرساله إلى لايارد وصفاً دقيقاً عن هذه المكتشفات، وقد استخدم لايارد هذه المعلومات لزيادة اهتمام السفير كانذج به فأصبح يدعى خاص بالآثار في الحفريات المقامة في منطقة ما بين النهرين.

والآن سوف نقابل شخصاً انكليزياً آخر سوف يتقاسم مع لايارد وبوتا شرف بداية علم الآثار الآشوري وهو (هنري كريسيويك دولنسون) وكان باحثاً كلاسيكياً جيداً ورياضياً جيداً وكان موظفاً في شركة الهند الشرقية، وبعد أن حصل على معلومات جيدة في اللغة العربية والفارسية عين في دائرة المخابرات.

وفي عام ١٨٣٥ أرسل إلى بلاد العجم بصفة مستشار عسكري لأخي الشاه، وهناك كرس وقت فراغه في نسخ النقوش المهمة القديمة الموجودة على الصخور والتي كان أشهرها نقش كبير مكتوب بثلاث لغات عالياً فوق صخرة عالية في مكان يدعى: بيستون قرب كركيسي.

وفي عام ١٨٤٣ عين رولنسون قائماً بالأعمال في بغداد خلفاً للكولونيل تايلور وهذا قدم له الوقت لحل رموز نقوش بيستون، وسرعان ما استطاع حل رموز الحروف الهجائية الفارسية القديمة التي بدأ بها جروتيفند قبل أربعين عاماً.

وفي أوائل عام ١٨٤٥ نجد رولنسون يبدأ في مراسلات مع لايارد شجعته عليها تلك المقالات التي كان لايارد قد كتبها في صحيفة مالطة تايمز **Malta Times** حول حفريات بوتا وكذلك تلك الملاحظات حول النقوش التي كان

تركها مع الكولونيل تايلور، ولقد عرف رولنسون من بعض النقوش التي كان لايارد قد نسخها ولكنه طالب إعطاءه تفاصيل عنها من أي مثال كان من الممكن أن يساعده في التحاليل التي بدأ بها.

وفي أثناء ذلك فقد كان بوتا وبعد أن تغلب على معارضة والي الموصل التي سببت له بعض التأخير قد بدأ في متابعة خبراته في خورساباد بعد أن أحرز نجاحات مرموقة ، ولذلك فقد أقفل مشاريع حفرياته في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٤ وقد جمع منتجات من أفضل اللقيات المحفوظة التي تشمل تماثيل هائلة من الثيران الحجرية، كل هذه أرسلت إلى فرنسا عن طريق نهر دجلة بواسطة طوف ينقلها إلى إحدى السفن ومن ثم إلى فرنسا.

لقد أعطى نجاح بوتا دفعة قوية لقضية الحفريات في منطقة البحر الأبيض المتوسط ولقد كان رولنسون يطمح بأن تبذل بعض المجهودات البريطانية في هذا السبيل، ولذلك فقد قام هو بنفسه بحفريات على مقياس ضيق في جنوب العراق وقد كتب إلى لايارد في تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ما يلي:

((سوف أكون في غاية السرور إذا استطاع السفير من خلاله جعل الحكومة البريطانية أن تقتنع ببذل بعض الاهتمام بالآثار القديمة في هذه البلاد، وإنه ليؤلمني غاية الألم أن أرى الفرنسيين يحتكرون هذا المجال، وذلك لأن ثمرات أعمال بوتا التي تم إحرازها ولا يزال يتقدم ليست من الأشياء التي سوف تمر في يوم أو يومين بل إنها ستؤلف المجد لتلك الأمة في العصور القادمة في المستقبل عندما تصبح الإمبراطورية العثمانية التي نحن لا نزال نجاهد لإبقائها سوف تصبح قضية من قضايا التاريخ.))

وفي هذا الوقت كان لايارد قد أقنع السفير في دعمه مادياً لبدء فترة صغيرة من العمل في الحفريات في منطقة ما بين النهرين، هناك مذكرة مكتوبة بخط كانذج نفسه والتاريخ مكتوب (ليس بخط كانذج) في ٩ تشرين الثاني عام ١٨٤٥ كما يلي:

((إنني آمل أن ينتبه السيد لايارد مشكوراً إلى النقاط الآتية:

١- أن يستمر في إعلامي عن عملياته وعن أي شيء ذي أهمية أو أثر قد يكتشفه.

٢- أن ينتبه غاية الانتباه للمسائل السياسية والدينية وبأكثر ما يمكن بشؤون المبشرين أو زعماء القبائل الوطنيين الذين تضمر لهم السلطات التركية العداء والغيرة.

٣- الحصول على رضا الباشاوات وموظفي السلطان الآخرين بكل معنى الكلمة.

٤- أن يتذكر دائماً طبيعة أعماله كرجل سائح مولع بالآثار القديمة والمناظر الجميلة، وبأنه يستحسن معرفة جميع العادات الغريبة في آسيا.

٥- أن لا يبدأ بترك العمل والرجوع إلى الوطن دون الحصول على موافقتي المسبقة بعد تقديم تقرير عن تحرياته الأولى ومحاولاته الاستكشافية.

٦- في حالة إحرازه أي نجاح ينبغي عليه أن يقدم لي معلومات مبكرة ودقيقة عن طبيعة المواد المستكشفة وأحسن الطرق لاستخراجها الخ....مع التقديرات اللازمة للتكاليف بالإضافة إلى راتب قدره ٢٠٠ جنيه إسترليني سنوياً، وهذا راتب مستمر بالإضافة إلى ٣٠٠٠ قرش قد حصل عليها مقدّماً لقاء مصاريف التجهيزات، فإن السيد لايارد سوف يستلم من السيد هانسون مبلغاً آخر قدره ٣٠٠٠ قرش على حساب نفقات السفر، وقد زوّدته بالرسالة المرفقة إلى السيد رسّام في الموصل التي تضمن بالإضافة إلى توصيه بالتكرُّم بالمساعدة، وتحتوي على ائتمان أو دين واجب علي بمبلغ ١٠،٠٠٠ ليرة تركية.

إنني أقدِّر أن يصل السيد لايارد إلى الموصل حوالي نهاية شهر تشرين الأول حيث سوف يتمكن من إتمام دراسة مستفيضة حول أفضل الأمكنة ملائمة للاستكشاف خلال الشهرين التاليين، وإذا كان لديه من الأسباب التي تقتضي إضافة عشرة أيام أو أسبوعين على الموعد المحدد فله ذلك، وهو مخوَّل أن يستعمل عقله وإدراكه في هذا الخصوص.))

ولقد ابتهج رولنسون عند سماعة خبر وصول لايارد إلى الموصل (٢٧ تشرين أول عام ١٨٥٤) وكان مستعداً لإسداء نصيحة.

وهكذا فقد كان لدى لايارد فكرة واضحة عمّا ينبغي عليه عمله، وبعد تقديم أوراق اعتماده إلى حاكم الموصل المستبد مع أنه لم يخبره عن أهدافه فقد تقدم فوراً لتنفيذ خططه، وكان من الضروري أن يتخذ جانب الحذر نظراً لأنه لم يملك أي تفويض رسمي من السلطات التركية لإجراء الحفريات، لهذا فقد تظاهر بأنه ذاهب لصيد الخنازير البرية وانطلق راكباً قارباً يدعى الكيليك جنوباً فوق نهر دجلة يرافقه صديقه هنري جيمس روس وهو تاجر بريطاني في الموصل، وحارس وعامل بناء مع بعض الأدوات اللازمة للعمل قد تم صنعها.

وقد كانت وجهته نمرود وهو تل متميز على بعد نحو عشرين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو على ارتفاع نحو أربعين قدماً فوق السهل وهو يغطي مساحة قدرها حوالي ستين فداناً مع بقايا ناقورة واقعة على تله بارزة واقعة في الزاوية الشمالية الغربية، وهو يعرف كيف أنه وفي إحدى المناسبات عندما كان مسافراً إلى بغداد بواسطة كيليك في نيسان عام ١٨٤٠ عندها رأى تلة نمرود وهو سائر فوق نهر دجلة وقد قرر في ذلك الوقت أنه سوف يقوم باستكشافها في يوم من الأيام.

((رأيت خرائب نمرود للمرة الثانية، وأصبحت لدي فرصة أفضل لفحص هذه الخرائب، وكان قد حل المساء عند وصولنا إلى المنطقة، وقد عملت أمطار الربيع على إكساء التل بالعشب الأخضر.

وقد كانت المروج الخصبة الممتدة حوله مغطاة بالأزهار من مختلف الألوان، وفي وسط هذه الخضرة البهيجة كانت هناك قطع من القرميد والفخار والمرمر التي كان يظهر فوقها الآثار الإسفينية ذات الصفات المسمارية، ولقد امتدت خطوط من المرتفعات والتلال المتتالية التي لا تزال محتفظة بمظهر الجدران أو المتاريس وهي ممتدة من قاعدة الخرائب مشكلة ساحة رباعية الزوايا واسعة.))

وجد لايارد أن القرية القريبة من نمرود قد أصبحت مهجورة نتيجة لعمليات النهب التي كان يمارسها والي الموصل الوغد، وكان الشخص الوحيد الموجود في القرية هو أحد شيوخ القبائل الذي نهبت قبيلته وتفرقت، وقد لجأ إلى كوخ مهجور هناك وقد استخدمه لايارد لتنظيم جمع بعض العمال من المستوطنات المجاورة للمساعدة في عمليات الحفر.

بدأت الحفريات في يوم تشرين الثاني عام ١٨٤٥ ولقد تلا ذلك النجاح الأكيد وبعد أسبوع استطاع لايارد أن يكتب لكانذج:

((بعد أن فتحت خندقاً صادفت حجرة طولها ٢٥ قدماً وعرضها ١٤ قدماً وهي مشكلة من ألواح من الرخام طولها ٨،٥ قدماً ويحتوي كل لوح على نقوش بالخط المسماري، وبعد عمل أربعة أيام أصبت بحمى خفيفة أجبرتني على الرجوع إلى الموصل، وبعد ذلك تركت الحفريات تحت حراسة (القوامس) وهو الحارس المخصص وأمرته أن ينظف الحجرة)).

لقد انتهز لايارد فرحة وجوده في الموصل للتفاهم مع الوالي وقد كتب إلى كانذج يقول: ((لقد زرت الباشا الذي كانوا قد أخبروه أنني قد اكتشفت كنزاً، ولكني فسرت له طبيعة أبحاثي ولذلك لم يعارض ولقد تجنبت أن أحدثه في طلب الإذن للاستمرار في عملية الحفريات.))

لم تكن المشكلة هي الوالي فحسب، فقد علم لايارد أن القنصل الفرنسي (م. روتيه) وهو خليفة بوتا كان يقوم بالتحريض على إيقاف الحفريات، وبالنظر إلى سعيه للحصول على الأولوية بإتمام ما يمكن إتمامه من العمل قبل أن تتخذ الخطوات لإيقافه عن العمل، لذلك أمد عماله بالقيام بحفر خنادق في ستة مرتفعات آشورية أخرى، والتي كان كانذج قد أمره بحفرها، ولذلك استمر هو نفسه في متابعة الأعمال في نمرود وهناك وفي نهاية شهر تشرين الثاني وجد ألواحاً تحمل سلسلة رائعة من النقوش النافرة التي تصور المعارك الحربية لآشور، وكان قد أخبر كانذج عن إحرازه النجاح عندما نجح الفرنسيون في ألاعيبهم التي أنتجت تدخل الوالي لإيقاف الحفريات، ولكن كانت هذه نكسة مؤقتة حاول لايارد

الالتفاف عليها عن طريق صداقته الشخصية مع أحد الضباط المسؤول عن قيادة الجنود المحليين، وقد كان يأمل أن يجد منحوتات كبيرة وسرعان ما تسنى له ذلك.

ففي ١٩ كانون الأول استطاع أن يرسل تقريراً إلى كانذبج يخبره أنه قد وجد ثورين مجنحين عظيمين، وكذلك وحوشاً من الحجر الكلسي بارتفاع أربعة عشر قدماً، وقد كان بوتا قد وجد تماثيل مشابهة قد أثارت ضجة كبيرة في أوربة على الرغم من أن النقوش لم تكن قد وصلت إلى فرنسا بعد.

لقد استمر لايارد في مواجهة التدخلات من آن لآخر بشؤون حفرياته التي لم يحصل على إذن بالاستمرار في القيام بها بعد، ولكن إحدى مواهبه كانت مهاراته في التغلب على معارضيه، وهكذا استمر في الحفر وتسجيل وتفسير لقياته التي تشمل نقوشاً نافرة تحتوي على صور ثيران حجرية وأسود.

ولكنه لم يكتف بأعمال الحفر والقدرة في علم الآثار ولذلك فقد أشغل نفسه في محاولة حل رموز النقوش الآشورية، فقد كان رولنسون في بغداد يقوم بنفس العمل ومع أنه كان في ذلك الوقت متفوقاً عليه في هذا المضمار (فقد كان قد أكمل حل رموز حروف الهجاء الفارسية) لكنه كان يعامل آراء لايارد بالنسبة للنقوش الآشورية باحترام وكان يستعين بآرائه.

لقد كان كانذج متحمساً لما لمسه من نتائج أحرزها لايارد والاهتمام الشعبي الذي سوف تصادفه هذه النتائج، وحتى ذلك الوقت كانت تمويلاته للايارد شخصية أي: من جيبه الخاص ولكنه خطط أن يتصل بالوزير السير روبرت بيل عند رجوعه إلى بريطانيا بعد وقت قصير ويطلب منه مساهمة الدولة في مساعدة لايارد كما حدث بقضية بوتا بالنسبة للحكومة الفرنسية.

وفي أثناء ذلك حاول كانذج جاهداً الحصول على رسالة من الصدر الأعظم التركي تقدم للايارد الصلاحية بإجراء الحفريات في محافظة الموصل وهذا نص الرسالة التي حصل عليها:

((هنالك وكما يعلم سعادتكم في جوار الموصل كميات من الحجارة والآثار القديمة، ولقد أتى أحد الرجال الإنكليز إلى هذه المنطقة للتفتيش عن مثل هذه الحجارة، وقد وجد على ضفاف نهر دجلة في بعض الأمكنة غير المأهولة بالسكان بعض الحجارة القديمة التي تحتوي على صور ونقوش، ولقد طلب السفير البريطاني بأن لا تقام العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل الإنكليزي المذكور أعلاه عند أخذه تلك الحجارة التي ربما كانت مفيدة له بما فيها ما يمكن أن يكتشفه خلال تلك الحفريات، ولا مانع من إرساله تلك المكتشفات إلى إنكلترة)).

وكانت الصداقة الحميمة التي وجدت بين الحكومتين سهلت قبول تلك الطلبات، ولذلك لم يكن هناك من مانع لأخذ تلك اللقيات والحجارة الموجودة في تلك الأماكن المهجورة وهي حجارة قديمة تحتوي على صور ونقوش فقد طلب السفير البريطاني عدم وضع العقبات والصعوبات في طريق ذلك الرجل، أو عندما يقوم بإجراء حفريات في أماكن غير مأهولة بالسكان حيث يمكن إجراء ذلك دون إحداث أي إزعاجات لأحد، أو في أخذ هذه الأشياء حسب رغبته بين تلك التي استطاع استكشافها.

لم يكن كانذج فحسب هو الذي تأثر بلقيات لايارد فقد كانت المجتمعات الإنكليزية والأمريكية قد بدأت بالاهتمام العميق بأقوال التوراة وتاريخ الممالك العبرية القديمة، وكان هناك كثير من الناس في ذلك الزمن يشعرون بنفس شعور تلك السيدة التي كتب عنها الشاعر ماثيوبرويور:

لقد حفظت هذه السيدة بعض أجزاء التوراة عن ظهر قلب

وقد ابتهجت بقراءة الأخبار التاريخية في ذلك الزمن

ويعلم الجميع أن الآشوريين قد أسروا القبائل العشرة الإسرائيلية وأن سنحاريب وعن طريق قائده رابشا قد حاصر مدينة أورشليم المقدسة وقد كانت هذه الأشياء قد حازت على اهتمام الرأي العام والثقافة البريطانية والأمريكية والوعي في تلك البلدان، وبالنسبة لتلك الأقلية من المثقفين المهتمين بالتاريخ القديم

فقد كانت اللقيات التي وجدها بوتا ولايارد ذات أهمية بالنسبة للثقافة البشرية على العموم، ولكن معظم الزخم كان منصباً على الحوادث التوراتية.

وبالإضافة للقياته الرئيسية التي تتمثل في تلك الألواح من النقوش النافرة والتماثيل العظيمة في نمرود فقد صادف لايارد نجاحاً في خطوط سيره في مكان آخر، فقد كتب يقول:

((لقد فتحت عدة خنادق في التل الكبير في (باشيخا) واكتشفت قطعاً من النقوش وقرميداً منقوشاً وأوانيَ فخارية، وفي كارامليس أزيح التراب عن منصة من أعمال القرميد، وقد ثبت الأصل الآشوري لهذه النقوش عن طريق قراءة النقوش المرسومة على الصخور التي احتوت على اسم ملك خورسباد.

وكان من الواضح أن لايارد أصبح قادراً على فهم الكتابة المسمارية بشكل استطاع أن يميز به اسم الملك والأسماء الأخرى في مواقع أخرى.

وحتى الآن فقد امتنع لايارد عن المقر في المرتفع الكبير في كيونيجيك عبر نهر دجلة من جهة الموصل نظراً لأنه مع افتقاره لإذن رسمي بالحفر كان يخشى التدخلات من قِبل الشعب في الموصل.

ولكن بعد أن تسلح بكتاب الصدر الأعظم بدأ بالعمل بثقة وشعور بالإفلات من العقوبة، وكانت المعارضة الوحيدة التي صادفها هي مُعارضة القنصل الفرنسي الذي ادعى بأن له حقوق الأسبقية، ولكن لايارد لم يأبه لهذه المعارضة.

منذ أن رحل بوتار حل محله (روتيه) حصلت منافسات بين الإنكليز والفرنسيين، وقد وصلت هذه المنافسات إلى الصحافة، فقد كتب أحد أصدقاء لايارد رسالة له من القسطنطينية في (٨ حزيران عام ١٨٤٦ م) يقول:

قبل بضعة أشهر ظهر في جمعية **literary gazetc** من القسطنطينية رسالة تتحدث بلغة مثيرة عن أعمال روتيه الفرنسي، وبشكل استخفاف واضح عن أعمالك لذلك آمل أن أكون قادراً على كتابة شيء موثوق إلى رئيس التحرير بخصوص النتائج المقارنة لتلك الحفريات.

وكان هناك مظهر آخر لهذه المنافسات: وهو الأول الذي يعرض اللقيات الآشورية أمام الجمهور في أوربة، فقد أرسل (بوتا) عيّنات ولكنها تأخّرت في بغداد، وعندما علم لايارد بذلك كتب إلى السفير كانذج في أوائل كانون الأول عام (١٨٤٥ م) ما يلي:

((أظن أن علينا أن نُدبّر أمر إيصال منحوتاتنا إلى أوربا بشكل أسرع من الفرنسيين، وهذا أمر هام بالنسبة لِسُمْعَتِنَا)).

وقد دعم رولنسون هذه الفكرة فكتب إلى كانذج، وعرض استعمال باخرة تخص شركة الهند الشرقية الراسية عند مصب نهر دجلة وقد أرسل إلى لايارد مُوَضّحاً هذا الأمر:

((إذا استطعت أن تخلي محتويات حجرة أو حجرتين قبل بداية شهر آذار، وأن تجهز الأطواف، فإنني سوف أرسل الباخرة في ذلك الوقت مع تجهيزاتها.

ومن الممكن أن تصل هذه إلى إنكلترا في أوائل الخريف حيث تعرض معروضاتنا في معرض له حق الأولوية ويكون نصراً لنا.

ولقد كتبت إلى سفيرنا شيئاً حول الموضوع وهو سير باخرتنا صعوداً إلى أعلى المناطق في النهر، مشيراً إلى الفوائد السياسية عندما يظهر عَلمنا صاعداً في أعلى النهر.))

ولكن المنحدرات النهرية منعت استمرار سير السفينة إلى أعلى النهر حتى نمرود، وفي تلك الحالة اضطروا إلى نقل الآثار إلى بغداد بطريق الطوف.

ولكن الفرنسيين ربحوا قصب السبق أخيراً ضمن مدة ثلاثة أشهر، فقد عرضت لقيّات بوتا في متحف اللوفر في شهر أيار عام (١٨٤٧).

بينما تأخرت الألواح الحجرية الإثنا عشر من النقوش النافرة التي وجدها لايارد والتي عُرِضت في المتحف البريطاني في شهر آب (١٨٤٧).

إن العمل الذي قام به (روتيه) والذي استحق به الثناء والمديح في مجلة: literary gazetc لم يكن سوى شيء زهيد بالنسبة لما فعله بوتا في خورساباد مع أنه قد حصل على بعض النقوش النافرة على وجه صخرة في موقع آخر.

وقد زار لايارد خورسبا باد في أواسط صيف (١٨٤٦) وذكر ما يلي:

منذ رحيل السيد بوتا فقد امتلأت الحجرات بالروميات بسبب تهدم الخنادق، وهكذا فقد تلفت جميع المنحوتات ولم يبق سوى القليل من هذا النصب المرصوف، ونضيف عبارة ممتعة وهي أن الجغرافيين العرب القدماء يصفون خورساباد بأنها تحتل موقعاً يدعى سراجون.

وهذا شاهد قديم يدل على موثوقية التقاليد القديمة الشفوية التي تذكر أن ساراجون ما هي إلا شكل من أشكال كتابة اسم سرجون الذي كان عنصراً مهماً من عناصر هذا الاسم.

لقد قضى لايارد شهراً أو أكثر اعتباراً من نهاية آب (١٨٤٦) وهو في حالة سفر في الجبال إلى الشمال من الموصل، وعندما رجع إلى الموصل وجد أن كانذج بعد رجوعه من إنكلترا قد حصل على دعم رسمي للحفريات، وقد كتب كانذج يقول:

سوف يتعهد المتحف البريطاني قضية الحفريات في نمرود بدلاً عني، وقد سمحت الخزينة بصرف مبلغ (٢٠٠٠) جنيه إسترليني في هذا السبيل.

إنك أنت الموكل بالعمل وسوف تأخذ (٥٠٠) جنيه لك فضلاً عن (١٠٠) جنيه البيتية.

أما المبلغ الذي أنفقته أنا فسوف يسددونه لي، وسوف يخصَّص مبلغ يتراوح ما بين (١٠٠٠-١١٠٠) جنيه لمتابعة إتمام العمل بما فيه أجرة شحن المنحوتات التي سوف تجدها، وعليك أن تنهي كل ما ذكر في نهاية حزيران القادم.

ولكن لايارد اعتبر أن هذه الإعانة المالية غير كافية، وفيها شيء من الشح والبخل:

((إن هذه المنحة قليلة ، وأنا أشك أن باستطاعتي إتمام التوقعات التي توقعوها ، وإن المبلغ الذي منح لبوتا لقاء حفرياته في خورساباد لوحدها قد زاد بشكل كبير على جميع المنح التي وجهها المتحف البريطاني التي كانت تشمل المصاريف الخاصة ، ومصاريف النقل وكثيراً من النفقات التي لا بدَّ منها في الشرق.

ولكن قد قررت أن أقبل هذا التكليف وهذه المسؤولية ، وقررت أن أقتصد بالقدر الذي أستطيعه بحيث تمتلك الأمة من المواد الأثرية الآشورية ما هو أرقى من ضآلة المبلغ الذي خُصص لهذا الموضوع)).

ولقد استمر لايارد في تلخيص صعوباته فقال:

((لقد أصيبت كثير من المنحوتات بالتلف وهذه حالة يجب إصلاحها ، ولم يكن التصوير الفوتوغرافي متوفراً بعد ، وإن التسجيل لا يمكن إنجازه إلا عن طريق الرسم)).

ثم يقول لايارد : ولم يكن هناك أي دلالة بأنهم سوف يرسلون رساماً لمساعدتي، ولذلك فإن عليّ أن أراقب الحفريات عن كثب، وأن أرسم جميع النقوش النافرة بنفسي والتي تم اكتشافها.

وأن أنسخ وأقارن النقوش التي لا تعد ولا تحصى، وأن أصنع قوالب عنها ، أو أن أشرف على أعمال تحريات وتعليب المنحوتات)).

وكان عليه أيضاً أن يبني بيتاً لنفسه وبيوتاً للعمال، وأن ينظم الدفاع ضد غزوات القبائل العربية ، وفوق ذلك فقد كان البدو يفضلون أن يضعوا بين يديه قضايا خصوماتهم الخاصة وخلافاتهم العائلية ليقرر ما يجب عليه أن يحكم فيها ، وفي إحدى الحالات كان عليه أن يجد زوجاً لفتاة قد تقدمت إليه طلباً لحمايته.

هذا وقد استأنف عمليات الحفر على مقياس واسع في نمرود في شهر تشرين الثاني عام ١٨٤٦ وذلك عندما اشتملت لقياته على ألواح من النقش النافر ذات الأهمية وتستحق الذكر، وهو يقدم لنا وصفاً حياً لمجوعات مختلفة.

مثلاً: تحتوي السلاسل السفلية من الألواح ذات النقوش النافرة على ثلاثة مواضيع: حصار قلعة، والملك وهو يستقبل الأسرى، والملك مع جيشه وهو يعبر النهر، ونرى المحاربين وقد جلبوا منجنيقاً للقصف (وهو موجود في برج متحرك مصنوع من الأغصان المجدولة من القصب) وترى أحجاراً كثيرة قد تمَّ إطلاقها من المنجنيق وهي تتساقط على القسم الخارجي من السور، ويرى أحد الجنود الذين قد حوصروا وقد نجح في إمساك المنجنيق بسلسلة وهو يحاول رفعه وتحريكه من مكانه.

ويرى جندي آخر وهو يلقي النار من الأعلى إلى آلات الحصار (وترى آثار الدهان الأحمر لا تزال عالقة على المنحوتات) ويرى الجيش المحاصر في الأسفل وهو يحاول إطفاء النار وذلك بصب الماء عليها من صنبورين موجودين في البرج المتحرك، ويرى شخصان يلبسان كامل الدروع والأسلحة وهما يحفران تحت الأسوار بواسطة أدوات تشبه الرماح المثلمة، بينما نلاحظ أن اثنين آخرين قد وجدا ممراً سرياً يوصل إلى داخل القلعة.

وبالإضافة إلى النقوش النافرة وجد لايارد دروعاً من الحديد والنحاس وخُوذاً وأوانيَ من الرخام الشفاف ومن الزجاج، وكذلك ثوراً مجنحاً هائلاً وسلة سوداء من الرخام علوها ستة أقدام ونصف، وإن أفضل وصف لهذه الأشياء ذكره لايارد بنفسه:

((لقد كانت هذه منحوتة من جوانبها الأربعة، وكان هناك أربعة وعشرون لوحاً من الألواح المنقوشة النافرة وفوقها وتحتها وفي ما بين جوانبها كتبت نقوش تحتوي على ٢١٠ أسطر وقد كانت كلها محفوظة بشكل جيد، ولم يكن هناك أي حرف من حروف النقش ناقصاً أو مفقوداً، وكانت صور الأشخاص واضحة ومحددة كما لو أنها قد نحتت قبل أيام، وترى صورة الملك مرتين يتبعه رجاله، وأسيراً قد ارتمى تحت قدميه، ويرى الوزير ومعه بعض الخصيان وهم يقدمون رجالاً يقودون حيوانات مختلفة ويحملون مزهريات وأشياء أخرى تتمثل بالجزية...

والحيوانات المصورة هي الفيل والكركدن والجمل ذو السنامين والثور البري، والأسد والوعل وأنواع مختلفة من القرود، وبين الأشياء التي يحملها الرجال كجزية كانت أنياب الفيل، والشالات والمزهريات المصنوعة من المعادن الثمينة، والفواكه والقضبان من المعدن أو حُزم من الأخشاب النادرة.))

تحتوي نمرود على عدد من القصور تعود إلى فترات مختلفة خلال القرن الثامن والقرن التاسع، وكانت معظم اللقيات المذكورة من القصر الشمالي الغربي، ولكن لايارد كان يحفر في أنقاض قصر في الزاوية الجنوبية الغربية من التل وهنا وجد آثاراً من نوع مشابه ولكن كانت هناك فروق سجلها بعناية وقد وصفها بأنها تعود إلى تاريخ مختلف، وإن أحد العوامل التي أعطت لعمل لايارد أهمية خاصة عند اكتشاف بلاد آشور من جديد كانت خبرته في المجالات الفنية، وربما كان ذلك نتيجة لتربيته الأولى في فلورنسة الأمر الذي مكنه أن يرى بسرعة مالا يستطيع أن يراه أحد من تتابع قطع من فنون النحت تتابعاً زمنياً.

في هذه الأيام ربما اعتبرنا عملاً غير لائق أن نسأل عالم آثار عما وجده، فإنه من المحتمل أن يجيبنا بتكلف أنه يفتش عن أجوبة لعدة مشاكل وهو لا يبحث عن أجوبة عن الأشياء، ولكن كان للايارد موقف صلب وقد كوفئ بذلك النجاح الحقيقي الكبير وذلك بأنه استطاع أن يرسل حمولة كبيرة أخرى من اللقيات إلى الأماكن الموجهة إليها في المتحف البريطاني وهنا نراه يقول:

((وفي يوم عيد الميلاد عام ١٨٤٦ شعرت بالرضا والامتنان لرؤية طوف وهو يحمل ثلاثاً وعشرين محفظة ومن ضمنها المسلة وهي عائمة فوق النهر، وقد راقبتهم حتى غابوا عن الأنظار، وبعدها أسرعت راكضاً إلى الموصل لأحتفل بعيد الميلاد مع حفنة قليلة من الأوربيين الذين جمعهم الواجب أو شؤون العمل في هذه البقعة النائية من بقاع العالم)).

وبعد عطلة الميلاد تابع لايارد عمله في الحفريات في نمرود وبصورة رئيسية في القصر الشمالي الغربي خلال الأشهر الثلاثة الأولى من عام ١٨٤٧، وكانت إحدى لقياته المتعة حجرة مملوءة بالعاج المحفور، وكانت هناك أيضاً غرف فيها رسوم

جدارية باللون الأحمر والأزرق والأسود والأبيض، ولكنه ولسوء الحظ لم يستطع أن يحفظها من التلف.

كان هناك مكتشفات مهمة أخرى بحيث لا مجال لذكرها هنا، ولكن لايارد قد ذكرها في مذكراته وهنا يذكر خلاصة لأعماله في نمرود:

((لم يكن بوسعي القيام بأعمال الاستكشاف كما يجب، ولكن ومع وجود ذلك المبلغ الضئيل من المال تحت تصرفي لم استطع أن أمارس أعمال الأبحاث إلى المدى الذي كنت أتوقعه وأرغب به، ولهذا فقد تركت مرتفع نمرود لمن سيأتي بعدي من المستكشفين الذين سوف يعملون على استكشاف خرائب آشور)).

وكما سوف نرى فإن هذا التحدِّي المطروح لم يتطرق إليه أحد إلا بعد قرن من الزمان وبنجاح كبير على يد ب. د مالوان (السير ماكس) فيما بعد وهو زوج أجاثا كريستي.

وعندما نشر لايارد نتائج أبحاثه فقد وقع في خطأ وهو أنه طابق اسم نمرود مع نينوى التي تمثل بالحقيقة بكويونجيك والنبي يونس ولم يكن الخطأ سببه لايارد الذي ترك السؤال مفتوحاً مدة طويلة بل كان السبب هو رولنسون الذي كتب إلى لايارد بتاريخ ١٠ كانون الأول عام ١٨٤٥ ما يلي:

((لقد فحصت مؤخراً بعناية تامة القضية الجغرافية والتاريخية المختصة بنمرود وأخير توصلت إلى استنتاج قاطع وهي أن نمرود هي نينوى التي هدمها (سارد أنابا لوس) أما الخرائب الموجودة في النبي يونس فهي خرائب نينوى الثانية وهي عاصمة الأسرة الآشورية الأخيرة)).

لم يبتعد رولنسون عن الصواب، كما من الممكن أن نتصور فإذا استبدلنا كلمة عاصمة آشور بكلمة نينوى فإن ما قاله رولنسون يبدو صحيحاً، إذ إن فكرته بأن نمرود كانت عاصمة أقدم وقد حلَّ محلها عاصمة كانت النبي يونس جزءاً منها، فهذا كلام صحيح ودقيق مع أن اسم نينوى يخص العاصمة المتأخرة.

لم يكتفِ لايارد بعمليات الحفر في نمرود وكيونيجيك، فقد سمع قصصاً من الزوار العرب عن موقع يدعى قلعة شيرجات (باللغة العربية قلعة الأرض) وهي واقعة على نهر دجلة على بعد حوالي ستين ميلاً إلى الجنوب من الموصل وهو يقول:

((كان هناك أحد العرب من قبيلة شمر (وهي قبيلة رئيسية في الجزيرة العربية) كان يقضي من وقت لآخر ليلة بين عُمَالي ويسليهم برواية القصص حول الأصنام والأشكال المنحوتة التي تمثل المردة التي كانت سبباً في دخول الخوف والرهبة في قلوب القبائل المتجولة الذين ينصبون خيامهم قرب ذلك المكان)).

ويقول: ((إن المنظر كان خطراً للغاية لكونه كان لقاء كل الجماعات التي تعمل في السلب والنهب، ولكن أصبحت حركات القبائل الآن تمثل ظروفاً يستطيع خلالها أن يذهب حياً منها بأمان واطمئنان ولكنه وجدها بقعة موحشة)).

ويقول لايارد: لقد توجهنا نحو الخرائب بعد الظهر وركبنا بمحاذاة الغابة فوجدنا الأرانب البرية والذئاب والثعالب وبنات آوى والخنازير البرية وكانت تعبر الطرق أمامنا باستمرار، وكانت طرائد الصيد متوفرة ومن جميع الأنواع وتوجد الأسود أحياناً قرب قلعة شيرجات، وحالما توجهت إلى بغداد قبل عام سمعت زئير أسد ليس بعيداً عن المنطقة.

ولقد أرسل لايارد جماعة من العمال قبل ذهابه ببضعة أيام لكي يبدؤوا بالحفريات فوجدوا تمثالاً مقطوع الرأس مصنوعاً من البازلت الأسود، وقد ساعدت لايارد إجادته وتمكنه من معرفة وفهم الحروف المسمارية تمكنه فوراً أن يحدد هوية هذا التمثال وأنه يعود إلى لقيات نمرود.

وكانت قطعة الحجر التي توضع عليها التمثال مغطاة من ثلاثة جوانب بالنقوش المسمارية، وكان السطر الأول يحتوي على اسم وألقاب الملك ولكن بشكل غير واضح، ولكن وجدت بعد قراءة كلمة أو كلمتين استطعت أن أستعيد اسماً مطابقاً للاسم المكتوب على التمثال الثور العظيم الواقع في منتصف قلعة نمرود، وعندما توجهت عيناي إلى الأسفل نحو العمود الأول من النقوش وجدت اسمي والده (وهو باني أقدم قصر في نمرود) واسم جدَّه.

وهذا أثبت أن القراءة كانت صحيحة، وبعد ذلك جلب أحد البدو قطعة من القرميد تحتوي على خرافة صغيرة فيها ثلاثة أسماء كاملة، وهكذا استطعت أن أعين الفترة الزمنية لتلك الخرائب المستكشفة حديثاً.

ونحن نعلم الآن أن الملك الذي دعاه الجد لم يكن سوى توكولتي نينوترا الأول (٨٩٠-٨٨٤) ق. م، وأما باني أقدم قصر في نمرود فهو آشور ناصر بعل الثاني (٨٥٨-٨٢٤) ق.م، وإن التمثال المصنوع من البازلت الأسود كان ابنه سلمناصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤) وهو التمثال الجالس الذي يعطي جمالاً لصالة نمرود المركزية في المتحف البريطاني في لندن.

لقد كانت الحالة الأمنية في قلعة شيرجات سيئة مما حرم لايارد من فرحة استمرار العمل هناك ما عدا نظرة خاطفة، وكان على عمليات الحفر أن تنتظر قدوم بعثة ألمانية في سنوات ما قبل الحرب العالمية الأولى، هذا وقد عاد لايارد إلى نمرود لإكمال حفرياته الأساسية، ولكي يرتب قضية نقل الثور المجنح العظيم والأسد وقد فعل ذلك بواسطة عجلات وعربة صنعت خصيصاً لهذا الغرض، وقد جرَّها حوالي ثلاثمائة رجل كانت تشجعهم الموسقيا والنساء المنشدات مسافة ميل تقريباً من التلة في نمرود إلى ضفة نهر دجلة، وهناك تركت هذه الآثار لتنتظر ارتفاع ماء النهر الذي سوف يساعد في زحزحة التمثال الكبير وإدخاله إلى الطوف (الكيليك).

وبمناسبة حدوث موجة من القحط انتقل سكان جميع القرى الواقعة حول نمرود إلى التلال حيث كانوا يأملون في زراعة بعض الحبوب، وكذلك فقد نزح البدو الرعاة وقبائلهم شمالاً، وهكذا لم يكن هناك أي عربي في المنطقة سوى عمال لايارد، وحالما حصل ارتفاع في منسوب النهر أصبح من السهل إدخال المنحوتات إلى القارب ولكن الرجال من العمال ظنوا أن لايارد بحاجة إليهم وإلى مساعدتهم فقد قاموا بعمل إضراب طلباً لرفع الأجور، ولكن لايارد لم يكن بالرجل الجبان الذي من الممكن إرهابه، ولذلك سمح لهم بالذهاب فذهبوا ولكن بعض العائلات رفضوا مغادرته.

ولكن كان هناك قبيلة من البدو الرحل كانت تربطها علاقة الصداقة مع لايارد فأرسل لهم لايارد رسالة مع شخص على ظهر حصان، فأرسلوا له رجالاً لا يكفون لإتمام العمل، وعندها رجع المضربون وعرضوا استئناف العمل بأي شروط، ولكن لايارد استطاع أن يتم العمل بدونهم.

وبعد أن تم نقل المنحوتات عمد لايارد إلى دفن المنحوتات الباقية بناء على تعليمات وردت من أمانة المتحف البريطاني، وقد ترك نمرود في منتصف شهر أيار عام ١٨٤٧.

ونظراً لوجود بعض المال الذي بقي من المنحة التي قدمت له قرر أن يستعمل هذا المال في عملية حفر في كيونيجيك، وقد كان يقصد بذلك غرس النفوذ البريطاني هناك بقصد إحراج القنصل الفرنسي الجديد وهو م. غولويس الذي كان قد قدم طالباً السماح له بالحفر هناك، وكان لايارد صريحاً بالنسبة لأهدافه عندما كتب إلى كاندج بتاريخ ١٤ حزيران عام ١٨٤٧ ما يلي:

((لقد قمت بعمليات الحفر في كيونيجيك خلال الأسبوعين الماضيين وقد نجحت العملية إلى حد ما، ولقد كشفت عن ثمانية حجرات، هذا وإن استكشاف هذا البناء والمدى الذي توصلت إليه الحفريات ربما تؤكد وتدعم ادعاءنا بأحقية العمل في المستقبل في هذا التل فيما لو رغب أمناء المتحف البريطاني باستمرار البحوث في هذه البلاد)).

لقد كان المشكل العملي بالنسبة لأعمال الحفر في كيونيجيك والمشكل الذي جمد نشاط بوتا في محاولاته هناك عمق التربة الكبير فوق مستوى الأرض في بلاد آشور، ولقد كان لايارد عالماً بهذا الأمر، فقد حفر خنادق على عمق عشرين قدماً لكي يصل إلى الأرض التي بني فوقها القرميد المشوي بالشمس، وهنا أيضاً وجد ألواحاً من النقوش النافرة وثيراناً هائلة مجنحة.

هذا وإن معرفته بالرموز المسمارية جعلته يعلم أن الملك الذي كانت هذه الآثار تنتمي إليه كان هو ابن الملك الذي بنى خورساباد، وكما نعرف الآن أن قصر كويونيجيك الذي يمثل نينوى قد بناه سنحاريب الذي كان والده سرجون باني

قلعة سرجون (خورساباد) وقد سجل هذا الملك أيضاً عدة ألواح مستطيلة مصنوعة من القرميد غير المشوي مع وجود بعض النقوش المسمارية فوق جوانبه.

وكانت هذه أول الدلائل لوجود تلك الثروة الهائلة من الألواح المسمارية في كويونجيك التي كانت في غاية الأهمية بالنسبة لمعرفتنا بتاريخ منطقة ما بين النهرين.

لقد نال لايارد مساعدات لا بأس بها في كويونجيك من هنري جيمس روس، وحالما كان لايارد يقوم بالاستعداد لمغادرة منطقة ما بين النهرين كلف المتحف البريطاني (روس) بالاستمرار وعلى مقياس ضيق بالحفريات في كويونجيك وكان الغرض الأساسي الاحتفاظ بحق بريطانيا في هذا الموقع، وقد غادر لايارد المنطقة متوجهاً إلى القسطنطينية في شهر حزيران عام ١٨٤٧ ووصل إلى إنكلترا في وقت عيد الميلاد وذلك بعد أن عرض رسوم المنحوتات الآشورية على رجال علم الآثار في إيطاليا وقضى بعض الوقت في مناقشة اللقيات مع (بوتا) وزملائه في باريس.

ولكن أعماله أصبحت معروفة جيداً في إنكلترا، وفي أوائل شهر تشرين الأول عام ١٨٤٦ عقد اجتماعاً للمؤسسة الملكية للعمارة برئاسة الإبريل دي جري، وذلك لأجل بحث ما وصفه لايارد لأحد البنى الأثرية في (تل هافور) في منطقة ما بين النهرين، وكذلك لمناقشة بعض الآثار المكتشفة حديثاً في نمرود (وهو موقع نينوى) وقد كان أولى لقيات لايارد قد عُرضت في المتحف البريطاني منذ شهر آب عام ١٨٤٧ وقد أثار ذلك العرض ضجةً لا بأس بها في الرأي العام، وقد كان أصدقاؤه حريصين أن ينال الشرف الذي يستحقه.

فقد كتب كانذج (ينبغي عليك أن تقدر معظم الآثار الآشورية وأن تنصف هذه الآثار وأظهر أفضالك واجعل الجمهور يفهم أنهم قد حصلوا على جائزة كبرى).

وهكذا بدأت آيات الشرف تتوجه نحوه، إذ إنه وبعد وقت قصير من عودته إلى بريطانيا انتخب عضواً في المجمع العلمي، وفي شهر تموز عام ١٧٤٨ منح درجة الدكتوراه D.C.L من جامعة أكسفورد.

ولقد أقنع اهتمام الرأي العام بالآثار الآشورية أمانة المتحف البريطاني باستئناف عمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين ومن المفضل أن تكون تلك العمليات بإشراف لايارد، ولكنه فضل رفض هذا الطلب لسببين وكان أحدهما مادياً نظراً لأن سُلّم الأموال التي يخصصها المتحف البريطاني لمثل هذه الأعمال كان ضئيلاً.

أما السبب الآخر: وهو أنه رغم نجاحه المرموق في عمليات الآثار إلا أن ذلك كان مجرَّد هواية بالنسبة له، فقد كان هدفه الحقيقي هو العمل في الحقل الدبلوماسي، فقد أحرز درجة راقية في هذا السبيل وذلك بتعيينه ملحقاً ثقافياً للسير ساتر آنغور كانذج في القسطنطينية (ولكن دون راتب) وقد ترك بريطانيا للحاق بذلك المنصب في شهر تشرين الأول عام ١٨٤٨ وقال كما أخبر صديقه: إنه سوف يلتحق بوظيفة ملحق ثقافي دون أجر وهو لا يملك ستة بنسات.

وفي أثناء ذلك كان مستعداً لنشر كتبه ونتائج أعماله، فأصدر مجلداً يحتوي رسوم الأنصاب الذي ظهر في عام ١٨٤٩ تحت عنوان ((أنصاب نينوى)) وبعد ذلك صدرت له إصدارات جديدة عام ١٨٥١ بعنوان (مخطوطات بالرموز المسمارية من الأنصاب الآشورية) وقد وضع فيها لوحات من نسخ من النقوش المسمارية كانت في غاية الدقة بحيث إنها لا تزال ذات قيمة للباحثين بعد قرن وربع من الزمن من صدورها.

ولكن رائعته وأفضل مؤلفاته كانت كتاب (نينوى وآثارها) وكان في مجلدين وهو يعطي قصة حية ليس بالنسبة لحفرياته بصورة عامة في نمرود (التي وردت خطأ باسم نينوى) فحسب، بل أيضاً بالنسبة لرحلاته وقد نشر هذا الكتاب في بداية عام ١٨٤٩ ولم يكن هذا الكتاب نجاحاً كاسحاً فحسب، بل كان

ضجةً قوية وقد أصيب لايارد بالدهشة بقدر ما أصيب بالسرور وقد كتب من القسطنطينية في ٥ شباط مخاطباً أحد الأصدقاء:

((لقد غمرني العجب من المديح الذي لاحظته بالنسبة إلى كتابي المتواضع، وأنا أشك أن أحداً يمزح معي، وإن (موري) الناشر يفكر بإصدار طبعة ثانية ومع ذلك كانت تقديرات الناشر غير كاملة)).

ففي شهر أيار صدرت الطبعة الثالثة، وفي تموز ظهرت الطبعة الرابعة وقد كتب أيدوين لاوريس إلى لايارد من مكتب الخارجية في ١٩ شباط يقول:

((أهنئك لأنك أصدرت كتاب الموسم، الحقيقة لم ينل أي كتاب ما ناله كتابك من التقدير وحيث ما أذهب أسمع السؤال:

ما هو رأيك في كتاب لايارد؟

وليس هناك أي شخص يسأل: هل قرأت هذا الكتاب؟

لأن ذلك أمر مفروغ منه.

فقد زار كل شخص ذي أهمية ابتداء من الأمير ألبرت الآثار الآشورية في المتحف البريطاني.

وقد كتب صامويل بيرتش من المتحف البريطاني إلى لايارد في ٢٨ آذار ما يلي:

لقد جُنَّ العالم شوقاً لرؤية الذهب والجميع يصيحون: الثيران، الثيران ولقد أتعبتني تلك الجماهير من الناس القادمين من صفوف اللوردات والسيدات الذين أتوا لرؤية نمرود.

ولكن حدثت بعض المنغصات من جراء هذا المديح، فقد كتب له رولنسون من بغداد بتاريخ ١٧ كانون الثاني يقول:

ما رأيك بتلك الهجومات الموجهة إليك من قبل المجمع العلمي الذين ينعتونك بكونك أحد برابرة القرن التاسع عشر؟

هل تعتقد أن بونومي يفكر أن نمرود هي أثينا؟

أما بونومي فكان يكبر لايارد بعشرين عاماً وكان من الثقات في النحت وقد حاز على شهرة عندما رسم الأنصاب المصرية.

وقد تابع هجومه على لايارد بنشره كتاباً ناجحاً عنوانه (نينوى وقصورها) مع عنوان إضافي (اكتشافات بوتا ولايارد بالنسبة لشرح الكتاب المقدس) وكان هذا تكييفاً لكتاب لايارد نفسه وهو (نينوى وآثارها) ولكن بشكل أقل أناقة وروعة.

وفي القسطنطينية كان لايارد يشك بالحكمة في اشتراكه مرة ثانية في الحفريات في منطقة ما بين النهرين، ولكنه سمع الآن أن الحكومة البريطانية قد أعطت التعليمات لكانذج بالاستفادة من خدمات لايارد لذلك الغرض (أي: بالحفريات) وبعد وقت قصير علم أنه سوف يوظف كملحق ثقافي ولكن بأجر قدره (٢٥٠) جنيهاً إسترلينياً سنوياً كاعتراف من الحكومة بأهمية خدماته بالنسبة للتاريخ القديم.

وقد هنأه كانذج قائلاً أتمنى لك السرور لأنك قد أصبحت ملحقاً ثقافياً براتب، وإن هذه الوظيفة هي بمثابة كعكة رقيقة الحجم لتنين المجد العنيف الذي حظيت به، ولكنها ليست شيئاً على كل حال.

ولقد صوّت البرلمان على إعطاء منحة قدرها ١٥٠٠ جنيه إسترليني لمدة سنتين مكافأة على القيام بعمليات الحفر في منطقة ما بين النهرين، ولقد تم تأمين هيئة صغيرة تتألف من أحد الفنانين وطبيب وهرمز رسام وهو الأخ الأصغر لنائب القنصل البريطاني في الموصل، ولقد أرسل المتحف البريطاني مذكرة إلى لايارد مؤرخة بـ ١٤ تموز تلخص شروط الحفريات:

إن الحملة التي سوف يصبح السيد لايارد مسؤولاً عنها قد شكلت للحصول على أوسع المعلومات وأدقها بخصوص الآثار القديمة في منطقة ما بين النهرين التي من المحتمل أن تستطيع الموارد المالية للأمانة العامة للمتحف تقديمه في هذا الصدد.

وكانت هذه المعلومات التي سوف تقدم للمتحف البريطاني سوف تكون بشكل عيّنات مختارة من الآثار المنحوتة والمنقوشة، وجزء منها بشكل مخططات

الأبنية المكتشفة ورسوم النقوش والمنحوتات ونسخ عنها مع أوصاف مفصلة عن الأشياء والمواد التي من الممكن أن تظهر أثناء الحفريات.

ولا تعتقد الأمانة العامة أنه من المناسب تقييد حركة السيد لايارد بتحديد المواضع التي سوف تشملها أبحاثه، إذ إن خبرته الواسعة بأحوال تلك البلاد ومواقعها الأثرية سوف تكون أفضل مرشد.

ولقد اعتبر لايارد أن المبالغ التي وضعت تحت تصرفه كانت ضئيلة وغير كافية، لذلك كتب إلى أحد أصدقائه يقول:

((لا يمكنني القول إن أمناء المتحف البريطاني قد سلكوا سلوكاً مناسباً وتصرفوا بسخاء، ومن جهة أخرى أظن أن الرأي العام قد عاملني معاملة سخية وممتازة مما يعوضني عن معاملة الأمناء.

وفي السنة التالية كان أكثر شكوى من السنة الماضية وهو يقول:

((إن أسوأ ما في الأمر هو أن الأموال المخصصة مقننة، ومن المنتظر أن أقنن وقتي أيضاً، فلو منحوني المبلغ مباشرة فإني أستطيع أن أنهي العمل في مدة سنتين.

أما في الظروف الحالية من تقتير الأموال فإني لا أستطيع إنهاء نفس العمل في مدة خمس سنوات أو ست سنوات، أما الرسَّام الذي أرسلوه لي فهو غير لائق لعمله وليس بإمكانه أن يخدم المصلحة بجداره وعدل)).

لقد غادر لايارد القسطنطينية متوجهاً إلى الموصل في أواخر شهر آب عام ١٨٤٩، ولقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها في حملته الثانية أوسع مدىً من حملته الأولى، فقد امتدت إلى بابل جنوباً حتى نيبور مع أن نجاحه كان محدوداً بسبب الأحوال غير المستقرة هناك.

وأما في آشور فقد كان عمله موزَّعاً ما بين كويونيجيك ونمرود مع قضاء بعض الوقت في قلعة شيرجات ومواقع أخرى.

وكانت طريقته في الحفر هي الاستمرار حتى الوصول إلى أرض الحجرات العائدة إلى القصور الآشورية وبعدها يعمل حول الجدران حتى يجد أمثلة مناسبة

من اللقيات مثل الألواح من النقوش النافرة التي كانت متوفرة في القصور الآشورية.

ولكن في أثناء تنظيف أراضي الغرف فقد وجد عدة لقيات ممتعة اشتملت نمرود على مجموعة مهمة من المواد البرونزية كالأجراس والأسلحة والمراجل والمزهريات وحتى العروش الملكية.

وكذلك اكتشف تمثالاً بالحجم الكامل للملك آشور ناصر بعل في حالة جيدة تقريباً.

أما في كيونيجيك فقد اكتشف مجموعة ضخمة من النقوش النافرة وبعضاً من تماثيل الثيران المجنَّحة ولكن أهم لقية وجدها في الموقع الأخير كانت أول مجموعة كبيرة من الكتابة المسمارية من مكتبة آشور ناصر بعل والتي إذا حلّت رموزها فهي سوف تقدم المفتاح للوصول إلى الأدب والدين والطب وطرق المعيشة والتفكير بالنسبة للناس الذين سكنوا منطقة ما بين النهرين القديمة.

لقد دامت أعمال الحفريات أثناء حملته الثانية إبتداءً من تشرين الأول عام ١٨٤٩ حتى نيسان عام ١٨٥١ ولكن ساءت صحة لايارد وأصابه الاكتئاب لاسيما بالنسبة إلى المؤن والأموال التي خصصها المتحف البريطاني وهو يقول:

((لقد وصلت البعثة إلى حالة ميؤوس منها، ولم يعد لدي أموال مناسبة ولا عون أو مساعدة مناسبة ولسوف لا تصل الأمور في النهاية إلى المستوى الذي كنت أتوقعه)).

ووصلت الأمور إلى درجة أن قرر أن يترك الأعمال الأثرية إلى الأبد، وقد أخبر أحد أصدقائه قائلاً:

((أظن أنه حان الوقت لكي أترك أعمال الحفر وأن أعود للاهتمام بواجباتي في هذه الحياة وأن أسعى لتكوين وضع دائم لنفسي)).

ولقد أصر على هذا القرار رغم المجهودات التي بذلت لإقناعه للقيام بحملة ثالثة، وعند رجوعه إلى إنكلترا في شهر تموز كان قد قرر أن ينتهي وبشكل

نهائي من ميدان علم الآثار وهكذا فعل، ولكن أنجز لايارد التزاماته من خلال إصدار كتابين آخرين وهي سلسلة ثانية من كتاب نصب نينوى والثاني قصة بعثته الثانية تحت عنوان: (اكتشاف بين أطلال نينوى وبابل) ولقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً يضاهي نجاح كتاب (نينوى وآثارها).

وفي أثناء ذلك استمر رولنسون بالمراسلة مع لايارد حول شؤون التعاقب الزمني حول قراءة المنحوتات المسمارية، وسوف يستغرق معنا وقتاً طويلاً إذا بحثنا هنا عن تاريخ الخطوات والمراحل التي مرَّ بها تقدُّم رولنسون.

ولقد رأينا أنه قد أكمل حل الأبجدية المسمارية الفارسية القديمة عام ١٨٤٥ وفي عام ١٨٤٩ أعرب لايارد عن رضاه على مقدرة رولنسون قراءة الشكل الآشوري من الرموز المسمارية، فقد كتب لأحد أصدقائه في إنكلترا.

لقد كان رولنسون هنا مؤخراً وقضى يومين أو ثلاثة أيام معي، ولقد سلمته رسالة إلى الضيوف، وهذا التصرف لم أكن لأقدم عليه لولا معرفتي أن رولنسون أسد حقيقي فهو صديق من الطراز الأول ومن المؤكد أنه الأول في مجاله، ولا شك بأنه سوف يدهش الناس في إنكلترا باكتشافاته في مجال الكتابة المسمارية، ولا شك أنه الآن أصبح ملِمّاً بجميع القضايا المبدئية بالنسبة لكل رموز النقوش، وأن الكتاب الذي ينوي نشره وهو في إنكلترا سيكون ترجمة تقريبية إن لم تكن كاملة لتلك النقوش الموجودة على المسلة ومعظم السجلات المهمة في آشور والتي اكتشفت حتى الآن.

فكتور بلاس وهرمز رسام

في أثناء حملته الثانية أقام لايارد مساعداً وهو هرمز رسام وهو أحد مواطني الموصل من المسيحيين وهو الأخ الأصغر للرجل الذي خدم مساعداً للقنصل البريطاني، وكان لايارد قد أرسله إلى كلية أوريال في أكسفورد لإتمام تعليمه، وعندما رفض لايارد القيام بالحملة لثالث مرة وهي التي خططت لها الأمانة العامة

للمتحف البريطاني، فقد اقترح تعيين رسام في هذه المهمة، ولقد حدث عندما أُرسل رسَّام في عام ١٨٥٢ لمزاولة أعمال الحفريات تحت إشراف رولنسون في بغداد.

ومع ذلك في بداية شهر كانون الثاني عام ١٨٥٢ وصل إلى الموصل قنصل فرنسي جديد اسمه فكتور بلاس، ولقد أخبر هذا رولنسون عن نيته بأن يزاول أعمال الحفر في كيونيجبيك، ولذلك لم يكن من مانع لدى رولنسون نظراً لأنه كان يعتقد أن لايارد قد نظف المكان وأخرج منه كل المواد ذات الأهمية الأثرية.

وعند وصول رسام الذي كان يعرف جيداً أن هناك أشياء كثيرة ينبغي عملها في كونيجبيك لذلك لم يمانع.

وبعد ذلك بدأ بلاس ورسام يعملان كل على حدة في أماكن مختلفة من الموقع، ولقد أحرز رسام حظاً أوفر من النجاح، فهو لم يكتشف سلسلة رائعة من النقوش النافرة من التي كانت تصور صيد الأسود من قِبل آشور بانيبال فحسب تلك النقوش التي تعتبر إحدى أمجاد المتحف البريطاني، ولكن اكتشف أيضاً مجموعة من الألواح المسمارية التي تؤلف مكتبة الملك والتي كانت تؤلف أسس علم الدراسات الآشورية.

وبعد ذلك دخل بلاس ورسام في منافسة للحفر في قلعة شيرجات ولكن لم ينل أي واحد من هذين الرائدين أي نجاح هناك، ولكن كان هناك مجال مرضٍ للعمل في نمرود حيث استمر رسام في إنجاز أعمال لايارد وكانت نتيجة جيدة ولاسيما في خورساباد، وهناك كشف بلاس عن مائة وست وثمانين حجرة أخرى في أحد القصور الآشورية بالإضافة إلى أربع عشرة غرفة كان قد وجدها بوتا.

ولقد كان لدى بلاس أهداف تختلف عن أهداف بوتا ولايارد مثلاً: بدلاً من التركيز على لقيات قابلة للحمل فقد كان مهتماً باكتشاف المخططات المفصلة للأبنية وإن ما كشفه في خورساباد لا يزال أفضل مثال لقصر آشوري.

وقد عرض بلاس أيضاً بعض الرسوم الممتعة لواجهات الأبنية بعد ترميمها، ورغم مظاهر الاحتكاك ما بين الرجلين حول حقوق الحفريات إلا أن العلاقات ما بين رولنسون وبلاس كانت على مايرام، ولقد تبادل هذان الممثلان لدولتين

مختلفتين النُصب التذكارية من كيونيجيك ونمرود وخورساباد وأرسلاها إلى متاحفها المختلفة، ولكن حدثت مصيبة للآثار الغربية وهي على نهر دجلة عام ١٨٥٥ ولذلك أعيد إرسالها بواسطة كيليك بالطريقة المعتادة، ولكن وفي المنطقة التي يلتقي فيها نهر دجلة مع نهر الفرات تعرض الركب لهجوم من بعض القبائل العربية المتمردة وهكذا غرق اثنان من الكيليك واختفت حمولتاهما من الآثار في مياه نهر دجلة، وهناك بقيت هذه الآثار تنتظر الأموال والتقنيات والاستقرار السياسي والحظ للمساعدة على إنقاذها واستعادتها.

ولقد أنهى بلاس ورسام حفرياتهما عام ١٨٥٤ وبعد رحيل رسام أنجزت بعض الأعمال في كيونيجيك من قبل شخص آخر يمثل المتحف البريطاني وهو W.KLOFUS (كلوفوس) الذي انحصر عمله الرئيسي في الحفر في المنطقة في جنوب بابل وقد بدأ الاهتمام الآن بالانتقال من المواقع الآشورية إلى الجنوب، ولقد بدأ ميدان علم الآثار يظلل بتلك الأهمية التي حصل عليها تراكم الألواح المسمارية.

وفي عام ١٨٥٥ استقال رولنسون من منصبه كقنصل عام في بغداد وعاد إلى إنكلترا حيث كرس نفسه لتفسير ونشر النصوص المسمارية، وقد كان هناك عدد من الباحثين يعملون في تفسير الرموز المسمارية ولكن كان هناك موجة من التشاؤم لدى الرأي العام بخصوص مصداقية الترجمة المقدمة، وأخيراً قررت الجمعية الآسيوية الملكية اعتبار رولنسون وثلاثة من الباحثين الآخرين البارزين المعتمدين في تحضير الترجمات بالنسبة للنقوش الطويلة، وعندما قورنت النتائج ظهر أنها متشابهة إلى حد كبير، مما أثبت أن تفسير الرموز المسمارية من النظام البابلي والآشوري قد تمت بنجاح وثقة.

ولقد خولت الأمانة العامة للمتحف البريطاني رولنسون وأعطته كامل المسؤولية لتحضير سلسلة من المجلدات تحتوي على نصوص مسمارية مع أن معظم عمليات النسخ قد قام بها أناس آخرون، وربما كان أشهر هؤلاء المساعدين شاب يدعى: جورج سميث، وكان تحدّث لدى أحد نقاشي العملة وهو في الرابعة عشرة

من العمر، ولكن اهتمامه الشديد في التاريخ التوراتي والآثار الآشورية والنصوص المختصة بذلك الموضوع أدّيا به أن يقضي معظم وقته في المتحف البريطاني.

وقد لاحظ المسؤولون هذا الاهتمام، وبعد أن أثبت بأن لديه معرفة لا بأس بها بالموضوع، قدِّمت له وظيفة لوصل قطع الفخار بعضها ببعض ووصل الأنواع المكسورة المأخوذة من نينوى، وفي أثناء هذا العمل علَّم نفسه كيفية قراءة وفهم الحروف المسمارية، وفي عام ١٨٦٦ عُيِّن مساعداً في دائرة الآثار الشرقية حيث عمل على نسخ الألواح المعدّة للنشر.

وفي عام ١٨٧٢ أحرز جورج سميث اكتشافاً رائعاً فقد عرف أن أحد الألواح المكسورة من كيونيجيك والتي كان يشتغل في ترميمها كانت تحتوي على نظير آشوري لقصة الطوفان في التوراة وكانت إنكلترا ما تزال أمة مسيحية لديها اهتمام عميق بالتوراة.

وعندما أعلن هذا الاكتشاف وعرضه على جميعة الآثار التوراتية في شهر كانون الأول خلق هذا العرض ضجَّة كبرى فقد ظهرت الأصوات التي تنادي بضرورة استئناف عمليات الحفر في كيونيجيك لإيجاد الأجزاء المفقودة من لوح الطوفان وقدمت صحيفة**Dulytelegvaph** ديلي تلغراف ألف جنيه إسترليني لهذا الغرض، مع الاقتراح الذي يشترط أن يسافر جورج سميث ويقوم بالحفريات.

سافر جورج سميث في أوائل عام ١٨٧٣ وبعد معارضات قدمها الوالي هناك بدأ بالحفريات في أيار وفي خلال آسبوع وجد لوحاً عليه نص يحتوي القسم المفقود من قصة الطوفان.

وعندها عاد سميث إلى أنكلترة في شهر تموز ولكنهم أرسلوه للمرة الثانية ووصل إلى الموصل في أوائل عام ١٨٧٤ وقد وجد عدة مئات من الألواح في موقع كيونيجيك، ولكن قلة خبرته والتعامل مع البيروقراطية الشرقية أنتج مصادرة بعض هذه الألواح، وقد نشرت قصة سفرياته وعمله المملوءة بالترجمات والمناقشات حول النصوص المسمارية، في عام ١٨٧٥ تحت عنوان (الاكتشافات الآشورية) وفي

عام ١٨٧٦ رجع جورج سميث إلى الشرق مرة ثانية ولكنه مات بمرض الدوزنطاريا دون أن يستطيع القيام بأية حفريات أخرى.

ولكن وفي هذا الوقت حدث اهتمام شعبي مرموق بالكتابة بالخط المسماري في إنكلترا وأصبح الخط المسماري هو الطراز السائد في بريطانيا، وضح نجاح جورج سميث في إيجاد مزيد من الألواح في كيونيجيك سبباً معقولاً لاستمرار التحدث بهذا الشأن.

وكان الشخص الظاهر في هذا المجال هو هرمز رسام الذي أرسل في أواسط عام ١٨٧٧ وبعد التأخيرات الناتجة عن المطابقات البيروقراطية استطاع أن يبدأ حفرياته في شهر كانون الثاني ١٨٧٥ وقام بحملات مماثلة في عام ١٨٧٨-١٨٧٩ و ١٨٨٠ و ١٨٨٢ وكان نجاحه في جميع النصوص من المواقع الأثرية الآشورية قد أدى إلى جمع مجموعتين من الألواح فيها حوالي ١٦٠٠ نص من النصوص.

وقد حملت هذه النصوص اسمه في المجلد الرابع في المتحف البريطاني، وكانت إحدى لقياته المرموقة في تل يدعى (بالاوات) على بعد حوالي عشرين ميلاً من الموصل، هي بوابة آشورية مزدوجة من الخشب (التي أصبحت مهترئة) وهي مزينة بألواح من البرونز مع وجود مشاهد حربية، وهذه الألواح البرونزية قد حفظت بشكل ملاحظ وجيد ترى الآن في المتحف البريطاني.

ولكن الجزء الأعظم من مجرودات (رسام) قد كرِّست للصوامع في جنوب منطقة ما بين النهرين وليس في آشور، فقد حدث هناك انتقال هام بالاهتمام في المواقع في بابل وكانت تقدم نصوصاً تُعَدّ بالألوف، وخلال السنوات العشرين بعد إتمام رسام لعملياته في عام ١٨٨٢ لم يتم أي عمل في بلاد آشور.

الحملات الألمانية

هناك باحثون آخرون عدا عن الإنكليز والفرنسيين قد اشتغلوا في النصوص المسمارية وما تبعها من النصب التذكارية.

وهناك عمل هام نشر في عام ١٨٨٣ ساعد على انتشار وشهرة علم الدراسات الآشورية في البلدان التي تتكلم اللغة الألمانية، وذلك في المؤلف الذي نشره شرادن وهو النقوش المسمارية والعهد القديم.

وكان هذا واحداً من العوامل التي أدت إلى تأسيس الجمعية الألمانية الشرقية عام ١٨٨٩ تحت رعاية القيصر، وقد رَعَت هذه الجمعية عمليات الحفر في بابل التي استمرت ابتداءً من عام ١٨٩٨ حتى عام ١٩١٧.

وقد اشتمل نشاطها الحفريات في قلعة شير جات وهي مدينة آشور القديمة، وقد استمر العمل تحت إشراف **W.ANdrac** (أندراك) من عام ١٩١٤.

ولم يكن عمل أندراك هذا منحصراً بالبحث عن الألواح أو الآثار الأخرى، بل في عمليات توبعت باهتمام وهوس وهي مختصة بأبحاث علم الآثار مع محاولة الكشف عن مخطط المدينة وأسوارها وأبنيتها، والعلاقات المتبادلة بينها وبين غيرها من المدن في فترات مختلفة، ولقد تركزت عملية الحفر الآشورية على الفترة ابتداء من النصف الأول للألف الأول وقد رجع أندراك عند بحثه عن تاريخ علم الآثار إلى الألف الثالث قبل الميلاد، ولكن مع أن غرضه لم يكن الكشف عن الألواح إلا أنه وجد مجموعة لا بأس بها من الألواح ذات الأهمية العالية بالنسبة للتاريخ الآشوري وهي الدين والقانون.

وبعد الحرب العظمى الأولى أعطى الانتداب الإنكليزي على العراق أبعاداً جديدة بالنسبة لعلم الآثار وبتشجيع من جرترودبيل أنشأت دائرة الآثار وفي عام ١٩٢٤ تمَّ تأسيس متحف بغداد، وفي نفس السنة أعلن قانون الآثار الذي بموجبه وبموجب أفضل شروطه أن دائرة الآثار العراقية ينبغي أن تستلم كل اللقيات الثمينة المكتشفة من قبل البعثات الأجنبية ونصف اللقيات غير الثمينة.

أما السنوات الواقعة ما بين الحربين العالميتين فقد أتت النتائج المرموقة من المواقع السومرية في جنوب منطقة ما بين النهرين ومنها لقيات السير (ليونارد وللي) في آشور (١٩٢٢-١٩٣٤) ومع ذلك فقد حدثت بعض الحفريات في آشور مرة ثانية، وفي أعوام ١٩٢٦-١٩٣١ حفرت بعثة أمريكية في مواقع قرب كركوك وفتحت آفاقاً جديدة في تاريخ بلاد آشور في الألف الثاني ق.م وذلك بتصنيفها تحت اسم أفضل مدينة معروفة فيها وهي (نوزي) وقد وجدت ألوف الألواح ذات الأهمية بالنسبة لفهمنا المجتمع في الشرق الأدنى بما فيه تاريخ البطارقة والتوراتيين، ولقد حدثت حفريات أمريكية أيضاً فيما بين عامي ١٩٢٠و١٩٢٨ في موقعين على بعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الشمال الشرقي من الموصل وهو (تل ببيلا) حيث صنع لايارد بعض الحفريات وتيب جاورا، وكان كلا الموقعين هامين في كون تلك الفترات المتتالية من الاحتلال كانت ترجع إلى عهود قديمة جداً وفي حالة تيب جاورا كانت تعود إلى العصر الحجري الحديث.

ولقد قامت بعثة أمريكية تابعة لجامعة شيكاغو بالحفر في خورساباد عام ١٩٣٥ متجاهلة حقوق الفرنسيين القديمة بالحفر، وكانت الأهمية الرئيسية لنتائج أعمال تلك البعثة هي إحداث بعض التصحيحات في مخططات المدينة والأبنية التي نشرها فريق (بلاس) قبل سبعين عاماً مضت.

وفي أثناء نفس الفترة أعاد المتحف البريطاني والمؤسسات التابعة له عمليات الحفريات في كويونجيك (١٩٢٧-١٩٣٢) وكانت أهم تطورات هذه الأعمال هي محاولة فحص فترة ما قبل التاريخ في ذلك الموقع عن طريق الحفر العميق الذي أعاد تاريخ الاحتلال إلى الألف الخامس ق.م، وكان هذا العمل صعباً جداً من وجهة تقنية بحيث كان الشخص المساعد والمسؤول وهو م. ي. ل. مالون كان مجبراً أن يحفر حفرة عمقها تسعون قدماً للوصول إلى الأرض البكر وذلك للحصول على معلومات مستفيضة حول المستويات التابعة لفترة ما قبل التاريخ المختصة بالاحتلال والاستيطان في تلك المناطق، قام مالون كذلك وفي عام ١٩٣٣ بالحفر في الموقع القريب وهو (أرباشية) حيث لم يحصل أي احتلال في تلك المناطق.

وكان المظهر الدولي العريض للأبحاث الآشورية فيما بين الحربين العالميتين قد ظهر في اشتراك بعثة إيطالية بدأت موسماً من الحفريات عام ١٩٣٣ في مدينة آشورية تدعى (كاليزى) (قرأت سابقاً باسم كاكوزو إلى الجنوب الشرقي من أربيل.

ولقد منعت الظروف السياسية استمرار العمل، وكان هذا لسوء الحظ من وجهة نظر علمية، حيث إن السكان المحليين هناك وجدوا وهم يحفرون دون إذن من السلطان ألواحاً مسمارية لا تزال تعود إلى ملكية خاصة لم ينشر أي شيء عن هذه الألواح ولم يقرأها أحد.

إن الحدود الآشورية القديمة لا تنطبق بدقة مع حدود الجزء الشمالي من دولة العراق الحديثة، ونتيجة لذلك هناك مواقع في شمال شرق سورية لها علاقة بتاريخ آشور، ولقد جرت أعمال الحفر في بعض هذه المواقع مع الحصول على نتائج مهمة، وكان أشهر هذه هي حفريات تل خلف قرب منبع نهر الخابور والتي قام بحفرها (بارون ماكس فوان وابنهايم) قبل الحرب العظمى الأولى وبعد العشرينات من القرن العشرين ١٩٢٠ وقد كان أهمية هذا الموقع تعود لسببين:

أولاً: لكونه مصدراً من مصادر تأمين الوثائق المسمارية المتصلة بمركز ولاية آشورية وهو (جوزانو).

وثانياً: لكونه موقعاً يعود إلى أحد المواقع الثقافية في فترة ما قبل التاريخ لمنطقة أصبحت تدعى آشور.

ولقد فحص بالوان ابتداء من عام ١٩٣٤ تلالاً رئيسية أخرى في منطقة نهر الخابور، وهذه المناطق مهمة بالنسبة للتاريخ الآشوري إلى أن أوقفت الحرب العالمية الثانية جميع الأنشطة في مجال علم الآثار، ولقد كان آخر وجه من أوجه إعادة اكتشاف آشور قد بدأ عندما قرر (مالوان) إعادة فتح مشروع الحفريات في نمرود عام ١٩٤٩، وقد استمر العمل متقطعاً حتى عام ١٩٦٢ وقد كان مالوان المشرف على هذا العمل شخصياً أو عن طريق بعض علماء الآثار الشباب الذين يعملون تحت جناحه.

ولقد بدا أن معظم علماء الآثار البريطانية كانوا يحاولون أن يلتزموا عن وعي أو بدون وعي بالنموذج الذي اختطه لايارد ولكن مالوان كان قادراً على فك النموذج بشكل أفضل.

ولقد أحرز نجاحاً بالنسبة للقيات من الممكن مقارنته بنجاح لايارد ، ومع أن مظاهر قليلة جديدة قد فتحت بالنسبة للحياة الآشورية (ماعدا سور الحرفا) إلا أن العمق والتفاصيل قد أضيفت إلى معارفنا لآشور في عدة نقاط، ولكن نجاحاته قد بدت وكأنها حجر عثرة بالنسبة لبعض علماء الآثار المتأخرين الذين كانوا مدينين في كثير من الفرص لمجهوداته.

وهنا نجد إحدى السيدات الناقدات تكتب في عام ١٩٨١ باشمئزاز عندما تشير إلى أعمال مالوان وهي تقول:

((إن أثراً بغيضاً متخلفاً من مخلفات القرن التاسع يؤكد الناحية الموجهة نحو المادة أكثر من التأكيد على المعرفة وعن الأهداف الموجهة نحو السلوك الحسن، خصوصاً أنه وقع في الإثم عندما فكر أن المجموعة الرائعة من العاجيات المنحوتة التي اكتشفها هي كنز من الكنوز)).

ولكن بدا الهدف الوحيد لتخصيص الأموال العامة لمصلحة علم الآثار وهو أن يغني حياة أولئك الأشخاص غير المهتمين بعلم الآثار الذين يدفعون المال في آخر الأمر، ومن المؤكد أن جمال العاجيات الآشورية المنحوتة لها دورها الذي سوف تلعبه تجاه تلك الغاية على الأقل من حيث العلم بالتفاصيل الخاصة بمثل هذه القضايا مثلاً قضية ملكية الأراضي.

لقد كانت أعمال الحفريات التي قام بها مالوان في بلاد آشور آخر حفريات حدثت حسب الأسلوب القديم وهو الذي كان يسير ضمن خطوات ذات نتائج سريعة يقصد بها كسب اهتمام الرأي العام وذلك طبقاً للمثل اللاتيني الذي يقول:

Sic briviter gloria mudi

ومعناه: هكذا يمر المجد الدنيوي وبسرعة.

لقد جرت أعمال الحفريات التالية في شمال العراق ولكن على نطاق أضيق إذ قد أثرت عليها أهداف مختلفة وأسهمت عوامل كثيرة في الوصول إلى تلك النتائج، وإحداها: تنقيح قانون الآثار العراقي بعد ثورة عام ١٩٥٨ حين ألغيت حقوق البعثات الأجنبية بالحصول على نصف اللقيات المتطابقة أي: التي لها مثيل طبق الأصل، ولقد أزال هذا الإجراء أي حافز لإعطاء الأفضلية لأي نوع من المواقع الأثرية الذي من المنتظر أن يكشف عن آثار تستحق أن توضع في المتاحف.

أما العامل الآخر: فهو عامل مادي مالي، فقد ارتفعت تكاليف العمل في العراق ارتفاعاً فاحشاً منذ عام ١٩٥٨ فقد أصبحت الآن وفي عام ١٩٨٢ في مستوى الأسعار في البلدان الغربية، وهذا ما منح الأفضلية للمواقع الصغيرة التي تمتاز بأن الطبقات الاستيطانية فيها ليست مغطاة بشكل كثيف بأطلال المراحل اللاحقة بها.

وهناك عامل ثالث: وهو أن السلطات العراقية أصبحت تعتبر أن المواقع الأثرية هي من الأماكن السياحية التي تجذب السياح من جميع أنحاء العالم، ولهذا فقد ضغطت السلطات العراقية على البعثات القائمة بالحفريات أن تقبل مسؤولية ترميم الأنصاب باعتبار ذلك تكملة للحفريات، وهذا أمر مكلف مادياً لاسيما إذا احتوى الموقع بنايات كبيرة ومنحوتات، وهناك أيضاً قضية المراحل التاريخية وأي مرحلة هي بحاجة ماسة إلى شرح وتوضيح أكثر من غيرها.

ونتيجة لهذه العوامل المتراكمة انحصرت أعمال الحفريات التي تجري في آشور منذ زمن بعثات المدرسة البريطانية في نمرود، في الواقع أقدم عهداً من زمن الإمبراطورية الآشورية.

ومع ذلك فلم تهجر المواقع الإمبراطورية الآشورية نهائياً، إذ عمد فريق بولندي إلى إجراء بعض الحفريات في نمرود في محاولة لحل بعض المشكلات المتروكة منذ أيام لايارد ومالوان، هذا وإن السلطات العراقية التي انتخبت علماء آثار من وزن عالٍ جداً قد قامت بأعمال مهمة في كل من شريف خان (وهي تاربيزو القديمة الواقعة إلى شمال نينوى) وفي كيونيجيك، وقد انحصر العلم في المواقع

الأخيرة في المحافظة على النصب وترميم الأبنية، مما جعل أسوار وتحصينات وبوابات سنحاريب ماثلة للعيان مرة ثانية ليراها جميع المهتمين بهذه الأمور، وفوق ذلك فإن العالم مدين للسلطات العراقية ولعلماء الآثار العراقيين لإنقاذهم نينوى من التجار الفارين الذين كانوا قد خططوا لإقامة وبناء منازل وأبنية في ذلك الموقع.

انتهت الترجمة في ٢٠٠١/١١/٢٦ .

الفهرس



عظمة آشور

لقد قضى الباحث (هاري ساغز) أكثر من نصف حياته وهو يدرس الحضارة الآشورية، مما جعله أحد أكثر العلماء في العالم قدرة على تقديم وصف شامل ومتعمق لهذه الحضارة التي كانت أحد أهم بشائر النهضة الإنسانية..

نشأت الدولة الآشورية في شمال ما بين النهرين ثم توسعت سريعاً مشكلةً أول امبراطورية في التاريخ امتدت من مصر إلى مرتفعات طوروس وزاغروس، ومن آسيا الصغرى إلى صحراء شبه جزيرة العرب.

عند قراءتنا هذا الكتاب لا يمكن إلا أن نشاطر المؤلف حبه الجم لهذه الحضارة.

فرغم الانتقادات الكثيرة الموجهة للآشوريين بوصفهم شديدي القسوة تجاه الشعوب المغلوبة، فإن قسوتهم هذه مبالغ في وصفها بسبب الاعتماد على الادعاءات التوراتية، ويكشف واقع حضارتهم جوانب رائعة في كل المجالات سواء منها الإدارية والتنظيمية أم العلمية والثقافية..

يفيد الكتاب كافة شرائح القراء والمهتمين بتاريخ الحضارة في الشرق القديم.





هاتف: ٥٦٢٧٠٦٠ - فاكس: ٥٦٣٢٨٦٠